الفُتُوحَاتُ الإِلٰهِيَّةُ

شرح الأسماء الحسنى للذات العلية

المجلد الأول

الرَّفِيقُ الوَدُودُ

القُدُّوسُ اللَّطِيفُ

الوَكِيلُ السَّلَامُ

المَلِكُ و المَالِكُ و المَلِيكُ

لفضيلة الشيخ

محمد الدبيسى

حفظه الله وعفا عنه

تقديـــم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد.. فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

عهدي بتدريس الأسماء الحسنى، يعود إلى ما يقرب من عشرين عاماً، وتحديداً في أغسطس ١٩٩٠م؛ وكان هذا الاهتمام المبكر بإلقائها على طلبة العلم لما في التحقق بها من معرفة الرب – سبحانه وتعالى – ومحبته، والذي له أحسن الأثر في توحيده وإجلاله ومهابته والخوف منه والرجاء فيه، مع الإنابة إليه، وحسن التوكل عليه، والثقة فيما عنده، ودوام ذكره والأنس به، والشوق إلى لقائه، مع تجهيز أتم الجهاز والزاد استعداداً لهذا اللقاء.

أصحاب هذا السلوك هم خلاصة العالم..

قال ابن القيم – رحمه الله – فيهم: «وأما من جهة العلم والمعرفة، فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها، مطابق لما جاء به الرسول ﷺ، لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف. ويكون مع ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة، التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس، الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم، طريق سهل قريب موصل آمن، أكثر السالكين في غفلة عنه ....» إلى أن يقول –رحمه الله-: «فالسير على طريق الأسماء والصفات، شأنه عجب، وفتحه عجب، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه.»[1]

ومن ثَمَّ كان من مهمات الدين، إصلاحاً للنفس والقلب، والثبات على السير إلى الله تعالى، تعلم هذه العلوم العزيزة في الأسماء الحسنى، ويتلو ذلك أخذ المرء بحظه منها، حتى يتصف بما يليق به من صفات الله تعالى، من العلم والرأفة والرحمة والقوة والتوبة، والوهب والبر والإحسان، إلى آخر أسمائه تعالى وصفاته، وحينئذ يدعو ربه ويوحده بها، فيصير عبداً ربانياً فيما بينه وبين ربه، سائراً بجميل صفاته بين خلقه، رافعاً لراية الإسلام، باذلاً وقته وجهده وماله ونفسه، على المحبة لله تعالى، نصرة لدينه واتباعاً لسنة نبيه ﷺ.

إنْ ما تحقق المرء بذلك ظهرت عليه آثار التخلق بالأسماء الحسنى والصفات العليا، وهي بركات الله تعالى ورحماته وحفظه وإحسانه وجوده وبره ونصره وولايته، إلى آخر ذلك الفضل والإنعام.

تغَيَّرَ بذلك وجه الإسلام، وعادت دولته، فاتسعت رقعته، حيث حمله الأكياس الأولياء من العُبَّاد والعلماء والزهاد.

توقف الشرح لأسباب عديدة، أهمها الأسباب الصحية، ثم عاد بما يسمى الشرح الثاني، ليبدأ من جديد، **نرجو الله أن يتمه بخير.**

---

(١) ابن القيم، طريق الهجرتين، دار الكتب العلمية (٢١٥).

كان فضل الله تعالى، وعنايته في هذا الشرح، **وراء توجه المرء للقرآن الكريم**، يَدْرُس فيه الأسماء الحسنى لله تعالى، إذ هو كلام الله تعالى المبارك، فهو أجدر وأعظم من يتكلم عن أسمائه –سبحانه– ويبينها أكمل البيان، ويوضحها أتم التوضيح، لأنها طريق معرفته وتوحيده الذي أرسل لأجله رسله، وأنزل كتبه؛ فمن بعد الله ينبيك عنه؟!... ليس ثَمَّ إلا رسوله ﷺ المبلغ عنه، المصطفى في كل شيء لديه، سيد ولد آدم ولا فخر.

كان فضل الله تعالى في ذلك التوجه، أعظم من محاولات العقول، وسعي الجوارح؛ فظهر بكرمه ورعايته هذا المنهج، في دراسة الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، وما يوضحه من سنة النبي ﷺ.

فاعتمد ذلك المنهج **تتبع كل اسم من الأسماء الحسنى في القرآن الكريم، على طريقة التفسير الموضوعي**، التي أكرم الله تعالى بها العبد الفقير في رسالة الماجستير «التقوى في القرآن الكريم – دراسة في التفسير الموضوعي».

وكذلك **تتبع مشتقات كل اسم وما يتعلق به**، وهَداه الله تعالى إلى **ترتيب هذه الآيات**، بحيث تكون كل مجموعة - تحمل معنى واحداً، أو متشابهاً - تحت عنوان جزئي، يخصها؛ ومن هذه العناوين الجزئية، يتشكل العنوان الرئيسي - في النهاية - للاسم المشرف موضع البحث، ليكون صورة واضحة متكاملة عنه، ثم الشروع في تفسير هذه الآيات تفسيراً إجمالياً، يوضح كيف عالج القرآن الكريم، شرح هذا الاسم، تحت هذه العناوين المختلفة، **مع ربط الآيات بعضها ببعض، وترتيب معانيها**، لتسلم إلى العنوان التالي، ثم بعد ذلك **نفصل تحت كل عنوان شيئاً من هذه الآيات**، تبين حقيقة ما يجمعهم من المعاني، وما يرمي إليه من الحكم والعظات والعبر، لتوضح كل ذلك، وتجمعه وتبرز علاقات الآيات ببعضها، ونظم كل ذلك في سلك متتابع، يُسْلِم بعضه إلى بعض، **لينتهي إلى صور متكاملة عن الاسم المشروح حينئذ.**

كل ذلك **مع إنزال هذه الآيات على واقع المؤمنين**، وما ينبغي أن يستفيدوه منها، من إيضاح حظ القلب والجوارح من هذه الآيات، وحظ المؤمن فيما يتعلق بسلوكه مع بقية

المؤمنين، وغيرهم مع كيفية دعاء الله تعالى وتوحيده بها، ولم ينس البحث الإشارات المهمات إلى جماليات الآيات وبلاغتها وعلوها، مما يحمل المرء، على محبة القرآن الكريم، والإقبال عليه، وتدبره، وإدمان تلاوته.

ظهرت بعد بداية شرح الأسماء الحسنى هذه، دراسات وكتب تعني بشرحها والاهتمام بها، ولكنها - وذلك من التحدث بنعمة الله - أكدت - في نهاية المطاف- تخصص هذا المنهج، وتفرده، مما حمل المرء على التمسك به، وانتظار فضل الله تعالى، في زيادة توضيحه ونشره، وهو ما حدا بإخواني في مسجد الهدي - الذي تلقى فيه هذه الدروس - إلى جمعها، وبدء طبع ما يمكن من ذلك، مساعدة في إبراز هذا المنهج، وعلى قدر المستطاع من ترتيبٍ وتهذيبٍ.

لا شك أن هذا المنهج، يحتاج إلى توضيح وأمثلة، مع ذكر اعتقاد السلف فيها، وعددها، وإحصائها، وما يتعلق بها، والرد على من خالف شيئاً من ذلك، بما يشفي الغليل، وينير السبيل، ولكن البدء في إنجاز طبع الرسائل المتفرقة، التى طبعت من قبل، في مجلد واحد، يفتتح به، كان وراء الإسراع بإصدار هذا المجلد الأول، خاصة وقد آثر إخواننا أن يكون مع مناسبة أخرى وهي عقد نكاح ابنتى الغالية إكراماً لهذا الجمع المشرف.

هذا السفر الأول - بفضل الله تعالى- يحتوي على تسعة أسماء من الأسماء الحسنى، غير مرتبة على وقت شرحها، وإنما كل اسم منها، كان قد طبع في مناسبة تليق به، فضمت جميعها كما هي، فما كان من صواب فمن الله تعالى، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، مع انتظار نصح خالص لله تعالى، نصلح به خللاً أو نصحح به خطأ.

نسأل الله تعالى أن يتمها على أكمل التمام وأحسن الأحوال، وأن ينفع بها كاتبها، وطابعها، والقاريء لها، والساعي في نشرها.

والحمد لله رب العالمين.

القسم الأول

اسم الله الرفيق



مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أَمَّا بَعْدُ..

تَميزتْ أخلاقُ المؤمنين ومعاملاتهم في الفترة الأخيرة - من بداية الصَّحوة الإسلامية وإلى الآن - بشيءٍ واضحٍ من الشدة والعنف والغِلْظة والفَظَاظة فيما بينهم، كأنَّها وسيلةُ نَشْرِ الإسلام، خِلافًا لما هو مُتوقَّعٌ أو مطلوب من المودةِ والرحمة والرفق والتكافل والتواصل وسَعةِ الصدر وتحمُّل الأذى وكف الأذى، وهي الأخلاق الإسلامية الأصيلة التي أمر بها رسولُ الله ﷺ وحَقَّقها هو وأصحابُه ﷺ؛ خاصةً في التعليم والإرشاد والدعوة، أو في إنكار المنكر ونَشْرِ المعروف، أو في المعاملة مع مخالِفٍ في الرأي والاعتقاد بما لا يخرج عن اعتقاد أهل السُّنة والجماعة وهم السلف الصالحون، أو في كل معاملات المسلمين.. في صداقاتهم.. في عداواتِهم.. في مساجدهم وأعمالهم وبُيوتهم. صارت تلك الأخلاقُ الحادَّة والتصرفاتُ الخَشِنة وأكثرُ من ذلك دَأْبَهم.

كان هذا العُنف سببًا في الوقوع في الأعراض من غِيبةٍ ونَمِيمةٍ وتطاوُلٍ أدى إلى القطيعة والتدابُر والتَّشاحن، حتى وَصَل حالُ المؤمنين إلى ما لا يخفى على الناظِر أو المتأمِّل، مما كان صدًّا عن سبيل الله ورفعًا للرحمة ونزولًا للسَّخَط الإلهي.

مِن ثَمَّ رأينا أن نطبع هذه الرسالة لفضيلة الشيخ **محمد الدبيسي** - حفظه الله تعالى وعفا عنه - في هذا الاسم المشرف من الأسماء الحسنى؛ نُعِيد سِيرةَ الرِّفق، ونرفع رايَته

حتى تُرَفْرف على معاملاتِنا وأعمالنا وأخلاقنا وبُيوتنا ودَعْوتنا وعِلمنا وإرشادنا، تأسِيًّا في ذلك بالنبي ﷺ وأصحابه المكرمين ﷺ؛ ليكون الرفقُ طريقَ نزولِ الرحمة والخير على المؤمنين المتقين، ودفعًا لهذا العذاب النازل على أمة الإسلام، لِتَنْتَشرَ دعوتُه وتَعُمَّ بركتُه، وليكون المؤمنون أهلًا - بفضل الله تعالى - لِبِرِّه وإحسانه وجُوده.

وهذه الرسالة جزءٌ للمشاركةِ به في تصحيح السَّيْر إلى الله تعالى ومعاونة للمؤمنين على البِرِّ والتقوى، وهي جُهد المُقِلِّ، ننتظر من المطالِع لها النصيحةَ لسَدِّ خَلَلٍ أو تصويبِ خطأ؛ إذ ما فيها من صواب فمن الله وحدَه وما فيها من خطأ فمنَّا ومن الشيطان، واللهُ ورسولُه بريئانِ منه.

نسأل اللهَ تعالى أن ينفع به قارئَه وكاتبه وناشره والناظر فيه.

مسجد الهدي المحمدي

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى « الرفيق »

- أهمية اسم الله تعالى « الرفيق ».
- الدليل على اسم الله تعالى « الرفيق ».
- المعنى اللغوي.
- معنى « الرفيق » في حق الله تعالى.

أهمية اسم الله تعالى «الرَّفِيق»

وهذا الاسم - كباقي أسماء الله تعالى - نحن في أشد الاحتياج إليها: في توحيد الله تعالى بها، وفي دعاء الله تعالى بها، وفي أن يأخذ المرءُ حظَّه منها. حتى إذا ما تَخَلَّق المرءُ بمعاني هذه الأسماء والصفات، أوشك أن يكون ذلك سببًا لأن يكون أهلًا لمجاورة الله تعالى في جنته يوم القيامة؛ إذ لا يجاوره إلا الطيبون.

وهذا الاسم المشرف يحتاجه المؤمنون في أنفسهم، ومع أهليهم وأولادهم، ومع كل أحدٍ؛ يرجون بالتَّخَلُّقِ به رحمةَ الله تعالى، ويَتَسَلَّحون به في الدعوةِ لدين الله تعالى، مع ما يَهْدُفون إليه من حُسنِ الخُلُق الذي اتَّسم به النبيُّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفي القرب منه يوم القيامة إذ أقربهم إليه ﷺ أحسنهم أخلاقًا.

وإنَّ أحدُ أسباب الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى هو: ترك الرِّفْق.

وإنَّ من طُرق القطيعة والبغضاء والشحناء هو: العنفُ بين المؤمنين وعدمُ اللينِ وسُهولةِ الجانب وعدمُ الرِّفق. فإذا كان عدمُ الرفق سببًا لِـمَا سبق، فإنَّ الأحاديث التي قالها النبيُّ ﷺ تدل على أنَّ الرِّفقَ سببُ الخير وأنَّ «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ كُلَّهُ**»[1].

وهذه مشكلةٌ عظيمة تُبيِّن لنا ما وَصَلنا إليه من الأحوال السيئة بسبب حرمان هذا الخير من الله تعالى. وتؤكد لنا قيمة هذا الاسم المعظَّم الذي يُشعرنا بجلال هذا الموضوع، وهو الرفق، وكيف يدعو المرءُ ربَّه: أن يرزقه الرفق، وأن يرزقه بهذا الرفق

---

(١) رواه الإمام مسلم مرفوعًا من رواية جرير ﷺ [٢٥٩٢] بنحوه، وأبو داود [٤٨٠٩]. وستأتي الإشارة إلى باقي هذه الأحاديث لاحقًا إن شاء الله تعالى.

الخيرَ الذي ذكره النبي ﷺ، وأن اتباع ذلك إنما هو بالمجاهدة عليه ومكافحة النفس على القيام به؛ لِتَخْرُجَ النفسُ عن شَطَطِها وعُنْفها ورَعُونتها في المعاملة ترجو بذلك رحمة الله تعالى، وترجو نشرَ دعوة الله تعالى، وترجو الأخلاق الحسنة التي تُقَرِّبها من النبي ﷺ في الجنة.

الدليل على اسم الله تعالى «الرَّفيق»

ونذكر في ذلك كلام الإمام القرطبي رحمه الله[1]، إذ هو الذي ذكر «الرفيق» في الأسماء الحسنى من المتقدمين[2].

يقول رحمه الله: «ومنها» أي من أسماء الله الحسنى «الرَّفِيقُ جل جلاله وتَقدَّسَتْ أسماؤُه». وهذا الاسمُ «لم يَرِدْ في القرآن اسمًا ولا فعلًا، ولا ورد في عِداد الأسماء» التي جاءت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه الترمذي وسَرَد فيه تسعةً وتسعين اسمًا من

(١) الإمام القرطبي صاحب التفسير، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإمام العلَّامة أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي القرطبي، إمامٌ مُتَفَنِّن مُتبَحِّر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطِّلاعه ووُفُور فضله، وقد سارت بتفسيره الرُّكبان وهو تفسيرٌ عظيم في بابه، وله كتاب «الأسنى في أسماء الله الحسنى»، وكتاب «التذكرة»، وأشياء تدل على إمامته وكثرة اطلاعه. مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى بمصر سنة إحدى وسبعين وستمائة. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي و«طبقات المفسرين» للسيوطي.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى» للإمام القرطبي، [ج/ ٥٥٦] طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا - الطبعة الأولى - سنة ١٤١٢هـ، ١٩٩٥م. وقد جعلنا كلام الإمام القرطبي بين تنصيص هكذا «...».

أسماء الله الحسنى، وهذا الحديث ضعيف الإسناد[1]. «ولكن ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عائشة» رضوان الله تعالى عليها «زوجِ النبي ﷺ[2]، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

(١) رواه الترمذي [٣٥٠٧]، وأشار الحافظ في التلخيص الحبِّير إلى روايات أخرى للحديث فيها سردُ الأسماء بزيادةٍ أو نقصان ثم قال: [قال القاضي ابن العربي: «لا نعلم هل تفسير هذه الأسماء في الحديث أو من قول الراوي». قلتُ: والدليل على ذلك اختلافها. وقال محمد بن حزم: «جاء في أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء».] ا. هـ. من التلخيص الحبير، [ج٤/ ٣٣٨]. مؤسسة قرطبة - الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٦م. وانظر أيضًا: تحقيق الحافظ في الفتح في شرح حديث رقم [٦٤١٠]. وقال الحافظ ابن كثير: «والذي عوَّل عليه جماعة من الحفاظ أنَّ سرد الأسماء في هذا الحديث مُدْرَج» عمدة التفسير، [ج٢/ ٦٩]. دار الوفاء - الطبعة الثالثة، سنة ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م. والحديث برغم ذلك أخرجه ابن حبان [ح: ٨٠٨] في صحيحه وحسَّنه الإمام النووي في الأذكار [ص١٠٠] طبعة دار الفكر، ولكن المعتمد لدينا ما قدَّمناه. أما الحديث بدون ذِكر الأسماء فرواه البخاري مرفوعًا [٦٤١٠] بلفظ: «**لله تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ**». وبقريب منه أخرجه مسلم [٢٦٧٧].

(٢) السيدة عائشةُ، بنتُ الإمامِ الصديق الأكبر خليفةِ رسول الله ﷺ أبي بكر عبدِ الله بن أبي قُحافة، التَّيْمِيَّةُ، أمُّ المؤمنين، زوجةُ رسول الله ﷺ، أَفْقَهُ نساء الأمة على الإطلاق، وأفضلُ نسائه جميعًا عدا خديجة رضي الله عنها. تَزَوَّجها النبيُّ ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وقيل بعامين، ودخل بها في شوال سنة اثنتين، فرَوَتْ عنه علمًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: «**أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: عَائِشَةُ**»؛ متفق عليه: البخاري [٣٦٦٢]، ومسلم [٢٣٨٤]. وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَامِ**»؛ البخاري [٣٧٧٠]، ومسلم [٢٤٤٦]. وعن عائشة رضي الله عنها: «لَقَدْ أُعْطِيتُ تِسْعًا مَا أُعْطِيَتْهَا امْرَأَةٌ بَعْدَ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ: لَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيلُ بِصُورَتِي فِي رَاحَتِهِ حَتَّى أَمَرَ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي، وَلَقَدْ تَزَوَّجَنِي بِكْرًا، وَمَا تَزَوَّجَ بِكْرًا غَيْرِي، وَلَقَدْ قُبِضَ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِي، وَلَقَدْ

يَا عَائِشَةُ: إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[1]. فهذا الحديث يَدلُّنا على أن هذا الاسم قد ورد في سُنة النبي ﷺ، وسنعود لشرحه بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

المعنى اللُّغويّ

وللرفق عدةُ مَعانٍ، منها [2]:

الأول: قال الجوهريُّ صاحب كتاب «الصِّحاح في اللغة»: «الرِّفْقُ ضِدُّ العُنْفِ» والفعل منه: «رَفَقَ يَرْفُقُ. وحكى أبو زيدٍ: رَفِقْتُ بِهِ، وأَرْفَقْتُهُ، بمعنًى» أي أن رَفَقَ بمعنى أَرْفَقَ، فلو قلنا: أَرْفَقَ بفلان، فمعناه: رَفَقَ بفلان، «وكذلك: تَرَفَّقْتُ بِهِ» بمعنى رَفَقَ وأَرْفَقَ.

الثاني: «ويقال أيضًا: أَرفَقْتُ، يعني: نَفَعْتُ، يعني: أَوْصَلْتُ له النَّفْعَ. و«الرَّفِيقُ»: المُرَافِقُ في السفر»؛ ولذلك فـ«الرفيق» «يُطلق على غير الله ﷻ» يعني: هذا الاسم من

قَبَرْتُهُ فِي بَيْتِي، وَلَقَدْ حَفَّتِ المَلَائِكَةُ بِبَيْتِي، وَإِنْ كَانَ الْوَحْيُ لَيَنْزِلُ عَلَيْهِ وَإِنِّي لَمَعَهُ فِي لِحَافِهِ، وَإِنِّي لَابْنَةُ خَلِيفَتِهِ وَصِدِّيقِهِ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، وَلَقَدْ خُلِقْتُ طَيِّبَةً عِنْدَ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا». رواه أبو بكر الآجري. قال الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء: «إسناده جيد». تُوفيت ﵄ سنة ٥٧هـ على الصحيح، وقيل سنة ٥٨ هـ، ودُفنت في البقيع. انظر: سير أعلام النبلاء، وتهذيب التهذيب.

(١) أخرجه بنحوه الإمام مسلم [٢٥٩٣]، وأبو داود [٤٨٠٧]، وابن ماجه [٣٦٨٨]، ورواه الإمام البخاري [٦٩٢٧] بلفظ: «**يَا عَائِشَةُ: إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**».

(٢) انظر – بتصرف: «الأسنى» للإمام القرطبي / ، [ج١/ ٥٥٦].

الأسماء التي يجوز أن تُطلق على غير الله جل وعلا[1]، وجمعه: رُفَقَاء. «وقد يكـون الرفيـق أيضًا واحِدًا وجَمْعًا» أي بمعنى الجمع، كـ«صديق» تُطلق على الواحد وتطلق على الجمـع، فقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] تُطلق على الجمع كما تطلق على المفرد.

الثالث: وأَصْلُ الرِّفق الاحتيالُ. يعني: المُحاولة لإصلاح الأمور وإتمامها.

ولله تعالى من ذلك كله ما يليق بجلاله.

معنى «الرفيق» في حق الله تعالى

وله كذلك معانٍ عدة عندما نُطلقه في حق الله تعالى، نشير إليها فيما يلي[2]:

المعنى الأول: اللِّين والسهولة

فـ«الرفيق» عندما نُطْلِقه في حق الله تعالى نَعني بـه أنـه تعـالى كثير الرفـق، وهـو اللِّين والسهولة. وضده: العُنْف، وهو التشديد والتصعيب، وذلك مُنَزَّه عنه ﷻ.

المعنى الثاني: الإرفاق وهو الإعطاء

يجيء الرفقُ بمعنـى: الإرفـاق، وهـو الإعطـاء، فـ«أَرْفَقَـهُ» أي: نفعـه وأعطـاه. وكـلا المعنيين صحيحٌ في حق الله تعـالى: أي الرفـق الـذي هـو ضـد العنـف، والرفـق الـذي هـو الإعطاء والنفع. إذْ هو المُيَسِّر ﷻ والمُسَهِّل لأسباب الخير كلها من ناحية، وهو المُعطِي لها جـلَّ وعـلا مـن ناحيـة أخـرى. فكـلا الأمـرين في حـق الله تعـالى صـحيح، وهـو التيسـير

(١) بخلاف بعض الأسماء كـ«القدوس»، مَنَعَ بعض العلماء أن يطلق على غير الله تعالى.

(٢) انظر – بتصرف كثير: «الأسنى» للإمام القرطبي ؒ، [ج١/ ٥٥٦].

والتسهيل لأسباب الخير كلها، وفي نفس الوقت هو الذي يعطي هذه الأسباب للمرء، فيعطي له الخير ويعطي له أسبابه ويُيَسر له ﷻ تلك الأسباب ويسهِّلها عليه.

(فائـــــدة)

هذا المعنى السابق من أَجَلِّ المعاني وأهمها؛ لأن المرء في هذه الحياة الدنيا - وهو الواقع - كثيرًا ما تَصْعُب عليه أحوالُ الحياة وأحوالُ العبادة، ويشق عليه الطريقُ إلى الله تعالى والمعاملةُ مع الناس، والرزقُ والسعيُ، والطاعةُ وتسهيلها والاستمرار والثبات عليها، وقد تغلق في وجهه أسبابُ الطاعات وأبوابها، فلا يستطيع أن يُصَلِّي ولا أن يَذْكر الله تعالى، ولا أن يقوم... إلخ، وتراه حزينًا على نفسه وأحواله. إن الذي يُيَسر ذلك كله ويُسهل ذلك كله هو المولى جل وعلا، والذي يعطيه ذلك ويرفُق به فيه ويوصِّله له بل ويَدْفَع المرء إلى ذلك هو اللهُ جل وعلا. وذلك يجعل المرءَ يركن إلى الله تعالى. فالمشكلة التي نحياها اليوم: أن يتعلم المرءُ هذه الأسماء الحسنى وهذه الصفات العليا ثم لا يَرْكَنُ إلى ربه! ولا يدعوه بها، ولا يتحقق بمعانيها، ولا يحاول أن يلجأ إلى الله تعالى من بابها؛ لتظهر عليه آثارُها، آثارُ اللين والرفق والإعطاء من الله تعالى والتسهيل. فإذا لم يُعَرِّضِ المرءُ نفسَه لهذه البركات فلا بد أن تحدث له هذه الأحوال التي ذكرنا: من التصعيب والتشديد وإغلاق الأبواب، وتظهر عليه هذه الآفات والمصائب. فإذا صعبت عليك الأمور، وضاقت عليك الأحوال وشُدد عليك في دنياك وعبادتك وأخراك، ووجدتَ نفسك قد ضاق صدرُك بما تراه.. وَحِّد ربَّك بـ«الرفيق»، وادعوه به؛ لأن المسهِّل لذلك والميسِّر له والمعطي أسبابه هو اللهُ ﷻ. وحينئذ ينشرح صدرك بالله تعالى، ويذهب عنك هذا الصعب والضيق وهذا الألم الذي تحسه.

وهذه المسألة ينبغي أن يحفظها المرء واثقًا من حصولها بفضله ﷻ وهي أنه: إذا ضاق عليك طلب العلمُ، وضاق عليك العملُ به، وضاق عليك الذِّكْر، وصعب عليك القيام، واستثقلت ذلك كله ومَلَلْتَ منه، وتعسرت أمورُ دنياك، وأُغْلِقت الأبوابُ في وجهك..

فهي مِنْحَةٌ في صورة المِحْنة.. فالله تعالى يريدكَ أن توحِّده بأنه «الرفيق»..

يريدكَ أن تَدْعُوَه بأنه «الرفيق». لترى رحمته ﷻ: يريد أن يَظْهر عليك آثارُ رِفقه، فلماذا تبتعد أنتَ عن الأسباب؟! ولماذا تُغلق في وجهك الأبواب؟! أنتَ الذي تغلق على نفسك وفي وجهك هذه الأبواب من أسباب الرفق ومن أسباب الإعطاء والخير التي يعطيها المولى ﷻ لعباده ويحب أن تظهر آثارها عليهم!!

فاللهُ ﷻ يحب أن تَظْهَرَ على العبد هذه الآثارُ من أسمائه وصفاته، فهو ﷻ «الغفور» يحب أن تظهر آثار مغفرته على العبد، كما قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[(١)].

وهو ﷻ «الرحمن، الرحيم، الرزاق، اللطيف، التواب...»[(٢)]، يحب أن تظهر آثار ذلك كله على عباده. ومن هذه الآثار التي يحب أن تظهر بين الناس وبين المؤمنين بالذات هو الرِّفق.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه من رواية أبي هريرة ﷺ عنه عن النبي ﷺ [٢٧٤٩].

(٢) وهذه الأسماء كلها بالإضافة إلى اسمه تعالى المشرف «الغفور» قد شرحها المؤلف في محاضرات صوتية متوفرة على موقع طريق الإسلام وغيره من مواقع (الإنترنت). وجلُّ هذه الأسماء – إن لم يكن كلها – من مهمات الأسماء، فارجع إليها.

فإذا صعبت عليك الأحوالُ فاذهبْ إلى ربك ﷻ؛ ليهديَك طريقَه عالما أن إذا لم يُسَهِّلْها لك لا يسهلُها أحدٌ[1]، وإذا أغلقها في وجهك لن يفتحها لك أحدٌ، وإذا ضاقت عليك فلن يفرجها أحدٌ.. إلا هو ﷻ.

سيَضِيقُ عليك الأمرُ حتى تظن أن لا ملجأ منه إلا إليه ﷻ، حينئذ تنفرج هذه الأمور، وتنفك هذه الأحوال، وتلين هذه الشدائد، وإذا بالله تعالى يُفرِّج ذلك كلَّه في أعمال الدنيا والآخرة التي نعاني منها جميعًا إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ تعالى.

وينبغي أن يحفظها المرء هكذا: إذا ضاقت عليك فاعلمْ أنه لا يوجد تيسيرٌ إلا تيسيره ﷻ..

فلا تَلْتَفِتْ يمينًا أو شمالًا إلى غيره لِيَفُكَّ عنك! اذهب إليه؛ لأنه هو الذي يدفعك إليه بهذه القوارع. فكلُّ الشدائد التي تنزل بك في أمور الدنيا والآخرة تَدُلُّكَ على الله تعالى دليلًا، وتهديك إليه ﷻ سبيلًا. نزلت عليك الشدة في العبادة.. في المال.. في الولد.. في الطاعة.. في الأهل.. في النفس.. في القلب.. في المرض... في غير ذلك، فاعلم أنَّ ما يسوقه إليك المولى ﷻ بسوقه، ليأخذ بيدك وقلبك إليه ﷻ.[2]

---

(١) وقد كان من هديه المشرف ﷺ أن يقول هذا الذكر المبارك إذا صَعُبت عليه الأمور، عن أنس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لَا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا وَأَنْتَ تَجْعَلُ الْحَزْنَ سَهْلًا إِذَا شِئْتَ». رواه ابن حبان في صحيحه: الإحسان، [ح: ٩٧٩/ ص٣٦٦]. طبعة دار المعرفة. وصححه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية، [ج٤/ ٢٤، ٢٥].

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

فلا تُقَصِّر حينئذٍ إذا جاءك شيءٌ من ذلك بأن يكون سبيلَك إلى الله، وأن يكون طريقًا لك إلى معرفةِ الله ﷻ وتوحيده جل وعلا باسمه «الرفيق»، وأن تتعلم من هذا الباب ما ينفعك في الإقبال على الله، هاتفًا:

مَا مَسَّنِي قَدَرٌ بِكُرْهٍ، أَوْ رِضًا
إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إليكَ طَرِيقًا
أَمْضِ القَضَاءَ عَلَى الرِّضا مِنِّي بِهِ
إِنِّي وَجَدْتُكَ في البَلاءِ رَفِيقًا[1]

* * *

ونتنقل إلى هدفٍ جليل من أهداف الرفق..

وهو أن أعظمَ هذه الأمور التي ييسرها ﷻ تيسيرُ القرآن للحِفْظ، وتسهيله لعباده المُقْبِلين المُحِبِّين. وهي من مهمات الدين التي ذَكَرها الله تعالى في كتابه في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ولولا تيسيره وتسهيله ﷻ لهذا الأمر ما قَدَر على حفظه أحدٌ.

المعنى الثالث: التمهل والتأني في الأمور

إن التمهل والتأني من معاني رفقه ﷻ التي يجب أن يعلمها المرءُ عن ربه، فيستعمل الرفق بهذا المعنى في أموره وأحواله كلها فيفلح لا يندم ولا يتحسر.

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، للإمام ابن القيم - الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته.

و«الرفيق» في حق الله تعالى بهذا الشرح قريب من معنى «الحليم» ﷻ، ولكن له معنًى زائدًا: فـ«الرفيق» فيه شيء من الرحمة، أما الحِلْم فمُتَعَلِّق بعدم تعجيل العقوبة فقط؛ فإنه لا يَعْجَل بعقوبة العصاة لِيتوبَ مَنْ سَبَقَتْ له العنايةُ فيَرْفُق بهم ﷻ، ويؤخِّر عنهم العقوبةَ لِمَنْ كانت له توبةٌ وسَبَقَتْ له أسبابُ السعادة أن يتوب ويرجِع إلى الله تعالى، ولِيزداد مَن سبقت له الشقاوةُ إثمًا والعياذ بالله تعالى[1].

لكنَّ هذا كله لا يمنع الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، فليس معنى هذا الكلام السابق أن يُضيِّع معه المرءُ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر كما سنذكر، وإنما انظر إلى هذه المعاني أولًا فتعلَّمْها، ثم بعد ذلك تَدَبَّرْ فيما وراء ذلك من أمور الشرع الشريف مما يلزمك فلا تُقصِّرْ فيه.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله[2]: «وقال الخطَّابي: قوله[3] "إنَّ اللهَ رفيقٌ" معناه: ليس بعَجُول» لا يتعجل الأمرَ كما هي حال البشر - حال المؤمنين اليوم وغيرهم -. كلما حدث لأحدهم سُوء تَفاهُمٍ مع أخيه المسلم سارَعَ بالغضب لنفسه؛ حتى إذا كَلَّمه أخوه المسلم مستعمِلًا الذَّوْق والأدب معه، حَمَل كلامَه على سوء الظن وأساء إليه وشتمه.. ثم تعلو أصواتُهما، ثم تأتي بعد ذلك القطيعةُ مع البغضاء والشحناء بسبب عدم أخذ الأمور بالتأني والتريث والرفق، والتأكد مما يقال مع التبصر في عاقبة الأمور.

---

(١) وقد شُرح هذا الاسم المشرف «الحليم» من قبل، وهو متوفر في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من المواقع على الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت). فارجع إليه لمعرفة المزيد من المعاني المتعلقة بهذا الاسم المشرف.

(٢) انظر: الأسنى، للإمام القرطبي / [١/ ٥٥٧].

(٣) يعني قول النبي ﷺ في حديث السيدة عائشة رضى الله عنها.

ونرجع إلى قول الخطَّابي[1] من أوله حيث يقول: «إن الله رفيق، معناه: ليس بعجول، وإنما يعجل مَنْ يخاف الفوت» يعني: لماذا يتعجل المرءُ في أمره؟ لأنه خائف أن يفوت ويضيع عليه، والله تعالى لا يضيع له شيء؛ إذ مَنْ كانت الأشياء في قبضته ومُلْكه فليس يَعْجَل فيها، فكل شيء في قبضته ﷻ، لا يفوته ولا يخرج عن مُلْكه[2].

وبناء على ما سبق يكون قوله ﷺ: «**يُحبُّ الرفق**»، يعني: يُحب تَرْكَ العَجَلة في الأعمال والأمور» فليس كلُّ أمرٍ لا بد أن تأخذ فيه قرارًا فوريًا.. فاللهُ ﷻ يحب الترفقَ في الأمر كلِّه. فتَرَفَّقْ، وخُذْ حِذرك، وتأنَّ في أمورك ولا تَعْجَلْ، وتَرَيَّثْ، واسألْ واستَوْثِقْ وتأكَّدْ. وليس من ذلك التمهلُ الذي يُضيِّع عليك أمورَ الخير وغيرَها، لا.. وإنما ذلك يكون في الأمور التي لا يكون عاقبةُ الترفق فيها الأسف والندم. وقد رأينا مصداق ذلك الرفق في خُلقه ﷺ، وسنذكر الأحاديث التي تشرح هذه المعاني وتُجلِّيها.

وكما أشرنا فإننا كلنا – إلا من رحم الله تعالى – على عكس حاله المشرَّف ﷺ؛ فما أن يحدث شيء ما بين أحد منا وبين أخيه المسلم اليوم إلا بادر إلى البغضاء والقطيعة والغِيبة

---

(١) الخَطَّابِيُّ أَبُو سُلَيْمَانَ حَمْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ بنِ خَطَّابٍ البُسْتِيُّ، الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، الحَافِظُ، اللُّغَوِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ. وُلِدَ: سَنَةَ بِضْعَ عَشْرَةَ وَثَلاَثِ مائَةٍ، وَأَخَذَ الفِقْهَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ عَنْ: أَبِي بَكْرٍ القَفَّالِ الشَّاشِيِّ، وَأَبِي عَلِيٍّ ابنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَنُظَرَائِهِمَا. حَدَّثَ عَنْهُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَاكِمُ – وَهُوَ مِنْ أَقْرَانِهِ فِي السِّنِّ وَالسَّنَد – وَالإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الإِسْفَرَايِيْنِيّ. وَلَهُ «شَرْحُ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى»، وشرح «سنن أبي داود»، وَكِتَابُ «الغُنْيَة عَنِ الكَلاَمِ وَأَهلِه»، وَغَيْر ذَلِكَ. تُوُفِّيَ الخَطَّابِي بِبُسْتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ. انظر – بتصرف كثير: السير [١٧/ ٢٤] وما بعدها – طبعة الرسالة.

(٢) وانظر للفائدة: «معاقد ملك الله تعالى» و«مظاهر ملك الله تعالى» في شرح أسماء الله تعالى «الملك والمالك والمليك» للمؤلف، الفصل الثاني والثالث على الترتيب.

من غير أن يسأله ويَتثبَّت من وقوع ذلك منه كأنه ينتظر خطأه، فلا رفق أو تمهل حتى يعلم عذره. وهَبْ أنه ليس له عذرٌ! فالرفق والمودة وسلامة الصدر والقلب واللسان أولى من البغضاء والشحناء وسوء الظن.

فنتعلم هذا الرفق في الأمور وترك العجلة والتأني.

وينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقًا في أموره وجميع أحواله، غيرَ عَجِلٍ فيها؛ فإن «**الْعَجَلَة مِنَ الشَّيْطَانِ**»[1]، ولا تفارقه الخيبة والخسران على ما تَعَجَّل فيه. وقد قال رسول الله ﷺ لأشجِّ عبدِ القيس ﷺ، وهو أحد الصحابة المُبَجَّلين: «**إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»[2].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده [٧/ ٢٤٨]، مرفوعًا إلى النبي ﷺ. وتمامه: «التَّأَنِّي مِنَ اللهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ». قال الإمام ابنُ القيم في أعلام الموقعين: «إسناده جيد».

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه [١٨].



الفصل الثاني

الـرِّفْـق

- الأحاديث الواردة في «الرفق».
- الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- حظ العبد من اسم الله تعالى «الرفيق».

الأحاديث الواردة في الرِّفق:

١) «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ»[١]. وهذا الحديث رواه مسلم. وفي راوية الترمذي: «مَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ»[٢].

٢) **«إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ»**[٣].

٣) **«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»**[٤].

٤) **«إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»**[٥].

وهذه الأحاديث كل معانيها جليلة، ولكن نشير أولًا إلى حديثٍ منها، وفيه قصة نذكرها ثم نعود بعد ذلك إلى بقية الأحاديث.

وهذا الحديث هو: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**». والإمام البخاري بَوَّبَ في صحيحه [باب: الرِّفْقِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ][٦]. وورد تحت هذا الباب حديثان.

---

(١) سبق تخريجه في «الدليل على اسم الله تعالى: الرفيق».

(٢) رواه الترمذي من رواية عائشة وجرير وأبي هريرة ﷺ [٢٠١٣] وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) سبق تخريجه، انظر: هامش رقم (٦).

(٤) متفق عليه من رواية السيدة عائشة رضى الله عنها مرفوعًا إلى النبي ﷺ: البخاري [٦٠٢٤]، ومسلم [٢١٦٥].

(٥) رواه الإمام مسلم في صحيحه من رواية السيدة عائشة مرفوعًا، كتاب: البر والصلة والأدب [٢٥٤٩].

(٦) وهو الباب الخامس والثلاثون من كتاب الأدب - الكتاب الثامن والسبعين، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. أو فتح الباري [جـ١٠/ ٥٠٦]، طبعة دار الحديث - سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

الحديث الأول هو حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ تقول:

[دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: «السَّامُ عَلَيْكُمْ». ففَهِمْتُها، فَقُلْتُ: «وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَهْلًا يا عَائِشَةُ.. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**». فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟!». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»][1].

و«السَّامُ» معناه: الموت. وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكَ. فَقُلْ: وَعَلَيْكَ**»[2]. وفي رواية: «**فَقُلْ: عَلَيْكَ**»[3]، فهذا سلامهم.

وقولها رضي الله عنها «فَفَهِمْتُهَا» يعني: فَهِمتْ بِفِطْنَتها أنهم يقصدون: الموتُ عليكم.

ولما فَطِنَتْ إلى الكلمة وأنهم لا يُسَلِّمُون بل يدعون بالموت كما قال النبي ﷺ، قالت: «وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ». فَقَالَ لها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَهْلًا يا عَائِشَةُ.. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**». فقالت - وكأنها ظنَّت أن النبي ﷺ لم يسمع ما قالوا -: «أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟». فقَالَ لها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**».

وهناك رواية أخرى للحديث ذكرها الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في «فتح الباري»..

---

(١) رواه الإمام البخاري [٦٠٢٤].

(٢) رواه الإمام البخاري [٦٢٥٧] من رواية ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام مسلم [٢١٦٤] من رواية ابن عمر رضي الله عنه.

وهـي أن رسـول الله ﷺ قـال لهـا: «**فَيُسْتَجَابُ لِي مِنْهُمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُـمْ فِيَّ**»[1] .. يعني: إن الله يجيب دعوتنا عليهم ولا يجيب دعوتهم علينا. وهذا دليل على أن الداعي إذا دعا بشيءٍ ظُلمًا فإنَّ الله لا يَستجيب له، ولا يجد دعاؤه محلًّا في المدعو عليه[2]؛ هذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني وهو المهم، ألا وهو الرفق كما ذكر النبي ﷺ، فقد قال النبي ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ**»؛ اليهود يقولون: «السام عليكم» وهو يقول ﷺ: «**مَهْلًا.. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**». يعني حتى لو كان القائلُ لك ذلك يهوديًا – وقد كان بينهم وبين النبي ﷺ عَهْدٌ يومئذٍ – فإنه صلوات الله وسلامه عليه يقول لها: «**مَهْلًا.. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**». لا يردُّ عليهم هذا الرد، وإنما بكل ما أوتي من رِفقٍ ﷺ يقول لها: «**قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**». فيُبين لها أنه لا ينبغي أن يعجل المرءُ ولا يترك التأني أو يستخدم العنف عندما يَردُّ[3]، حتى ولو كان هذا الشخص الآخر على هذا النحو من سوء الخُلق ومن العمل والقول المسيء؛ كل ذلك يرجو به المرءُ أن يتألف مَنْ أمامه، كما قال الحافظ في شرح الحديث: أنه ﷺ قال ذلك على سبيل المصلحة في تألفهم وفي نفس الوقت قد رَدَّ عليهم ما يستحقون به، ولكن في غير شَطَطٍ.. وفي غير ما يكون سببًا للمؤاخذة عند الله تعالى ولا عند الناس.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري [٦٠٣٠] عن عائشة رضى الله عنها مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(٢) انظر: الفتح، شرح الحديث رقم [٦٢٥٧]، أو [ج١١/ ص٥٢] طبعة دار الحديث. وقد نقله الحافظ عن الخطابي مُلَخَّصًا.

(٣) وفي رواية أخرى للحديث أنه ﷺ قال لها: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ: عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ». أخرجه البخاري في صحيحه [٦٠٣٠].

ووقفة أخرى مع الرفق تُظهر قيمته وأثره يُبينها حديثُ النبي ﷺ الذي ذكره كذلك البخاري في نفس الباب، وله روايات أخرى صحيحة في صحيح مسلم وغيره نذكرها كذلك؛ يقول الراوي[1]: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ» أي: وَثبُوا إليه «فَقَالُوا: مَهْ مَهْ» زَجَروه.. قاموا إليه.. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ**»، ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا»!

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا**»[2].

انظر إلى هذا الرفق كما يشرح العلماء معنى الحديث: «**لَا تُزْرِمُوهُ**»: «تُزْرِمُوهُ» من الإِزْرَام، يقال: «زَرَمَ البولُ» إذا انقطع، و«أَزْرَمْتُهُ» يعني إذا قَطَعْتُه. وكذلك يقال في الدمع.

فـ«**لَا تُزْرِمُوهُ**» يعني: دعوه، ولا تقطعوا عليه بَوْلَه.. إنه يبول في مسجد النبي ﷺ!! ومع ذلك قال ﷺ: «**لَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ بَوْلَهُ**». ولم يكن منه ﷺ إلا أن دعا بدلو من ماء فصُبَّ عليها، فكان أن حلَّ - عليه الصلاة والسلام - المشكلة ببساطة[3] وبغير فظاظة ولا إغلاظ ولا سخرية ولا غيره بل بالرفق.

وهذا فيه كما يقول أهلُ العلم: إرشادُ الجاهل وتعليمه مع الرفق به إذا لم يظهر منه العِناد. فإذا رأيتَ مثلًا أحدًا من إخوانك يفعل أو يأتي بقول أو بتصرف من التصرفات

---

(١) هذا الحديث رواه كُلٌّ من أبي هريرة وأنس بن مالك ﷺ كما هو في البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) انظر روايات هذا الحديث في البخاري [٦٠٢٥]، ومسلم [٢٨٥].

(٣) «بَسَطَ» الشيءَ: نشره وجعله بسيطًا لا تعقيد فيه. انظر الوسيط، مادة [ب س ط]. وقال الفيروز آبادي: «واستعار قومٌ (البسيط) لكل شيء لا يتصور فيه تعقيد أو تأليف أو نظم». اهـ. من تاج العروس، مادة [ب س ط]. ومقصدنا بقولنا: «ببساطة» أي: بدون تعقيد.

السيئة التي علمتَ أنه ينبغي إرشـاده وتعليمـه فيهـا، فلزمـك استعمالُ الرفـق معـه حتـى تصل إلى ما تصبو إليه من هدايته وأَخْذِه إلى الله تعالى، وتقريبـه إلى سـنة النبـي ﷺ. تأمـلْ كيف فتح الرفقُ قلبَ الأعرابي وأثَّر فيه، حتى قـال لمـا رأى ذلـك مـن النبـي ﷺ: «اللَّهُـمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا»! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا»** يعني من رحمة الله تعالى. كأنه يقول: ارحم من رفق بي فقط محبةً لفعله وتقديرًا له.

فانظر كيف كان فِعْلُ النبي ﷺ وقوله معه! وتأمل ما يُدخل الرفـقُ في قلـوب النـاس من المحبة للرفيق التي بهـا يـستجيب الخلـقُ إلى الله تبـارك وتعـالى، ويبتعـد بهـا الـشيطان، ويحتفظ بها المرءُ بمودته بينه وبين إخوانه، ثم يجعل للمسيء طريقًا للرجوع.

وعلى عكس ذلك: فلو قلتَ له قولًا غليظًا لأغلقتَ عليه طريق الرجـوع عـن فِعلته ولعاند واستمر في غيه، وعندئذٍ يصعب عليك أن تكلمه مرة أخرى، ولا أن تسلم عليـه. فهذه مشاكل وطرق الشيطان التي يسلكها من لم يستفد من اسمه «الرفيق» ﷻ.

لذلك قال النبي ﷺ في الحديث التالي: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ». فإذا كنتَ تظن أن الشدة مطلوبة ومستحبة في دين الله تعالى مـثلًا، وأن مثل هذا الشخص لا يصلح إلا بذلك، فإنه إذا لم يكن موضعها ذلـك الموضـع فهـذه ليست من الدين في شيء لأنها ليست رفقًا، بـل هـي عنفٌ. لـذلك يقـول: **«وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»**.

وقد يتطرق إلى عقل المرء أنه ليس بعُنْفٍ ولا شيء، إنما يقول: «أنا أتكلـم معـه فقـط، ولا يكون كلامي على هذا هو العنف المقصود».

لذلك نستكمل كلام النبي ﷺ، حيث قال:

«إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ويُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»..

فليس المقصود ترك العنف فقط، بل وترك كل ما سوى اللين لأنه ﷻ يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ولا على ما سواه[1].

وهذه الرواية الأخيرة رواية الإمام مسلم. فأنت إذا كنتَ تريد - أيها المسكين - بعُنْفِك أو بفَظَاظَتِك أو بشدَّتك أو بتَصْعِيدك للأمور أو بإغْلاظِك وزَجْرِك أن تُحصِّل ثوابَ الله تعالى فاعْلَمْ أنك لا تُحصِّل ثوابًا بذلك، بل على العكس: فإن الله تعالى يُثيب على الرفق - يعني يعطي الثواب الجزيل على الرفق - ولا يُعطيه على العنف ولا يعطيه على ما سواه.. يعني كأنه يريد منك ما هو أكثر من مجرد ترك العنف.. يريدك أن تترك العنف وأن تكون لَيِّنًا[2]، لأنك ترجو بذلك ثواب الله تعالى، لذلك يقول: **«وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ»** يعني: يُثيب.

ولها معنى آخر ذكره القاضي عياض فيما نقله عنه الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم في معنى قوله ﷺ: **«وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ»**: «معناه: يتأتى به من الأغراض ويَسْهُل من

---

(١) وفي رواية في الموطأ وغيره: **«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيَرْضَى بِهِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ»**. انظر: حديث رقم [١٨٠١] طبعة المكنز. وسيأتي بكماله قريبًا إن شاء الله تعالى.

(٢) وقال ﷻ ممتنا على نبيه ﷺ: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾** [آل عمران: ١٥٩].

المطالب ما لا يتأتى بغيره»[1]. وهذا المعنى الثاني اختاره الحافظ ابن حجر على المعنى الأول وهو الثواب.

فالحديث إذًا فيه معنيانِ في قوله: «**وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ**». **الأول**: يعني الثواب الجزيل على الرفق. **والثاني**: أنه يأتي من وراء الرفق من الأغراض والمطالب التي تُرِيدها ما لا يأتي بغير الرفق وما لا يأتي بالعنف. فإن قلتَ: إذن أتركُ العنفَ؟ نقول لك: ليس العنف فقط، بل وتترك ما سوى الرفق. ففي الحديث «**وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**» كأنه يقول: دع كل ما لا يُسمَّى رفقًا - يدخل فيه العنف وغير العنف - لأنه لا يُثيب عليه ﷻ، وفي نفس الوقت لا يأتي به من الأغراض ويَسْهُل به من المطالب كما يسهل بالرفق.

والحديث التالي: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»[2]. وهذا الحديث كذلك في صحيح مسلم.

وهذا الحديث له قصة قصيرة كذلك: وهي أن السيدة عائشة رضي الله عنها صَعُبَت عليها ناقة - يعني: كانت تركب ناقة وصعبت عليها - فأخذت تُرَدِّدُها، يعني تشدها هكذا وهكذا.. يمينًا ويسارًا. فقال لها النبي ﷺ: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**».

وهذا المعنى الثالث: وهو كون الرفق زينةَ الأعمال، وزينةَ الأقوال، وزينةَ المعاملات، ومعنى أن يكون الرفق زينةً أي: أن يكون حِلْيةَ المؤمن، فيكون في أخلاقه وشمائله وكل

---

(١) انظر: شرح الإمام النووي على الحديث رقم [٢٥٩٢] في كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق. أو [ج٨/ ٣٩١] دار الحديث - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٢) سبق تخريجه.

أحواله التي تكون سببًا لإظهار هذه المعاني الجميلة التي ينبغي أن تُرى على المؤمنين في جميع معاملاتهم مع المسلمين ومع الكفرة ومع الدواب(١) ومع كل شيء.

ونشير إلى آخر الأحاديث.. وهو موضع الخطر في قضية الرفق: «مَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ»(٢).

فاحفظ ذلك جيدًا: كلما هَمَّتْ نفسُك بالخروج عن الرفق واللين والسهولة والتيسير والتريث والتؤدة، وخرجت نفسُك إلى الصعوبة والشدة والعنف والردود السيئة

---

(١) وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيَرْضَى بِهِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا، فَإِنْ كَانَتِ الْأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنِقْيِهَا. وَعَلَيْكُمْ بِسَيْرِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ مَا لَا تُطْوَى بِالنَّهَارِ**». رواه الإمام مالك في الموطأ مرفوعًا [١٨٠١] طبعة المكنز. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا**». رواه الإمام مسلم [١٩٢٦]. قال الإمام النووي في الشرح: [«الْخِصْب» بكسر الخاء، وهو كثرة العُشب والمرعى، وهو ضد الجَدْب. والمراد بـ«السَّنة» هنا القَحْط، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣٠]، أي: بالقُحُوط. و«نِقْيهَا» بكسر النون وإسكان القاف، وهو: المخ. ومعنى الحديث: الحثُّ على الرفق بالدواب ومراعاةُ مصلحتها؛ فإن سافروا في الخصب قَلَّلوا السيرَ وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير فتأخذ حظَّها من الأرض بما ترعاه منها، وإن سافروا في القحط عَجَّلوا السيرَ لِيصلوا المقصدَ وفيها بقيةٌ من قُوتها، ولا يُقَلِّلوا السيرَ فيَلْحَقها الضررُ لأنها لا تَجِد ما ترعى فتَضْعُف ويذهب نِقْيُها، وربما كَلَّت ووقفتْ، وقد جاء في أول هذا الحديث في رواية مالك في الموطأ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ**»]. ا.هـ من شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، شرح الحديث رقم [١٩٢٦].

(٢) سبق تخريجه، انظر: هامش رقم (٢٣).

والأعمال الشديدة، وخرجَتْ إلى الرعونة والتهور وما إلى ذلك قُلْ لها هذا المعنى: مَن يُحرم الرفقَ يُحرم الخيرَ. مَنْ حُرم حظَّه من الرفق حُرم حظَّه من الخير.

والمرء إذا كان على هذا الحال السيئ من العنف وغيره مما سوى اللين والرفق - فإنه بِقَدْرِ ما يَقِلُّ حظُّه من هذا الرِّفق يُحرم هذا الحظَّ من الخير.

وهذه المسألة خطيرة..

كيف يتحقق المرءُ بالخير بعد أن رأى طريقًا يحقق به خيرَ نفسه وخيرَ قلبه وخيرَ أهله وخيرَ أولاده وخيرَه مع الناس جميعًا وأن يكون محِلًّا للخير؟ فمن رأى حاله على هذا المنوال - يعني منوال مَنْ حُرِم الخير - فإنه يعلم أنه لا يتأتى منه لا دعوة ولا صلاة ولا عبادة ولا ذِكْر على حالٍ يُرجى منه الثوابُ أو الفَضْل أو الدرجة عند الله تعالى؛ لأنه شخصٌ محروم من هذا الخير، حُرم هذا الحظ، فكيف يتأتى منه الخير، وكيف تتأتى منه أخلاق، ومودة ومعاملة وغير ذلك مما قد حُرِمَه بسبب حرمان هذا الخير؟! وهذه مشكلة! فعلى قَدْر ما يُحرم المرء من الرفق على قدر ما يحرم من الخير.

لم يقتصر توجيه النبي ﷺ وتحذيره للمرء وحده من ترك العنف لتحصيل الخير لنفسه وعدم حرمانه، بل تَعَدَّاهُ إلى أهله وبيته؛ إذ أراد كذلك ﷺ أن يعمَّ الرفقُ بيوتَ المسلمين وأهاليهم لِتَتَنَزَّل محبةُ الله تعالى عليهم، ويُعْطَى كلُّ أهلِ بيتٍ حَظَّهُم من الخير، ولذا قال ﷺ مُرَغِّبًا في الرفق: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ**»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من رواية عائشة ﵂، [ج ٦/ ٧١] الطبعة الميمنية، وصححه المنذري في الترغيب، [ج٣/ ٣٦١] دار الفجر.

وترى الحديث يُبيِّن هذه الفضيلة؛ أن إدخال الرفق إنما هو من الله تعالى لمحبته الخير لهم، ثم يقول ﷺ محذِّرًا من العنف: «مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ مِنَ الرِّفْقِ إِلَّا حُرِمُوا»[(١)].

إنَّ الرِّفْقَ عندما يُرَفْرِفُ على بيوت المسلمين في مِثْلِ هذه الآونة الصعبة التي غَلَبَتْ عليها الأخلاقُ السيئة لَيُعْطِي الأملَ في أن تُبْنَى بيوتٌ صالحة مِلْؤُها الخير، تكون سببًا في عودة الإسلام ورفعِ رايته. وإنَّ أكثرَ ما نعاني منه في البيوت اليوم سَبَبُه حِرْمانُ الخير، فتلك دعوة إلى سلوك هذا السبيل من قومٍ يُهِمُّهم محبةُ ربهم ويُقْلِقُهم أمرُ دينهم.

الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ونأتي إلى المسألة الأخيرة وهي مسألة أردتُ أن أشير إليها لإشارة العلماء لها وهي: «الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وهي مذكورة في «مختصر منهاج القاصدين» للإمام شمس الدين ابن قدامة المقدسي رحمه الله[(٢)]، على سبيل الإيجاز الواضح.

يقول في المختصر: «في آداب المحتسِب: وجملتها ثلاث صفات، الأولى: العلم.. والثاني: الورع.. والثالث: حُسن الأخلاق. قال بعض السلف: لا يَأمر بالمعروف إلا رفيقٌ فيما يأمر به، رفيقٌ فيما ينهى عنه، حليمٌ فيما يأمر به، حليمٌ فيما ينهى عنه، فقيهٌ فيما يأمر به، فقيهٌ فيما ينهى عنه».

---

(١) رواه الطبراني في الكبير [٢٢٧٤] مكتبة العلوم والحكم - الموصل، قال المنذري في الترغيب: «رواته ثقات»، [ج٣/ ٣٦١].

(٢) انظر - بتصرف واختصار: الرُّبع الثاني من الكتاب «ربع العادات - كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - فصل: صفات المحتسِب وآدابه وشروطه»، [ص١١٩] وما بعدها - دار العقيدة - الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

يعني أنَّ الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر ينبغـي أن تكـون درجاتُـه كلهـا بـالرفق الذي يكون سببًا لرفع المنكر، وإشاعةِ المعـروف، وقُـرْبِ النـاس إلى الله تعـالى، وأَخْـذِهم إليه؛ لأن هَمَّ الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يُقَرِّب الناسَ إلى الله تعالى، فإن تركوا هذا المنكر وعَمِلوا بهذا المعروف بأقل كلمةٍ طيبةٍ وجُمْلةٍ حسنةٍ فما الداعي إلى أن يَزْجُرهم وأن يعنِّفهم وأن يُقاطِعهم وأن يفعل وأن يفعل...إلخ. فمهما انتهى المنكر بـشيء خفيف فهذا هو المطلوب، فلا تُكثر ولا تزدد بما قد يكون سببًا بعد ذلـك لتثبيت هـذا المنكـر، أو سببًا للصدِّ عن سبيل الله ﷻ.

لذلك يقول: «قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر بـه، رفيـق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه».

والذي يخصُّنا هنا: أن الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُتعيِّنٌ، لقـول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وهذا لفرعون. لذلك لما جـاء رجـلٌ إلى الخليفة العبـاسي[1] فقـال لـه: «سـأقول لـك قـولًا شـديدًا». قـال لـه: «لا تَقُلْ لي قـولًا شديدًا؛ فأنتَ لستَ بأحسن مـن موسـى وأنـا لـست أسـوأ مـن فرعـون، والله تعـالى قـال لموسى في فرعـون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾». أي: لا تقـل لي قـولًا شـديدًا

(١) هو أبو جعفر هارون ابنُ المهدي الرشيدُ الخليفةُ العباسي. استُخلف في سنة ١٧٠هـ، وكان من أَنْبَل الخلفاء وأَحْشَم الملوك، ذا حَجٍّ وجهادٍ وغَزْوٍ وشجاعةٍ ورأيٍ. قيل إنه كان يصلي في خِلافته مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق بألفٍ، وكان يحب العلماء، ويُعَظِّم حرماتِ الدين، ويُبْغِض الجِدال والكلام، ويبكي على نفسه ولَهْوه وذَنْبه، لا سيما إذا وُعِظَ. له فُتوحاتٌ ومواقفُ مشهودة، توفي سنة ١٩٣هـ غازيًا، وقبرُه بمدينة طُوس. انتهى مختصرًا من سير أعلام النبلاء.

ولا زَجْرًا ولا غيره؛ فلا أنت أحسن من نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام ولا أعلى منه، ولا أنا أسوأ من فرعون حتى تشتد عليَّ في الإنكار.

ورُوي أنَّ أبا الدرداء ﷺ[1] مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناسُ يَسبُّونه فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قَلِيب، ألم تكونوا مُسْتَخْرِجيه؟» يعني: أرأيتم إن كان هذا الشخصُ وجدتموه واقعًا في بئر، ألم تكونوا مستخرجيه من ذلك البئر؟ قالوا: «بلى». قال: «فلا تسبُّوا أخاكم، واحمدوا الله على الذي عافاكم». فقالوا: «أفلا تُبغضه؟» فقال: «إنما أبغضُ عَمَلَه، فإذا تركه فهو أخي». والمقصودُ من هذا الكلام الرفقُ في الأمر بالمعروف، والحمدُ على العافية التي نجَّاك الله تعالى بها من هذا الذنب وهذه الخطيئة، ثم أن يكون هَمُّك أنْ تأخذ بيده إلى الله تعالى، ألستَ لو رأيته قد وقع في بئر ألست كنت مستخرجه من هذا البئر؟

وقصة ثانية مع أصحاب صِلَةَ رحمه الله: «حيث مرَّ فتى يجُرُّ ثوبه» والنبي ﷺ قد عَلِمْتُم نَهْيَه عن إسبال الثوب صلوات الله وسلامه عليه[2] «فهَمَّ أصحابُ صِلَةَ بن أَشْيَم»،

(١) أبو الدرداء: عُوَيْمِرُ – وقيل مالك أو عامر أو ثعلبة أو عبد الله – بن زيد بن قيس الأنصاريُّ، الإمامُ القُدْوة قاضي دمشق وصاحِب رسول الله ﷺ، وهو معدودٌ فيمن تلا القرآن على النبي ﷺ، وهو معدود أيضًا فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله ﷺ. أَسْلَم عَقِيب بدر، لكن فَرَضَ له عمرُ رضي الله عنه فأَعْقَبَهُ بالبَدْرِيِّين لجلالته. توفي سنة ٣٢ هـ وقيل بعدها. انظر: سير أعلام النبلاء، وتهذيب التهذيب.

(٢) ورد في الترهيب عن إسبال الثوب عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فِي النَّارِ». أخرجه الإمام البخاري [٥٧٨٧]، وقال أيضا ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: المَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ». رواه الإمام مسلم [١٠٦].

وصِلَةُ بن أَشْيَم هذا هو أحد التابعين العُبَّاد الفقهاء، صاحب حذيفة بن اليمان من أصحاب النبي ﷺ[1]. يقول: «فهَمَّ أصحابُ صِلَةَ بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا» إنكارًا لهذا المنكر؛ كيف يجر ثوبه هكذا ويمشي يَتَبَخْتر[2]؟! «فقال صِلَةُ: دعوني أَكْفِكُمْ أَمْرَه. ثم قال: يا ابن أخي! إنَّ لي إليك حاجةً. قال: ما هي؟ قال: أُحِبُّ أن ترفع إزارَك. قال: نَعم.. ونُعْمَى عين، فرفع إزاره. فقال صِلَةُ لأصحابه: هذا كان أَمْثَلَ مما أَرَدْتُم، فإنكم لو شَتَمْتُمُوهُ وآذَيْتُمُوه لَشَتَمَكُمْ».

وهذه قصة ثالثة؛ يقول أيضًا في المختصر: «ودُعِيَ الحسنُ[3] إلى عُرْس، فجيء بجَامٍ من فضة» والجام مثل القَدَح، وهذا الجام «فيه خَبِيصٌ» والخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن، يعني المخلوطة من التمر والسمن، خَبَصَ يعني خَلَطَ، «فتناوله» الحسنُ «وقَلَبَهُ على رَغيف فأصاب منه» يعني أخذ الجامَ، وأخذ منه الخبيص، ووضعه على رغيف، ثم أرجع الجام إنكارًا له، ولكن إنكارٌ يظهر منه هذا المعنى وهو معنى الرفق،

---

(١) صِلةُ بن أَشْيَمَ أبو الصَّهْباءِ العَدَوِيُّ التابعيُّ الزاهد العابد القُدوة البصري، زوج العالِمة مُعاذة العدوية. عن معاذة زوجته: «كَانَ أَبُو الصَّهْبَاءِ يُصَلِّي حَتَّى مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ فِرَاشَهُ إِلَّا زَحْفًا»! تُوفي هو وولدُه مجاهدَيْنِ سنة ٦٢هـ. وله كراماتٌ عديدة ذكرها الذهبي في السير.

(٢) «البَخْتَرة والتَّبَخْتُر»: مِشْيةٌ حَسَنة. وقد بَخْتَر وتَبَخْتَر.. و«البَخْتُري»: المُتَبَخْتِر في مَشْيِه، وهي مِشْيةُ المُتكبِّر المُعجَب بنفسه. انظر- بتصرف: «لسان العرب»، مادة: [ب خ ت].

(٣) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري الأنصاري مولاهم أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، ويقال مولى جابر بن عبد الله. من الطبقة الوسطى من التابعين. إمامٌ كبيرُ الشأن، ثقةٌ فقيهٌ فاضلٌ مشهورٌ رأسٌ في العلم والعمل، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب.

كأنه لا يستخدم هذه الأشياء التي نهى عنها النبي ﷺ[1] «فقال الرجل: هذا نَهْيٌ في سُكون». ويبين أن المقصود ينبغي أن يصل إليه المرء بأفضل السبل التي تُنكر المنكر، وتُعيد المعروف ولا تُفرِّق، ولا تصد عن سبيل الله تعالى.

حظ العبد من اسم الله تعالى «الرفيق»

١- أما حظ العبد من هذا الاسم المشرَّف: فبأن يعتقد أن الله تعالى هو الرفيق، فيُوَحِّده بذلك ﷻ ويدعوه - جل وعلا - بهذا الاسم المشرف أن يرزقه الرفق واللين، وأن يُوسِّع صدرَه، وأن يُبعد عنه أسبابَ العجلة وأسباب الغضب، وأن يُكثر من الدعاء، يقول: يا رفيق افتَحْ عليَّ بالرفق.. ويا رفيق ارحمني.. يا رفيق خُذْ بيدي.. يا رفيق علمني... كل الأمور التي يدعوها ويكثر منها[2].

٢- أن يكون المرءُ مثالًا لهذا الرفق الذي ورد في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ.. إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**»[3]. ولا يتحقق هذا الأمر إلا بمجاهدة النفس عليه؛ فإذا شتمك أحدٌ فلن تَدَعَكَ نفسُك قائلة: «كن رفيقًا»!، بل ستقول لك:

---

(١) ورد أيضًا في النهي عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: «**لَا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ؛ فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ**»، أخرجه البخاري [٥٦٣٣]. وقال أيضًا ﷺ: «**الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ**». أخرجه البخاري [٥٦٣٤].

(٢) قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند ظهره يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى» أخرجه الإمام البخاري [٤٤٤٠].

(٣) سبق تخريجه، انظر: هامش رقم (٢٨).

«اشتمه مثلما شتمك واضربه...إلخ»، فاستَمْسِكْ بالرفق إذن حال أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر. وقد يقول قائل: «لِمَ؟! فهذا غضبٌ لله» والجواب: إذا أنكرتَ هذا المنكر كما تقول ولم يذهب هذا المنكرُ بل بقي، أو زاد، أو صددت بسبب ذلك عن سبيل الله تعالى، فأين المنكر الذي أزلتَ؟ أو أين أثر الإنكار الذي قمت به؟

فهذا الحظُّ بالذات من حظوظ المرء من اسم الله تعالى «الرفيق» يحتاج إلى المجاهدة، وإلى مكافحة النفس على التخلُّق بهذه الأخلاق الحسنة، وإلى التريُّث في اتخاذ القرارات الصعبة التي تَخرِب البيوتَ[1] وتُوجِد البغضاءَ والعَداوةَ بين الناس والشِّقاقَ والفُرقةَ، ويترتب عليها الشَّتمُ واللعنُ والسَّبُّ والقطيعةُ وغير ذلك . فيتعلم المرءُ أن يكون رفيقًا في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ويتعلم المرء كذلك أن يكون رفيقًا في أخذه وعطائه وتناوله، وأن يكون رفيقًا تاركًا للشدة والعنف ينتظر الثواب[2] وينتظر تحصيلَ أغراضه التي يريدها ومطالَبه التي يود تحصيلَها كما ذكرنا في الحديث. فلا تتحقق هذه الأغراض ولا يمكن تحقق هذه المصالح إلا بالرفق كما ذكر النبي ﷺ.

---

(١) وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية التي تنبه على أهمية الرفق في إصلاح البيوت ونفعها، وأخرج الطبراني في الكبير عن ابن عمر ؓ عن النبي ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَهْلُ بَيْتٍ الرِّفْقَ إِلَّا نَفَعَهُمْ وَلَا مُنِعُوهُ إِلَّا ضَرَّهُمْ» جَوَّدَ إسنادَه المنذريُّ في الترغيب، [ج٣/ ٣٦٢].

(٢) وبالإضافة إلى الثواب الجزيل الذي ذكرته الأحاديث السابقة في الترغيب في الرفق والحثِّ عليه نذكر بعض الأحاديث الأخرى:

- قال ﷺ: «أَلَا أُخبِرُكُم بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ.. تَحرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ». رواه الترمذي [٢٤٨٨] وقال: حديث حسن صحيح.
- وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ» رواه الإمام مسلم [١٨٢٨].

٣- وحظه من هذا الرفق أيضًا هو الوقوف بباب الله تعالى؛ كلما استصعبت عليه الأمور وأُغلقت في وجهه الأبواب في الدنيا والآخرة والعبادة، فإنه لا يسهلها إلا هو ﷻ ولا ييسرها إلا هو، وقد ضربنا مثلًا وهو حفظ القرآن الكريم وأن الله تعالى كيف يسرَّه، وأن الله تعالى يسر الأمور كلها، ويسر أسبابها وأنه لا تيسير إلا بتيسيره ﷻ ولا عطاء إلا بعطائه - جل وعلا - ولا رفق إلا بإرفاقه ﷻ. فيتعلم كيف يَرْتَفِق من ربه، يعني كيف يأخذ العطاء من الله - تبارك وتعالى - حتى يَشرح صدرَه ويُيسر أمرَه في كل أحواله المتعسرة عليه، وفي كل الأمور التي يضيق بها صدرُه فيُحِسُّ فيها بالألم والنَّكد في هذه الحياة الدنيا... فيُيسِّرها ويُسهِّلها الربُّ جل وعلا.

٤- والحظ الرابع هو حظ بيته وأهلِه من الرفق، بأن يكون سببًا لِنُزول الخير على بيته؛ إذ «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»[1]، وأن يعمل جاهدًا على رفع البلاء النازِل عن بيوت المسلمين وأولادهم اليوم؛ إذ هو من أشد البلاء وأصعبه وما يَنْبَنِي عليه أسوأُ منه.

إنَّ دَفْعَ الهَجْمَة على أولاد المسلمين لَمِنْ أهمِّ الواجبات وأعلى المُهِمَّات التي يجب بَذْلُ الجهد والوقت لها اليوم.

اللهم رِفْقُك يا رفيق..

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ [٣٨٩٥]، وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، وتمامه: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي». وانظر الحاشية رقم [٢] من الباب الرابع: شرح اسم الله تعالى «اللطيف».



القسم الثاني

اسم الله الودود



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإنْ فشا في الناس معرفةُ هذا الاسم المعظم «الودود» انقلبتْ أحوالهم إلى محبة الله تعالى، ومحبة الرسول ﷺ ومحبة بعضهم بعضًا، ومحبة الخير بينهم، وظهر عليهم بعد ذلك محبةُ الطاعة - التي هي من آثار محبة الله تعالى - ومحبةُ لقاء الله جل وعلا، ومحبةُ ذِكْره وإدمانه والخلوةِ بالله تعالى، ومحبة القيام له سبحانه وتعالى.

وهذه المعاني بالذات هي توحيد الله تعالى، إن فرَّط المرءُ في شيء منها فَرَّط في توحيده ومعرفته بربه ومحبته له، وفرط في الدرجات العالية في الدين ودرجات المحبة.

وإن المرء بقدر ما ينقص حظُّه من اسم الله «الودود» ينقص حظه من محبة الله تعالى، وينقص حظه من إرادة الخير للناس ومحبته لهم، وكذلك ينقص مقدار حظه من درجات القرب من الله تعالى، والتخلق والاتصاف - بما يليق بالعبد - من صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى.

ومن ثَمَّ كان هذا الاسم المشرف «الودود» مما ينبغي أن يتعلمه المرء ليتعبد ربه به، ويدعوه به، ويأخذ حظه منه سبحانه وتعالى. وهو أيضًا له وقعه الجليل على قلب المرء إذا تعبد الله تعالى به، وبرزت عليه آثاره، وبان عليه حظه إذ تظهر به على المرء آثار مودته للناس، ومحبة الخير لهم، ومحبته إياهم بعد محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ. مما يسود به التكافل والطاعة وتنزل به الرحمة والمغفرة، ويرتفع البلاء والنوازل.

واسمه «الـودود» ﷻ - كبقيـة الأسـماء الحسنى - اشـتد إليهـا احتيـاج المؤمنين اليـوم لتوحيدِ الرب ومحبتِه الحاملة على المسارعة إلى تقديمه علـى الـنفس والمال والولـد وكـل شيء، وحتى يفوز المرء بالتخلق والتعلق بهذا الاسم، فيكون سببًا للمودة بين الناس وإشـاعة الخير بينهم، ودعوتهم إلى الله تعالى بالقول والحال الحسن.

إنَّ المحبة بـين النـاس هـي طريـق محبـة الله لهـم، كـما بـين الله تعـالى في الحـديث القـدسي: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ...»[1] الحديث.

من ثَمَّ كان تبيين معاني «الودود» من المهـمات التـي نُفَرِّغ لهـا الوقـت والجهـد رجـاء توحيد الله تعالى ورحمته.

لِمَا سبق فَرَّغْنا هذا الدرس من دروس فضيلة الـشيخ/ **محمـد الدبيسي** - حفظـه الله تعالى وعفا عنه - لننشره؛ نصحًا لنا وللمؤمنين، وتحمّلًا لـشيء مـن مـسئولية هـذا الـدين، وجمعًا لقلوب من يقرأه أو يسمعه من المؤمنين على المحبة سـواء لله ولرسـوله وللمـؤمنين أو إرادة الخير والدعوة إلى الله تعالى، مع الانتظار من قارئه ما يسد خللًا أو نقصًا خالـصًا لوجهه الكريم.

نسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وناشره وقارئه والناظر فيه إنه سميع قريب.

مسجد الهدي المحمدي

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» [١٧٤٥] طبعة المكنز، والإمام أحمد في مسنده [٥/ ٢٣٣] الطبعة الميمنية. كلاهما يرويه عن معاذ بن جبل ﷺ مرفوعًا. قال المنذري في «الترغيب»: «رواه مالك بإسناد صحيح». اهـ [ح: ٤٥٧٤] الطبعة العلمية.

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى « الودود »

- الدليل على اسم الله تعالى « الودود » .
- المعنى اللُّغوي.
- معنى « الودود » في حق الله تعالى.

الدليل على اسم الله تعالى «الودود»

«الودود» من أسماء الله تعالى الحسنى، وقد ورد في القرآن الكريم في آيتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

والثانيـة: في قولـه ﷻ : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤].

الأولى: «رحيم ودود»، والثانية: «غفور ودود» سبحانه وتعالى.

المعنى اللغوي

«وَدَّ» تدل على المحبة، لذلك نقول: وَدِدْتُه يعني أحببْتُه، والمودة التي ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه هي خالص المحبة، يعني: ألطف المحبة وأرقها وأجملها وأعلى درجات المحبة الخالصة هي المودة؛ لذلك قال: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ كما سنشير إلى معناها إن شاء الله تعالى.

و«الودُّ» هو الحُبُّ[1]، والوُدُّ يكون في جميع مداخل الخير،فمادة «وَدَّ» هذه تحمل معنى المحبة التي تُكِنُّ الخيرَ لكلِّ أحد، يعني: عندما نقول: «هذا إنسان ودود» أو «هذا وديد فلان» يعني: محبوبه، أو «هذا إنسان فيه مودة» انطبع في ذِهْنك هذا المعنى اللطيف

(١) «الودّ»: مصدر من «ودَّ» بمعنى: أحبَّ. ويجوز كَسْرُ «الواو» أو ضمُّها أو فتحُها؛ قال ابن سيده: ودَّ الشيءَ «وُدًّا» و«وِدًّا» و«وَدًّا» و«وَدادةً» و«وِدادًا» و«وَدادًا» و«مَوَدَّةً» و«مَوْدِدَةً»: أحبَّه. انظر: «لسان العرب»، مادة: [و د د].

الجميل الذي يبين عكسه لو كان هذا الإنسان بخلافه، تقول مثلًا: «هذا إنسانٌ جافٍ وغليظٌ»؛ لذلك ذكر الله تبارك وتعالى المودةَ فيما يكون بين الرجل وأَهْله فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

و«وَدَّ» قد تأتي في القرآن وغيره بمعنى تمنَّى، كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

معنى «الودود» في حق الله تعالى

و ذكر العلماء في شرح هذا الاسم المشرف ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: الودودُ هو الوادُّ لأهل الإيمان ﷻ..

«وَدُود» صيغة مبالغة على وزن «فَعُول» بمعنى فاعل، كقولنا: «غفور» بمعنى غافر، أو «شكور» بمعنى شاكر، ويكون معناه: أنه هو الوادُّ لأهل الإيمان، أي: هو الذي يُحِبُّ أهلَ الإيمان؛ يعني: يحب المؤمنين وأولياءَه الصالحين ويودّهم ﷻ، أي هو المحب لهم[1] ﷻ.

(١) فائدة مهمة: وهذه المعاني نذكرها حتى يفهم المرء معنى «الودود» من أسماء الله ﷻ الحسنى والمشرفة، ثم بعد ذلك ليعرف حظَّه منها، وكيف يدعو الله تعالى بها، ويعرف كيف يوحده ﷻ بها، وكيف يُنَزِّل هذا المعنى على قلبه؛ فيُورث له ثمراتٍ من ثمراتِ المحبة لله تعالى، وتوحيدِ الله تعالى، والتخلقِ بما يليق بالعبد من معاني هذا الاسم المشرف. لَـمَّا ذكر الله تعالى أنه «رحيم ودود» فلا بُدَّ أن يفهم المرء هذه المودة التي يجب أن يكون عليها، وكيف يدعوه ﷻ بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] جل وعلا.

قال الْحَلِيمِيُّ رحمه الله[1] في معنى ودود بمعنى واد: «هو الوادُّ لأهل طاعته، والمحب لهم»، ومن لوازم محبة الله تعالى لأهل طاعته: الرضا عن أعمالهم، وأن يُحْسِنَ إليهم لأجل هذه الأعمال، وأن يمدحهم تبارك وتعالى بها.

إذن «الودود» بمعنى الوادّ، يعني: هو الذي يحبهم. وهذه قد وردت في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا المعنى سنشير إلى تفاصيله بعض الشيء؛ لأن قضية المحبة لله تعالى ولرسوله هي قضية الدين كما قال صلى الله عليه وسلم: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»[2].

(١) الحَلِيمِيُّ الحُسَيْنُ بنُ الحَسَنِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ حَلِيْمٍ القَاضِي، أَبُو عَبْدِ الله، العَلاَّمَةُ، البُخَارِيُّ، الشَّافِعِيُّ. رَئِيْسُ المُحَدِّثِيْنَ وَالمُتَكَلِّمِيْنَ بِمَا وَرَاء النَّهر، و أَحَدُ الأَذكيَاء المَوْصُوفِيْنَ، وَمن أَصْحَابِ الوُجُوهِ فِي المَذْهَب الشافعي. أَخَذَ عَنِ: الأُسْتَاذ أَبِي بَكْرٍ القَفَّال، وَالإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ الأَوْدَنِي. وحدَّث عنه: أبو عبد الله الحاكم وهو أكبر منه، وآخرون. وَكَانَ مُتفنِّنًا، سيَّال الذِّهن، مُنَاظِرًا، طَوِيْلَ البَاعِ فِي الأَدب وَالبيَان. وُلِدَ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلاَثِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ، وله مصنفات نَفِيسة. ومن تصانيفه: «شُعَب الإيمان» في نحو ثلاث مجلدات. تُوُفِّيَ في سَنَةَ ثَلاَثٍ وَأَرْبَع مائَة. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: [٣/ ٢٠٧]، [٣/ ٢٧٨] الطبعة الميمنية، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»، وأخرجه الإمام البخاري [٢١] بلفظ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**»، وبقريب من هذا اللفظ أخرجه الإمام مسلم [٤٣]. كلهم يَرْوُونه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

وكيف يكون المرء بعد ذلك متخلقًا بما يليق بالعبد من هذا الاسم المشرف تلك هي قضية الدين، وقضية الدعوة، وقضية القلب الذي يتفجر بالإيمان والمحبة والخير لأهله وولده والناس أجمعين، كما سنشير إلى هذا المعنى لاحقًا إن شاء الله تعالى.

المعنى الثاني: الودودُ هو المَحْبُوب ﷻ ..

ذكرنا أن «وَدُود» على وزن «فَعُول»، صيغة مبالغة بمعنى فاعل، ويأتي أيضًا «فَعُول» بمعنى «مَفْعول»، كرجل «هَيُوب» بمعنى «مَهِيب» وكفرس «رَكُوب» أي: مَرْكوب، فيكون الودود بمعنى المَوْدُود، يعني: المحبوب. المعنى الأول بمعنى المُحِب، المعنى الثاني بمعنى المحبوب. فهو الحبيب ﷻ.

وقد ورد ذلك كذلك في قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

فـ«يحبهم» إشارة إلى الودود بمعنى الواد المُحِبّ، و«يحبونه» إشارة إلى المحبوب ﷻ.

وكذلك ورد هذا المعنى الأخير في قوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والمعنى الثاني قال فيه الحَلِيمِيُّ أيضًا: «وقد قيل هو المودود لكثرة إحسانه» يعني: المحبوب لكثرة إحسانه، فإن النفس تحب من يحسن إليها، وجُبل المرء على محبة من أحسن إليه؛ أي: أنه ﷻ المستحق لأن يُودّ؛ لأنه هو المُحْسِن[١]، وهو المربي[٢]، وهو الذي

(١) وقد شرحنا هذا الاسم المشرف من أسماء الله الحسنى - «المُحْسِن» - وذكر الدليل على ثبوت هذا الاسم المشرف والآيات القرآنية المتعلقة به في عدة دروس. وهذه الدروس متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات «الإنترنت».

(٢) ومن أسمائه الحسنى «الرب» ﷻ.

جعلك تحبه، فما كانت محبتك له إلا بسابق محبته لك واصطفائه إياك، فلمّا أحبك إليه، ولو كرهك ما سلكتَ طريقه، ولا عرفت بابه، ولا التزمت سلوك النبي ﷺ.

لذلك هو المحبوب ﷻ على الحقيقة؛ لأنه هو المحسن إليك... هو المحب لك... هو الذي اصطفاك... هو الذي ربَّاك... هو الذي رعاك... هو الذي حفظك... هو الذي أمدك بأسباب الوجود وأعطاك أسباب البقاء كذلك؛ فهل يُحَبُّ غَيْرُه ﷻ؟!

وأنتَ إذا أحببت أحدًا في الدنيا، فإنك تحبه لإحسانه، أو تحبه لجماله، أو تحبه لكماله في نفسه. فأنت تسمع مثلًا عن إنسان صادق أو عابد أو عالم أو شجاع أو حاكم عادل أو غيره، فتراك تحبه. الناس كلهم مثلًا يحبون الشافعيَّ(١) وأحمدَ وهؤلاء الأئمةَ الكرام ولمْ

---

(١) هو مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ... بنِ المُطَّلِبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ قُصَيِّ بنِ كِلاَبٍ، الإِمَامُ، عَالِمُ عَصْرِهِ وفريد دهره، المجددُ لأمر الدين على رأس المائتين، نَاصِرُ الحَدِيْثِ، فَقِيْهُ المِلَّةِ، أَبو عَبْدِ اللهِ القُرَشِيُّ، ثُمَّ المُطَّلِبِيُّ، الشَّافِعِيُّ، المَكِّيُّ، الغَزِّيُّ المَوْلِدِ، نَسِيْبُ رسوْلِ اللهِ ﷺ وَابْنُ عَمِّهِ. اتَّفَقَ مَوْلِدُه بِغَزَّةَ، وَمَاتَ أَبُوْهُ إِدْرِيسُ شَابًّا، فَنَشَأَ مُحَمَّدٌ يَتِيْمًا فِي حجْرِ أُمِّهِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ، فَتَحَوَّلَتْ بِهِ إِلَى مَحْتِدِهِ - أصلِه - وَهُوَ ابْنُ عَامَيْنِ، فَنَشَأَ بِمَكَّةَ. أَقْبَلَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَالشَّرْعِ، فَبَرَعَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الفِقْهُ، فَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ. وَأَخَذَ العِلْمَ بمكة عَنْ: مُسْلِمِ بنِ خَالِدٍ الزَّنْجِيِّ - مُفْتِي مَكَّةَ - وسفيان بنِ عُيَيْنَةَ وَفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ، وَعِدَّةٍ. وَارْتَحَلَ إلى المدينة فَحَمَلَ عَنْ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ «المُوَطَّأَ»، ثم رحل إلى العراق، وجدّ في الاشتغال بالعلم، وناظَرَ محمدَ بن الحسن فقيهَ العراق وغيره، ونشر علم الحديث، وأقام مذهبَ أهله، ونصر السنة، وشاع ذكره وفضله وتزايد تزايدًا ملأ البقاع. قَدِمَ الشافعي مصرَ سنة (١٩٩) أو سنة (٢٠٠)، وصنَّف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره في البلدان، وقصده الناس من سائر النواحي والأقطار للتفقه عليه والرواية عنه، وساد أهل مصر وغيرهم، وابتكر كتبًا لم يسبق إليها، منها «الرسالة» في أصول الفقه، وكتاب «القسامة»، وكتاب «الجزية»، وكتاب «قتال أهل البغي»، وغيرها. قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: «مَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنَ الشَّافِعِيِّ»، وَكَذَا

يلتقوا بهم وليس بينهم وبينهم معروفٌ ولا إحسان ولا غيره، ولكنهم يحبونهم لِـمَا اتصفوا به من هذه الصفات. إذا عرفتَ ذلك علمتَ أنَّ كلَّ الصفات التي يُحَبُّ مِنْ أجلها كاملةٌ أشد الكمال في الله تعالى. فلا يكون محبوبًا على الحقيقة... حبيبًا على الحقيقة إلا الله جل وعلا.

وكما يُحِبُّ المرء فلانًا في الدنيا للصفات التي ذكرنا فإنه قد يُحبه أيضًا لأنه بينه وبينه - كما يقول أهل العلم - صفات باطنة غير معلومة، وهي مُستنبطة من قول النبي ﷺ: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[1]، فأنت ترى المرء

قَالَ يُونُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى، حَتَّى إِنَّه، قَالَ: «لَوْ جُمِعَتْ أُمَّةٌ لَوَسِعَهُمْ عَقْلُهُ». قال أحمد بن حنبل: «إن الله تعالى يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يُعَلِّمهم السنن و ينفي عن رسول الله ﷺ الكذب، فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المائتين الشافعي». له ﷺ أقوال وأحوال كثيرة حسنة، منها أنه قال: «مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ عَظُمَتْ قِيْمَتُهُ، وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي الفِقْهِ نَمَا قَدْرُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيْثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الحِسَابِ جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ». وقال أيضًا ﷺ: «وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْمَ - يَعْنِي: كُتُبَهُ - عَلَى أَلَّا يُنْسَبَ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ». قال الرَّبِيعُ بنُ سُلَيْمَانَ: «كَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ جَزَّأَ اللَّيْلَ: فَثُلُثُهُ الأَوَّلُ يَكْتُبُ، وَالثَّانِي يُصَلِّي، وَالثَّالِثُ يَنَامُ». قال الحُمَيْدِيُّ: «قَدِمَ الشَّافِعِيُّ صَنْعَاءَ، فَضُرِبَتْ لَهُ خَيْمَةٌ، وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلافِ دِيْنَارٍ، فَجَاءَ قَوْمٌ، فَسَأَلُوْهُ، فَمَا قُلِعَتِ الخَيْمَةُ وَمَعَهُ مِنْهَا شَيْءٌ». صَنَّفَ الكِبَارُ التصانيفَ المفردةَ فِي مَنَاقِبِ هَذَا الإِمَامِ قَدِيمًا وَحَدِيْثًا. وَهَذِهِ السطور لَتَضِيقُ عَنْ مَنَاقِبِ هَذَا السَّيِّدِ الجليل. توفي سنة ٢٠٤ هـ بمصر. انظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«تهذيب الأسماء» للنووي، و«تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر.

(١) أخرجه الإمام البخاري تعليقًا بصيغة الجزم من حديث عائشة ﵂ [٣٣٣٦]، والإمامُ مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ [٢٦٣٨] مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

يُحب الشخصَ ويميل إليه بغير سابق معرفة، وبغير إحسان بينهما، وكل هذه الأسباب من أسباب المحبة كلها مجتمعةٌ في الربِّ ﷻ.

لذلك لا يكون محبوبًا على الحقيقة إلا هو. وإن أحببتَ أحدًا فإنما تحبه لأنه يُحِبُّ اللهَ تعالى، أو يَدُلُّك على محبة الله تعالى. وذلك متحقق في الرسول ﷺ وأصحابه ومَنْ يدلك على الله تعالى، أو تُحِبُّ أهل الإيمان لمحبتهم لله تعالى، كما تبغضهم بمعصيتهم للرب جل وعلا.

لذلك وَرَدَ في المعنى الثاني من معاني «الودود» - بمعنى المحبوب الحبيب - قولُه ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»[1].

المعنى الثالث: الودود هو الذي يُحَبِّبُ عبادَه إلى خَلْقِه ﷻ ..

وهذا المعنى ينبغي أن يأخذ حيزًا مهمًّا من التفكُّر والفهم ليصل المؤمن إليه؛ فالودود يعني الذي يُحَبِّبُ عبادَه الذين يستحقون هذه المحبة إلى خَلْقه، ويُلقي بمودتهم في قلوب الخَلْق على قدر هذه المحبة التي يستحقونها من الله تعالى. وهو مصداق قول الله جل وعلا: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾ [مريم: ٩٦]، أي:

قال المناوي في «الفيض»: «جنود مجندة» أي: جموع متجمعة وأنواع مختلفة «فما تعارف» توافق في الصفات وتناسب في الأخلاق «منها ائتلف» أي: أَلِفَ قلبُه قلبَ الآخر وإنْ تباعدَا، كما يقال: ألوف مؤلفة وقناطير مقنطرة. «وما تناكر منها» أي: لم يتوافق ولم يتناسب «اختلف» أي: نافر قلبُه قلبَ الآخر وإنْ تقاربَا جسدًا.. اهـ. من الفيض، [ج٣/ ص٢٢٥، ٢٢٦] طبعة مكتبة مصر، ط٢، سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(١) سبق تخريجه، انظر: هامش رقم (٥).

سيجعل لهم محبة في قلوب الخَلْق، يَوَدُّونهم عليها ويحبونهم لها، وقد ورد ذلك المعنى من إلقاء المودة في قلوب الخَلْق في حديث النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ - قَالَ - فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ**»(١).

وهذا المعنى في قوله جل وعلا: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾ قد مَثَّله قولُ النبي ﷺ كذلك في قوله:

«**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ: إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

وهذا الآية والأحاديث تُبين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون، من التوادِّ بينهم - يعني: من المحبة الخالصة بينهم، وكما يحب المرء نفسه لأنهم جسد واحد - وأن يكون

---

(١) أخرجه البخاري [٣٢٠٩ ، ٦٠٤٠]، ومسلم [٢٦٣٧] واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

(٢) متفق عليه: البخاري [٦٠١٢]، ومسلم [٢٥٨٦]، واللفظُ له من حديث نعمان بن البشير ﷺ مرفوعًا. قال الحافظ في الفتح: «قال ابْنُ أَبِي جَمْرَة : الَّذِي يَظْهَر أَنَّ التَّرَاحُم وَالتَّوَادُد وَالتَّعَاطُف وَإِنْ كَانَتْ مُتَقَارِبَة فِي المعْنَى لَكِنْ بَيْنَهَا فَرْق لَطِيف، فَأَمَّا التَّرَاحُم فالمرادُ بِهِ: أَنْ يَرْحَم بَعْضُهمْ بَعْضًا بِأُخُوَّةِ الْإِيمَان لَا بِسَبَبِ شَيْء آخَر، وَأَمَّا التَّوَادُد فالمرادُ بِهِ: التَّوَاصُل الْجَالِب للمحبة كَالتَّزَاوُرِ وَالتَّهَادِي، وَأَمَّا التَّعَاطُف فالمرادُ بِهِ: إِعَانَة بَعْضهمْ بَعْضًا كَمَا يَعْطِف الثَّوْب عَلَيْهِ لِيُقَوِّيَهُ. اهـ. مُلَخَّصًا. «تَدَاعَى» أَيْ: دَعَا بَعْضُه بَعْضًا إِلَى المشاركة فِي الْأَلَم. قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: فَتَشْبِيهه الْمُؤْمِنِينَ بِالجَسَدِ الْوَاحِد تَمْثِيلٌ صَحِيح، وَفِيهِ تَقْرِيبٌ لِلْفَهْمِ وَإِظْهَارٌ لِلْمَعَانِي فِي الصُّوَر الْمَرْئِيَّة، وَفِيهِ تَعْظِيمُ حُقُوق الْمُسْلِمِينَ وَالْحَضّ عَلَى تَعَاوُنِهِمْ وَمُلَاطَفَة بَعْضهمْ بَعْضًا» اهـ. باختصار وتصرف.

حُبُّه لله تعالى، لا لشيء آخر[1]، كما ذكر رسول الله ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا. فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ . قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا؛ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.**

---

(١) وقد سبق الإشارة إلى عاقبة هذه المحبة في الله تعالى في حديث: «**وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ**»، وفي الحديث أيضًا أنه قال ﷺ يروي عن ربه ﷻ: «**الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي فِي ظِلِّ عَرْشِي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**». رواه الإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٢٨] الطبعة الميمنية. قال المنذري في الترغيب: «رواه أحمد بإسناد جيد» [ح: ٤٥٨٢] الطبعة العلمية.

وقال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**». أخرجه الترمذي [٢٣٩٠]، وقال: «حديث حسن صحيح».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَعْطَى للهِ وَمَنَعَ للهِ وَأَحَبَّ للهِ وَأَنْكَرَ للهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ**». رواه أبو داود [٤٦٨١]. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنْ أَوْسَطَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ وَتَبْغَضَ فِي اللهِ**». رواه الإمام أحمد [٤/ ٢٨٦] الطبعة الميمنية.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**». رواه البخاري [٦١٦٩].

وفي رواية للإمام البخاري: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قال أنس رضي الله عنه: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ». أخرجه البخاري [٣٦٨٨]، ومسلم [٢٦٣٩].

وقد شُرِحت أكثر هذه الأحاديث – إن لم يكن كلها – في سلسلة خطب «**المحبة في الله تعالى**»، وهي متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من مواقع الإنترنت.

كما طُبعتْ الخطبة الأولى منها، فارجع إليها جميعًا للاستزادة من هذه المعاني المهمة من معاني المحبة في الله تعالى التي كدنا أن نفتقدها بين المسلمين اليوم – إلا من رحم الله ﷻ.

قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[1].

ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث رجلًا ذهب ليزور أخًا له في الله تعالى، فأرسل الله تعالى على طريقه مَلَكًا، فسأله: إلى أين؟ قال: أزور أخًا لي في هذه القرية، قال: أَلِنعمةٍ لك عليه تردها؟ يعني: بينك وبينه نعمة؟ بينك وبينه مال؟ تريد أن تتزوج ابنته؟ بينك وبينه قرابة أو كذا وكذا من هذه الأمور التي تتداخل فيها النيات؟ قال: لا، غير أني أحبه في الله تعالى. يعني: قَطَعَ هذا الرجلُ هذه المسافة الطويلة من بلده إلى تلك البلد ليزور أخًا له في الله!! إنه أخوه في الله لذلك يزوره لله تعالى لا لشيء من أمور الزواج ولا المال ولا غيره من أمور الدنيا. قال: فإني رسول الله إليك أن الله تعالى قد أحبك لأنه أحببته فيه. يعني: أحبك ﷻ لما أحببت له هذا العبد[2].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم: [٢٦٣٧] وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا. قال الإمام النووي ﵀ في شرح هذا الحديث: [مَعْنَى «أَرْصَدَهُ»: أَقْعَدَهُ يَرْقُبُهُ. وَ«الْمَدْرَجَة» بِفَتْحِ الْمِيم وَالرَّاء هِيَ: الطَّرِيق، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ النَّاس يَدْرُجُونَ عَلَيْهَا، أَيْ: يَمْضُونَ وَيَمْشُونَ. قَوْله: «لَك عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا» أَيْ: تَقُوم بِإِصْلَاحِهَا، وَتَنْهَض إِلَيْهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ. فِي هَذَا الْحَدِيث فَضْلُ الْمَحَبَّة فِي اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِحُبِّ اللهِ تَعَالَى الْعَبْدَ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ زِيَارَة الصَّالِحِينَ وَالْأَصْحَاب، وَفِيهِ أَنَّ الْآدَمِيِّينَ قَدْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَة]. اهـ من «شرح الإمام النووي على صحيح مسلم».

(٢) وقد لَخَّصَ الإمامُ ابن القيم ﵀ هذه المعاني الثلاثة في تفسير اسمه تعالى «الودود» في عدة أبيات سهلة الحفظ للطلبة، قال:

وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ	أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي	بِهِمْ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِ
هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًّا لَا مُعَا	وَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ
لَكِنْ يُحِبُّ شُكُورَهُمْ	لَا لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ

انظر «شرح القصيدة النونية» للشيخ محمد خليل هرَّاس، ج٢، ص١٠١، دار الشريعة، ط١، ١٤٢٤هـ.

مسألة: وضعُ المودة في قلوب الخلق تتعلق بأمرين:

الأمر الأول: وهـو قـول الله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾..

فالإيمان والعمل الصالح هو الذي يكون سبب هذه المودة في قلـوب أهـل الإيـمان، فبقدر ما يعلو إيمانك وبقدر ما يرتفع منك إلى الله تبارك وتعالى مِن أعـمال صـالحة، بقـدر ما يَضَعُ لك اللهُ تعالى في قلوب الناس من المحبة التي هي قيمتك عنـده ﷻ، إذ عـلى قـدر محبتك لله تعالى على قدر محبة الله لك.. هذا هو الأمر الأول.

والأمر الثاني: على قدر مودتك لأهل الإيمان على قدر مودتك عند الله تعالى كما قـال رسول الله ﷺ:

«مَا تَحَابَّ رَجُلَانِ فِي اللهِ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَفْضَلَهُمَا أَشَدُّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»(١).

يعني: كان الأكثر حبًّا عند الله تعالى هو الأكثر محبة لأخيه في الله تعالى.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده [٦/ ١٤٣]. قال المنذري في الترغيب [ح: ٤٥٦٩] الطبعة العلمية: «رواته» أي رواة أبي يعلى «رواة الصحيح، إلا مبارك بن فضالة». والحاكم بنحوه [٧٣٢٣] العلمية، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قال الذهبي في التلخيص: «صحيح». كلاهما يرويه عن أنس بن مالك ﷺ يرفعه.

الفصل الثاني

حَظّ العبدِ من اسم الله تعالى « الودود »

- آثار المودة.
- حظ العبد من اسم الله تعالى « الودود ».
- محبة الله تعالى:
  - كيف يحب العبدُ ربَّه جل وعلا؟
  - علامات محبة العبد لله تعالى.

آثار المــودة

من آثار المودة أنك إذا وَدِدتَ شخصًا - يعني إذا أحببته - فإن من آثار هذه المحبة ومن علاماتها أنك تريد له الخير، وأنك تحبه كما تحب نفسك، أو لعلك تُؤْثره على نفسك كذلك، وأنك تقوم بمصالحه وتقضيها له حتى ولو لم يعلم بذلك، وأنك تعرف ما يحبه فتسارع إليه، وتعرف ما يكرهه فتمتنع منه ولا تعمل به، وأنك كثيرًا ما تُثني عليه وعلى أخلاقه وصفاته، وكثيرًا ما تذكره بالخير، وأنك تواسيه إذا كان يستحق المواساة، وأنك تفرح له في أمور السرور وتشاركه فيها.

ونُفَصِّل بعض المعاني السابقة بعض الشيء..

الأثر الأول: محبة الخير لجميع الخلق والإحسان إليهم

«الودود» هو الذي يحب الخير لجميع الخَلْق؛ لأن المودة تدعي ذلك؛ فلا يمكن أن يقال: هذا يحب فلانًا وهو يكره له الخير، أو لا يساعده في مصالحه، أو لا يفرح له في السراء، أو لا يذكره بأمور المحبة التي تدل على أنه يوده ويحبه ويقبل عليه، أو أنه يقاطعه أو أنه يصبر عن رؤيته، أو غير ذلك من مشاهد المحبة وآثارها، فلا توجد المحبة إذن.

وهذه الخصلة من الخصال المفقودة بين المؤمنين اليوم؛ فإذا مرض أحدُهم فلا يسأل عليه أحدٌ حتى يراه فيسأله أين كنتَ! أو يأتي عليه الفرح فلا يبارك له أحدٌ، ومعظم العلاقات على هذا النحو لأنه لا وقت لأخيه عنده، فهذه مسألة من المسائل التي يود النبي ﷺ لأهل الإيمان أن تتغير فيهم، وقد تغيرت بالفعل في المؤمنين المتقين الأُوَل،

وذكرها العلماء في شرح اسم تعالى المشرف «الودود» في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، يعني: يحبون مَنْ هاجر إليهم من أصحاب النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، والمحبة المذكورة هنا يستدل بها العلماء على عموم مسألة المحبة. لَـمَّا ذهب الصحابة المكرمون من مكة إلى المدينة مهاجرين- وقد تركوا ديارهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم لله تعالى- واستضافهم إخوانهم من الأنصار يقاسمونهم أرضهم وديارهم وأموالهم ونساءهم، ولم يستثقلوا شيئًا من ذلك[1]، لما فُتح على بعض المهاجرين شيءٌ من الدنيا قال تعالى عن الأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، يعني: ليس عندما فُتح على المهاجرين بشيء من الدنيا قال الأنصار: «يكفي هذا، فليذهبوا وشأنهم، لقد فعلنا معهم ما بوسعنا، ونحن قاسمناهم أموالنا..» لا: لمْ يقولوا ذلك، بل قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، يعني: مما آتاهم الله تعالى لهؤلاء المهاجرين، بل زيادة على ما سبق قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

---

(١) انظر مثلًا إلى ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [٣٧٨١]: عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ المَالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ».

(٢) قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم حاجة، أي: يُقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ ﷺ: **جُهْدُ المُقِلِّ**».

والمؤمنون اليوم - إلا من رحم الله - لا يُؤْثرون ولا يحبون ولا يودون ولا يزورون ولا يسألون ولا يفتقدون ولا شيء من ذلك! هل هناك أحد اليوم يقوم بشيء من واجبه تجاه إخوانه؟! بل على العكس، ينتظر إخوانه ليقوموا له بحقوقه، ويحزن منهم ويقاطعهم ويتأفف من قولهم ومن فعلهم، يقول: «وقفت معه في السراء وفي الضراء، وعندما

أخرجه الإمام أحمد [٢/ ٣٥٨]، وصحح إسنادَه الشيخُ شعيب في تحقيق المسند. وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف اللهُ بقوله: ﴿**وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ**﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله: ﴿**وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ**﴾ [البقرة: ١٧٧]. فإنَّ هؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام: تصدق الصديق ﷺ بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**»، فقال: «أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ». وهذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه ﷺ يوم اليرموك، فكلٌّ منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مُثْقَل أحوجُ ما يكون إلى الماء، فردَّه الآخرُ إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم.. رضي الله عنهم وأرضاهم.

وأخرج البخاري [٣٧٩٨] عن أبي هريرة ﷺ قال: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ. فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللهُ؟** فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا. قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلاَّ قُوتُ الصِّبْيَةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ، وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ.. فَفَعَلَتْ. ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **لَقَدْ عَجِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ**. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾». وفي رواية لمسلم تسميةُ هذا الأنصاري بأبي طلحة ﷺ. انظر - بتصرف كثير جدًّا: تفسير الإمام الحافظ ابن كثير ﷺ - تفسير الآية التاسعة من سورة الحشر.

حدث معي ما حدث لم أجده بجانبي»... إلى آخره. وكل هذه الأخلاق ينبغي المسارعة في إصلاحها، فبصلاح هذه الأخلاق تصلح نفوس أهل الإيمان؛ لأن الإيمان لا يتأتَّى إلا بالسماحة وسلامة الصدور لإخوانهم. وهذه السماحة هي التي بها يصلي المرء، وبها يصوم، وبها يتصدق. فإذا كانت نفسُه كزَّةً[1] فإنها لا يخرج منها صلاة ولا جهد لله تعالى ولا صيام ولا غيره. وإذا خرجت من نفسه هذه الأعمال من أعمال الطاعة والإيمان خرجت على الاستثقال والضجر، وسرعان ما يتخلص منها وكأنها جبل على ظهره: هذه الصلاة يريد أن يخلص منها بسرعة، والصيام: متى يفطر؟! والقيام: يود أن ينام ولا يقوم، وإن قام فمتى ينتهي من حزبه لينام؟ وكل أعمال الدنيا وراحتها وسعتها ودَعَتِها[2] يُفَضِّله ويحبه ويقدمه على ما يكون سبب رُقِيِّه ورفعته وعلو درجته عند الله تعالى. لذلك فإن «الودود» هو الذي يحب الخير لجميع الخَلْق، فيحسن إليهم، هذه الأولى، ويثني عليهم، وهذا هو..

<u>الأثر الثاني</u>: الثناء على الخَلْق

و«يُحسِن إليهم» غير «يُثْنِي عليهم» في المعنى؛ فقد تَجِدُ بعضَ النفوسَ تُحْسِنُ.. نعم، أما أن تُثني وتمدح.. فلا! نَفْسُ أحدِهم لا تجود بالثناء! لا يريد أن يقول: «فلان هذا طيب»، أو: «عليه سِيمَا الخير»، نفسه شحيحة بأن يُثني على إخوانه بشيء قد فَضَّلَهم اللهُ

(١) «الكَزُّ»: الذي لا يَنْبَسِط، و«رجلٌ كزٌّ»: قليلُ المؤاتاة والخير، و«رجلٌ كزُّ اليدين» أي: بخيل. اهـ من «لسان العرب»، مادة: [ك ز ز].

(٢) «الدَّعَة»: الخَفْضُ -يعنى السكون. تقول منه: «وَدُعَ الرُّجل» بضم الدال، فهو «وَدِيعٌ»، أي: ساكن. و«وَادِعٌ» أيضًا. انظر- بتصرف: مختار الصحاح، مادة [و د ع].

به، أو بشيء قد رَفَعهم الله تعالى به، وهذا يدل على سوء هـذه النفـوس وعلى خبث هـذه الطوايا كما يقول أهل العلم. أما الودود فهو الذي يحسن إلى الخلق ويثني عليهم.

اللهُ تبارك وتعالى وهو خالقُ العباد ورازقُهم ومحييهم ومميتُهم، وهو الذي أعطاهم، وهو الذي وسَّع عليهم، وهو الذي رزقهم المال والولد والطاعة، يُثني على عباده ﷻ قائلًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ويقول: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]. ويقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الأثر الثالث: الإنعام على سبيل الابتداء

ونذكر كلام الإمام الغزالي[1]..إذ له رأي في هذا الاسم المشرف، حيث يقول ؒ:

---

(١) الشيخُ، الإمامُ، البَحْرُ، حُجَّةُ الإسلام، أُعجوبةُ الزمان، زَيْنُ الدِّين، أبو حامِد محمدُ بن محمدِ بن محمد بن أحمد الطُّوسِيُّ، الشافعيُّ، الغزَّاليُّ، صاحبُ التصانيفِ والذكاءِ المفرِط. لَازم إمامَ الحرمينِ، فبَرَع في الفقه في مدةٍ قريبة، ومَهَر في الكلام والجدل حتى صار عَيْنَ المُناظِرين، وأعاد لِلطَّلبة، وشَرَع في التصنيف. تَولَّى تدريسَ نِظامِيَّة بغداد وسِنُّه نحو الثلاثين فقط، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سَيَلانُ ذهنه في مضايق الكلام، ومزالِّ الأقدام، ولله سِرٌّ في خَلْقه. مولدُه سنة خمسين وأربع مائة. صَنَّفَ: «البَسِيط» و«الوَسِيط» و«الوَجِيز» و«الخُلاصة» و«الإحْياء»، وأَلَّفَ: «المُسْتَصْفَى» في أصول الفقه، و«المَنْخُول» و«اللُّباب» و«المنتحل في الجدل» و«تهافُت الفلاسفة» و«مَحَكّ النظر» و«مِعيار العِلْم» و«شرح الأسماء الحسنى» و«مِشكاة الأنوار» و«المُنقِذ من الضلال» و«حقيقة القَوْلَيْنِ» وأشياء... قال الإمام الذهبي ؒ: «أما (الإِحْيَاء) فَفِيه من الأحاديث الباطلة جُملةٌ، وفيه خيرٌ كثير لولا ما فيه من آدابٍ ورُسومٍ وزُهْدٍ من طرائِق الحكماء ومُنْحَرِفي الصُّوفية، نسألُ اللهَ علمًا نافعًا. تدري ما العلم النافع؟ هو ما

«إن الودود قريب من معنى الرحيم، ولكن الرحيم يستدعي مرحومًا ضعيفًا يحتاج إلى الرحمة»[1]، يعني: لا بُدَّ أن يكون هذا المرحوم مستحقًّا لهذه الرحمة، يعني ضعيفًا، تريد أن ترحمه بمال تواسيه منه، أو بموقف تقف فيه إلى جواره، أو أن تقوم له بمصلحة أو تخفف عنه عبئًا أو شيئًا. أما الودود فإنه لا يستدعي مودودًا ضعيفًا، بمعنى أن الودود يودّ كلَّ الناس استحقوا أو لم يستحقوا، محتاجين أو غير محتاجين، ضعفاء أو غير ضعفاء؛ لذلك كان هذا المعنى معنًى جليلًا؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ

نَزَل به القرآن، وفسَّره الرسولُ ﷺ قولًا وفعلًا، ولم يأت نهيٌ عنه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». فعَلَيْكَ يا أخي بتدبُّر كتاب الله، وبإدمانِ النظر في «الصحيحين» و«سُنن النسائي»، و«رياض» النووي و«أذكاره»، تُفْلِح وتنجح. وإياكَ وآراءَ عُبَّادِ الفلاسفة، ووظائِفَ أهلِ الرِّياضات، وجُوعَ الرُّهبان، وخُطَّابَ طَيْشِ رءوسِ أصحاب الخَلَوات، فكلُّ الخير في متابعة الحَنِيفيَّة السَّمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدِنا إلى صراطك المستقيم». تُوفي سنة خمسٍ وخمسِ مائة، وله خمسٌ وخمسون سنةً، ودُفن بطُوس. وعليه في كُتبه الأخرى انتقادات؛ ذَكَر بعضًا منها الإمامُ الذهبي في السِّير وانظر التنبيه الذي في الحاشية التالية على كتابه «المقصد الأسنى». فرَحِمَ اللهُ الإمامَ أبا حامد، فأَيْنَ مثلُه في علومه وفضائله؟! ولكن لا نَدَّعِي عِصْمَته من الغَلَط والخطأ، ولا تقليدَ في الأصول. انظر - بتصرف واختصار: «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي رحمه الله [ج١/ ص٣٢٤-٣٤٦] طبعة الرسالة.

(١) انظر: المقصد الأسنى للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله [ص١٠١، ١٠٢] - بتصرف.

تنبيه مهم: سبق التنبيه أكثر من مرة أنَّ في هذا الكتاب للإمام الغزالي والكتاب الأسنى للإمام القرطبي رحمهما الله تعالى، وغيرهما تأويلًا في الأسماء والصفات على مذهب الخلف، وأننا لا نذكرها أثناء الشرح تقريرًا لمذهب السلف، لذا : فمَنْ يقرأ في هذه الكتب فعليه أن يقرأ ما نذكره فقط، مع ملاحظة أننا في أحيان قليلة نذكر عبارة المصنف أثناء الشرح ثم نذكر عقيدة السلف الصالح من إثبات الصفات بغير تشبيه أو تمثيل أو تأويل أو تعطيل.. على سبيل التنبيه.

﴿رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠]. وهي من الآيات القليلة التي قُرن فيها اسمه تعالى «الرحيم» باسمه تعالى «الودود» كما ذكرنا في شرح اسمي الله تعالى «الرحمن» و«الرحيم»[1]. معظم الآيات يقول: «الرحمن الرحيم»، «الغفور الرحيم»، «البر الرحيم»، إلا هذه الآية يقول فيها ﷻ: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ فلماذا قدم الرحمةَ على الودِّ؟

الجواب: لأن الرحمة من آثار المودة، فعندما يكون الإنسان ودودًا سيرحم الشخص الذي أمامه، فالإنسان المحب تتفجر الرحمة من قلبه على حبيبه، لذلك أخَّر المودة.

لكن لماذا قال: «ربي رحيم»؟

الجواب: لأنه ودود ﷻ؛ يحب الخير للخلق كلهم ويُحسن إليهم ويثني عليهم ويُعطيهم استحقوا أو لم يستحقوا، محتاجين أو غير محتاجين.

وهناك معنى آخر مهم نشير إليه كذلك في قوله ﷻ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠]، وهو أن الله تبارك وتعالى شديد المحبة لمن تاب إليه واستغفره ﷻ، وحيث ذكر في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] مما يُبيِّن شدة المحبة- ليست محبة فقط- لكن شدة المحبة حتى يعلم المرء قيمة التوبة عند الله تعالى، وقيمة الاستغفار لله جل وعلا، فإن التائب الذي يتوب إلى الله تعالى له أعلى الدرجات عند الله تعالى.

---

(١) شرح المؤلف هذين الاسمين المشرفين وما يتعلق بهما من الآيات القرآنية في عدة دروس عند بداية شرحه للأسماء الحسنى منذ أكثر من خمس سنوات تقريبًا، وهذه الدروس متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من المواقع على الشبكة العنكبوتية للمعلومات «الإنترنت»، فارجع إليها للفائدة.

وحكى ابن القيم رحمه الله[1]: «أن قَصَّابًا وَلِعَ[2] بجارية لبعض جيرانه. فأرسلها أهلُها إلى حاجة في قرية أخرى فتَبِعها فراودها عن نفسها فقالت: لا تفعل! لأنَّا أشد حبًّا لك مني، ولكني أخاف الله. قال: فأنتِ تخافينه وأنا لا أخافه! فرجع تائبًا فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقُه، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل فسأله فقال: ما لَكَ؟ قال: العطشُ. فقال: تعالَ حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية. قال: ما لِيَ من عملٍ فأدعوه. قال: فأنا أدعوه وأَمِّنْ أنتَ. فدعا وأَمَّنَ الرجلُ، فأظلتهما سحابةٌ حتى انتهيا إلى

---

(١) هو الشيخ الإمام العلَّامة ذو الفنون، شمسُ الدين أبو عبد الله محمدُ بنُ أبي بكر بن أيوب الزُّرَعيُّ الدمشقيُّ الحنبليُّ، المشهور بابن قيم الجوزية. تفقَّه بشيخ الإسلام تَقِيِّ الدين ابن تيمية، وكان من عيون أصحابه. وأفتى، ودَرَّس، وناظر، وصنَّف، وأفاد. كان جريء الجنان واسِعَ العلم عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، وغَلَب عليه حبُّ ابن تيمية رحمه الله، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هَذَّب كُتبه ونشر علمه، وكان له حظٌّ عند الأمراء المصريين، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أُهين وطِيف به على جَمَل مضروبًا بالدِّرة، فلما مات ابنُ تيمية أُفرج عنه. وكان رحمه الله ذا عبادةٍ وتهجُّدٍ وطُولِ صلاةٍ إلى الغاية القصوى، وتَأَلُّهٍ ولَهَجٍ بالذِّكْر، وشَغَفٍ بالمحبة، والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطِّراح بين يديه على عَتَبة عبوديته، لم يُشاهد مثله في ذلك، ولا رُئِيَ أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه. وقد امتحن وأوذي مرات. وحَجَّ مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة، وكثرة الطواف أمرًا يُتعجب منه. له مؤلفات كثيرة حافلة، منها: «مدارج السالكين»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«أعلام الموقعين»، و«بدائع الفوائد»، و«حادي الأرواح»، و«تهذيب سنن أبي داود». تُوفي رحمه الله سنة ٧٥١ هـ. انظر: «العبر في خبر من غبر»، «الدرر الكامنة»، «الوافي بالوفيات»، «ديوان الإسلام».

(٢) «وَلِعَ» بفلان «يلَعُ ويولَعُ وَلَعًا ووَلُوعًا»: تعلَّق به بشدة، فهو «وَلِعٌ» وهي «وَلِعَةٌ». انتهى من الوجيز– مادة [و ل ع].

القرية. فذهب القصَّاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه!! فرجع إليه الرسولُ فقال: زعمتَ أنْ ليس لك عمل وأنا الذي دعوتُ وأنت أمَّنْتَ فأظلتنا سحابة ثم تَبِعَتْكَ! لتُخبرني ما أمْرُك؟ فأخبره. فقال الرسول: إنَّ التائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس بمكانه»[1] يعني: إنَّ التائب أعلى مكانًا عند الله تبارك وتعالى من أي أحد آخر.

وكما أشرنا من قبل فإن أفعال الودود لا تستدعي مرحومًا ضعيفًا - كما في الرحمة - وإنما الإنعام على سبيل الابتداء من علامات المودة، أو من نتائج الوُدِّ.

حظ العبد مِن اسم الله تعالى «الودود»

وهي المسألة التي تتعلق بحظ المؤمن من هذا الاسم، لقد علمتَ أن الله تعالى هو الودود وأنه يُحِبُّ الخير للناس ويُحسن إليهم ويُثني عليهم، وأنه ﷻ يثني ويعطي ابتداء من غير احتياج للذي أمامه، وأن الإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود، فما حظك من هذا؟

وأول هذه الحظوظ[2]: أن تعلم أن الودود من عباد الله تعالى من يريد لخَلْق الله تعالى كلَّ ما يريده لنفسه[3]. **والثاني**؛ وهو أعلى من الأول: مَنْ يُؤْثِرُهم على نفسه، كما قال الله

(١) انظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تأليف الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله. ص٤٥٠ - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - سنة ١٤٠٣هـ،١٩٨٣م.

(٢) انظر- بتصرف كثير: «المقصد الأسنى» ص١٠١، ١٠٢.

(٣) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» . أخرجه البخاري [١٣]، واللفظ له، ومسلم [٤٥] وغيرهما.

تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

والمؤمنون اليوم - إلا من رحم الله - ليسوا في درجة الإيثار تلك. فهذه الدرجة قد مات أهلها من زمان بعيد، وكأنّ الإيثار هذا قد انتهى! نحن نجاهد للتحقق بالدرجة الأولى من درجات حقوق المسلم على أخيه المسلم، وهي: أن يُسلِّم عليه إذا لقيه، وأن يعوده إذا مرض، ويفتقده إذا غاب، ويُشَمِّته إذا عطس، ويمشي في جنازته إذا مات؛ هذه هي الدرجة الأولى من درجات حقوق المسلم. والدرجة الثانية من الحقوق: أن يُحِبَّ له ما يحب لنفسه. والدرجة الثالثة: أن يُؤْثِرَه على نفسه.

فدعونا نَكُنْ في درجة من هذه الدرجات الدنيا، الأُولى لنقوم بها ثم تجاهد أنفسنا على الثانية، ودرجة الإيثار مفتوحة لمن أراد أن يتنافس في طريق الخير إلى الله تعالى، وفي الترقي عند الله تعالى، وفي إرادة محبة الله له جل وعلا، فإنه إنْ أحب الله تعالى على هذه الحال فإنه يوشك أن تكون درجته على هذا العلو عند الله تعالى.

قال الإمام أحمد[1] رحمه الله فيما صحَّ عنه: «وددت لو قُرض جسمي بالمقاريض وأنَّ الناس أطاعوا الله تعالى». لذلك ينبغي أن يكون المرء على هذا البذل، وعلى هذا الشعور

(١) هُوَ الإِمَامُ حَقًّا، وَشَيْخُ الإِسْلَامِ صِدْقًا، أَبو عَبْدِ الله أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ الذُّهْلِيُّ، الشَّيْبَانِيُّ، المَرْوَزِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَعْلَامِ. صاحب «المسند» و«الزهد» وغير ذلك. كان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة. وُلِد فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَمائَةٍ. خُرِج به من مرو حملًا، ووُلد ببغداد ونشأ بها. ومَاتَ أَبُوْهُ شَابًّا فَوَلِيَتْهُ أُمُّهُ وَرُبِّيَ أَحْمَدُ يَتِيمًا. طَلَبَ العِلْمَ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. وحجَّ خَمْسَ حِجَجٍ، مِنْهَا ثَلَاثٌ رَاجِلًا. قَالَ إِبْرَاهِيْمُ الحَرْبِيُّ: «رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ الله، كَأَنَّ

بمحبة الخير للناس، وأن يكون محبًّا لهم كما يحب لنفسه، وأن يُؤثرهم على نفسه، خاصة في أمور الآخرة، ولو أدَّى به ذلك إلى أن يُقرض بالمقاريض.

وكمال هذا المعنى - أي: معنى إرادة الخير للناس -: ألا يمنعه عن الإيثارِ والإحسانِ الغضبُ والحقدُ وما ناله من الأذى، وهي مسألة مهمة، قلَّ في أهل الإيمان اليوم مَنْ لا يقع فيها حتى ولو كانوا قد تحققوا بشيء من درجة الإيثار. ولا بُدَّ أن يفكر فيها الناسُ تفكيرًا جيدًا؛ لأن أحوال المؤمنين اليوم على العكس من ذلك تمامًا؛ لأنه إن كان المرءُ يُحسن لشخصٍ ما فإنْ أذاه هذا الشخص منع إحسانه منه، أو كان يعامل أحدًا بمعاملة الأخلاق الكريمة العالية التي نتكلم عليها في معنى الودود، فإذا أغضبه قَطَعَ عنه صِلَتَه وإحسانه وقاطعه ودابره ولعله أن يتشاجر معه وأن يتطاول عليه.

لذلك نكرر هذا المعنى مرة أخرى حتى يحفظه المتقون: كمال هذه الدرجة ألا يمنعه الغضبُ والحسدُ والإيذاءُ عن تمامِ الإحسان، واستمرارِ الإحسان، والإيثارِ لهؤلاء الذين يحسن إليهم.

اللهَ جَمَعَ لَهُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ». وقال الشافعي ﷺ: «خرجت من بغداد فما خلفتُ بها أفقه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم منه». وقال أبو زرعة الرازي: «كان أحمدُ يحفظ ألف ألف حديث»! قيل: «وما يُدريك؟» قال: «ذاكرتُه فأخذتُ عليه الأبواب». قال ابن حبان في الثقات: «كان حافظًا متقِنًا فقيهًا ملازمًا للورع الخفي، مواظبًا على العبادة الدائمة، أغاث اللهُ به أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذاك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه لله حتى ضُرب بالسياط للقتل فعصمه الله تعالى عن الكفر وجعله عَلَمًا يُقتدى به وملجأً يُلجأ إليه». مات ببغداد يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين، وحضر جنازته أكثر من ثمان مئة ألف نَفْس. انظر - بتصرف: «طبقات الحفاظ»، و«سير أعلام النبلاء»، و«تهذيب التهذيب».

وتَحقُّق المرء بهذه الدرجة إنما يكون بالمجاهدة، بأن يُصفِّي نفسه ويُهذِّبها حتى يصل إلى هذه الحالة الطيبة؛ لأنه إن حدث عكس ذلك دلَّ على أن المرء لم يكن مخلصًا في هذا الإحسان، وإنما كان محسنًا له حتى يناله منه شيء من ثناء أو مدح، فإن ناله منه تَنكُّر لفضله قَطَع إحسانه، أما إن كنت تحسن لله تعالى فلا يمنعك الغضب من أن تديم هذا الإحسان وتلك الصلة.

لذلك لما سأل عقبةُ بن عامر [1] ﷺ النبيَّ ﷺ قائلًا: يا رسول الله، أخبرني بفواضل الأعمال، فقال:

«يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكْ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكْ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكْ» [2].

---

(١) عُقْبَةُ بن عَامِرٍ الجُهَنِيُّ المِصْرِيُّ الإِمَامُ، المُقْرِئُ، أَبُو عَبْسٍ - وَيُقَالُ: أَبُو حَمَّادٍ، وَيُقَالُ: أَبُو عَمْرٍو، وَيُقَالُ: أَبُو عَامِرٍ، وَيُقَالُ: أَبُو الأَسَدِ - صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ. وَكَانَ عَالِمًا، مُقْرِئًا، فَصِيْحًا، فَقِيْهًا، فَرَضِيًّا، شَاعِرًا، كَبِيْرَ الشَّأْنِ، وكانت له السابقة والهجرة، مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّة، وهو أحد مَنْ جمع القرآن، وروى حديثًا كثيرًا. وفي صحيح مسلم عَنْ قَيْسِ بنِ أَبِي حَازِمٍ قال: «عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ: وَكَانَ مِنْ رُفَعَاءِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ».اهـ. شَهِدَ فَتحَ مِصْرَ، وَاخْتَطَّ بِهَا، وَوَلِيَ الجُنْدَ بِمِصْرَ لِمُعَاوِيَةَ، وَكَانَ عُقْبَةُ مِنَ الرُّمَاةِ المَذْكُوْرِيْنَ. وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِيِّ: «أَنَّ عُقْبَةَ كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالقُرْآنِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: اعْرِضْ عَلَيَّ. فَقَرَأَ، فَبَكَى عُمَرُ». مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِيْنَ. وَقَبْرُهُ بِالمُقَطَّمِ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٤٨]، قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني وأحد إسنادي إحمد ثقات». اهـ المجمع [ح: ١٣٦٨٩، ١٣٦٩٠] طبعة دار الفكر. والحديث حسَّنه أيضًا الشيخ شعيب في تحقيق المسند. وهناك روايات عديدة لهذا الحديث عن عليٍّ ﷺ وبعض الصحابة، لكن في إسنادها مقال كما بيَّن الهيثميُّ رحمه الله في مجمع الزوائد.

فتكون محبته لله جل وعلا هي التي دفعته للبذل والإحسان، وليس الذي دفعه للبذل والإحسان أنه ينتظر شيئًا من الخَلْق؛ لأنه لو انتظر شيئًا من الخلق لا يدل ذلك على إخلاصه لله تعالى، سواء بمدحهم له أو بإعطائهم إياه أو بدفع ذمهم عنه أو بدفع أذاهم عنه.. بل هو يعطي ويمنع، ويسارع إلى كل ذلك لله تعالى، وهو من علامات الإيمان كما ذكر النبي ﷺ[1]، وهو من فواضل الأعمال كما أشرنا في الحديث الشريف.

وحكى النبيُّ ﷺ عن نبيٍّ أن قومه أَدْمَوْهُ وهو يقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[2]. فلم يمنعه ﵇ سوءُ صنيعهم عن طلبه الهداية والإيمان لهم. وكما أمر ﷺ في حديث عقبة بن عامر الذي أشرنا إليه: «**صِلْ مَنْ قَطَعَكْ، وأَعْطِ مَنْ حَرَمَكْ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكْ**».

محبة الله تعالى

لَـمَّا ذكرنا المعنى الثاني من معاني «الودود» أنه بمعنى المحبوب، وأن المحبوب يعني الحبيب ﷻ، فلا بُدَّ من علامات تدل على أنك تحب الله تعالى.

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث الذي رواه أبو أمامة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَعْطَى لله وَمَنَعَ لله وَأَحَبَّ لله وَأَنْكَرَ لله فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ**». أخرجه أبو داود [٤٦٨١].

(٢) متفق عليه: البخاري [٣٤٧٧]، ومسلم [١٧٩٢] من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ يرفعه. قال الإمام النووي: «فِيهِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ صَلَوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِمْ مِنْ الْحِلْم وَالتَّصَبُّر، وَالْعَفْو وَالشَّفَقَة عَلَى قَوْمهمْ، وَدُعَائِهِمْ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَالْغُفْرَان، وَعُذْرهمْ فِي جِنَايَتهمْ عَلَى أَنْفُسهمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَهَذَا النَّبِيُّ الْمُشَار إِلَيْهِ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَقَدْ جَرَى لِنَبِيِّنَا ﷺ مِثْل هَذَا يَوْم أُحُد». اهـ. من شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم رحمهما الله تعالى.

ولكن قبل ذكر هذه العلامات، نشير إلى معنى مهم وهو:

كيف يحبُّ العبدُ ربَّه ﷻ؟

قال بعض أهل العلم: «وما أحسَّ أحدٌ حلاوةَ المحبة إلا بقطع العلائق عن قلبه» يعني: قد يسأل المرء: كيف تأتي هذه المحبة إلى القلب؟! والجواب: أن القلب لا يتسع للمحبتين معًا؛ لمحبة الله ومحبة الدنيا، فسبب المحبة الأول هو قطع العلائق عن القلب، ويكون ذلك بقطع أسباب الدنيا عن القلب؛ لأن الدنيا والآخرة لا يجتمعان؛ هما ضَرَّتَانِ[1]. وبالتالي إذا زاد حب الدنيا في القلب انخفض حب الآخرة، وكذلك إذا تعلق قلب المرء بشُعْبة من شعبها فإن شعبة من شعب قلبه قد تعلقت بحب غير الله تعالى، فإن تعلق بالمال أو الولد أو الأهل أو الجاه أو السلطان، فإن ذلك معناه أن زاوية من قلبه مشغولة بغير الله تعالى، مشغولة بما سوى الله تعالى، في قلبه مَن ينافسُ اللهَ تعالى في محبته، فهو تشويش ورانٌ على القلب وشُغْلٌ له وإفساد عن استكمال السير لتحقيق الإقبال على الله فضلًا عن محبته.

ونرجع إلى هذا السؤال المهم: كيف يُحِبُّ المرءُ ربَّه؟

الجواب: أول هذه الأمور التي تسبب محبة الله تعالى قطع هذه العلائق. والثاني: معرفته بربه. وهذا أمر يطول شرحه، وله مجال آخر، ونختصر ذلك بذكر علامات المحبة.

(١) «ضَرَّةُ» المرأةِ: امرأةُ زوجِها. اهـ. مختار الصحاح، مادة: [ض ر ر].

علامات محبة العبد لله تعالى

في «محبة الله تعالى» عدة مسائل؛ المسألة الأولى: أسباب محبة الله تعالى[1] والثانية: علامات محبة الله للعبد. والثالثة: علامات محبة العبد لله.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة؛ **أحدها**: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبدُ ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه. **الثاني**: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة. **الثالث**: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر. **الرابع**: إيثار محابِّه على محابّك عند غلبات الهوى والتَّسَنُّم إلى محابه وإن صعب المرتقى. **الخامس**: مُطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف اللهَ بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. **السادس**: مشاهدة بِرّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته. **السابع**: وهو من أعجبها - انكسار القلب بكُلِّيته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات. **الثامن**: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة. **التاسع**: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك. **العاشر**: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل. فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق». انتهى - بتصرف - من «مدارج السالكين»، [ج٣/ ص١٦، ١٧] طبعة دار الحديث - سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م. وعلى المرءِ الراغب في نيل محبة الله تعالى أن يجاهد نفسه للتحقق بهذه الأسباب حتى ينال محبة الله تعالى.

ومحبة العبد لله تعالى هي الدعوى التي يدَّعيها كل أحد، أليس كذلك؟ كل أحد يدعي محبة الله، ولكن انظر إلى هذه العلامات التي أوردناها سريعًا لترى حقيقة ما نحن فيه والتي أشرنا إليها على سبيل الإجمال استكمالًا لهذا الكلام في معنى الودود ﷻ، وحتى تسود أخلاقَ المؤمنين المودةُ ومحبةُ الخير ومحبةُ الله تعالى ومحبةُ الرسول ﷺ ومحبةُ الصالحين، وأن تكون هي المحبة الخالصة، التي هي أرق المحبة وألطف المحبة وأجمل المحبة التي تتفجر بالخير لكل أحد، إحسانًا وثناءً، ومدحًا وعطاءً، وإيثارًا... كما ذكرنا، ولا يكون المرء مؤمنًا حقًّا إلا أن يتفكر في أن يتحقق بهذه العلامات؛ وإليك إياها.

العلامة الأولى: حُبُّ لقاء الله تعالى

وهذا المعنى ذكره النبي ﷺ في قوله: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهَ لِقَاءَهُ**»[1]، فإن أول دليل على هذه المحبة أنه يحب أن يلقى الله تعالى، وما يتمنى أن يؤخر هذا اللقاء إلا ليتهيأ له، ليقابل محبوبه ﷻ على أحسن حال من التوبة والعمل الصالح وإعداد الزاد، وعلامةُ من يتمنى ذلك أنه دائبُ الخدمة والنشاط في القيام بما يحب حبيبه، أما أن لا يريد لقاء ربه ويتمنى الأماني على الله تعالى، مع التقصير والتكاسل، فليس هو ممن يحب لقاء الله، ويسمي العلماء هذه الحالة بحالة التائب.

العلامة الثانية: أن يُؤْثِر ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه

أما أن تُؤثر النومَ والأكل والشرب والمال والولد على الطاعة والعبادة والصيام والقيام والسعي إلى الله تعالى، فليس ذلك دليلًا على محبة الله، وإنما دليلٌ على تقديم هذه

(١) متفق عليه: البخاري [٦٥٠٧]، ومسلم [٢٦٨٣] من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ يرفعه.

الأعراض الزائلة على محبة الله تعالى، ودليل على تقديم راحة البدن الفاني؛ فتلك العلامة تقتضي من العبد أن يُلزم نفسه مشاقَّ العمل الذي كثر ثوابه، وهي مشقة من العبد بغير تكلُّف، يلزم نفسه العمل الذي يظهر صدق محبة الله تعالى، كما كان أهل الإيمان يقومون لله تعالى ذلك القيام الطويل وذلك الصيام الكثير الشاق ويجاهدون لله تعالى، ويؤثرونه على أنفسهم وأولادهم وديارهم وأموالهم وأوطانهم؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

تلك الأعمال الشاقة تبين المحبة لله تعالى؛ لأنها ليست شاقة على الحقيقة، بل هي نعيم الروح وسعادة القلب وقرة العين، ثم يَجْتَنِبُ اتِّباعَ الهوى، ويُعْرِض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على الطاعة، متقربًا إليه بالنوافل، طالبًا منه مزيد الدرجات العالية عنده ﷻ، فإنه إذا وصل إلى هذه الحالة فإن الله تعالى يحبه ويتولاه وينصره على أعدائه - وأول أعدائه نفسه وشيطانه وهواه - كما قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

أنت محتاج إذن إلى أن يكفيك الله تعالى شر نفسك وشيطانك وهواك، وأن يكفيك أعداءك في الداخل والخارج، وكل ذلك لا يتحقق إلا بمحبته، ومحبته ﷻ أن تُقَدِّم ما أَحَبَّ على ما تُحِبُّ، حينئذٍ يتولاك:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

العلامة الثالثة: أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى

«مستهترًا» يعني: لا يفتر لسانه عن ذكر الله[1]، فهو كثير الذكر ودائم الذكر لله تعالى. وهذا علامة المحبة، ألا يخلو عنه قلبه، وعلامة حب ذكره ﷻ محبة القرآن؛ لأنه أفضل الذكر وهو كلامه ﷻ، ثم محبة رسوله ﷺ، ومحبة كل مَن ينتسب إليه جل وعلا.

العلامة الرابعة: أن يكون أُنسه بالخلوة والمناجاة لله تعالى

أن يأنس بمناجاة الله تعالى، وأن يخلو به، وهذه علامة المحبة، أما أن يكون متشوشًا كل أنسه وخلوته بالناس والأكل والشرب والنوم والشهوات والملذات. فأين أنسه بربه؟ وأين خلوته به؟ وأين مناجاته له؟ وأين تضرعه إياه؟ وأين دعاؤه لربه؟ وأين ذكره له؟ وأين طمأنينته به؟ وأين سكينته عنده؟ فمَن يَدِّعي شيئًا غير ذلك فلم يسلك بَعْدُ طريقَ محبة الله تعالى[2]..

---

(١) وأصل «الاسْتِهْتارِ»: الوُلوعُ بالشيء والإفراط فيه حتى كأنه أُهْتِرَ أي خَرِفَ، وفي الحديث: «**سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**. قالوا: وما المُفَرِّدُونَ؟ قال: **الَّذِينَ أُهْتِرُوا فِي ذِكْرِ الله. يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافًا**». و«المُفْرِدُونَ»: الشيوخُ الهَرْمى، معناه: أَنهم كَبِرُوا في طاعة الله وماتت لَذَّاتُهم وذهب القَرْنُ الذين كانوا فيهم. ومعنى «أُهْتِرُوا في ذكر الله» أي: خَرِفُوا وهم يذكرون الله. يقال: خرف في طاعة الله، أَي: خَرِفَ وهو يطيع الله. و«المُفَرِّدُونَ» يجوز أن يكون عُنِيَ بهم: المُتَفَرِّدُونَ المُتَخَلُّونَ لذكر الله. و«المُسْتَهْتَرُونَ»: المُولَعُونَ بالذكر والتسبيح. وجاء في حديث آخر: «**هُمُ الَّذِينَ اسْتُهْتِرُوا بِذِكْرِ الله**»، أَي: أُولِعُوا به. يقال: «اسْتُهْتِرَ بأَمر كذا وكذا» أَي: أُولِعَ به لا يتحدّثُ بغيره ولا يفعلُ غيرَه. اهـ - بتصرف - من «لسان العرب»، مادة: [هـ ت ر].

(٢) لا نقصد المحبة التي يثبت أصلها بالإيمان.

لذلك قال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] ..

يعني: انقطع إليه انقطاعًا: أن يكون أنسه به، فيواظب حينئذ على ما يكون سببًا للنجاة بالمناجاة والخلوة ويواظب على التهجد ويغتنم ساعات الليل وصفاء النفس وهدوء الناس؛ ليناجي ربه، وليتهجد له، ويتملقه، ويتلو آياته.

لذلك يقول أهل العلم:

«ومهما أَنَسَ بغير الله تعالى كان ساقطًا عن محبته» لأنه مهما استأنس بالخلق استوحش من ربه، مهما استأنس بالمال أو بالدنيا أو بالجاه أو بالنساء والشهوات أو بغير ذلك كان ساقطًا عن درجة المحبة؛ لأنه لا يكون محبًّا إلا أن يأنس بمحبوبه وحبيبه على الحقيقة تبارك وتعالى.

العلامة الخامسة: أن يَعْظُم تأسفه على فوت حظه من ربه وألا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله

على عكس ما نحن فيه اليوم!..

أن يفوته من ربه ما شاء فلا يتأسف ولا يندم ولا يبكي ولا يتحسر ولا تظهر عليه علامات الحزن..

أما أن يفوته شيء من الدنيا إذا به متأسف وباكٍ ومتألم ومتضجر وشاكٍ لما فاته!

وعلامة المحبة أنه لا يتأسف على شيء فاته مما سوى الله، فإنَّ ذلك دليل على أنه لا يحب ربه المحبة الكافية، لأن ذلك سبيل الإصلاح وتعظيم ما يمت للرب بصلة.

العلامة السادسة: أن يتنعم بالطاعة وألا يستثقلها، وأن يسقط عنه تعبها

المحب يقف لحبيبه ويتعب له ويمشي له ويقضي له حوائجه ومع ذلك لا يشعر بتعب ولا مشقة، المحب لله تعالى كذلك، يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبُها. والمرء إذا أحب إنسانًا قد يتحدث معه بالساعة والساعتين لا يريد أن يتركه، بالرغم من كونه عبدًا مثله، فما بالك بمن يُحِبُّه على الحقيقة وهو ربه جل وعلا؟! «**ونبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه**»[1] من طول القيام.

العلامة السابعة: أن يكون مشفقًا على جميع عباد الله

وهذا المعنى قد ذكرناه في معنى الودود أنه هو الذي يحب الخير لكل أحد: المسلمين لا كلام فيها، والكافرين أن يحب لهم الخير، يعني: أن يحب لهم الإيمان؛ لأنه يحب ربه ﷻ، فيحب للناس أن يعبدوا الرب جل وعلا، ويُحْزِنه أن يَكْفُرَ به أحد، أو أن يعصيَه أحد، أو أن يفسق عن أمره أحد. يحزنه ويؤلمه أن يرى المعاصي تقع في حق الربِّ محبوبه ﷻ، كأن رأيت من يَضْرب محبوبَك أو أن يشتمه أو كذا أو كذا، فتثور له وتقوم له وتفعل ما يمكن أن تفعله حتى تُجَنِّبَهُ ذلك، ولله المثل الأعلى ﷻ. وأن يكون العبد رحيمًا بالمؤمنين شديدًا على جميع أعداء الله تعالى، كما قال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا مختصر لمسألة المحبة.[2]

---

(١) أخرجه الإمام البخاري موقوفًا على السيدة عائشة ﵂ [٤٨٣٧]، وقولها ﵂ «تَتَفَطَّر» أي: تَتَشَقَّق.

(٢) وقد ذكرنا «محبة الله تعالى» وعلاماتها وما يتعلق بها بشيء من التفصيل مع ذكر الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة عليها في رسالة: «ماذا بعد رمضان» ص٤٦ – ٨٦. الطبعة الثانية. فارجع إليها للأهمية.

وقد ذكرنا شيئًا من معنى «الودود» الذي ينبغي أن يتعبد المؤمنون اللهَ تعالى بـه، وأن يدعوا الله تعالى به. يعني: أن يدعوا الله تعالى بالودود أن يودَّهم وأن يُحبَّهم وأن يُيسر لهم أسباب المحبة وأن يُعينهم على حبه، كما ورد في حديث النبي ﷺ: «**أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»(١).

وكان من دعاء داود عليه السلام أن يكون حب الله تبارك وتعالى له أحب من كل شيء حتى من الماء البارد؛ فقد ورد عن رَسُول الله ﷺ أنه قال: «**كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنَ المَاءِ الْبَارِدِ**»(٢).

ينبغي إن أن يكون ذلك دعاء المؤمنين لله تعالى، وأن يكون ذلك حظهم من هذا الاسم المشرف، وأن تنقلب أحوال الناس هذه التي نحن فيها اليوم إلى أحوال أخرى جميلة، بها تصلح أحوال البلاد والعباد، ويكون الناسُ بها أقربَ إلى الله وأحب إلى الله، وأجدر حينئذ على نيل محبة الله تعالى لهم، فإن أحبهم المولى سبحانه وتعالى لا يعذبهم، كما قال جل وعلا: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ**﴾، فقال ردًّا عليهم: ﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾ [المائدة: ١٨]، لو أحبَّهم ما عذبهم، وهي - أي: المحبة - الدرجة العليا في الدين

---

(١) أخرجه الترمذي [٣٢٣٤، ٣٢٣٥] وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . سَأَلْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» اهـ . وقوله: «محمد بن إسماعيل» أي: الإمام البخاري صاحب الصحيح رحمه الله.

(٢) رواه الترمذي [٣٤٩٠] من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا. قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

التي ينبغي أن يتفقد المرء فيها قلبه وعبادته وطاعته، وأن يتفكر في فِعْله ومحبته لله تعالى وللمؤمنين وللخير، ويحزن ويتأسف على ما يفوته من ربه ﷻ[1].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) ونُذَكِّر إخواننا الكرام أنه ينبغي على طلبة العلم ألا يُخَلُّوا أنفسهم من مذاكرة العلم، فالمرء في أمور الدنيا يهتم بها، يعني: إذا كانت عنده محاضرة أو درس من دروس الدنيا يكتبه ويحاول أن يستفهمه وأن يسأل فيه وأن يعيده، ثم بعد ذلك إذا ذهب إلى البيت يذاكره، ويعيد مذاكرته، ثم بعد ذلك يحفظه ويستعد به للامتحان. أمور الآخرة ومعرفةُ الرب ﷻ أعظمُ من ذلك وأجلُّ. من لم يهتم لها هذا الاهتمام الذي يهتم به لأمور الدنيا لا يُحصِّل أمور الآخرة، ولا يحصل علم الآخرة. واللهُ تعالى عندما يجد أهله مقبلين عليه بقوة - كما ذكر ﷻ - يفتح عليهم ويُثيبهم ويُجزل لهم الثواب ويُثبِّت لهم العلم، ويُنَزِّل هذا العلم على قلوبهم علمًا نافعًا.



القسم الثالث

اسم الله اللطيف



مقدمة

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعدُ..

فهذا تفريغٌ لدرس شرح اسم الله «اللطيف» ﷻ، الذي ألقاه فضيلة الشيخ محمد الدبيسي - حفظه الله تعالى وعفا الله عنه - منذ خمس سنوات تقريبًا من سلسلة «شرح الأسماء الحسنى»، التي ما يزال يُلقيها حتى الآن.

وقد طُبع - بتوفيق الله تعالى - عدة دروس منها، ونرجو اللهَ تعالى أن يُتم طبع بقية الأسماء، حتى يستفيد إخوانُنا من المعاني العالية التي تحتويها تلك الدروس من معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ويتخلَّقوا - بما يليق بالعبد - منها، وأن يجتهدوا بها في توحيد الله تعالى ودعائه ومحبته والتعلق به. فندعو الله جل وعلا أن يكون طبعُ شرح تلك الأسماء الحسنى عونًا على ذلك، وأن يُلهمنا العلمَ والعمل جميعًا؛ حملًا لمسئولية هذا الدين وبذلًا لشيء من حق الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين علينا.

وآخِرًا؛ فإن محاولة الإسراع بطبع هذه الرسائل قد يُوقِع في أخطاء غير مقصودة، نتمنى تلافيها بعد ذلك، مع قبول النصح تصحيحًا لخطأ أو إصلاحًا لخلل، مع طلب الدعاء من أخٍ صالح استفاد شيئًا من ذلك يعينه على أمر آخرته.

وهو جُهد البشر المُقل، فما كان من صواب فمِن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، واللهُ ورسوله بريئان منه.

نبتهـل إلى الله أن ينفـع بـه كاتبـه وقارئـه ونـاشره والنـاظر فيـه، والله من وراء القصد.

مسجد الهدي المحمدي

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى « اللطيف »

- المعنى اللغوي
- معنى « اللطيف » في حق الله تعالى

هذا الاسم المشرَّف «اللطيف» من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وهذا الاسم سنذكر معانيَه وما يتعلق به من حق الله تعالى الذي يجب أن نُعَظِّمه ونوحِّده به ﷻ. ثم بعد ذلك يَعْلَم المرءُ حظَّه منه ويدعو اللهَ تعالى به. ثم نشير إلى معاني بعض الآيات الواردة فيه كما هو منهجنا في شرح أسماء الله الحسنى.

المعنى اللُّغوي[1]

مادة [اللام والطاء والفاء] تدل على معنيين رئيسيَّيْن:

الأول: مِن «لَطُفَ، يَلْطُف، لُطْفًا، ولَطافةً» أي: صَغُر ودقَّ، فهو «لَطِيفٌ» أي: دقيق الحجم، يعني: دَقَّ وصار لطيفًا في حجمه أو في جِرمه.

والثاني: «لَطَفَ - به وله -، يَلْطُف، لُطْفًا» أي: رَفَق به. نقول: «فلانٌ لَطَفَ بفلان» يعني: رفق به. ومنه قولهم: «لَاطَفْتُ العَلِيلَ، أُلَاطِفُه، مُلاطَفَةً» يعني: رَفَقْتُ به[2].

(١) انظر - بتصرف كثير: «مقاييس اللغة»، و«لسان العرب»، و«القاموس المحيط»، و«تاج العروس»، مادة: [ل ط ف]. و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للإمام القرطبي ﷺ، [ج١/ ص٢٣٠، ٢٣١].

(٢) الحاصل إذن أن هناك فرقًا بين «لَطُفَ» بضم الطاء و«لَطَفَ» بفتحها؛ «لَطُفَ» بمعنى: دَقَّ، من الدِّقة التي هي صِغَرُ الحجم، أو الشفافية بحيث يكون دقيقًا لا يُتَوصل إليه. و«لَطَفَ» بمعنى: أَحْسَنَ إليه ورَفَق به. والاثنانِ المضارعُ منهما: «يَلْطُف»، كما أن «لَطُفَ» - بالضم - مصدره: «لُطْفًا، ولَطافةً»، أما «لَطَفَ» - بالفتح - فمصدره: «لُطْفًا» فقط.

و«اللُّطْفُ» يَقْصِد به أهلُ اللغة: خَفاء المَسْلَك ودِقَّة المَذْهب.

يقال: «فلانٌ لطيفٌ» يعني: أنه يَتوصَّل لغرضه بالخِفَّة ويَسلُك إليه الطريقَ المَسْتور الذي لا يَتميَّزه الناسُ كثيرًا.

وقد يُعَبَّر بـ«اللَّطائف» عمَّا لا تُدْركه الحاسَّة.

و«اللُّطْف»[1] في وَصْف الله تعالى يفيد أنه: المحسِن إلى عباده في خَفاء وسِتر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسبابَ معيشتهم من حيث لا يحتسبون.

وقد يكون «اللُّطْف» بمعنى: البِرّ. يقول: «أَلْطَفَه» بمعنى: أَتْحَفَهُ، و«أَلْطَفَهُ بكذا» يعني: بَرَّه بكذا، أعطاه..

و«اللَّطَف» - بفتح اللام والطاء: الهدِية. نقول: «جاءتنا من فلان لَطَفَةٌ» يعني: جاءتنا من فلان هدية.

وكل هذه المعاني لا بد أن تَعلم أن الله تعالى مُتَّصِفٌ بها كما سترى، وهي: اللُّطفُ، والبِرُّ، ووصولُ الهدايا، ووصولُ الإحسان، والرِّفقُ إلى العباد في سِتر أو من حيث لا يحتسبون أو يعلمون... كلُّ ذلك اللهُ ﷻ مُتَّصِفٌ به، بل هو من أعظم أوصافه ﷻ، كما تدل الآيات الواردة في معاني اسم الله تعالى المشرف «اللطيف».

---

(١) على المعنى الثاني من المعاني التي ذكرناها، وهو من «لَطَفَ به - بالفتح - لُطْفًا» يعني: أَحْسَنَ إليه ورَفَق به.

معنى «اللطيف» في حق الله تعالى

«لَطَف اللهُ بالعبد لُطفًا» يعني: رفق به، «وأَلْطَفَهُ» يعني: بَرَّه. وكذلك «لَطَف به لُطْفًا» يعني: وَفَّقه وعَصَمه.

فيكون اللُّطف من الله تعالى هو: «التوفيق، والعصمة، وإيصال الخير». فيُوصِّل إليهم ﷻ إحسانَه وبِرَّه وألطافَه من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، كما ذكرت الآيات:

قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، حيث ترى العُسْرَ فإذا باليُسْر مُتوطِّنٌ به داخلٌ فيه.

وقوله أيضًا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠].

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ يعني: من إيمان قومهم، ﴿وَظَنُّوا﴾ أي: قومُهم، ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ يعني: ظنوا أن الرسل قد كُذبوا، وأنه لن يأتيَهم عذابٌ ولا شيء.. حيث كان الرسلُ يُحذِّرونهم ويُنْذِرونهم عذابَ الله تعالى، وتأخَّر عنهم عذابُ الله تعالى، ولكن بعد ذلك: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وهذا الاسم - «اللطيف» ﷻ - يدل صريحًا على مَن له لُطْفٌ، ويتضمن حينئذٍ جميعَ الصفات: كـ«العليم، والقدير، والسميع، والبصير...» وغير ذلك؛ لأنه لـمَّا لَطَفَ ﷻ بعبده أَوْصَل له فضلَه في سِترٍ وخَفاء، فإنه حينئذٍ يكون عليمًا بما يُوَصِّل إليه من بِرٍّ، وعليمًا بمَنْ يُوَصِّل إليه هذا البِرَّ، وكذلك قديرًا ﷻ في توصيل ذلك من حيث لا يحتسِب العبد، ولما كان كذلك فإنه سميعٌ بصيرٌ ﷻ.

و«اللطيف» أيضًا هو الذي يتناول الأمورَ برفقٍ ويَقْدِر على إنشائها وإتمامها برفق وحُسْنِ تناوُلٍ(١).

و«اللطيف» كذلك هو العالِم بدقائق الأشياء وغوامضها. فالله ﷻ أحقُّ بهذه الأوصاف كلها، فهو الذي انفرد بالإحاطة وتربية الجميع، وهو العالمُ بخَفِيِّ مصالحهم وتَدْرِيجِ أحوالهم وتنزيلِ كلِّ دقيقٍ منها ابتداءً وجزاءً على موافقة حُكْمه، فيكون «اللطيف» على هذا المعنى الأخير اسمًا ذاتيًّا للرب تعالى.

و«اللطيف» إنِ اعتُبِرت وصفًا جاريًا على «لَطُفَ» - بضم الطاء - فهي: صفةٌ مشبّهة، تدل على صفةٍ من صفات ذات الله تعالى، وهي صفةُ تنزيهه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواسِّ بذاته وصفاته.

فعَلِمنا إذًا عن الله تعالى من اسمه «اللطيف» هذه المعاني: الرفق، والبر، وإيصال الإحسان، والتوفيق والعصمة، والإحاطة والعلم بدقائق الأمور وغوامضها، وحُسْن

---

(١) وإلى بعض هذه المعاني السابقة أشار العلامة ابن منظور ﷺ في «لسان العرب»، فقال: «اللطيفُ صفةٌ من أسماء الله تعالى واسمٌ من أسمائه. وفي التنزيل: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]، وفيه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ومعناه - والله أعلم: الرفيق بعباده»؛ فهذا هو المعنى الأول. «قال أبو عمرو» وهو المعروف بغلام ثَعْلب: «اللطيفُ الذي يُوَصِّل إليك أَرَبَكَ في رِفقٍ» وهذا هو المعنى الثاني، والأَرَبُ: هو مَطْلَبُ الإنسان؛ يعني: اللطيف هو الذي يُوصِّل إليك مقصودَك أو طَلَبَك أو ما تبتغي في رِفقٍ. والمعنى الثالث: أنَّ «اللُّطْف من الله تعالى التوفيقُ والعِصْمة» اهـ- بتصرف يسير -، مادة: [ل ط ف]. وقد جعلنا كلام العلامة ابن منظور ﷺ بين تنصيص هكذا «...».

تناوُلِ الأمور والقدرة على إنشائها وإتمامها. وكذلك عَلِمنا تَضَمُّنَه جميعَ الصفات: كـ«العليم، والقدير، والسميع، والبصير...». فكلُّ ذلك إنما هو لله تعالى[١].

ونحن في حاجة وضرورة مُلِحَّة في الظاهر والباطن لمثل هذه المعاني والعطايا من الله تعالى، وقد فتح المولى لنا بابَها، وما علينا إلا أن نَدْعُوَ اللهَ بها، ونُوحِّده بها؛ لِنُحَصِّل هذا الفتح العظيم الذي يُحِبُّ اللهُ جل وعلا لعبادِه.

رأي الإمام الغزالي في معنى اسم الله تعالى «اللطيف»

وقبل أن نخوض في شرح الآيات، نذكر رأيَ الإمام الغزالي رحمه الله؛ لأنه أقربُ في توضيح هذه المعاني السابقة، وإنْ كان اسمُ الله تعالى «اللطيف» اسمًا عظيمًا لا يستطيع المرءُ أن يُحيط به، ولكنْ سنذكره لِيعلم المرءُ كيف أنه لا يحيط الناسُ بشيء من هذا الاسم المشرف[٢].

يقول الإمام رحمه الله: «إنما يَسْتَحِقُّ هذا الاسمَ مَن يعلم دقائقَ المصالح وغوامِضَها، وما دَقَّ منها وما لَطُف، ثم يَسْلُكُ في إيصالها إلى المُستحِقِّ سبيلَ الرِّفق دون العُنْف».

---

(١) وهذه المعاني ينبغي أن تحفظها لِتَعلم اتِّصافَ ربك تبارك وتعالى بذلك الاسم المشرف، وحتى تَعْلم شيئًا من عظمته؛ ليكون – أي هذا الاسم المشرف «اللطيف» – طريقًا لك إلى معرفة الرب جل وعلا وتوحيده.

(٢) انظر – بتصرف: «المَقْصِد الأَسْنى شرح أسماء الله الحسنى»، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، شرح اسمه تعالى «اللطيف» تبارك وتعالى، [ص٧٠-٧٢]، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية. وقد جعلنا أيضًا كلام الإمام رحمه الله بين تنصيص هكذا «...».

يعني: هو الذي يعلم مصالِحَكَ كلها من أولها إلى آخرها، وليست مصالحَكَ أنتَ فقط، ولكن مصالحَ الدنيا والآخرة والجن والإنس، والطير والحيوان والجماد والنبات، ومصالحَ كل خَلْقه، ويعرف الدقائقَ والغوامضَ والظاهرَ والباطنَ.. كلُّ ذلك يعلمه ﷻ، ثم يسلك سبيلَ الرفق - في إيصال هذه المصالح إلى مُستحقِّها - دون العُنْف. وانظر إلى بقية خَلْق الله ﷻ دون الإنس ترى صِدْقَ ذلك.

فإذا اجتمع الرفقُ في الفِعْل واجتمع معه اللطفُ في العلم، تَمَّ معنى اللطف. ولا يُتَصَوَّر كمالُ ذلك في العلم والفعل إلا لله ﷻ، فلا يُتَصَوَّر أن يعلم أحدٌ هذه الأمورَ وفوائدَها وأن يُوصلها إلى مُستحقِّها في رِفْقٍ.. إلا الله جلَّ وعلا.

أما إحاطتُه ﷻ بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك: لا يمكن لأحدٍ أن يُفَصِّل إحاطةَ الله تعالى بالدقائق والخفايا! أنتَ مثلًا أيها المسكين.. انْظُر إلى دقائق نفسك وخفاياك، تَعْلَمْ أنك لا تَعْلَمُ من نفسك شيئًا، يعني: لا تعرف أجهزتَك.. ولا ظاهرَك.. ولا باطنَك.. وما يَحْدُث لك.. وفيك، ولا إنْ حَدَث لك شيءٌ ماذا تفعل.. إنْ حدث لك شيءٌ سارعتَ إلى الطبيب أو إلى غيره تَسْتعين به، والطبيبُ إنْ حَدَث له شيءٌ سارَع إلى طبيبٍ آخر مثله... وهكذا. فلا يستطيع أحدٌ أن يحيط بشيء من هذه الدقائق والغوامض من تلك المصالح التي أصلح اللهُ تبارك وتعالى بها خلقَه على اختلاف أجناسهم: الإنسان والحيوان والنبات، وكل ذلك.

لذلك فالخَفِيُّ مكشوفٌ في علمه ﷻ كالجَلِيِّ، ولا فَرْق! فعند الله تبارك وتعالى ليس هناك خَفِيٌّ ولا جَلِيٌّ، بل كلُّه واحدٌ عنده ﷻ، واللهُ تبارك وتعالى مُطَّلِعٌ عليه، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؛ وهذا هو المعنى الأول الذي أشار إليه.

وأما الثاني: فهي رِفْقُه ﷻ في الأفعال التي فعلها في الدنيا وصوَّرها، وصوَّر الإنسانَ والحيوان والنبات، وخَلَقَ له رزقَه، وخَلَقَ له ما يُعينه، وترتيبَ ذلك، ونَفَسَه، وصدرَه، وقلبَه، وبطنَه، وكلَّ ذلك مما يتعلق بالإنسان وغيره في الدنيا والآخرة، وفي الظاهر والباطن، وفي السماء والأرض، وفي البحار..

فرِفْقُه في الأفعال ولُطْفه فيها لا يدخل أيضًا تحت الحَصْر؛ إذ لا يعرف اللطفَ في الفعل إلا مَنْ عرف تفاصيل أفعاله ﷻ، فمَن غَيْرُه الذي يعرف هذه التفاصيل؟! وإنْ عرف المرءُ شيئًا عن نفسه اليومَ فما الذي يعرفه عن بقية الكون؟! وإنْ عرف اليوم فماذا كان يعرف أمس وقبل سنين؟!..

فلا يعرف اللطفَ في الفعل إلا مَن عرف تفاصيلَ أفعاله، وعرف دقائقَ الرفق فيها، وبِقَدْرِ اتِّساع المعرفة فيها تَتَّسِع المعرفةُ بمعنى اسم «اللطيف» ﷻ. يعني: بقَدْر ما تتسع معارِفُك في معرفة الرب ﷻ وتفاصيل رفقه في الأفعال التي خَلَقها ودبَّرها وأنشأها... إلخ، بِقَدْرِ ذلك تتسع معرفَتُك بهذا الاسم المشرف «اللطيف».

والمعنى: أنَّ المرءَ في نهاية العجز، واللهُ تعالى في نهاية اللطف، ولطفُه به هو الذي جعله على هذا الحال الحسن، فليس لك إلا أن تدعوه ﷻ قائلًا: «يا لَطِيف.. الْطُفْ بِنا».

وأنْ نشرح بعضَ رفقِه في الأفعال ولُطْفِه فيها يستدعي تطويلًا، فلو فَصَّلنا شيئًا من ذلك فإنه لا تستطيع مجلداتٌ كثيرة أن تَفِيَ بعُشْر مِعْشارِ تفاصيل رِفْقه ﷻ في أفعاله! وإنما يمكن التنبيهُ على بعض جُمَلِه التي تتعلق بلطفه ﷻ[1] كما سيأتي في الفصل الثاني.

---

(١) انظر- بتصرف: المصدر السابق، [ص٧٠-٧٢].

الفصل الثاني

لُطْفُ الله تعالى

نذكر في هذا الفصل بعض الأمثلة من لُطف الله تعالى، وكما ذكرنا: بقدر اتساع المعرفة بلطف الله تعالى تتسع المعرفة بمعنى اسمه اللطيف ﷻ.

فمِنْ لُطْفه ﷻ - وهذه صورة قريبة ترى فيها لطفَ الله تعالى - خَلْقُه الجَنِين في بَطْن الأمِّ في ظلماتٍ ثلاث، وحِفْظُه فيها، وتَغْذِيتُه بواسطة السُّرَّة إلى أن يَنْفصِل فيَسْتَقِلَّ بالتناول بالفَمِ، ثم إلهامُه إياه عند الانفصال الْتِقَامَ الثدي وامتصاصَه ولو في ظلام الليل من غير تعليمٍ ومشاهدة.

بل فَلَقَ[1] البيضةَ عن الفَرْخِ وقد أَلْهَمه التقاطَ الحَبِّ في الحال، فيخرج هذا الكائن الصغير منها وقد فَتَح فاه لِيلتقط الحبَّ؛ فهذا لُطْفه ﷻ.

ثم تأخِيرُ خَلْقِ السِّنِّ - للطفل حديث الولادة - عن أول الخِلْقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغْتِذَاءِ باللَّبَن عن السِّنِّ. فأَخَّرَ السِّنَّ لأنه مُسْتَغْنٍ عنه في ذلك الوقت، فمِن لُطْفه به ألا يخلق له السِّنَّ في أول نزوله من بطن أمه، حيث لا يستطيع حينئذٍ أن يرضع منها ولا أن يَلْتَقِم ثديها، ولا تستطيع هي أن تُرضعه. ثم إنباتُ السِّنَّ له بعد ذلك عند الحاجة إلى طَحْن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلى عَرِيضةٍ للطَّحْنِ وإلى أنيابٍ للكَسْر وإلى ثنايا حادة الأطراف للقَطْع... إلى غير ذلك.

بل لو تَذْكُر لطفَه ﷻ في تيسير لُقْمةٍ يتناولها العبدُ من غير كَلَفةٍ يَتَجَشَّمُها[2] ما استطعتَ. انظر إلى لقمةٍ واحدة، كيف لَطَفَ فيها ﷻ بك: في لقمة واحدة يتناولها العبدُ

(١) أي: شَقَّ. انظر: «لسان العرب»، مادة: [ف ل ق].

(٢) «تجشَّم» الأمرَ: تكلَّفه على مَشَقَّة. انظر: «المعجم الوجيز»، مادة: [ج ش م].

من غير كلفة يتجشمها، قد تعاوَن على إصلاحها خَلْقٌ لا يُحْصَوْنَ: مِن مُصْلِحٍ للأرض، وزَارِعها، وساقيها، وحاصِدها، ومُنَقِّيها، وطاحنها، وعاجِنها، وخابزها... إلى غير ذلك، حتى تصل إليك. فهذه اللقمةُ التي تأكلها لو تفكَّرتَ فيها لعَلِمتَ لُطفًا عظيمًا.

لذلك لما قال المولى ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، قال بعض العلماء بوجوب ذلك! لنرى كيف نحن غافلون عن الامتثال لهذه الأوامر الشرعية. كثيرٌ من المفسرين قال: واجبٌ على المرء أن ينظر إلى طعامه ليرى فيه قدرةَ الله تعالى، ولُطفَ الله تعالى، وعِلْمَ الله تعالى، وحكمةَ الله تعالى، وقوةَ الله تعالى، وتيسيرَ الله تعالى.. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤-٢٨].

وكلُّ ذلك على المعنى الظاهر لك فقط، أما بقية الأمور التي لا تَفْطِن إليها: مثل أن سخَّر لك الذي بَذَرها، والذي أَصْلَحَها، والذي نَقَّاها، والذي رَوَاها، والذي حَصَدها، والذي طَحَنها، والذي خَبَزها، والذي حملها إليك... كلُّ ذلك ما كان لِيَتيسَّر إلا أن يُيَسِّره اللطيفُ الخبيرُ ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا...﴾ إلى آخر الآيات.

ولو أردنا شرح ذلك فقط لما استطعنا أن نستوفي هذه الأشياء في شرحها. انظر منذ خَلَقَ اللهُ تعالى هؤلاء الذين يشرحون هذه الأمور لم يَسْتَوْفُوا منها شيئًا، وكلَّ يومٍ يتطلعون إلى جديد ويخترعون جديدًا لم يكونوا يعرفونه من قبل، وكلُّ ذلك لطفُه ﷻ الذي استقام به حالُ المرء.

ولو نَظَرَ المرءُ في نفسه لعَلِمَ كيف استقام حاله: النَّظَر، والسمع، والكلام، والشم، والمشي، والذوق، والتفكير، والتخزين في العقل، والغضب والرضا، والمحبة والكراهية، والحقد وعدمه، والأمانة والصدق والإخلاص... يا إلهي!! ينظر المرءُ إلى هذه المعاني كيف لُطْف الله تبارك وتعالى به فيها. ولو عكسها فانظر إلى حاله ساعتها! يعني: لو لم يكن لك هذا الطعامُ حتى تقوم أنت به مِن أَوَّلِه، هل كنتَ ستستطيع أن تأكل؟ الجواب: لا بالطبع، فلو تُرِكْتَ أنتَ ونفسُك لتُهَيِّئ هذه اللقمة التي يقوم بها صُلْبُك ما كنتَ مُحَصِّلَها حتى تموت قبلها! من أين تُحصِّلها؟! هل ستقوم وتزرع وتَبْذُر وتحصُد وتعجِن وتخبز.. وكذا وكذا شهورًا طويلة؟ تكون قَدْ مِتَّ من الجوع قبل أن تصل إليك هذه اللقمةُ، فانظر إلى الترتيب السابق لله ﷻ!

يقول الإمام الغزالي رحمه الله مرةً أخرى: «وعلى الجملة فهو من حيث دَبَّر الأمورَ» هذا التدبير المُحْكَم «حَكَمٌ»[1] جل وعلا. «ومن حيث أَوْجَدَها» أي هذه الأمور التي بها تستقيم حياتُك وعقلك وعلمك وذِهنك، وتسير بها حياتُك في جميع نواحيها، فهو من حيث أوجدها كذلك «جَوَادٌ» ﷻ. «ومن حيث رَتَّبَها: مُصَوِّرٌ» فهو «المصوِّر» جل وعلا. «ومن حيث وَضَع كلَّ شيء في موضعه: عَدْلٌ» جل وعلا. «ومن حيث لم يترك فيها دقائقَ وجوهِ الرفق: لطيفٌ».

وهذه معانٍ عاليةٌ، ولكن نُشير إليها ليعرف المرءُ شيئًا عن ربه جل وعلا الذي يعبده؛ حتى يكون ذلك مَدْعاةً إلى توحيده وإفراده بالعبادة والإقبال عليه ودعائه ﷻ،

(١) وقد شُرح هذا الاسم المشرف «الحَكَم» في عدة دروس متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيرها من مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

حتى لا تحتاجَ إلى غيره ولا تدعوَ غيره ولا تخاف من غيره ولا ترجو سواه ﷻ، كما هي معاني التوحيد التي أتى بها النبيُّ ﷺ.

ولن يَعْرِفَ حقيقةَ هذه الأسامي مَن لم يعرف حقيقةَ هذه الأفعال؛ فلن يعرف حقيقة «الجَوَاد» مَن لم يعرف معنى الجُود وفِعْلَ الجود في أفعال الرب جل وعلا. ولن يعرف حقيقة «المصوِّر» حتى يعرف فِعْلَه وتصويرَه في خلقه؛ في الإنسِ والجن والنبات والحيوان، وهذه الصُّورِ التي تعالى مُصَوِّرها ﷻ. وكذلك لن يعرف حقيقة «العدل» حتى يعرف كيف وَضَعَ كلَّ شيء في مَنْصِبه وفي مكانه على هذا المعنى من العدل والاستقامة... إلى آخر هذه الأسامي والصفات التي أشرنا إليها.

وكذلك.. مِن عظيم لُطْفِه ﷻ بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكَلَّفهم دون الطاقة. فإذا نظرتَ إلى ما أعطاكَ وإلى ما كلَّفك، فإنَّ ما كَلَّفَك به أقلُّ مما أعطاك: كَلَّفَك صلواتٍ خمسًا مُنَجَّمةً - يعني مُقَسَّطة - على اليوم، لم يطلبها منك مرةً واحدةً.. في استطاعتك الإتيانُ بها. كلَّفك من مالِكَ أن تأتي رُبْعَ العُشْر منه، فأعطاك فوق الكفاية وكلفك دون الطاقة. وأعطاك جُهدًا وصحةً وبَصرًا وسمعًا ولم يطلب منك إلا أقلَّ القليل شكرًا له وتعبُّدًا له وإقبالًا عليه. ومع ذلك فالذي رَتَّبَ لك ذلك وأمرَك به وأعانك عليه أثابكَ على تنفيذ أمرِه - إنْ نَفَذْتَ هذه الأوامر.

فمنه ﷻ الكفايةُ، ومنه العطاءُ، ومنه بعد **ذلك** القَبول والجزاء. فله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ، وما بكم من نعمة فمن الله ﷻ. ورَتَّب ﷻ كلَّ ذلك على اللطف، فلَطف بعباده أنْ أعطاهم فوق الكفاية وكلَّفهم دون الطاقة.

وكذلك مِن لُطْفه: أنه يَسَّر لهم الوصولَ إلى سعادة الأبد بِسَعْيٍ خفيفٍ في مدةٍ قصيرة، وهي العُمر، فإنه لا نِسبةَ لها بالإضافة إلى الأبد. فهو ﷻ قد يَسَّر لك سعادة الأبد بعمل سِتين أو سبعين سنة مثلًا، أعطاك على هذه المدة القصيرة وهذا السعي الخفيف الذي تسعاه في حياتك، أعطاك به سعادةَ الأبد، والتي لا نسبة لهذه المدة القصيرة إلى سعادة الأبد عليها؛ وذلك من لطفه بك ﷻ.

وهذه المعاني نحن نشير إليها مع أنها معلومة أمام المرء.. ولكنْ مَن الذي يتذَكَّر وينظر ويَعْتبر؟! مع أن الله تعالى أمرَ عبادَه أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وأن يَتبصَّروا وأن يسيروا في الأرض ليعرفوا عن الله تبارك وتعالى، وأَمَرَهم أن ينظروا إلى طعامهم وأن ينظروا في الآفاق وفي أنفسهم؛ ليتبين لهم قُوَّتُه وقدرته.. ليتبين لهم الحقُّ كما ذَكر المولى ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤]. ومع ذلك فمن الذي يَنظر؟! والآياتُ التي دلت على الوحدانية ودلت على اللطف والعلم والقدرة والإرادة والعظمة والعُلُوِّ والوُسْع والحكمة والعدل والإيجاد والخَلْق والتَّصْوير، ودلت على كل هذه المعاني، هي أكثر الآيات في القرآن الكريم. اتْلُ مثلًا قولَه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [ق: ٧]، لا تكاد تخلو آية من هذه المعاني.

وعليه؛ فإن المرء المؤمن مطالَبٌ بأن ينظر في هذه الآيات - وهو يقرأها - وعلى أقل تقدير أنْ يعرف أنها آيات توحيد الرب ﷻ وإظهار القدرة وتَبْيين العظمة... إلى آخر ما ذكرنا. انظر في أيةِ آيةٍ في أيةِ سورةٍ من سُور القرآن الكريم تجد هذه المعاني. غالبُ السور

في القرآن الكريم تُبين مطالَعةَ الكون والنظرَ فيه، وأن ينظر المرءُ فيما كان ويكون، وفيما حوله، وفيما فوقه وتحته، وأن يرمي ببصره إلى معرفة خَلْق الله تعالى. والمرءُ لم يفكر يومًا أن يكون ذلك سبيلَه إلى معرفة الله تعالى وتوحيده والإقبال عليه؛ مِن النظر في السماء والأرضِ والنَّفْس والكون والزرع والمطر والبحار.. فكلُّ ذلك ذَكَره الله تعالى[1].

ونكمل شيئًا من مظاهر اللُّطف:

فمِنْ لُطْفه ﷻ إخراجُ اللَّبَن الصافي من بين الفَرْث والدَّمِ، وإخراجُ الجواهر النَّفِيسة من الأحجار الصُّلبة، وإخراجُ العَسَل من النحل، والإِبْرِيسَم - أي الحرير - من الدُّود، وإخراجُ الدُّرِّ من الصَّدَف.

وأعجبُ من ذلك كلِّه: خَلْقُه الإنسانَ من النُّطْفة القَذِرة وجَعْلُه مُستودَعًا لمعرفته وحامِلًا لأمانته ومشاهِدًا لملكوت سماواته ﷻ؛ وهذا أيضًا رِفْقٌ لا يمكن إحصاؤُه[2].

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

(٢) إلى هنا انتهى كلام الإمام الغزالي رحمه الله والتعليق عليه.



الفصل الثالث

الآيات الواردة في معاني

اسم الله تعالى « اللَّطِيف »

ونشير كما هي عادتنا في شرح الأسماء الحسنى إلى بعض الآيات التي ذكرت اسمَ الله تعالى «اللطيف» في القرآن الكريم، لنتَمَيَّز منها ما ذكره اللهُ ﷻ عن نفسه.

أولاً: قوله تعالى:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

وقد بدأنا بهذه الآية الكريمة دون غيرها لأنها - في غالب الظن - من أوضح الآيات التي تشير إلى لطف الله تعالى. وإليك تفسير هذه الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ نِداء. ونلاحظ أن في بعض آيات سورة لقمان تكرير للنداء، حيث قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧]، ﴿يَٰبُنَيَّ...﴾ إلى آخر الآيات. وتكريرُ النداء هنا لِتَجْدِيد نشاط السامع كي يَعِيَ الكلام، مع الحرص على تعليمه وإظهار الشفقة به بالبُنوَّة.

و«**المِثْقال**»: ما يُقَدَّر به الثِّقَل، يعني: ما يُوزَن به الشيءُ. و«**الحبَّة**»: واحدةُ الحَبِّ، كبِذْر النبات، أو سُنبلة القمح، أو بذرة القطن أو غيره. و«**الخَرْدَل**» كما هو معلوم: نباتٌ له ساق وله أوراق، والأوراق هذه لها أزهار، والأزهار فيها حبوب صغيرة جدًّا، الزهرة الواحدة تسمى «خَردلة» عند علماء النبات، ولها طعمٌ حِرِّيف كان يُستخدم في بعض الأدوية في الزمان الماضي.

يقول المولى ﷻ في هذه الحَبَّة من الخردلة التي في نهاية الدِّقة: لو كانت في السماوات أو في الأرض أو في صخرةٍ؛ يأتِ بها الله، وهذا المعنى المتبادَر. ولكنِ انظر في الآيات

لِتَعْرِف لطفَ الله تعالى وعظمته، يقول: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[1]، ثم عَطَفَ ﷻ على الجملة السابقة قولَه: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فعَطف السماوات على الصخرة؛ لأن الصخرة من أجزاء الأرض. ولو قلت: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾ لا يستقيم الأسلوب، وإنما كان الأسلوب الكريم على الاستقامة وعلى البلاغة العالية: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثم عاد إلى الأرض: ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، يعني: في هذه القطعة من الأرض الصُّلبة الصَّمَّاء الشديدةِ الصلابة تكون هذه الخردلة في داخلها. ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أو تكون هذه الخردلة الصغيرة في أي مكان في السماوات. ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أو تكون في أي مكان في الأرض... ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾.

وكأنَّ معنى الكلام: أنه لو كانت هذه الحبة في مكان عزيزٍ صُلْبٍ كالصخرة مثلًا، أو كانت في مكان أعزَّ مَنالًا فَسِيحًا لا يُدْرَى بها فيه كالسماوات، أو كانت في الأرض في أي مكان.. يأتِ بها اللهُ، في الوقت الذي لا يستطيع العالَمُ كلُّه أن يأتي بها بدون مفسدة.

فكلُّ ذلك في جَنْب علم الله تعالى سواءٌ؛ سواء أكانت في أي مكان من العالم العلوي أم السفلي، كما قال ﷻ عن نفسه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

---

(١) و«مثقالَ» أو «مثقالُ» قُرِأَ بهما في القراءات المتواترة، والأولى قراءة حفص عن عاصم الشائعة في مصر وغيرها من البلاد.

وكونُـه ﷻ يـأتي بهـا فـذلك دليـلُ التَّمَكُّن، ودليـل العلـم التـام؛ لأن الإتيـان بـأدق الأجسام من أقـصى الأمكنـة وأعمقهـا وأصـلبها لا يكـون إلا عـن عِلـمٍ بكونهـا في ذلـك المكان، وعن عِلم بأسلوب استخراجها سليمةً من ذلك المكان.

فالمعنى الأول: أنه لا يأتي بها إلا وهو عالِمٌ بمكانها، أليس كـذلك؟ **والمعنى الثاني:** أنه لا يأتي بها إلا وهو قادِرٌ على الإتيان بها.

ودليـلُ العلـم والقـدرة التامـة: أن يَـسْتخرجها - هـذه الحبـة مـن الخردلـة - مـن الصخرة، بحيث لا يقع في مُلكه ﷻ أيُّ فساد. فلو حاولتِ الدنيا كلُّها أن تأتي بهذه الحبة أو هذه الذَّرة التي في صخرة أو السماوات أو الأرض، فهل تستطيع أن تأتي بها فضلًا عن أن تأتي بها بغير فسادٍ يمكن أن يقع في محاولة استخراجها؟! وبغير علمٍ وقدرةٍ تامَّتَيْنِ على ذلك؟! وتَأمَّلْ تَكْلِفةَ ذلك لو حاولوا أن يأتوا بها من السماء، أو تكلفَته لو حاولوا الإتيانَ بها من الأرض؛ تُراهم كم يَبْذُلون لِيُحَصِّلوا هذه الخردلة؟!..

فـ«اللطيفُ» - كما ذكرنا - مَنْ يعرف دقائقَ الأشياء، ويَسْلُك في إيصالها - إلى مَنْ تَصْلُح له - مَسْلَكَ الرِّفقِ.

ووَصْفُ اللُّطفِ هـذا وصـفٌ مُـؤْذِنٌ بـالعلم والقـدرة الكـامِلَيْنِ، أي: يَعْلَـم ويَقْـدِر وتَنْفُذُ قدرتُه ﷻ. لذلك فالتعقيبُ بوصفه ﴿لَطِيفٌ﴾ بعـد قولـه تعـالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ كـما في الآية[1] إشارةٌ إلى التمكُّن منها وامتلاكها بكيفيَّةٍ دقيقة تُناسِب فَلْقَ الـصخرة واسـتخراجَ الخردلة، مع سلامتها وسلامةِ ما اتَّـصَل بهـا، مع عـدم اخـتلال نظـام كونـه ﷻ وصُـنْعِه.

(١) أي في قوله تعالى: ﴿فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

يعني: يستخرج ﷻ هذه الخردلة سليمةً، وتكون الصخرةُ على هيئتها لا تَفْسُد حالَ استخراجها منها؛ لذلك قال جل وعلا: ﴿...يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

وهذا معنى جميلٌ يُبين لك لُطْفَ الله تعالى وقدرتَه التامة على أصغر الأشياء، بحيث يستخرجُها ويُوصِلها بذلك الرفق، ولا ينبني على ذلك الإتيانِ فسادٌ لها ولا فسادٌ حالَ استخراجها مما حولها.

ويلاحظ المرءُ أن اسم الله تعالى «اللطيف» ﷻ قد ورد في سبع آياتٍ في القرآن الكريم؛ خمس آيات منها ورد فيها مقرونًا باسمه ﷻ «الخَبِير»[1]، وآيتانِ فقط ورد فيهما «اللطيف» مفردًا بدون «الخبير»[2].

---

(١) وهي كالتالي:

١- قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

٢- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

٣- وآية «لقمان» التي نشرحها هنا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

٤- وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ٢٤].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

(٢) وهما:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وسيأتي شرحُها.

٢- وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩].

ومعنى الخِبْرة بعد اللُّطْف: سَعة العِلْم، فهي من [خَبُرَ، يَخْبُرُ، خُبْرًا]، يعني: أن الله تبارك وتعالى بعد لُطفه في معرفة الأشياء ودقائقها ورِفقه بها، فإنه خبيرٌ ﷻ بها.. مُطَّلِعٌ عليها.. عارِفٌ بكل أحوالها. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، يعني: لطيفٌ وخبيرٌ بمواقع الإحسان، وبمواقع مَنْ يستحق هذا الإحسان، وبمواقع إيصال هذا الإحسان لِمُسْتَحِقِّيه.

(فائدة)

ينبغي على المرء المسلم أن يتعلم هذه المعاني لكي يَذْكُرَ اللهَ تعالى ويُوَحِّدَه ويَدْعُوَه بها، وألَّا يَفتُرَ اللسانُ والقلبُ عن ذكره ﷻ، وكذلك أن تَتجرَّد النفسُ إلى الله جل وعلا، وأن تخرج مما هي فيه من الرُّكُون إلى الخَلْق والاستعانة بهم والتوكل عليهم، وإلى المسارعة إلى مَنْ يُنقذه ويُغيثه ويَتوسَّط له ويعطيه ويمُده. وفي الوقت نفسِه يَتعلم مراقبة الله تعالى، وأنه ناظرٌ إليه.. مُطَّلِعٌ عليه.. مُتَمَكِّنٌ منه، فإذا كان عالِمًا بالخردلة مُتَمَكِّنًا منها قادِرًا عليها.. يعلم على أيِّ الأحوال وفي أيِّ الأماكن هي، فما بالُكَ بِكَ أيها العبد؟!..

ولذلك كان هذا السؤال: ما هي علاقة هذه الآية الكريمة بقصة لقمان عليه السلام وابنه؟

والجواب: أن الله تبارك وتعالى ذكر قصة لقمان عليه السلام، وذكر وصاياه لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم قال بعد ذلك: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. وذلك كله قبل قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ..﴾ [لقمان: ١٧].

وكأنَّ الله تبارك وتعالى قَدَّم هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ...﴾، على قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ...﴾ [لقمان: ١٧، ١٨]، إلى آخر الوصايا؛ وذلك لِيُرَبِّيَ في ذِهن الولد وقَلْبِه الخشيةَ من الله تعالى، وأنه ليس ثَمَّ شيءٌ في هذا العالَم إلا واللهُ تعالى مُطَّلِعٌ عليه: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣]، مُتَمَكِّنٌ منه، قادِرٌ عليه، تَنْفُذ فيه قدرتُه ومشيئتُه. فعندما يَتربَّى الولدُ على الخشية والخوف ومراقبة الله تبارك وتعالى، فإنه حينئذٍ يُسارع إلى إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وغير ذلك من الوصايا التي وَصَّى بها لقمانُ عليه السلام ولدَه كما ذكر القرآن الكريم.

وهذا سلوكٌ نتعلمه، نُرَبِّي عليه الأولادَ كما ورد مثل ذلك عن السلفُ رحمهم الله تعالى.

ثانيًا: قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد أن وَصَل إلى يوسفَ عليه السلام أبوه وإخوته وسجدوا له وتَحقَّقتْ رؤياه عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩، ١٠٠].

ومَـنْ يتأمـل هـذه الـسورة الكريمـة يفهـم شـيئًا يفيـده جـدًّا مـن معنـى اسـم الله «اللطيف»، فكل سورة يوسف من أولها إلى آخرها.. كلها لُطْفٌ من الله ﷻ(1).

وانظر إلى ألطاف الله تعالى المُتابِعة على يوسف ﷺ، حتى وَصَل إلى ما وصـل إليـه كما عَلِمنا في نهاية قصته. ولـسنا بـصدد التفسير للسورة الكريمـة، وإنـما نختـصر فقـط مواضع اللطف اختصارًا يُظْهِر المطلوب في الاسم المشرَّف:

اللُّطْـف الأول: أن الله تبـارك وتعـالى لَطَـف بيوسـف ﷺ، فجعـل إخوتـه هـؤلاء يَكِيدون له كيدًا:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٨، ٩].

تُرى لو لم يكيـدوا لـه كيـدًا، يعنـي لـو لم يأخـذوا يوسـفَ مـن أبيـه ويـذهبوا لـ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] كما يقولون، ثم بعد ذلك يُلقوه في غياباتِ الجُبِّ(2) ويرجعوا إلى أبيهم.. تُرى لو لم يحدث ذلك منهم هل كان سيحدث ما حدث؟!..

---

(1) يعني من بداية قصة يوسف ﷺ عند قوله تعالى: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٤، ٥]، حتى نهايـة هـذه القصة عند قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(2) «الجُبُّ»: البِئْر التي لم تُبْنَ بالحِجارة. و«غَيابَات الجُبِّ» أي: قَعْره، والمفرد: غَيابة. انظر «مختار الصحاح» مادة: [ج ب ب]، ومادة: [غ ي ب].

فأولُ هذا اللطف إذًا: أنهم قد أخذوا يوسفَ من أبيهم يعقوب عليه السلام، وأبوهم لا يريد أن يأخذوا يوسفَ معهم أبدًا؛ لأنه لا يأمَنُهم عليه، ولأنه يعلم أن الشيطان لن يتركهم حال أَخْذِهم ليوسف عليه السلام. ويأتي لطفُ الله تعالى على خلاف ما يريد يعقوب عليه السلام.

فجَعَل سبحانه وتعالى من الكَيد لُطفًا، وهو ما يُعَلِّم المرءَ أن قضاء الله كلَّه حَسَنٌ، وأنه مطالَبٌ بعبودية الله تعالى في السراء والضراء، وأن ما يظنه شرًّا إذا هو الخير من حيث لا يعلم.

فلُطْفُ الله تبارك وتعالى الأول بيوسف: أنَّ يعقوب أطاع أولادَه فأخذوا يوسفَ منه. ولو لم يكن أولُ لطفٍ كذلك لَـمَا وصلنا إلى هذه النهاية التي جاءت في آخر السورة.

واللطف الثاني: أنه سبحانه وتعالى صَرَفهم عن أنْ يقتلوه عليه السلام أو أن يَطْرحوه أرضًا، لكي يجِدَه هؤلاء السيَّارةُ - القافلة - ويأخذوه ويبيعوه لعزيز مِصر.

فانظر إلى لُطْف الله تعالى في هذا السياق!

هم - إخوة يوسف عليه السلام - يقولون: ﴿**ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضًا**﴾. و«**اطْرَحُوهُ أَرْضًا**» يعني: انْفُوهُ إلى أرضٍ بعيدة لا يمكن أن يَصِل فيه يوسفُ إلى أبيه عليه السلام بعد ذلك[1].

---

(١) «وتَنْكيرُ (أرضًا) - في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضًا﴾ - وإخلاؤُها من الوصف: للإبهام، أي: أرضًا مَنْكورةً مجهولةً بعيدةً مِن العُمران. ولذلك نُصِبَتْ نَصْبَ الظروفِ المُبهَمة». انظر - بتصرف يسير: تفسير «أبو السعود»، [ج٤/ ص١٠٩]. طبعة دار الفكر - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٠هـ.

ثـم يقـول قائـلٌ مـنهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠].

وكان يمكن أن يقتلوه أو يطرحوه أرضًا كما اتفقوا، لكنَّ اللهَ تعالى قد قَدَّرَ ليوسف عليه السلام أن ينشأ في بيت العزيز؛ ليتحول الحالُ ويرجع أبوه ويرجع إخوتُه ليسجدوا له، كما سنرى في بقية القصة.

تُرى لو أُلْقِي في أرضٍ بعيدةٍ هل كانت ستتحقق هذه الأحداث؟! فكان إلقاؤُه إذًا في الجُبِّ لُطْفًا.

والثالث: أنه كان يمكن ألَّا يذهبَ به هؤلاءُ السيارة - الذين وجدوه - إلى مصر. لكن هذا لطف الله تعالى به: أنْ ساقَهُ تبارك وتعالى إلى مصر؛ ليتحولَ المُلْكُ له ويَجِيئَه إخوتُه كما ذكرت الآيات.

والرابع: أنه كان يمكن أن يَشْتريَه أحدٌ غيرُ العزيز وامرأته. فما الذي يجعل عزيزَ مصر نفسه يشتري طفلًا عبدًا قد أُلْقِي به في هذا الجُبِّ؟! كان يمكن أن يشتري من أشراف الناس عبيدَهم الذين يستحقون أكثرَ من ذلك، ولكن هذا لطف الله تبارك وتعالى.

اللطف الخامس: أَخَذَهُ بعد ذلك عزيزُ مصر، ونشأ هناك، وراودته عن نفسه امرأةُ العزيز.. لماذا؟! .. ..لِيدخُل السجن!

تُرى لو لم تُراوِدْه امرأةُ العزيز عن نفسه، لَبَقِيَ عبدًا في بيتها إلى النهاية. وما تحقق أبدًا هذا الذي قد تحقق له إلا لَـمَّا أُخِذَ إلى السجن.

السادس: أُخِذَ إلى السجن.. فجاء لُطف الله تبارك وتعالى التالي:

دخل معه السجنَ فتيانِ، وكان لكلٍّ منهما رؤيا رآها؛ قال الله تعالى: **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾** [يوسف: ٣٦]. ففسَّر لكلٍّ منهما رؤياه: **﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾** [يوسف: ٤١]، فعُلِمَ حينئذٍ معرفةُ يوسف عليه السلام بالتَّعْبير[1].

ولما رأى المَلِكُ رُؤياه أخبره الذي نَجا من الفَتَيانِ بمعرفة يوسف بالتعبير، ثم أوَّلها له يوسفُ عليه السلام، فقال المِلكُ: **﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾** [يوسف: ٥٠، ٥١]. فظَهَرتْ براءتُه عليه السلام، وذلك من لُطْف الله تعالى به.

السابع: ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام قال المَلِكُ: **﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾** [يوسف: ٥٤]، فقال يوسفُ عليه السلام: **﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾** [يوسف: ٥٥]، فتحول المُلْك ليوسف عليه السلام حينئذٍ.

وجَرَتِ الأحداثُ بعد ذلك بين يوسف وإخوته وهم لا يعلمون أنه أخوهم، حتى عرَّفهم في النهاية: **﴿...قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾** [يوسف: ٩٠، ٩١].

---

(١) «عَبَرَ» الرُّؤيا: فَسَّرها، وعَبَّرها أيضًا، تَعْبيرًا. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ع ب ر].

ولو لم يكن كذلك لَـمَا كان يمكن أن يأتي بأهله: أبيه وخالتِه[1] - التي هي كأمه كما في الحديث[2]- وإخوتِه. فلو لم يكن يوسفُ عليه السلام في حاشية المَلِك، لَـمَا كان عزيزًا لمصر أبدًا، و لَـمَا جعله على خزائن الأرض. فلو لم يكن ذلك فمِن أين كان سيرى إخوته؟! ومن أين سيَرُدُّ له بضاعتَهم؟ ومن أين سيقول لهم: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف: ٥٩]؟.. إلى غير ذلك مما ذكر الله تبارك وتعالى في قصته عليه السلام.

فكل هذه المعاني من أولها إلى آخرها فيها لطفُ الله تبارك وتعالى، فاللهُ جل وعلا هو الذي قد أَبْدَعَها، يعني اخترعها على غير مثال سابق. فهذه القصة مُرَتَّبة بترتيبه هو سبحانه وتعالى، لا دَخْلَ لأحدٍ فيها البتة، وكلُّ شيءٍ في العالم ترتيبُه. كلما عَرَض ليوسف عليه السلام عارِضٌ، إذَا بعناية الله تعالى تأخذه إلى الحال الأخرى التي يُريدها اللهُ تبارك وتعالى، وهكذا.. حتى وصل إلى قوله لَّمَا خَرُّوا له سُجَّدًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا..﴾ [يوسف: ١٠٠]. أي: بهذا اللطف الذي رَتَّبَ به الربُّ عز وجل هذه الأحداثَ لِتَصِلَ إلى هذا الحقِّ الذي وصلت إليه القصةُ في نهايتها.

ثم قال عليه السلام: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، و«السِّجْن» هنا بمعنى: الجُبُّ، بدليل أنهم لم يَرَوْهُ في السجن. فيوسفُ عليه السلام لا يريد أن يُحْرِج إخوتَه بتَذْكيرِهم بالجُبِّ، ولكنه قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، وهذا أدبٌ آخر من يوسف عليه السلام مع إخوته: فلم يكن بينه وبين إخوته نَزْغُ الشيطان؛ حيث كان صغيرًا وهم كِبارٌ، وهم

---

(١) «وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ [يوسف: ٩٩]، قال السُّدِّي وعبدُ الرحمن بن زيد بن أَسْلَم: إنما كان أباه وخالتَه، وكانت أمُّهُ قد ماتت قديمًا». انظر: «تفسير ابن كثير»، آية: [٩٩] من سورة يوسف عليه السلام.

(٢) قال صلى الله عليه وسلم: «الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ». رواه البخاري في صحيحه [٢٦٩٩].

الذين سَعَوْا به إلى أن يقتلوه أو أن يَطْرَحوه أرضًا أو أن يُلْقوه في الجُبِّ. ومع ذلك تأدَّب معهم حتى لا يُحْرِجَهم، قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾، فلم يَنْزِغ الشيطانُ بينهما، وإنما كان نَزْغُ الشيطان فيهم، وكانت المخالفةُ منهم، وكان منهم ما وقع بأبيهم حتى ابْيَضَّتْ عيناه من الحزن.. كان منهم كل ذلك، لم يكن من يوسف عليه السلام أبدًا، ولكن هذا هو الأدب الذي رأيناه منه عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾..

ولذلك في النهاية قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، يعني: إن ربي لطيفٌ بما يشاء أن يلطف به، بِلُطْفه قد قَدَّر ذلك كله، ورَفَقَ في إيصاله على هذا النحو؛ لِيتمَّ ذلك المراد لله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾: «العليم» بما كان وما يكون وما كان لو كان كيف كان يكون، و«الحكيم» في تقدير هذه الأمور وترتيبها على ما حَدَث؛ لترى قدرة الله تعالى وترى تربية الله تعالى.. وترى ترتيب الله تعالى.. وترى لطف الله تعالى، الذي يُرَتِّب لهم ويوصِّل لهم برفقه من حيث لا يحتسبون ومن حيث لا يعلمون.

ولو رأى المرءُ ظاهرَ هذه الأمور كلها على هذا النحو لكان له تخيُّلٌ آخرُ؛ يقول: «لا يمكن هذا.. وهذا ما كان ليحدث، ولماذا حدث هذا؟ ولماذا كان هذا الترتيب؟...» إلى آخر ذلك. وإذًا بترتيب الله تعالى على هذا النحو من اللطف من أول القصة إلى نهايتها.

وهذا يُعَلِّم المرءَ أنَّ اليُسر كامِنٌ في العُسر، ويعلمه أنْ يَرضى بقضاء الله كله، وأن يُفوض ويسلِّم لله تعالى في اختياره، وأن يتَّهم عقلَه القاصر وفَهمه الكليل[1] عند تقدير حكمة الله تعالى في الأشياء، وأنَّ وراء ذلك ما لا يعلمه أو يصل إليه علمُه.. فضلًا عن أن يدرِك حكمتَه أو أن يُلِمَّ بعاقبته.

---

(١) «كَلَّ» كُلُولًا: ضَعُفَ، يقال: «كَلَّ السيفُ» ونحوه: لم يقطع. فهو كَلِيلٌ وكَلٌّ. انظر: المعجم الوجيز، مادة [ك ل ل].

ثالثًا: قوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وهذا الخطاب لزوجاتِ النبي ﷺ أمهاتِ المؤمنين، رضوان الله عليهن أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾؛ إما أن تكون من «الذُّكْر» وهو: عدم النسيان، أي: التَّذَكُّر. وإما أن تكون من «الذِّكْر» وهو: النطق باللسان والكلام.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ من «الذُّكر»، أي: تَذَكَّرْنَ ما يُتلى في بُيوتِكُنَّ، ولا تَغْفَلْنَ عنه من آيات الله والحكمة. يعني كأنه يقول لهنَّ: تَذَكَّرْنَ ذلك عِلْمًا وعَمَلًا، أي: تَذَكَّرْنَ ما يُتلى في بُيوتِكنَّ من آيات الله ومما يكون من هَدْيِ النبي ﷺ في بُيوتِكنَّ، واذْكُرْنَ ما يَنْبَنِي على ذلك من العَمَلِ به والدعوةِ إليه وإظهارِ هذا العِلم والعمل لغيركنَّ.

ولها معنًى آخر جميل يُكَنَّى عنه بالشكر، فلما قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ كأنه يقول لهنَّ: تَذَكَّرْنَ شُكْرَ الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ أنِ اخْتَصَّكُنَّ اللهُ تبارك وتعالى يا نساءَ النبي ﷺ بهذه النعمة من آيات الله والحكمة والعمل، وأنْ شَرَّفَكُنَّ بأَنْ كُنْتنَّ في بيت النبي ﷺ، فعليكنَّ أن تَكُنَّ مواردَ للخير وداعياتٍ إليه ومُبَيِّناتٍ له من قرآن الله تعالى ومن هدي النبي ﷺ ومن سيرته، علاوةً على شُكر نعمته التي اخْتَصَّكُنَّ بها في ذلك.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ من «الذِّكر»، أي: اذْكُرْنَ كلامَ الله تعالى، يعني ذِكرًا وعملًا، وسنةَ النبي ﷺ وهديَه كذلك.

ثم في نهاية المطاف: ﴿..إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.. يعني: واعْلَمْنَ أنَّ ذلك لُطْفُ الله بِكُنَّ، ما كان ليحدث لَكُنَّ ذلك إلا لِلُطْفِ الله تعالى. ولُطْفُ الله تعالى ينبغي أن يَشْكُر المرءُ ربَّه عليه، بأن يكون أهلًا للقرآنِ والحكمة والعلم به جل وعلا، وأن يكون أهلًا لتلاوَتِهما والعملِ بهما والدعوةِ إليهما.

فإذا كان هذا الخطاب لأزواج النبي ﷺ، فلا شك أن المرء ينتفع به كذلك، فيكون له حَظُّه من هذه المعاني مِن تَذَكُّرِها وذِكْرِها والشكرِ لها، ثم العمل بها والدعوة إليها.

ولهنَّ - أي: أزواج النبي ﷺ - معنًى زائدٌ، وهو تأنِيسُهنَّ بأَنهُنَّ أزواج النبي ﷺ وفي بيته، مما يكون ذلك داعيًا على حُسْنِ معاشرته ﷺ والقيام بحقه صلى الله عليه وآله وسلم. فكان من لطف الله تعالى بِهنَّ - وهو لطفه بأهل الإيمان كذلك - تلك الآياتُ والحكمة والموعظة والعلم والعمل بها والشكر عليها والدعوةُ إليها، كما ذكر الله تعالى.

وانظر إلى ذلك اللطف ليكون حظُّك منه ما يمكن أن يكون سببًا لسعادتك في الدنيا والآخرة.

رابعًا: قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ قال ابن عباس ﷺ: «حَفِيٌّ بهم». وقال عكرمة ﷺ: «بَارٌّ بهم». وقال مقاتِل: «لطيف بالبَرِّ والفاجر؛ حيث لم يهلكهم جوعًا بمعاصيهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾».

وتنكير «لَطِيف» مع مجيئها على صيغة المبالغة يدل على المبالغة في اللُّطف.

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: أن الله تعالى لطيفٌ بعباده، يَجْري لطفُه على عباده في كل أمورهم، ومن جملة ذلك اللطف: الرِّزق الذي يعيشون به في الدنيا وهو معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم كيف يشاء، فيُوَسِّع على هذا ويُضَيِّق على هذا على حَسَبِ مصلحةِ العباد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: عظيمُ القوة؛ قال تعالى: ﴿...أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي يَغْلِب كلَّ شيء ولا يغلبه شيءٌ ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ تذييلٌ للاسمينِ الجليلينِ على القول بعموم الإحسان على عباده - المؤمنين والكافرين - كأنه قيل: «لطيفٌ بعباده، عامُّ الإحسان بهم؛ لأنه تعالى القويُّ العزيز».

وإذا كان قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أثرٌ من آثار لُطْف الله العامِّ بعباده ورِفقه بهم - كما ذكرنا لأنه يَسَّر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا - فإنَّ قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] فيه أثرٌ آخر من لطفه، ولكن خَصَّ به المؤمنين من رزق الآخرة(١).

خامسًا: قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

---

(١) انظر - بتصرف كثير: «فتح القدير»، و«التحرير والتنوير»، و«تفسير الآلوسي»، و«تفسير البغوي». تفسير الآيتين التاسعة عشرة والعشرين من سورة الشورى.

وقوله تعالى في هذه الآية يأتي بعد قوله في الآية التي قبلها مباشرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإله الحقُّ الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له ﷻ؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، ذليلٌ لديه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ الآية، فيه دلالةٌ أيضًا على قدرته وعظيمِ سلطانه، وأنه يُرسل الرياحَ فتُثِير سَحابًا فتُمطر على الأرض التي لا نباتَ فيها وهي هامدة يابسة سوداء مَحْلٌ[1] ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء للتعقيب، وقوله: ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أي: مخضرة بالنبات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: «لَطِيفٌ» بعباده في إخراج النبات بالماء، «خَبِيرٌ» بما في قلوبهم عند تأخير المطر. أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: «عليمٌ» بما في أرجاء الأرض وأجزائها من الحبِّ وإنْ صَغُر، لا يخفى عليه ﷻ خافِية، فيُوصِل إلى كلٍّ منهم قِسْطَه من الماء، فيُنْبِته به كما قال تعالى على لسان لقمان ؈: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وقوله تعالى في الآيات بعدها: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٤، ٦٥]، فيه أيضًا آثارُ

---

(١) «المَحْل»: الجَدْب، وهو انْقِطاع المطر ويُبْس الأرض مِن الكَلأ. يقال: بلد «ماحِلٌ»، وزمان «ماحِلٌ»، وأرض «ماحِلٌ». اهـ من «مختار الصحاح»، مادة: [م ح ل].

من لطف الله تعالى بعباده؛ بأن سَخَّر لهم ما في الأرض من حيوانٍ وجماد وزُروع وثمار، وكذلك سخر لهم الفُلك لِتسير بِرفق في البحر العَجَّاج وتُلاطِم الأمواج، لِيحمِلوا فيها ما شاءوا من تَجائِر وبضائِع ومنافع من بلدٍ إلى بلد[1].

وقوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ أي: لو شاء لَأَذِنَ للسماء فسَقَطَتْ على الأرض فهَلَكَ مَنْ فيها، ولكنْ مِن لُطفه ورحمته وقدرته ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾[2].

سادسًا: قوله تعالى:

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ لعظمته وجلاله وكماله، وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. ولا منافاةَ بين إثباتِ الرؤية كما في آية سورة القيامة، ونفيِ الإدراك كما في آية سورة الأنعام؛ لأن الإدراك أخصُّ من الرؤية، ولا يلزمُ مِن نَفْيِ الأَخَصِّ - وهو الإدراك - انتفاءُ الأعمِّ - وهو الرؤية.

واختلف السلفُ في «الإدراك المَنفيِّ»، فقال بعضُهم: «معرفة الحقيقة، فإنَّ هذا لا يعلمه إلا هو وإنْ رآه المؤمنون». وقال آخرون: «المراد بالإدراك الإحاطة، ولا يلزم من عدمِ الإحاطة عدمُ الرؤية».

(١) «العجُّ»: رَفْع الصوت، وقد «عَجَّ يَعِجُّ عَجِيجًا» و«عَجَّتِ» الريحُ: اشتدت. ونهرٌ «عَجَّاجٌ». انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ع ج ج].

(٢) انظر - بتصرف واختصار: «تفسير ابن كثير»، و«تفسير الجلالين»، تفسير الآيات: [٦٢-٦٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خَلَقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في آية الأنعام، أي: الذي لَطف علمُه وخبرته ودَقَّ، حتى أدرك السرائر والخبايا والبواطن.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الرفيقُ بعباده - مشتق من «لَطَفَ» بفتح الطاء - يسوق عبده إلى مصالح دينه ويُوصِلها إليها بالطريقة التي لا يشعر بها العبدُ.

ويجوز أيضًا أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ تعليلًا لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ على طريقة اللَّفِّ، أي: لا تُدركه الأبصارُ لأنه اللطيف، أي الذي لا يُدْرك بالحاسَّة، ويكون «اللطيف» عندئذ مشتق من «لَطُف» - بضم الطاء - أي: «دَقَّ»، ضد «ثَقُل وكَثُف». ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لأنه الخبير ﷻ[1].

سابعا: قوله تعالى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

قال تعالى قبل هذه الآية مباشرة: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. أي: مُطَلِّع على الضمائر والسرائر، عليمٌ بما يَخْطُر في القلوب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: «ألَا يَعْلَمُ الخالقُ؟»[2]، وقيل معناه: «ألَا يَعْلَمُ

(١) انظر - بتصرف واختصار: «عمدة التفسير»، و«تيسير الكريم الرحمن»، و«تفسير أبي السعود»، و«التحرير والتنوير»، تفسير الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام.

(٢) ويكون اسم الموصول «مَنْ» فاعلٌ للفعل «يَعْلَم»، والمفعول به محذوف.

مَخْلوقَه؟»[1]. والأول أولى لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. و«اللطيف» هو العالم بخبايا الأمور والمدبِّر لها برِفقٍ وحكمةٍ ﷻ، و«الخبير» الذي لا يَعْزُب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناسُ بعضُهم بعضًا بحُدوثها.

وبعد أنْ أَنْكَرَ اللهُ على مَنْ ظَنَّ انتفاءَ عِلْمِ الله بِما يُسِرُّون - في قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦ...﴾ الآية - أَعْلَمَهُمْ أنه يعلم ما هو أعمُّ من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.

وفي الآيتين إخبارٌ من الله تعالى بسِعَةِ علمه وشُمول لُطفه ﷻ. ويجوز أن يكون المراد هنا بقوله ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الذي لا تدركه الحواسُّ، ويكون معنى الآية: «ألَا يعلم اللهُ ﷻ مخلوقَه؟» بلى.. سبحانه، وهو اللطيف الذي لا تُدركه حواسُّ مَخْلوقِيه، الخبير بأحوالهم[2].

حظ العبد من اسمه تعالى «اللطيف»

حَظُّ العبد من هذا الوصف: الرفقُ بعباد الله تعالى، والتلطُّف بهم في الدعوةِ إلى الله والهدايةِ إلى سعادة الآخرة، من غير ازْدِرَاءٍ وعُنْفٍ، ومن غير تَعَصُّبٍ وخِصام. وأحسنُ وُجوه اللُّطف فيه هو الجَذْبُ إلى قَبول الحق بالشمائلِ والسِّيَرِ المَرْضِيَّة والأعمالِ الصالحة، فإنها أَوْقَعُ وأَلْطَفُ من الألفاظ المُزَيَّنة[3].

---

(١) ويكون الفاعل ضمير مستتر في الفعل «يَعْلَم»، يعود على الله ﷻ، و«مَنْ» مفعول به.

(٢) انظر: تفاسير «عمدة التفسير، تيسير الكريم الرحمن، التحرير والتنوير». تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة المُلْك. وانظر أيضًا: «التحرير والتنوير». تفسير الآية الثانية بعد المائة من سورة الأنعام.

(٣) انظر: «المقصد الأسنى» [ص٧٢].

فالحظُّ الأول مُتعلِّقٌ بالآخرة، وهو أَلَّا تُقَصِّر في أن تكون رفيقًا بالعباد، تَتلطَّف بهم في إيصال معرفةِ الله لهم ودعوتِهم إلى طريق ربهم ﷻ، وهدايتِهم إلى سعادة الآخرة.. سعادة الأبد، يعني أن لا تكون صادًّا عن سبيل الله ﷻ بأقوالك وأفعالك وتصرُّفاتك السيئة، بل ينبغي أن تكون رفيقًا بعباد الله تعالى، مُتلَطِّفًا بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهداية إلى سعادة الآخرة، من غير ازْدِراءٍ وعُنْفٍ، ومن غير خِصام وتعصُّب.

وأحسنُ وجوه اللطف أن يكون ظاهِرُك وهَيْئتُك وكلُّ ذلك سببَ جَذْبِ الناس إلى محبة النبي ﷺ ومحبة الله تعالى.

والحظ الثاني هو أن تتلطف في إيصال البِرِّ والإحسان لهم، وقد ذَكَر العلماء في ذلك المعنى حديثَ جابر ﵁ أنه باع جَمَلَهُ إلى النبي ﷺ قبل أن يدخُلَا المدينة، فاشترط عليه جابرٌ ﵁ ظَهْرَه، يعني اشترط عليه أنْ يُوَصِّله إلى المدينة ثم يَسْتَلِمه النبيُّ ﷺ منه بعد أن يصل إلى المدينة عليه.

وانظر إلى هذا اللطف الجميل في البِر! وقد ذكرنا في بداية تعريف اللطف أن «اللَّطَفَة» هي الهدية التي تُهدى أو التُّحفة التي يُتْحِف بها المرءُ إخوانَه ويَبَرُّهم بها، وأن يتوصل بكل سبيل حَسَنٍ إليهم في إيصال هذه الألطاف والمَبَرَّات إليهم.

يقول جابر ﵁: «فلما رَجَعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة أعطاه جَمَلَهُ وأعطاه ثَمَنَه»[1].

وذلك من حُسْن البرِّ واللطف منه ﷺ؛ أنه وَجَدهُ يحتاج هذا الجملَ، تُراه يَرُدُّ الجملَ ويأخذ ثمنَه؟ لا.. ليس ذلك من اللطف والبِر به، وليس من إيصال الهدية والصِّلة وتلك اللَّطَفَة - كما عرَّفناها - والمَبرَّة إليه، فترَكَ له جَمَلَه وثمنَه ﷺ!

---

(١) انظر: قِصة الجَمَل مُطوَّلةً في «صحيح البخاري» [٢٠٩٧، ٢٧١٨]، و«صحيح مسلم» [٧١٥].

فينبغي فُشُوُّ هذه الأخلاق من صفات الله تعالى بين أهل الإيمان..

ينبغي أن تتفشّى بينهم هذه الأخلاق في تحبيب الناس في الله تعالى وأخذِهم إليه سُلوكًا وقولًا وعملًا، وكذلك في هدايتهم إلى سعادتِهم سعادةِ الأبد، وكذلك في إيصال المَبَرّات والهدايا والصِّلات واللطائف إليهم، على سبيل هذه المعاني التي يتحقق فيها المرءُ بهذا الاسم المشرف، وأن يأخذ حظه منه(١).

والحظ الثالث: أنْ تُوحِّد اللهَ تعالى بهذا الاسم وتَدْعُوَه به، كأنْ تقول: «يا لطيف الْطُفْ بنا»، وأن تُقبِل على الله تعالى بعدما عَلِمتَ شيئًا من لُطفه ﷻ في كَوْنِهِ وفي أرضه وفي سَمائه،وفي خَلْقه وفي عِباده.. إلى غير ذلك من آثار عظمته ﷻ التي أشرنا إليها.

فإنك ما عَرَفْتَ معنى اسم الله تعالى «اللطيف» وعرفتَ سَعة لُطفه ﷻ إلا لِتَعرف حظَّك من ذلك، ثم تدعوه جل وعلا به، وتوحِّده به.. بهذا الاسم المشرف المعظَّم «اللطيف» ﷻ.

---

(١) لا سيما بين أهله؛ عن أبي قلابة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ**». رواه الترمذي في سننه [٢٦١٢]، وقال: «هذا حديث حسن، ولا نعرف لأبي قِلابة سماعًا من عائشة». ورواه الإمام أحمد في مسنده [٦/ ٤٧]، قال الشيخ شُعيب في التحقيق: «حديث صحيح لغيره». قال المناوي في «الفَيْض»: «**وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ**، أي: أرفقُهم وأبرُّهم بنسائه وأقاربه وأولاده وعشيرته المنسوبين إليه» اهـ. ولا شك أنه ﷺ كان القُدْوة في ذلك، فقد قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**» رواه الترمذي في سننه [٣٨٩٥]، وقال: «حديث حسن غريب صحيح». وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث قصة الإفك الطويل: «وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ **اللُّطْفَ** الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ» رواه البخاري في صحيحه [٢٦٦١].

القسم الرابع

اسم الله القدوس

مقدمـة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أَمَّا بَعْدُ..

إنَّ اسم الله المشرف «القدوس» من الأسماء الحسنى التي للمؤمنين الأتقياء منها حظ كبير، بل وللأمة كافة حتى تتقدس وتكون أهلًا للعُلُوِّ والرِّفعةِ، وتَنَزُّلِ النَّصرِ عليها في الدنيا، ولمجاورةِ الله تعالى في جنته في الآخرة.

أن تسود أخلاق الطهارة والتنزيه في المؤمنين وبينهم وبين غيرِهم لَنَقْلَةٌ عظيمة لهم في أن يعودوا إلى ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ - وهو أمل كل غيور - فيستحقوا بركة الله ورحمته، ولذا قدَّمنا هذا الاسم الكريم: «القدوس» سبحانه وتعالى..

نسأل اللهَ تعالى أن ينفع به قارئَه وكاتبه وناشره والناظر فيه.

مسجد الهدي المحمدي



الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى « القدوس »

- الدليل على اسم الله تعالى « القدوس »
- لطيفة حول قلة ورود اسم الله تعالى « القدوس » في القرآن الكريم
- سبب اقتران اسم الله « القدوس » مع اسمه « المَلِك » في القرآن الكريم
- المعنى اللغوي
- معنى «القدوس» في حق الله تعالى



و«القدوس» جل جلاله وتقدست أسماؤه جاء في القرآن والسنة، وأجمعتْ عليه الأمة. ولا يجوز أن يقال في مخلوقٍ «القدوس» هكذا مطلقًا من غير إضافة ولا تقييد، لا اسمًا ولا صفةً، ولا يجوز إذا أضيف أو نُكِّر أنْ يقع وصفًا. ويجب على ذلك التنبيه والاحتياط(1).

الدليل على اسم الله تعالى «القدوس»

و«القدوس» قد ورد ذكرُه في القرآن الكريم مرتين فقط:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والثانية: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

وقبل البَدء نذكر..

لطيفةً حول قِلَّة وُرود اسم تعالى «القدوس» في القرآن الكريم

وهي لطيفة قد يَسْتَغْرِبُها المرءُ بعضَ الشيء؛ وهي أنه ليس في القرآن الكريم كثرةُ ذِكْرٍ لهذا الاسم «القدوس» وإنْ كان يحتوي الأسماءَ الحسنى كما يقول الحليمي! وظَنِّي - والله أعلم - لأنه ليس هناك قدوس إلا الله. فهو «القدوسُ» ﷻ، ليس غيرُه.. ولا أحد سواه، فلا يحتاج أن تُضربَ له الأمثالُ ولا أن يتكرر ذِكرُه، فهو وصف لله تعالى لا كلام

(1) انظر: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، للإمام القرطبي ﷺ، ص٢٧٤- مكتبة فياض، المنصورة- الطبعة الأولى- سنة ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

فيه ولا يمكن أنْ نُناقش: هل هو قدوسٌ ﷻ أم لا؟! فهو أوضح الواضحات. فإذا لم يكن الربُّ ﷻ هو القدوسَ، فمَنْ ذا يكون؟ إذا كان هو القدوس فقد أُغْلِق بابُ الكلام وانتهى لكونه ﷻ معلومًا من هذا الوصف الجليل أنه لله تعالى لا يشترك معه فيه أحدٌ. إذ مَنِ الذي تَقَدَّسَتْ أسماؤه وصفاتُه حتى نأخذَ في التَّكرار في كونه ﷻ قدوسًا أم لا؟.. أو مَن الذي ادَّعَى له ذلك؟.. وهذا يدلنا على عظمة الله وجلاله ﷻ من هذا الاسم المشرف.

هذه نظرة قاصرة من العبد الفقير في عدم تكرار هذا الاسم المشرَّف في القرآن الكريم..

سبب اقتران اسم الله «القدوس» مع اسمه «المَلِك» في القرآن الكريم

ونلاحظ أن اسم الله تعالى «القدوس» جاء مقترِنًا مع اسم الله تعالى «الملِك».

و«الملِك القدوس» معناها: أنه ﷻ ليس مَلِكًا فقط، بل هو قدوسٌ؛ لأنَّ الملِك يمكن أن يُطْلَق على مُلُوك الدنيا، وملوكُ الدنيا ممتلئون بالكِبر والغَطْرَسة والعُجْب، والتباهي بالمال والسلطان، والتعالي بالقوة وبكثرة الجُنْد، وكلُّهم يحاول أن يعلو الآخرَ.. وأن يَقْهَرَه.. وأن يكون هو المَلِك الأكبر. ولكنَّ اللهَ تعالى مُتَقَدِّسٌ عن ذلك كله، فلو قلتَ: «السميع القدوس» لا تتأتى. لو قَرَنْتَ أيَّ اسم آخر من الأسماء الحسنى لا يأتي مع اسمه «القدوس». إنما الذي يأتي مع القدوس هو الملِك الذي لا مَلِكَ فوقَه ﷻ، وهو في ذات الوقت الملِك المقدَّس جل وعلا. وكل ملوك الدنيا ليسوا على هذا الحال من التقديس مهما كانوا مؤمنين ومهما بلغوا في درجة التُّقى والدِّين والإقبال على الله تبارك وتعالى؛ لذلك تجد هذا الاسم المشرَّف مُقْتَرِنًا باسمه «الملِك» ﷻ.

وكذلك ليكون علامةً لملوك الدنيا أنهم قد أعطاهم اللهُ تبارك وتعالى المُلْكَ مع ما هم فيه من اتِّباعِ الشهوات، ومن المَيْلِ وراء النزوات والملذات، وصَرْفِ أوقاتهم في غير ما يعود بالصالح في معاش الناس ومعادهم؛ من القيام بالعدل والحق والقِسْطِ، والسَّهرِ على مصلحة رَعِيَّتِهم؛ ليتقدسوا ويأخذوا بحظهم من اسمه القدوس ﷻ، فيتصفوا بتلك الصفات العليا، فتظهر عليهم آثارها الجميلة.

المعنى اللُّغوي

و«القدوسُ» مما لم يكن معلومًا قبل الإسلام، وهو يدل على الطُّهْر، يعني: الطهارة، ومن ذلك: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، يعني: الأرض المطهَّرة. وتسمى الجنة حظيرة القُدُس، يعني: حظيرة الطُّهْر. وجبرائيل ؏ يسمى روح القدس، إشارةً إلى طهارته في نفسه، وطهارته فيما ينقل إلى أنبياء الله تعالى ورسله من الكلام المطهَّر والخبرِ المطهر عن الله تعالى. وإنه مُتَّصِفٌ بذلك ليدلَّ على أنَّ ما يُوحِيه الربُّ جل وعلا إلى المخْتَصِّين من عباده بالرسالة أو النبوة مُتَّصِفٌ بهذه الطهارة.

و«القدوسُ» من أسماء الله تعالى؛ لأنه مُنَزَّه جل وعلا عن الأضداد والأنداد والصاحبة والوَلَد، تعالى اللهُ عما يقول الظالمون عُلوًّا كبيرًا.

وبعضُ أهل العلم يقول: «القدوس» هو الطاهر المُنَزَّه عن العيوب والنقائص. والتقديسُ أي: تَنْزِيه الله ﷯، «يُقَدِّس ربَّه» يعني: يُنزِّه ربَّه ﷻ، وفي التهذيب: «التَّقْدِيس، والقُدْس، والمُتَقَدِّس، والقُدُّوس، والمُقَدَّس» كل ذلك تَنْزِيهُ الله تعالى.

و«التَّقْدِيسُ» كذلك يُطْلق على التَّبْرِيك والتَّطْهِير؛ «أن يُقَدِّس شيئًا» يعني: يُبَرِّكه، «وأن يُقَدِّس شيئًا» يعني: يُطَهِّره، وهذا المعنى الأخير سيأتي معنا في حديث سنذكره لاحقًا: «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لَا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ**»[1].

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، «يُقَدِّسون» الله تعالى يعني: يُنَزِّهونه ﷻ، أو «نُقَدِّسُ لَكَ» يعني: نُطَهِّر أَنْفُسَنا لكَ، وكذلك «نُقَدِّسُ لَكَ» بمعنى: نفعل بِمَنْ أطاعَكَ؛ يعني: نُطَهِّر - أي: الملائكة - مَن أطاعك[2].

معنى «القدوس» في حق الله تعالى

قال ابن الحصَّار[3]: لا ينبغي أن يختلف أحد من أهل اللغة أن القدس: الطهارة، ولكن المفعول قد يُراد له اسمُ الفاعل، بمعنى أنه المطهِّر لغيره، وقد يراد به اسم المفعول بمعنى: أنه المطهَّر في نفسه. وإذا كان اسم المفعول يراد به ما يراد باسم الفاعل

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأسنى» للإمام القرطبي، [ص ٢٧٤، ٢٧٥]. و«لسان العرب»، مادة: [ق د س]. والحاصل أن مادة [ق د س] تدل على معنيين رئيسيين؛ الأول: الطهر، والثاني: البركة. وعليه يأتي تفسير العلماء لهذا الاسم المشرف.

(٣) هو عليُّ بنُ محمدِ بن محمد بن إبراهيم بن موسى، أبو الحسن الفقيه الخَزْرَجِيُّ الإشبيليُّ الفاسِيُّ المعروف بابن الحصَّار. كان إمامًا فاضلًا كثير التصنيف في أُصول الفقه، وصنَّف كتابًا في الناسخ والمنسوخ، والبيان في تنقيح البرهان، وأُرجوزة في أصول الدين شَرَحها في أربع مجلدات، وتقريب المدارك في رفع الموقوف ووَصْل المقطوع من حديث مالك اخْتَصر فيه بعضَ كتاب التمهيد لابن عبد البرّ. وتوفِّي سنة إحدى عشرة وست مائة. اهـ. من «الوافي بالوفيات» للصَّفَدي.

فالقدوس: أولى بالله جل ثناؤه من كونه قدوسًا على الإطلاق، فهو طاهر في نفسه، مُنَزِّهٌ مُطَهِّرٌ لغيره، فهو اسمٌ يتضمن جميعَ صفات الكمال، ونفيَ كل نقيصةٍ لا تليق بجلاله، وإيصال التطهير لغيره كملائكته وأنبيائه ومَن شاء من خلقه.

فهذا الاسم يكون من صفات الذات ويكون من صفات الأفعال، فهو المُنزَّه المُنزِّه والمُطهَّر المُطهِّر وفي ضمن هذا أن مَنْ لم يكن طاهرًا في نفسه فلا يُطهِّر غيرَه. والشيطانُ رِجْسٌ نَجِسٌ، وكذلك حِزبُه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

قال ابن العربي(١): ونَعْتُه تعالى «القدوس» وتعيينُ التقديس له يُوجب له أوصافًا عَشَرة:

---

(١) الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، ابن العربي الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، صاحب التصانيف. وُلِد في سنة ثمانٍ وستين وأربع مائة. ارتحل مع أبيه لطلب العلم فسمعَا الحديث ببغداد ودمشق وبيت المقدس والحرم الشريف ومصر. وتفقه بالإمام أبي حامد الغزالي، والفقيه أبي بكر الشاشي، والعلامة الأديب أبي زكريا التبريزي، وجماعة. ورجع إلى الأندلس بعد أن دَفن أباه في رحلته وصَنَّف وجَمَع، وفي فنون العلم بَرَع، وكان فصيحًا، بليغًا، خطيبًا. صنَّف كتاب «عارِضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي»، وفسَّر القرآن المجيد، فأتى بكل بديع، و«العواصم من القواصم» وأشياء سوى ذلك. صنَّف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتواريخ، واتسع حالُه، واشتهر اسمُه، وكان رئيسًا محتشِمًا، وكثُر إفضاله، وأنشأ على إشبيلية سُورًا من ماله! أدخل الأندلس إسنادًا عاليًا، وعِلمًا جمًّا. وكان ثاقِب الذهن، عَذْب المنطق، كريم الشمائل، كامل السُّؤْدُد. وَلِيَ قضاء إشبيلية، فحُمِدت سياسته، وكان ذا شدة وسَطوة، فعُزِل، وأقبل على نَشْر العلم وتدوينه. توفي / سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة. انظر – بتصرف: «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

الأول: تقديسُه عن الشُّرَكاء.

الثاني: تقديسه عن النُّظَراء.

الثالث: تقديسه عن الأَضْداد.

الرابع: تقديسه عن الأولاد.

الخامس: تقديسه عن الأَوْهام.

السادس: تقديسه عن التَحْدِيد (وهو التحديد الذي نفاه أهل الإسلام جميعًا وأهل السنة خصوصًا).

السابع: أنه لا تُدْرِكه الأبصارُ بالتصوير.

الثامن: تقديسه عن الحاجة إلى الخَلْق.

التاسع: أنَّ تطهير غيرِه إليه.

العاشر - وهو فائدتها -: أنَّ له الكمالَ في كل وَصْفٍ لاستحالة النَّقْصِ عنه[1].

---

(١) وقسَّم الإمام ابن القيم رحمه الله توحيد الأسماء والصفات ـ أو التوحيد القولي كما سمَّاه في النونية ـ إلى قسمين. القسم الأول: سلب - أي: نفي - النقائص والعيوب عن الله تعالى. والقسم الثاني: إثبات صفات الكمال له ﷻ. والقسم الأول - وهو سلب النقائص والعيوب عن الله تعالى - يتكون من نوعين: النوع الأول - وهو سلب لمتصلٍ، وضابطه: نفي كل ما يناقض صفة من صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، فقال رحمه الله:

والأولُ التَّنْزِيهُ للرحمن، عن ... وصفِ العُيوب وكلِّ ذي
كالموت والإعياء والتعب ... الذي ينفي اقتدار الخالقِ

ولقد أحسن من قال:

تَبارَكَ مَنْ أَخْفَى القَبيحَ بفَضْلِه ... وعَمَّ جَميعَ العالَمِينَ نوَالُهُ
هُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ فاسْمَعْ ... هُو المَلِكُ القُدُّوسُ جَلَّ جَلالُهُ
تَعَاظَمَ عَنْ ذِكْرِ العِبادِ ولم يَزَلْ ... يُقَدِّسُهُ قَبْلَ العِبادِ كَمالُهُ

والنومِ والسِّنَة التي، هي أصلُه ... وعُزوب شيءٍ عنه في الأكوان
وكذلك العبث الذي تَنْفِيه حِكْـ ... ـمتُه وحمد الله ذي الإتقان
وكذلك تركُ الخلق إهمالًا سُدى ... لا يبعثون إلى معاد ثانِ
كلا ولا أمر ولا نهي عليـ ... ـهم من إله قادرٍ ديَّان
وكذلك ظُلم عباده وهو الغنيـ ... ـيُّ فما له والظلم للإنسان
وكذلك غَفْلته تعالى وهو علـ ... ـلَّام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جلَّ إلهنا ... لا يَعْتَرِيه قطّ من نسيان

والنوع الثاني - وهو سلبٌ لمنفصلٍ، وضابطه تنزيه الله تعالى أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تنبغي إلا له، وتنزيهه عن الشريك والظهير - أي المعاون - والشفيع إلا بإذنه واتخاذ الصاحبة والولد والكُفْء والولي؛ قال رحمه الله:

سَلْبٌ لمتصلٍ ومنفصلٍ هما ... نوعانِ معروفان أما الثاني:
سلبُ الشريك مع الظهير مع الشَّفِيـ ... ـع بدون إذن الخالِق الديَّان
وكذلك سَلْبُ الزوجِ والولد الذي ... نسبوا إليه عابدو الصُّلبان
وكذلك نفيُ الكُفْءِ أيضًا والوَلِيـ ... ـيِ لنا سوى الرحمن ذي الغُفْران

ومن النوع الثاني أيضًا تنزيه أوصاف الكمال الثابتة له ﷻ عن مماثلة صفات المخلوقين لها. وسيأتي الكلام عليه في التعليق على كلام الإمام الغزالي رحمه الله. انظر - بتصرف كثير: «القصيدة النونية» مع شرحها للشيخ محمد خليل هرَّاس [٢/ ٥٧-٦٥].

قال الحَلِيمِيُّ[1]: ومما قَدَّسَ اللهُ سبحانه به بني آدم ما أنزله في كتبه وأَوْدَعَ قلوبَ رُسُله من حكمته، وما شَرَعَ لهم من الطهارة بالماء الطَّهور، وما شرع لهم من مناجاته في صلاتهم. ثم جعل سبحانه كل شيء يسبح بحمده، فهو «السُّبُّوح القدوس» بكل اعتبار، و«الطاهر المطهّر» لكل طاهر، وكلُّ طهارة وطهور فهي منه وإليه، تعود في جنته وحظيرة قدسه.

فإذا علمتَ أنَّ كل طهارةٍ ونزاهةٍ وقدسٍ من قدسِهِ وطهارته ونزاهته، فكذلك كل نور من نوره، وكل علم من علمه، وكل قوة من عزته.. إلى منتهى أسمائه الحسنة وصفاته العلى. فلا مناقضة بين هذا الاسم وبين سائر الأسماء لاحتوائه عليها[2].

---

(١) انظر ترجمته في شرح اسم الله «الودود» [ص ٢٠] الطبعة الثانية.

(٢) انظر -بتصرف واختصار: «الأسنى» للإمام القرطبي، ص٢٧٥-٢٧٨. وممن قال من التابعين أن «القدوس» بمعنى [الطاهر] التابعيُّ الجليل وَهْبُ بنُ مُنَبِّه ﵀، وقال مجاهد وقتادة رحمهما الله: «القدوس» أي: «المبارك»؛ ذكره ابن كثير في تفسيره. ولعل قول مجاهد وقتادة أنه [القدوس] أي: المبارك، مرجعُه إلى أن «القُدسَ» مِنْ معانيه «البركة»، و«التقديسَ» مِنْ معانيه «التبريك» كما مرَّ. وحاصلُ ما ذكرناه في اسمه تعالى «القدوس» ثلاثة أوجه. **الأول:** أنه المبارك. **الثاني:** أنه الطاهر في نفسه والمطهَّر المنزَّه عن القبائح والعيوب والنقائص ﷻ. **الثالث:** أنه المنزِّه المطهِّر لغيره. وقال ابن القيم ﵀ في النونية:

هذا وفي أوصافه القدوس ذو التـ ... ـتَنْزِيــه بالتــعظيم للــرحــمنِ

فأضاف التعظيم إلى التنزيه، ولعله استنبط هذا من قول الإمام أبي جعفر الطبري ﵀ في تفسير قوله تعالى: ﴿**قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، قال الإمام الطبري ﵀: «والتقديس هو: التطهير والتعظيم. ومنه قولهم: «سبوحٌ قدوسٌ»، يعني بقولهم «سبوحٌ»: تنزيهٌ لله، وبقولهم «قدوسٌ»: طهارةٌ له وتعظيم». اهـ. وأخرج الطبري عن أبي صالح - مولى أم هانئ ﵁: [و﴿**وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾: نُعَظِّمك ونُمَجِّدك]، وعن مجاهد: «نُعَظِّمك ونُكَبِّرك».

رأي الإمام الغزالي في اسم الله تعالى «القدوس»

وننتقل إلى كلام الإمام الغزالي رحمه الله، فإنه لَفَتَ الأنظارَ إلى شيءٍ - وهو شيءٌ قلَّما يلتفت المرءُ إليه في كلام العلماء وغيرهم، وهو أنَّ «القدوس» يعني: «المُتَنَزِّه عن النقائص والعيوب... وكذا وكذا» وفقط.

وقبل أن نذكر ذلك نُورِدُ تعريفَ الغزالي لاسمه تعالى «القدوس»، حيث يقول رحمه الله[1]: «هو المُنَزَّهُ عن كل وَصْفٍ يُدْرِكُه الحِسُّ، أو يَتَصَوَّرُهُ الخيالُ، أو يَسْبِق إليه الوَهْمُ، أو يَقْتَرِنُ به الضميرُ، أو يَقْضِي به التَّفْكِيرُ..» سبحانه وتعالى.

فهو المُنَزَّهُ عن كل وَصْفٍ يُدْرِكُه الحِسُّ ولا شك أنه لا يدركه شيءٌ سبحانه وتعالى. «أو يَتَصَوَّرُهُ الخيالُ» أي: لا يُدْرِك خيالُ المرءِ تصورًا لربه.. فهو مُتَقَدِّس عن ذلك سبحانه وتعالى. «أو يَسْبِق إليه الوَهْمُ» أن المرء يتوهم الربَّ سبحانه وتعالى على أسماءٍ أو صفاتٍ معينة؛ كلُّ ذلك متقدِّس عنه سبحانه وتعالى. «أو يَقْتَرِنُ به الضميرُ» يعني: أن يأتي في ضمير المرء شيءٌ يتخيل أنه يُشْبِه ربَّه سبحانه وتعالى؛ فكل ذلك يتقدس عنه سبحانه وتعالى. «أو يَقْضِي به التَّفْكِيرُ» أي: أن يُفَكِّر المرءُ في شيء يقضي به أن ربه كذلك، فيَتَقَدَّس اللهُ سبحانه وتعالى عن أن يقتضي التفكير القاصِر - من الناس عمومًا - أن يَصِلوا إلى شيء يُكَيِّفون به ربَّهم سبحانه وتعالى، أو أن يتوهمونه به.. أو غير ذلك.

والكلمةُ التي يَوَدُّ أنْ يقولَها ويَلْفِتَ النظرَ إليها الإمامُ الغزالي رحمه الله هي قوله: «ولستُ أقولُ: مُنَزَّهٌ عن العُيوبِ والنَّقائِصِ؛ فإنَّ ذِكْرَ ذلك يكاد يَقْرُب من تَرْكِ الأَدَب،

---

(١) انظر: «المقصد الأسنى»، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، [ص٥١، ٥٢]، مطبعة الصباح - دمشق، الطبعة الأولى وقد جعلنا كلام الإمام الغزالي بين تنصيص، هكذا «...». وانظر ترجمته رحمه الله في شرح اسم الله تعالى «الودود» سبحانه وتعالى [ص ٤٦] الطبعة الثانية.

فليس من الأدب أن يقول القائلُ: مَلِكُ البَلَدِ ليس بِحَائِكٍ ولا حَجَّامٍ. فإنَّ نَفْيَ الوجود يكاد يُوهِم إمكانَ الوجود، وفي ذلك الإيهام نَقْصٌ».

فكأنه يقول: مَنْ نحن حتى نُنَزِّه الربَّ ﷻ عن العيوب والنقائص، «فإنَّ ذِكْرَ ذلك» اللفظ لا أَدَبَ فيه، أو يقرُب ألَّا يكون فيه أدبٌ؛ أن تقول: مُنَزَّهٌ عن العيوبِ والنقائصِ!

فعندما تقول: «هذا المَلِكُ ليس بحائِكٍ». فهذا ليس مَدْحًا ولا تَمْيِيزًا له، «فإنَّ نَفْيَ الوجود يكاد يُوهِم إمكانَ الوجود» فإذا نَفَيْتَ النقصَ - كمثل أن تقول: هو ليس حَجَّامًا! - كأنكَ تُوهِم إمكانَ أن يكون كذلك، «وفي ذلك الإيهام نَقْصٌ» يعني: في إيهام إمكان الوجود هذا النقصُ.

بل ينبغي أن نقول: إن الله ﷻ مُتَّصِفٌ بكل صفات الكمال - وهو كذلك غَنِيٌّ عن أن يقولها أحدٌ - لأن له الأسماءُ الحسنى والصفاتُ العليا، وهو متصف بها قبل خلق الخلق، وله ﷻ الثناءُ الحسن الجميل.

ثم يصحح الإمام الغزالي التعريف الذي يذهب إليه فيقول رحمه الله: «القدوسُ هو المُنَزَّهُ عن كلِّ وَصْفٍ مِنْ أوصافِ الكَمالِ الذي يَظُنُّه أكثرُ الخلق»؛ لأن الخَلْق قد وَصَفُوا أنفسَهم بهذه الأوصاف، وعندما أرادوا أن يُقدسوا ربَّهم ويمدحوه مدحوه بكونه موصوفًا بهذه الأوصاف التي هي صفات كمال، ولكن في حقهم، مثل: عِلْمِهم وقُدْرَتِهم وسَمْعِهم وبَصَرِهم وكلامِهم وإرادَتِهم واخْتِيارِهم. حيث وضعوا ألفاظًا بإيذاءِ هذه المعاني وقالوا: إنَّ هذه أسماءُ كمالٍ، وقالوا (ثناءً عليه): إن الله سميعٌ.. بصيرٌ.. كذا كذا، ونفوا عنه ما هو نَقْصٌ في حَقِّهم مثل: الجهل والعَجْز والعَمَى والصَّمَم والخَرَس.

أي كان غايتُهم في الثناء على الله تبارك وتعالى هو وصفَه أن وصفوه بما هو أوصاف كمالهم، من العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك، وإنْ نَفَوْا عنه أوصاف نَقْصِهم.. لا هو مُنَزَّهٌ عن أوصاف كمالهم هذه.

تُرى هل هو مُنَزَّهٌ إذًا عن صفات كمالهم أو منزه عن صفات نقصهم؟

الجواب: أنه منزهٌ عن صفات كمالهم، فإذا وَصَفُوه بالعلم، فالعلمُ مَرَدُّه إليه ﷻ، وكذلك السمع والبصر مَرَدُّه إليه؛ وهذه الأُولَى.

والثانيةُ: أنَّ عِلْمَهم وسمعَهم وبصرَهم وكلامَهم وإرادتِهم ومُلْكَهم... كلُّ ذلك هل يُشبه ما يَتَّصِف به الربُّ؟ أو أن هذا من جِهة اللغة وما يُقَرِّب للأفهام فقط؟ فالسمعُ غيرُ السمعِ، والبصرُ غيرُ البصرِ، والمُلْكُ غيرُ الملكِ، بل كلُّ ذلك فضلُ الله تعالى، فلا يشبه خلقُ الله تعالى الربَّ ﷻ، وفي الوقت نفسه: اللهُ تعالى مُتَنَزِّهٌ عن أنْ يُشْبِهَ خَلْقَه في ذلك، يعني في علمهم وسمعهم وكلامهم وفي أوصاف كمالهم، فهو مُنَزَّه عن أنَ يشارِكَ عبادَه؛ إذ كلُّ أحدٍ مُخْتَصٌّ بصفاتِه، واللهُ من باب الأولى له صفاته التي تليق بالذات لا يشبهه فيها أحدٌ، ولا يشارك هو ﷻ فيها أحدًا.. مُنَزَّهٌ عن ذلك ﷻ. كما أن ذاته المقدسة لا تشبه الذوات ولا يشبهها ذات.

أما أوصاف النقص فهذه ليست لها علاقة بنا، فإذا كانت أوصافُ الكمال هو مُنَزَّهٌ عنها، فلا مكان لِذِكْرِ أوصافِ النقص التي هي للخَلْقِ الناقص؛ لذلك يقول: «مُنَزَّهٌ عن أوصافِ كمالِهم»، فمن باب الأولى ليس هناك أوصاف نقص[1].

(١) راجع لما سبق «المقصد الأسنى» [ص٥١، ٥٢].

هذه نظرة من الإمام محل تأمل لنظر أهل العلم، ذكرناها للأمانة العلمية ومحاولة البحث فيها.

وخلاصة ما سبق: أنَّ أوصاف الكمال الثابتة لله تعالى مُقدَّسةٌ ومُنزَّهةٌ عن مماثلة صفات المخلوقين لها، فلا يقال عِلْمُه كعِلمهم ولا قُدرته كقدرتهم ولا رحمته كرحمتهم... ونحو ذلك، فمَنْ شبَّه صفاتِ الله تعالى بصفات خَلْقه لم يكن عابدًا لله في الحقيقة، وإنما يعبد وَثَنًا صَوَّره له خيالُه ونَحَتَهُ فِكْرُه. وأمَّا ربُّ العالمين ﷻ فهو فوق ما يظنون وأعلى مما يتوهمون؛ فإنه كما أنَّ ذاته لا تُشبهها ذواتُ المخلوقين فصِفاتُه لا تشبهها صفاتُهم. ولكي يكتمل هذا التنزيه عند أهل السنة والجماعة - وهم سلفنا الصالحون والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين - فإنهم يُنَزِّهون صفاتِ الله تعالى عن التَّعْطيل والجَحْد لها - على عكس الجَهْمِيَّة ومَن تَبِعهم من المتكلمين - فإنَّ مَنْ نَفَى ما وصف اللهُ به نفسَه أو وصفه به رسولُه ﷺ فإنه في الحقيقة لا يعبد شيئًا موجودًا وإنما يعبد عدمًا مفقودًا، لما تَوَهَّم أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه أخذَ يَنْفِيها بوَهْمِه الفاسد. وبالجملة؛ فالناسُ في هذا المقام ثلاثة أقسام: «مؤمنٌ مُوحِّدٌ، ومُشَبِّه، ومُعَطِّل». فـ«المؤمن الموحِّد» يَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ به نفسَه ووصفه به رسولُه ﷺ من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، من غير تمثيلٍ ولا تشبيهٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ لشيءٍ من أوصاف الله تعالى. والقسم الثاني هو «المُشَبِّه» الذي يُشبِّه صفاتِ الله بصفات المخلوقين أو يَتعرَّض لمعرفة كُنْهِهَا وحقيقتها التي لا يعلمها غيرُ الله تعالى. والقسم الثالث هو «المُعطِّل» وهو مَن نَفَى شيئًا من صفات الله تعالى، لذلك قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

هَـذَا وَثَـانِي نَـوْعَي الـسَّلْبِ ... هُـو أَوَّلُ الأَنْـواعِ في الأَوْزَانِ
تَنْزِيـهُ أَوْصَـافِ الكَـمَالِ لَـهُ ... تَـشَبُّهٍ والتَّمْثِيـلِ والنُّكْـرانِ
لَـسْنَا نُـشَبِّه وَصْـفَهُ بـصِفاتِنا ... إنَّ المُـشبِّهَ عابِـدُ الأَوْثـانِ
كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِـن أوصافِه ... إنَّ المُعَطِّـلَ عابِـدُ البُهْتَـانِ

وانظر - بتصرف: «القصيدة النونية» للإمام ابن القيم مع شرحها للشيخ محمد خليل هرَّاس - رحمهما الله تعالى. [٢/ ٦٥-٦٧] طبعة دار الشريعة - سنة ١٤٢٤هـ،٢٠٠٤م - الطبعة الأولى. وقد شرح المؤلف هذه الجزئية بتفصيل أكثر من هذا في دروس «توضيح شرح العقيدة الطحاوية»، فارجع إليها.

الفصل الثانى

حظ العبد من اسم الله تعالى « القدوس »

- **الحظ الأول**: تنزيه العبد لعلمه وإرادته
- **الحظ الثاني**: تقديس العبد نفسه ليكون أهلاً لمجاورة القدوس في حظيرة قُدُسه سبحانه وتعالى
- **الحظ الثالث**: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس» .

وحَظُّ العبد من اسمه المقدَّس ﷻ من المسائل المهمة؛ وهو علاقة المؤمنين بهذا الاسم المبارك: كيف يَدْعون الله تعالى بكونه قُدُّوسًا؟ وكيف يكون لهم حظُّهم من التخلق - بما يليق بالعباد - بهذا الاسم المشرف؟ وقد ذكرنا أن المرء لا بد أن يكون له حظ من الأسماء الحسنى كـ«الرَّحِيم، والرزَّاق، والوهَّاب، والسلام، والمؤمن...» إلى غير ذلك من الأسماء: أن يتصف - بما يليق بالعبد - بصفات الله تعالى؛ حتى يترقى إلى هذه الدرجات العالية في توحيد الرب ﷻ ومعرفته ومحبته والتعلق به.

الحظ الأول: تنزيه العبد لعلمه وإرادته

فإذا أراد العبدُ أن يأخذ حظَّه من هذا الاسم المشرف «القدوس»، فعليه أن يُقَدِّس - أي: يُطَهِّر أو يُنَزِّه - إرادتَه وعلمَه أولًا.

ولكن كيف يُنَزِّه العبدُ إرادتَه وعلمَه؟..

أولاً: تنزيه العلم:

يُنزه العبدُ علمَه بأنْ يُحَصِّل من العلوم ما لو سُلِبَ هذا في حِسِّه وتَخَيُّلِه بَقِيَ رَيَّانًا بالعلوم الشرعية الشريفة الكُلِّيَّة المتعلِّقة بالله تعالى ومعرفته وتوحيده ومحبته.

وأن يتنزه في عِلمه عن كل العلوم التي لا يكون لها حظٌّ في معرفته بربه ﷻ وإقباله عليه. وبقاءُ هذه العلوم الشرعية الكُلية الإلهية أن يكون ريَّانًا منها، مُمتلِئًا منها. وهي العلوم التي لا حدود لمحموديتها؛ فهي محمودة إلى أقصى درجة ممكنة ولا غاية لحَمْدها لأنها العلوم المتعلِّقة بالله تعالى وأسمائه وصفاته ﷻ؛ إذ كلما ازداد المرءُ منها ازداد محبةً لربه.. وتعلقًا به.. وتوحيدًا له. كلما ازداد منها ازداد قلبُه نورًا وطمأنينةً وسكينةً ويقينًا

وإخباتًا وتوكلًا وخوفًا وخشيةً ورجاءً وميلًا إليه ﷻ وزهدًا في الدنيا وإقبالًا على الآخرة واستقامةً على طريق الله تعالى. فهذه هي العلوم التي لا حَدَّ لمحموديتها، ولا غاية لها فيُقْبِل المرءُ عليها ويتزود منها.

فالمرءُ يبحث عن أيِّ عِلْمٍ إذًا حتى يكون مُتَقَدِّسًا؟

الجواب: يبحث عن العلم الشريف المتعلِّق بالرب ﷻ وتوحيده ومحبته ومعرفته والإقبال عليه والتعلُّق به وحُسْنِ التوكل عليه واليقين فيه... إلى آخر ما ذكرنا من هذه العلوم المحمودة المتعلقة بالرب ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

ثانيًا: تنزيه الإرادة:

وكيف يقدِّس المرءُ إرادتَه؟.. يعني كيف يُقَدِّس قَصْدَه وتَوجُّهَه ونيته وطلبه؟

الجواب: أنه يتقدس له ذلك بأن تكون إرادتُه منزَّهةً أن تدور حول الحظوظ البشرية التي ترجِع إلى لذَّاتِ الشهوة والغضب ومُتْعَة الطعام والمنكَح والملبَس والملمَس والمنظَر، وما لا يَصِل إليه من اللَّذات إلا بواسطة الحسِّ والقلب، فيقدِّس إرادتَه بألَّا يريد إلا الله تعالى، ولا يبقى له حظٌّ إلَّا في الله تعالى، ولا يكون له شوقٌ إلَّا إلى لقاء الله تعالى، ولا فَرَحٌ إلَّا بالقرب من الله تعالى.

وعلى الجملة: فينبغي أن يخرج المرءُ من أن يُشارك البهائمَ في حُظوظها[1]؛ لأن هذه الحظوظ التي ذكرنا من لذة الشهوة ومتعة المأكل والمشرب والملبس والملمس والمنظر... كل ذلك يشارك المرء فيه البهائم، فينبغي على المرء أن يَتَنَزَّه في إرادته عن أن يشارك

(١) راجع لما سبق «المقصد الأسنى»: [ص ٥١ - ٥٣].

البهائمَ فيها، وأن تكون حظوظُه في أن يُقَدِّس إرادتَه عن غير الله تعالى، فلا يريد إلا الله جل وعلا، ولا يبقى له حظٌّ إلا حظه من الله تعالى.

فإنْ حَصَّل هذا الحظ من الله تعالى فقد حصَّل سعادة الدنيا والآخرة. فإذا لم يكن له ربُّه فمَنْ يكن له؟! وإذا فاتَهُ حَظُّهُ من ربه فماذا حَصَّل؟! حَصَّل الزائلَ الذي يشارك فيه البهائم!!..

وفي ذلك الكلام عِبرةٌ تُطلِع المرءَ على حاله، وتؤكد عليه أن حظوظه وإرادته غير مقدسة لأن كل ذلك مُتَوجِّه إلى تحصيل شهواته التي يُشارك فيها البهائمَ، ويُضَيِّع فيها وقتَه وجهدَه، ويُفْنِي فيها عُمرَه وصحتَه. وإذا تيقن المرء من نفسه هذا الحالَ السيئ فليسارعْ إلى التوبة من ذلك والاجتهاد في تطهير إرادته؛ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: ألا يكون له شوقٌ إلَّا إلى لقاء الله تعالى، ولا فَرَحُ إلا بالقرب من الله تعالى. يعني: ليس له شوق إلى امرأة جميلة، ولا إلى مأكل شَهِيٍّ، ولا إلى ملبَس كذا ولا في كذا.. وإنما شوقه إلى لقاء الله تعالى. ولا يفرح بتحصيل الزائل من الدنيا مهما كان، إنما فَرَحُه بالله؛ إنْ امتلأ قلبه بالفرح بربه حاز كل الأفراح في الدنيا والآخرة، وإن فاتَهُ ربُّه فهو في الغَمِّ والنَّكَدِ الذي يعيش فيه المرءُ اليوم..

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فجلالة المريد على قدر جلالة مراده. يعني: من كان مراده ونيته الإخلاص لله تعالى وتحصيل رضا ربه جل وعلا، فدرجته عند الله جليلة كقدر مراده ذلك. ومَنْ هِمَّتُه ما يَدْخُل في بَطْنِه فقِيمَتُه ما يَخْرُج منه، لذلك ضرب النبيُّ ﷺ ما يَخْرُج من المرء مثلًا

للدنيا... الحديث. أكلوا وشَرِبوا وشَبِعوا وجامَعُوا وحَصَّلُوا كلَّ الشهوات، وبعد ذلك خَرَّجُوا كلَّ هذا في الحُشُوش[1]، فضَرَب ﷺ ذلك كله مثلًا للدنيا التي يَتَعارَكون عليها.. هي في النهاية ما يَخْرُج منهم.

ومَنْ لم يكن له هِمَّةٌ سوى الله فدَرَجَتُه على قَدْرِ هِمَّتِه، قال تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

ومَن تَرَقَّى في علمه في معرفته بربه ﷻ وقَدَّس إرادتَه عن الشهوات نَزَلَ بُحْبُوحَةَ[2] حَظِيرةِ القُدُس، وكان أهلًا لمجاورة الله تعالى في جَنَّتِه.

الحظ الثاني:

تقديس العبد نفسه ليكون أهلاً لمجاورة «القدوس» في حظيرة قُدُسه ﷻ

ولاستكمال المعاني المتعلقة بأن يأخذ المرءُ حظَّه من اسم الله تعالى «القدوس» - بعد أن يقدِّس إرادتَه وعلمَه - نذكر الكلام الآتي للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى[3]:

---

(١) «الحُشُوش» يعني: الكُنُف ومَواضع قَضاء الحاجة، الواحد: حَشٌّ - بالفتح . وأصله من «الحَشّ»: البُسْتَان؛ لأنهم كانوا كثيرًا ما يَتَغوّطون في البسَاتِين. اهـ من «النهاية في غريب الحديث»، مادة: [ح ش ش].

(٢) «بُحْبُوحَة الدار»: وسطها - بضم الباءين. انظر: «مختار الصحاح»، مادة: [ب ح ح].

(٣) انظر: «إغاثة اللهفان»، للإمام ابن القيم رحمه الله، «الباب السابع: في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه» [ص٥٢ - ٥٩]. طبعة مكتبة عاطف، بتحقيق وتصحيح: فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله.

يقول رَحِمَهُ اللهُ: «أن يُداوم» المرءُ «على تقديس نفسه».. يعني: على تطهير نفسه «للملِك القدوس ﷻ؛ فيُطَهِّر نفسَه ظاهرًا وباطنًا.

ولِيَعلمْ أنَّ جَنة القُدُس» التي قدَّسها الله تبارك وتعالى وهي حظيرة القدس «لا يَسْكُنُها إلا مَنْ قَدَّس نفسَه لله تعالى؛ لأن الله تعالى هو القدوس، ولا يمكن أن يجاورَه في جنته إلا مَن كان قُدوسًا كذلك» يعني: مُتطهِّرًا .. كما قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]»، وقال أيضًا ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣]، فلا يدخل الجنة إلا من كان طيبًا متطهرًا متقدِّسًا يليق بمجاورة القدوس ﷻ.

فكيف يكون هو ﷻ القدوس ويجاوره في جنته مَن فيه خَبَثٌ في إرادته وعلمه ونفسه ظاهرًا وباطنًا؟! ومَن كان فيه هذه الشهوات التي يُشارك فيها البهائمَ كيف يجاور ربَّه القدوس ﷻ؟!

لذلك قال: «وهذه الجنة لا يَسْكُنها إلا مَنْ قَدَّس نفسَه لله تعالى، فلا يدخلها خَبِيثٌ ولا مَنْ فيه شيءٌ من الخَبَث» فمَنْ تطهَّر في الدنيا ولَقِيَ اللهَ طاهرًا من نجاسته دَخَلَ الجنة بغير مُعَوِّقٍ يَعُوقُه. ومَنْ لم يَتَطَهَّر في الدنيا؛ فإنْ كانت نجاستُه عَيْنِيَّه كالكافر - لأن الله تعالى سَمَّى المشركين ﴿نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] - لا يدخل الجنة بحالٍ. وأما مَنْ كان فيه نَجَسٌ، أي: فيه خَبَثٌ مِن خَبَثِ الدنيا من أهل الإيمان، فإنْ كانت نجاستُه كَسْبِيَّةً عارضةً دَخَلَ الجنة بعدما يَتطهر في النار من تلك النجاسة.

حتى إنَّ أهل الإيمان إذا جاوَزوا الصراطَ حُبِسوا على قَنْطرة بين الجنة والنار، فيُهَذَّبون ويُنَقَّوْن من بقايا بَقِيَتْ عليهم؛ قَصُرَتْ بهم عن الجنة ولَمْ تُوهِبْ لهم دخولَ

النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا وكانوا أهلًا لمجاورة الله تعالى أُذِنَ لهم في دخول الجنة[1] وهذا ينبغي أن يُخِيفَ المرءَ وأن يُطْلِعَه على مَوْقِفِه الذي يلاقي به ربَّه ﷻ في الآخرة، فيسارع في تقديس نفسه على سنة الرسول ﷺ وأصحابه المُكرَّمين.

وحتى في الدنيا فإن الله تعالى لا يَدْخل عليه إلا أن يكون مقدَّسًا.

فالله ﷻ بِحِكْمَته جَعَلَ الدخولَ عليه في الدنيا مَوْقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلِّي عليه حتى يَتطهَّر. وكذلك جَعَل دُخولَ الجنة موقوفًا على هذه الطهارة، فلا يدخلها إلا طَيِّبٌ طاهرٌ كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ...﴾ [الزمر:٧٣]، فهما طَهَارَتانِ: «طهارة البدن» و«طهارة القلب»، ولهذا شُرِعَ للمُتوضِّئ الذي يَتطهر لِيَقِفَ أمامَ ربِّه ﷻ عَقِيبَ وُضوئه أن يقول: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**»[2].

فإذا تَطهَّر في ظاهرِه وبدنِه فإنه لا يستطيع أنْ يَقِفَ بين يَدَيْ ربه ﷻ إلا أن يكون طاهرَ القلب كذلك؛ قد تَطَهَّر قلبُه من الأَرْجاس والأَنْجاس والآفات السيئة والأخلاق الذميمة والصفات المرذولة التي لا يليق بالمرء أن يقف بها أمام الله ﷻ.

---

(١) عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِى الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ: لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِى الدُّنْيَا**». أخرجه الإمام البخاري ﷺ في صحيحه: [٢٤٤٠].

(٢) أخرجه الإمام مسلم [٢٣٤] دون قوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**». وأخرجه بتمامه الترمذي [٥٥]. كلاهما من رواية عمر بن الخطاب ﷺ إلى النبي ﷺ.

لذلك أمرك اللهُ تعالى إذا أرادكَ أن تقف بين يديه أن تكون مُتطهرًا بالطهارتين؛ مُتقدِّسًا في بدنكَ وقلبكَ حتى يَقْبلَكَ ﷻ، وحتى يقبلَ منكَ ما تُقْبِلُ عليه به من العبادة ومن الذِّكر، وحتى يَفْتَحَ عليك ﷻ - بإقباله عليكَ - بابَ التدبر والتأمل والتفكُّر في كلامه تعالى، وبذا تَتَرَقَّى درجتُك عنده تبارك وتعالى. لذلك ذُكِر أن الصلاة لا يُقبل إلا نصفها.. ربعها.. ثلثها.. إلى عُشرها، كما ورد في الأثر(١).

فلَـمَّا اجتمع له الطُّهران - الظاهر والباطن - صَلُحَ للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته؛ ولذلك كان النبي ﷺ يقول في بداية الصلاة: «**اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»(٢).

(١) عن عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﵁ أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا إِلَّا عُشْرُهَا.. تُسْعُهَا.. ثُمُنُهَا.. سُبُعُهَا.. سُدُسُهَا.. خُمُسُهَا.. رُبُعُهَا.. ثُلُثُهَا.. نِصْفُهَا**». رواه الإمام أحمدُ ﵀ [٤/ ٣٢١] الطبعة الميمنية. قال الشيخ شعيب في التحقيق: «حديث صحيح». وبنحوه أبو داود [٧٩٦]. قال المناوي ﵀ في «الفيض»: «أراد أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص بحسب الخشوع والتدبر ونحو ذلك، مما يقتضي الكمال. وفي بعض الروايات: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ**» أي: فيُكتب له منها ما عَقَل فقط، وذلك فضلٌ عظيم عند الله؛ لأن صلاته كانت في موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها إلى أن يكتب له ما عَقَل، إذ لا يدري بين يديْ مَن هو حتى يلتفت إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده!» اهـ من «الفيض»: [٢/ ٤٣٢] طبعة مكتبة مصر - الطبعة الثانية - سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٢) متفق عليه من رواية علي بن أبي طالب ﵁: البخاري [٦٣٦٨]، ومسلم [٥٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «سألتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية[1]: كيف يُطَهِّرُ الخطايا بالبارد؟ وما فائدة التخصيص بذلك - يعني: بالماء البادر - والحارُّ أَبْلَغُ في النظافة؟».

يعني: هل الماءُ البارد هو الذي سيُطَهِّرَ الخبث والنجاسة والأَدْرَان أم الماء الحار هو الذي يُذْهِبُها؟!

---

(١) هو أحمدُ بنُ عبدِ الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم... الحرانيُّ الأصل والمولِد، الدمشقيُّ الدار والوفاة، الحنبليُّ، المعروف بابن تيمية - «وتيمية» لقب جده الأعلى - الإمامُ العلَّامة، الحافظ الحُجة، فريدُ دَهْره، ووحيدُ عَصْره، وشُهرته تُغْني عن الإطناب في ذِكره، والإسهابِ في أمره. وُلِدَ بحَرَّان سنة ٦٦١هـ، وقَدِم به والدُه وبأخوته إلى دمشق عند استيلاء التَّتَر على البلاد سنة ٦٦٧هـ، فسَمِعَ بها من الشيخ ابن عبد الدائم، وابن عساكر، وابن الصيرفي، وابن علَّان، وخَلْقٍ كثير. قرأ وبرع في علوم الحديث، ودَرَّس وأفتى، وفاق الأقران وصار عجبًا في سرعة الاستحضار وقوة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول والإطالة على مذاهب السلف والخلف، وتصدَّر للإقراء والإفادة عدة سنين، وفسَّر، وصنَّف التصانيف المفيدة. وانتهت إليه الرئاسةُ في مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه. أثنى عليه جماعةٌ من أعيان علماء عصره، مثل الشيخ تقي الدين ابن دقيق العِيد وغيره. قال الشيخ شمس الدين: «ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يُوردها منه، ولا أشدَّ استحضارًا لمتون الأحاديث وعَزْوِها إلى الصحيح أو المسند أو السنن، كأنَّ ذلك نُصْب عينه وعلى طَرَف لسانه». ومصنفاته أكثر من مائتي مجلد، منها: «مجموعة فتاويه»، و«السياسية الشرعية»، و«اقتضاء الصراط المستقيم»... وغير ذلك. وقد امتُحِنَ، وأُوذي مرات، وحُبس بقلعة القاهرة والإسكندرية، وبقلعة دمشق مرتين، وتوفي بها في سنة ٧٢٨ هـ، ومُنِعَ قبل وفاته بخمسة أشهر من الدواة والورق. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة»، «الوافي بالوفيات»، «الدرر الكامنة»، «العبر في خبر من غبر»، «المنهل الصافي»، «معجم المؤلفين».

يقول: «قال» يعني: شيخ الإسلام ابنَ تيمية «الخطايا تُوهِبُ للقلب حرارةً ونجاسةً وضَعْفًا» أي: حرارةَ الشهوات والإقبال عليها ومحبتها والانتظار لها والسعي إليها، فكلما أخطأ المرءُ وجدتَه قد اشتعل قلبُه بمزيد الخطايا والنظر والشهوة وسماع السوء... وغير ذلك، وفي نفس الوقت تُوهِبُ له ضعفًا لا شك؛ لأنه لـمَّا كانت هذه الخطايا قد عَلَتِ القلبَ أضعفَتْه، ولـمَّا عَلَتْهُ علاهُ هذا الرَّانُ؛ أي تلك النجاسة التي يتنجس منها القلب؛ لأن نجاسة القلب إنما هي في هذه الخطايا التي يَتَلَبَّس بها.

لذلك يقول: «فيَرْتَخِي القلبُ وتَضْطَرِم به نارُ الشهوة وتُنَجِّسه؛ فإنَّ الخطايا والذنوب لهم بمنزلة الحَطَب الذي يَمُدُّ النارَ ويُوقِدُها، ولهذا كلما كَثُرَت الخطايا اشْتَدَّتْ نارُ القلب ببقية الخطايا وضَعُفَ القلب في نفس الوقت عن مقاومة الشهوة، والماءُ يغسل الخبثَ ويُطْفِئ النارَ». لذلك قال: «بالماء البارد» حتى يطفئ هذا الماءُ البارد هذه النارَ من نار الشهوات، ويغسل هذا الخبثَ الذي عَلَا على القلب، «فإن كان باردًا أَوْرَثَ الجسمَ صلابةً» أي: عندما يكون الماءُ باردًا يورث الجسمَ صلابةً وقوةً، «فإن كان معه ثلجٌ وبَرَدٌ كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته فكان أَذْهَبَ لِأَثَرِ الخطايا» وهذا معنى كلامه رحمه الله تعالى.

والربُّ جلَّ وعلا أمرَ المؤمنين أن يَتطهروا بهذا الماء ليدخلوا على الله تعالى مُتقدِّسين به، وإن لم يجدوا ذلك الماء، أمرهم بالصعيد الطيب الطَّهُور، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦]، وقال ﷺ: «**وجُعِلَتْ لنا الأَرْضُ مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنا طَهُورًا**»[١]. فلم يَقْبلهم حتى يتطهروا ويتقدسوا ليدخلوا عليه تبارك وتعالى، ولا

(١) رواه مسلم [٥٢٢] من رواية حذيفة ﷺ.

يمكن الدخولُ عليه إلا بالطهارة؛ ثم ماذا تُغني طهارةُ البدن في الظاهر عن طهارة القلب المُتَّسخ بأَدْران السيئات والذنوب والخطايا، لذلك كانت الطهارتانِ مطلوبتين حتى يُقْبَل المرءُ ويدخل على الله تعالى.

ومِن ثَمَّ كان من الإيمان لزوم المرء هذه الطهارة وذلك التقديس، حتى إنه نهاه ﷺ أن يُصلي إلا على مكان طاهر، وألَّا يصلي في الأماكن النجسة: في المزبلة والحمام والمقبرة؛ لأنها لا ينبغي أن تكون مَحِلًّا لوقوف المرء بين يدي الله تبارك وتعالى، بل كل ما يتعلق بوقوف المرء بين يدي الله لا بد أن يكون متطهِّرًا متقدِّسًا ليليق بمقام المَوْلَى ﷻ، يعني: بمقام المرء في وقوفه بين يدي مولاه.

وفي نهاية المطاف في الآخرة: هؤلاء الذين عليهم هذا الخبث يدخلون النار «حتى إذا احتَمَشوا وصاروا حُممًا يَخرجون بشفاعة الله ﷻ ويُلْقَوْن - كما يقول الحديث - على باب الجنة يُصَبُّ عليهم من نَهْر الحياة، فيَنْبُتون كما تَنْبُتُ الحبَّةُ في مَسِيل السَّيل» حتى يتطهروا ثم يدخلوا الجنة. يعني: لا يدخل الجنة أبدًا من كان عليه شيءٌ من الخبث؛ حتى إذا أتى اللهَ تعالى بشيء من ذلك فإنه ساعتَها لا بد أن يُتَطَهَّر.

وهذا ما يجعل هَمَّ المرء اليوم قبل الغَدِ؛ كيف يتطهر في كل شيء من أموره؟ فهذه الطهارة التي أمَر الله تعالى بها ليست للصلاة والوقوف بين يديه فقط، ولكن -كما أشرنا- لا بد أن يتطهر في كل حظ من حظوظه في الدنيا، وكذلك أن يتطهر في بدنه؛ أن يُطَهر لسانَه عما لا يليق إلا بالله تعالى.. فيطهر لسانَه عن السبِّ والشتم والغِيبة، فليس متطهرًا مَن كان سبَّابًا لَعَّانًا شَتَّامًا ساخرًا مستهزءًا، فلم يتقدس ولم يأخذ حظَّه من الله تبارك وتعالى من اسمه «القدوس» جلَّ وعلا. وكذلك أن يطهر سمعَه وبصرَه ويدَه

ورِجلَه كما طَهَّر إرادتَه وعلمَه وفؤادَه. لذلك يقول النبي ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(١). يعني: من أمور النجاسة التي ينبغي على المرء أن يتقدس منها وأن يتطهر منها، فليس المؤمن - كما ذكر في الحديث - لعَّانًا أو سبَّابًا أو فاحشًا أو بَذِيئًا(٢).

وعلى ذلك؛ لكي يُقَدِّس المرءُ نفسَه ليكون أهلًا للقاء الله تعالى لا بد أن يُطَهِّر بدنَه وجوارحَه كاملةً، وأن يتطهر قلبُه وإرادتُه وعلمُه. فإذا لم يتطهر من ذلك وبقي عليه الخبَثُ وذهب إلى الآخرة بهذا الخبث، فإنه حينئذ لا بد أن يُهَذَّبَ ويُنَقى قبل أن يَدْخُلَ على الله تعالى.

عَلِمَ المرءُ ما تقدم فدخل قلبَه الخوفُ والرجاء، فعَقَد العزمَ على أن يأخذ بحظه من هذا الاسم المشرَّف؛ ليكون سببًا لدخوله على الله تبارك وتعالى، وأهلًا لمجاورته في جنته ﷻ، وأن يكون قدوسًا مُتطهرًا في الدنيا، طيبًا كما ذكر الله تعالى: نزلت عليه وبه بركةُ الله حيث حَلَّ.. خَفَّتْ هِمَّتُه إلى المجاهدة في اتباع الرسول ﷺ، وسَمَتْ نفسه إلى محبة الله تعالى، فاستهانت بما تبذل في سبيل ذلك.

---

(١) متفق عليه من رواية عبد الله بن مسعود ﷺ: البخاري [٤٨]، ومسلم [٦٤].

(٢) عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ**». أخرجه الترمذي وحسَّنه [١٩٧٧]، والحاكم وصحَّحه [ح: ٢٩] الطبعة العِلْمية. [و«**الطَّعَّان**» أي: العياب للناس أو الواقع في أعراض الناس بنحو ذَمٍّ أو غِيبةٍ، و«**اللَّعَّان**» أي: فاعل الفحش أو قائله، و«**البَذِيء**» هو الذي لا حياءَ له، كما قال بعض الشراح]. اهـ - بتصرف - من «الفيض» للمناوي، و«تحفة الأحوذي» للمباركفوري.

الحظ الثالث: الدعاء باسم الله تعالى «القدوس»

وهو من حظ المؤمن من اسمه تعالى «القدوس»؛ أن يدعوه ﷻ به كما ذكر: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]. ولدينا في الدعاء: دعاء الثناء، ودعاء المسألة، ودعاء العبادة.

أولاً: دعاء المسألة:

ودعاء الثناء ودعاء المسألة يدخلانِ بعضهما في بعض، يعني: أن يُثْنِيَ على الله تعالى بهذا الاسم المشرَّف، وأن يدعوه به ﷻ أن يُهَيِّئ له أمور طهارته وتقديسه.

بمعنى أنك إذا أردتَ أن تصير على هذا الحال من التقديس والتبريك والتطهير، أن تدعو الله تعالى باسمه «القدوس». فإذا كان لسانُكَ فيه شيء من النجاسة، ونظَرُكَ وسمعُكَ وبصرُكَ كذلك فيهم هذه الحظوظ من حظوظ الشهوات التي تُنَجِّس العينَ وتُوقِع القلبَ في هذا الرَّان وهذه النجاسات، فإنك بدعاء الله تعالى باسمه «القدوس» يوشك أن يَرْفَعَ عنك هذا النجس، ويُطهرَك ﷻ من هذه القاذورات. فإذا ما داومتَ على دعاء الله تعالى - دعاء المسألة والثناء - باسمه «القدوس»: أن يُقَدِّسَك ويُطَهِّرَكَ من أمراضك وعِلَلِكَ التي أنتَ فيها، فإنه إذا رآكَ مُقبِلًا مُهتمًّا خائفًا على آخِرَتِكَ وخائفًا أن تُطَهَّرَ في النار.. بسبب ذلك يوشك أن يَفتح عليكَ في الدنيا، وأن يُطهرك من ذلك، وأن يُعِينَك عليه ﷻ، فيُطَهِّر إرادتَك وقلبك وعلمك وبدنك وجوارحك.

وقد ورد الدعاءُ بهذا الاسم «القدوس» ﷻ في حديث عائشة ؓ أنه ﷺ أثنى على الله تعالى به عَشر مرات، يُكَرِّر فيها هذا الاسمَ ﷻ: «**سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ**

المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ...» عشر مرات. ثم بعد ذلك دعا ﷺ، فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

فهذا الدعاء؛ أن تقول: «سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ، سُبْحَانَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ...» فتذْكر هذا الاسم كثيرًا ثم تدعو الله تبارك وتعالى بما شئتَ من تقديسٍ وتطهير وتبريك، تريد من الله تعالى أن يُكرمك به.

ثانيًا: دعاء الثناء والمدح:

وأمَّا دعاء الثناء والمدح؛ فورد ذلك في الركوع في قوله ﷺ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الملَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود [٥٠٨٥]. والحديث حسَّنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار، [١/ ١٢٠]، دار ابن كثير، الطبعة الأولى - سنة ١٤٢١هـ. ونذكر تمام الحديث للفائدة: عن شَرِيقٍ الْهَوْزَنِيِّ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ ك فَسَأَلْتُهَا: بِمَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يفْتَتِحُ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، كَانَ إِذَا هَبَّ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ عَشْرًا وَحَمِدَ عَشْرًا وَقَالَ: «سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ» عَشْرًا، وَقَالَ: «سُبْحَانَ المَلِكِ الْقُدُّوسِ» عَشْرًا، وَاسْتَغْفَرَ عَشْرًا، وَهَلَّلَ عَشْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» عَشْرًا، ثُمَّ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ». وانظر للفائدة شرح الملا علي القاري لهذا الحديث في «مرقاة المفاتيح».

(٢) أخرجه الإمام مسلم [٤٨٧]، وأبو داود [٨٧٢]؛ كلاهما من رواية السيدة عائشة ﵂ مرفوعًا إلى النبي ﷺ. كما ورد أيضًا اسم الله تعالى «القدوس» في دعاء الثناء والمدح بعد الفراغ من صلاة الوتر: عن عبد الرحمن بن أَبْزَى ﵁ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوتِرُ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ مِنَ الْوِتْرِ قَالَ: «**سُبْحَانَ المَلِكِ الْقُدُّوسِ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ فِي الثَّالِثَةِ». أخرجه الإمام أحمد [٣/ ٤٠٦] الطبعة الميمنية. قال

وهذا الدعاء يمكن أن يكون من دعاء المسألة أيضًا؛ لأن المرء إذا أراد من الله تعالى شيئًا: أن يُثني عليه أولًا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأن يصلي على النبي ﷺ، وأن يتأدب بآداب الدعاء، ويقول: «سُبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكة والروح»، وبعد أن يذكرها أعدادًا ما شاء الله له أن يذكرها، يدعوه بكونه السُّبوحَ القدوسَ ربَّ الملائكة والروح ﷻ، أن يَقْضِي له كذا، وأن يُطَهِّرَه من كذا، وأن يبارك عليه في كذا وكذا مما يحتاجه المرءُ، وهو لا يزال مُحْتَاجًا وسيظل مُحْتَاجًا إليه ﷻ.

ثالثًا: دعاء العبادة:

و«سُبوحٌ قدوسٌ» كذلك من دعاء العبادة الذي يذكره المرءُ.. يتعبد ربَّه به كما ورد عن النبي ﷺ في ركوعه(١).

الدعاء بالوصف الذي تضمنه الاسم

ومما ورد في الدعاء بالوصف الذي تضمنه هذا الاسم هذا الحديث الجميل المعاني:

الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين». وأخرجه أيضًا بنحوه النسائيُّ [١٧٣٣].

(١) وعن الصحابية يُسَيْرَة بنتِ ياسر ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُنَّ أَنْ يُرَاعِينَ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ وَأَنْ يَعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ». أخرجه أبو داود [١٥٠١]، وبنحوه الترمذي [٣٥٨٣] واستغربه، والإمام أحمد في مسنده [٦/ ٣٧٠] الطبعة الميمنية. قال صاحبُ «عون المعبود»: [والتقديس، أي: قول «سُبحان المَلِك القُدُّوس» أو «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبّ الملائكة والرُّوح»] اهـ.

«لَـمَّا قَدِمَ جعفرُ بن أبي طالب ﷺ من أرض الحبشة لَقِيَهُ النبيُّ ﷺ فقال: «**أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ**». قال: مَرَّتِ امرأةٌ على رأسِها مِكْتَلٌ فيه طعامٌ، فمَرَّ بها رَجُلٌ على فَرَسٍ فأصابَها فرَمَى بها. فجَعَلْتُ أَنْظُرُ إليها وهي تُعِيدُه في مِكْتَلِها وهي تقول: «ويلٌ لكَ يومَ يَضَعُ المَلِكُ كُرْسِيَّهُ فيأْخذ للمَظْلوم مِنَ الظَّالِمِ». فضَحِكَ النبيُّ ﷺ حتى بَدَتْ نواجِذُه[1]، فقال: «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ؟**»[2]»، وورد في روايةٍ أخرى؛ قال بُرَيْدَةُ: «**كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا؟**»[3].

ونُلقي بعض الضوء على هذا الحديث:

لَـمَّا قَدِم جعفر بن أبي طالب ﷺ من أرض الحبشة – وكان قد هاجر في الله تعالى، تاركًا أهله ووطنه فرارًا بدينه – لقيه النبيُّ ﷺ. والنبيُّ ﷺ كان يحب جعفرَ بن أبي طالب ﷺ حُبًّا جمًّا[4]؛ لأنه كان يشبِهُه خَلْقًا وخُلُقًا، حتى قال ﷺ: «**بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ: بِفَتْحِ خَيْبَرَ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟**»[1]، وكان وافى النبيَّ ﷺ بعد فتح خيبر.

---

(١) «النَّاجِذ»: آخر الأَضْراس، وللإنسان أربعةُ «نَواجِذ» في أقصى الأسنان.. يقال: «ضَحِكَ حَتى بَدَتْ نَواجِذُه» إذا استَغْرَبَ. انظر – بتصرف يسير: «مختار الصحاح»، مادة: [ن ج ذ].

(٢) قال المناوي في «الفيض»: «غير مُتَعْتَع – بفتح التاء، أي: من غير أن يُصيبه ويزعجه».

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» [٦/ ٩٥] طبعة دار الفكر، وقال الذهبي في المهذب: «إسناده صالح» [٨/ ٤٠٧].

(٤) جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبِ الهَاشِمِيُّ السَّيِّدُ، الشَّهِيْدُ، الكَبِيْرُ الشَّأْنِ، عَلَمُ المُجَاهِدِيْنَ، أَبُو عَبْدِ اللهِ، ابْنُ عَمِّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، أَخُو عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ. هَاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ، وَهَاجَرَ مِنَ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِيْنَةِ، فَوَافَى

فقال ﷺ: «أَخْبِرْنِي بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ». وهذا من تواضع النبي ﷺ ومحبتِه لأصحابه وإيناسهم بإقباله عليهم، والسؤال عن أحوال الناس وما ينفع في دين الله والدعوة إليه.

فقال جعفر ﷺ: «مَرَّت امرأةٌ على رأسها مِكْتَلٌ» أي: امرأة فقيرة، ساعِية على رزقها ورزق أولادها، أو غير ذلك. والمِكْتل ما يشبه المَقْطف «فيه طعامٌ، فمَرَّ بها رجلٌ على فَرَس» رجلٌ غني متكبر يختال بما هو فيه على خلق الله «فأصابها فرَمَى بها» على سبيل الكبر والتضاحك بالفقراء والتلاعب بهم. يقول جعفر ﷺ: «فجَعَلْتُ أنظُرَ إليها وهي تُعِيدُه» أي: الطعام، ولا حول لها ولا قوة، تجمعه «في مِكْتَلِها وهي تقول» أي لهذا الراكب صاحب الفرس: «ويلٌ لك يومَ يضع المَلِك ﷻ كُرسِيَّه فيأخذ للمظلوم من الظالم». فضَحِك النبيُّ ﷺ حتى بَدَتْ نواجذُه، فقال: «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أَمَّةٌ؟**» أي: كيف يُبارَك عليها؟.. كيف تُطَهَّر أمةٌ؟.. «**لَا تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ**» يعني: هذا الضعيف يأخذ حقه، ولا يَتَتَعْتَع في أَخْذِه، أي: لا يتلجلج ولا يخشى شيئًا.

المُسْلِمِيْنَ وَهُمْ عَلَى خَيْبَرَ إِثْرَ أَخْذِهَا، فَأَقَامَ بِالمَدِيْنَةِ أَشْهُرًا، ثُمَّ أَمَّرَهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ عَلَى جَيْشِ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ بِنَاحِيَةِ الكَرَكِ، فَاسْتُشْهِدَ. وَقَدْ سُرَّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ كَثِيْرًا بِقُدُوْمِهِ، وَحَزِنَ - وَاللهِ - لِوَفَاتِهِ. قَالَ ﷺ لِجَعْفَرٍ ﷺ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**». أخرجه البخاري [٢٦٩٩]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قال: «وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمِسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ». أخرجه البخاري موقوفًا [٣٧٠٨]. وانظر ترجمة هذا الصحابي الجليل ومناقبه الحسنة وقصة استشهاده في «سير أعلام النبلاء» [١/ ٢٠٦ - ٢١٨]، طبعة الرسالة.

(١) الحديث أخرجه الحاكم [ح: ٤٢٤٩] الطبعة العلمية، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه». قال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح».

وهذا دليلٌ على العكس المفهوم من الكلام؛ «**كَيْفَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ؟**» يعني: ستبقى الأمة في انحطاتها وفي نجاستها وفي خِستها، طالما لا تأخذ لضعيفها حقَّه من قويِّها. ستبقى أمةً ضعيفة منكوبة لا قيمة لها ولا وزن في ميزان الأمم.

وهناك رواية أخرى بالتصريح بالبناء للمعلوم؛ قال بريدة[1]: «**كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا؟**».

لعل المرء بهذا الموجز يكون قد عرف اسمًا من أسماء ربه يعرفه بها، وعرف طريقًا يُوصله به إليه، ولم يَبْقَ إلا أن يَستعينه على المجاهدة لتحقيق ذلك.

(١) بُرَيْدَة بن الحُصَيْب بن عبد الله الأسلمي، أبو عبد الله، وقيل: أبو سهل، وأبو ساسانَ، وأبو الحُصَيْب ﷺ قال الحاكم: «أسلم بعد انصراف النبي ﷺ من بدر» اهـ. شَهِدَ غزوةَ خيبر - وأبلى فيها بلاء حسنًا - وفتح مكة، وكان معه اللواء، واستعمله النبي ﷺ على صَدَقة قومه. غزا خراسان زمن عثمان ﷺ ونزل مَرْوَ ونشر العلم بها. توفي سنة ٦٢هـ وقيل: ٦٣هـ بمرو. انتهى من «سير الأعلام» [٢/ ٤٦٩-٤٧١]، و«تهذيب التهذيب».

القسم الخامس

اسم الله
الوكيل



مقدمـة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أَمَّا بَعْدُ..

والوكيل من الأسماء الحسنى التي تتعلق بالقلب، فيظهر أثرها على الجوارح، من الركون إلى الله تعالى، والاستمداد بمدده وقوته، والانخلاع عن كل ثقة ويقين إلا في الله تعالى وقدرته، فيعتصم المؤمن بالله تعالى، آخذاً بالأسباب، غير ناظر إليها، ولا متكل في تحقيق شيء عليها، مُجَرِّداً قلبه من السكون لغير قضائه وقدره سبحانه وتعالى، وهو محض الإيمان، حيث ذكر صفات المؤمن الحق، فأورد منها التوكل، فقال تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (الأنفال: ٢-٤)، ومن ثَمَّ أمر بالتوكل عليه، رابطاً ذلك بالإيمان، والحث به على التوكل فقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ٢٣).

والتوكل أن تتخذ ربك وكيلاً، يقوم لك بكل حوائجك، ومطلوباتك في الدنيا والآخرة، بل هو يأمرك به ويطلبه منك، أن يتوكل عنك قائماً لك بكل ذلك، والمرء مسكين ضعيف، لا يستقل بأمور نفسه، وأشغالها، وإن استقل في الدنيا بشيء، فلا يمكن أن يقوم بباقي الأشياء، بل لا بد من معين ومساعد، وإن تحقق له ذلك في الدنيا شيئاً، فلا يستطيع ذلك في أمور الآخرة.

وإن توكل عنك أحد، فيمكن أن تركن إليه، أو أن تثق فيه فيخونك، أو يجهل شيئاً من مطلوباتك وأمورك، وقطعاً لا يقوم بكل الأمور، بل يمكن أن تعتمد عليه فيصبح ميتاً، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾ (الفرقان: ٥٨)، لا تتوكل على الضعيف الزائل.

لهذا كان التوكل على الله في إقامة كل شئونك، واستقامة قلبك، وأحوالك وثباتك، في السير إلى الله، والقيام بأعباء الدين، والدنيا، والآخرة، من أهم دعائم الإيمان، وثوابت العقيدة، والأمن على حاضرك ومستقبلك، وهو المدد الذي به يقوم المؤمنون في رفع راية الله تعالى، بقوة وعزم وهمة، إذ هم يقومون بالله تعالى.

كان ما سبق، السبب في أن نُعَجِّل بطبع رسالة هذا الاسم المشرف، داعين الله تعالى أن تكون زاداً لنا ولإخواننا، في حسن السير ومواصلته.

نسأل الله تعالى أن ينفع به، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى « الوكيل »

- أهمية اسم الله تعالى « الوكيل » واتخاذ الله وكيلاً
- الصفات التي يجب توافرها في الوكيل
- اللهُ تعالى هو الوكيل المطلق الحق
- الدليلُ على اسم الله تعالى المشرف « الوكيل »
- أصل كلمة الوكيل واشتقاقاتها في اللغة
- تعريف التوكل
- أقوال العلماء في معنى اسم الله « الوكيل »
- « الوكيل » من حيث كونه وصفًا ذاتيًا لله جل وعلا
- « الوكيل » من حيث كونه وصفًا فعليًا لله عز وجل

أهمية اسم الله تعالى «الوكيل» واتخاذ الله وكيلاً

واسمه «الوكيل» ﷻ من الأسماء ذات المعاني الجميلة التي ينبغي أن تظهر آثارها على المؤمنين، وهي: كيف يُوَكِّلُ المرءُ رَبَّهُ تعالى في أن يقوم بحوائجه وأن يقوم بأحواله في الدنيا والآخرة. أنت في الدنيا مسكين تحتاج أن تُوَكِّلَ عنك من يقوم بأشغالك ولا تستطيع أن تقوم بكل الأشغال أو كل الأعمال؛ سواء كنتَ مُقِيمًا، أو مريضًا، أو مسافرًا، أو غير ذلك، فينبغي أن يكون هناك من يقوم عنك ببعض الأشغال. المرءُ لا يقوم بكل أعماله في العمل، والبيت، والسفر، والشراء، والبيع، والمتاجرة؛ لذلك فإن هناك في عمله: من يقوم له ببعض أعماله، في سفره: مَن يقوم له ببعض أعماله، في دراسته: من يعينه عليها، في بيته: من يقوم له بأشغال البيت أو يساعده في إصلاحه، أو يقوم له ببعض الأعمال، أو في أولاده: من يقوم على تدريسهم.. إلى غير ذلك. لذلك فإنه ينبغي على المرء أن يوكِّل عنه من يقوم له ببعض أعماله أو بكل أعماله إذا لم يستطع القيام بها لعجزٍ أو لرفاهيةٍ.

الصفات التي يجب توافرها في الوكيل

وهذا الوكيل ينبغي أن تتوفر فيه صفاتٌ معينةٌ حتى يقوم بمصالح مَنْ وَكَّله، ومن هذه الصفات: العلمُ، والقدرةُ، والشفقةُ، والبراءةُ من النصيب - يعني: أن يفعل ذلك لا ينتظر منه شيئًا - فلا يمكن أن تُوَكِّل جاهلًا يقوم لك بأعمالك، أو توكل عاجزًا يعجز عنها، أو لا يكون شفيقًا عليك؛ فإنه لا يُهمه أن تقوم هذه الأعمال أم لا، كذلك أن يكون بريئًا من أن يكون منتظرًا شيئًا من ورائك، وإلَّا قَدَّم مصلحته أو مصلحة المال على مصلحتك، فإنْ قدمت له المال قام لك بالعمل وإلا فإنه لا يقوم به.

اللهُ ﷻ متصِّف بالعلم والقدرة، بل هو القادر على كل شيء، والعليم جلَّ وعلا بكل ذرة وما أصغر من الذرة، وهو الرحيم والرءوف بعباده، وهو الذي لا يريد من عباده جزاءً ولا شكورًا، وإنما يفعل ما يفعل لمصلحتهم، ولسعادتهم في الأولى والآخرة. لذلك: فهذه الوكالةُ مهمةٌ لِأَنْ يتعلمها المرء. يعني: أنت مسكين لا تجد من يقوم لك بأحوالك في الدنيا، وإن وجدت من يقوم لك بها في الدنيا فإنه عاجز عن القيام بكل هذه الأحوال، وقد يقع منه غش أو غدر أو خيانة أو تفريط أو تقصير، أو أن يموت فلا تُحصِّلُ منه شيئًا، لذلك قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. أي: عندما تريد أن تتوكل، فتوكلْ على الحي الذي لا يموت؛ لأن الحي **فقط** إذا توكلتَ عليه في تدبير أمورك أو قضاء أشيائك، فإنه قد يُصبح ميتًا، وضاع عليك كل ما تريد، وسقط عنك كل ما أردتَ أن تُحصِّلَه منه.

فإذا أراد المرءُ أن يوكل أحدًا، فلا بد له حينئذ أن يوكل ربه ﷻ؛ لأنه يقوم له بأعماله في الدنيا والآخرة، ويقوم له بهذه الأعمال على كمالها، وتمامها، وإحسانها، والشفقة عليه، وكذلك يقوم له بها على تمام الإحسان والفضل واللطف والعطاء، فإذا ما توكل المرء على الله تعالى، وأسند أمورَه إليه، واعتمد قلبُه عليه، ولم يلتفت إلى الأسباب - كما سنذكر في قضية التوكل، وما يتعلق بها[1]- فإنه حينئذ يتوكل فعلًا على من يقوم له بأسبابه.

هذه كلمة قصيرة في معرِض هذا الكلام الذي نسوقه الآن؛ وهو قول بعضهم في هذه المسألة: «إنَّ مَن له وكيل يتولى أشغاله فيسأله الأجرة على أعماله ربما يخونه في ماله، ثم يخطئ في كثير من أحواله»، وربما لا يهتدي لكل الأحوال التي يكون فيها وكيلا.

(١) انظر الفصل الرابع.

«والحقُّ ﷻ يأخذ لمن يرضى به وكيلًا»، فإنْ رضي به العبدُ وكيلًا يُتِمّ له ﷻ، «ثم يُحقق له تأميله»، يعني: يحقق له أمله المرجو من هذه الوكالة، «ويُثْنِي عليه جميلًا»، فإذا وكَّلتَ ربك ﷻ أثنى عليك كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. واللهُ تبارك وتعالى يُثْنِي على هؤلاء المتوكلين، ويمدحهم، ويحبهم جل وعلا - كما ذكر، وكما سنذكر لاحقًا إن شاء الله تعالى الآيات الواردة في هذا المعنى[1].

«فالحقُّ ﷻ إذن يأخذ لمن يرضى به وكيلًا، ثم يحقق له تأميله، ويثني عليه جميلًا، ويعطيه جزيلًا، ولا يسأل ﷻ العبدَ على ما يتولاه من أموره عوضًا، بل يضاعف له فضله ونعمه ﷻ، ويلطف به جل وعلا»، أي: يلطف بالعبد المتوكل عليه[2] - «في دقائق أموره وأشغاله لطفًا لا ترتقي إليه آماله، ولا يأتي على تفضيله سؤاله، وهذا المعنى الجميل سُنَّةٌ من الله ﷻ أمضاها وعادةٌ كريمةٌ بين عبادِه أجراها».

هذا هو المعنى الذي نُقدم به لهذا الاسم المشرف، فإذا علمتَ أنك قد وكَّلتَ الله تعالى في أمورك، واستندت إليه، وفوضت إليه، ووَثِقْت فيما عنده؛ ثَبَتَ قلبُك، علاوةً على ما ذكرنا من هذه الألطاف والعطايا التي يفتحها المولى ﷻ على العبد. فإنَّه ﷻ إذا توكلتَ عليه إليه ووَثِقتَ فيه، فإنه ﷻ يُثَبِّت قلبَك ويجعل قلبكَ مرتكنًا إليه ساكنًا غير مضطرب، فالمرء تجده خائفًا على مستقبله، خائفًا على حاله، خائفًا على ماله، خائفًا على ولده، خائفًا أن يمرض، خائفًا أن يحدث له كذا.. فإنْ توكل على الله تعالى كفاه كل ذلك، كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه ﷻ، وهذه من أخطر القضايا التي

---

(١) انظر الفصل الثالث.

(٢) انظر معنى اللُّطْف في شرح اسمي الله تعالى «اللطيف» و«القدوس».

يعانيها المؤمنون اليوم، وهي أنَّهم لا يثقون في الله تعالى، ولا يتوكلون عليه!! وقد أشار الإمام ابن القيم إلى ذلك بأن هناك فارقًا أن يعلم المرءُ التوكلَ ودرجاتِ التوكلِ وحدودَ التوكل.. وكذا وكذا عن التوكل، وأن يتحقق بالتوكل نفسه، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقًا إن شاء الله تعالى[1].

اللهُ تعالى هو الوكيل المطلق الحق[2]

فهو الموكول إليه الأمور، وهو الذي قد وَكَّلتَ إليه الأمور كلها كما ذكر المولى ﷻ في قوله جل وعلا: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «الدين نصفان: نصف توكل، ونصف إنابة»، والإنابة: هي العبادة. والتوكل: هو الاستعانة بالله تعالى.

أقسام الموكول إليه[3]

المَوْكول إليه ينقسم إلى:

١- **مَنْ وُكِّلَ إليه بعض الأمور**: وذلك ناقص، لأنه لو كان كاملًا لوَكَّلْتَ إليه أمورَكَ كلها.

---

(١) انظر الفصل الرابع.

(٢) انظر: «المقصد الأسنى» للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، ص٧، ط١. ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، مطبعة الصباح.

(٣) انظر المصدر السابق، بتصرف كثير جدًّا.

٢- **مَنْ وُكِّلَ إليه كلُّ الأمورِ**: وليس ذلك إلا لله تعالى، فلا يستطيع أحد أن يقوم بكل الأمور لك، فأنت نفسك أيها العبد المسكين ناقص؛ لا تستطيع أن تقوم بكل الأمور لنفسك، وإن استطعتَ أن تقوم ببعض أمور الدنيا فلا تستطيع أن تقوم بها كلها. وإنْ استطعتَ أنْ تقوم بأمور الدنيا لم تستطع أن تقوم بأمور الآخرة؛ فمثلًا: إنْ حَرَمَكَ اللهُ ركعتي السنة فلن تستطيع أن تصليهما، أليس كذلك؟ فليس للمرء من نفسه لا قدرة ولا وكالة ولا شيء..، فغيره من باب أولى لا شك أضعفُ.

وينقسم الموكول إليه كذلك إلى:

١- **من يستحق أن يكون موكولًا إليه لا بذاته**: أي أنك توكله لا بذاته؛ لأنه ليس بذاته هو الوكيل، ولكنك أنت الذي توكله، وتفوضه، يعني أنه ليس هو الوكيل عن كل أحد، لا.. بل هو مخلوق ضعيف يفتقر إلى التفويض والتوكيل. إذا لم تُوَكِّله أنت، لا يستطيع أن يقول لك: «أنا وكيلٌ لك رغمًا عنك»، ولكن الله تعالى هو الوكيل عن عباده، شاءُوا أم أبَوْا.

٢- **ومن يستحق بذاته أن تكون الأمورُ موكولةً إليه**: كل الأمور مَوْكُولة إليه، والقلوبُ متوكِّلة عليه لا بتَوْلِيةٍ وتفويضٍ من جهة غيره. وذلك هو الوكيل المطلق، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

وينقسم الموكول إليه كذلك إلى:

١- مَنْ يَفِي بما يُوكَلُ إليه وفاء تامًّا، من غير قصور.

٢- ومن لا يفي بالجميع.

والوكيل المطلق: هو الذي كلُّ الأمور موكولة إليه، وهو مليٌّ بالقيام بها، يعني ممتلئ من أن يقوم بذلك، لا يُعْجِزُهُ شيء، وفيٌّ بإتمامها، لا ينقصه من الوفاء بإتمامها شيء، وليس ذلك إلا لله تعالى فقط. وقد فهمتَ من هذا مقدار مدخل العبد في هذا الاسم.

الدليلُ على اسم الله تعالى المشرف «الوكيل»[1]

«فمن أسماء الله الحسنى «الوكيل» جل جلاله، وتقدست أسماؤه، نطق به التنزيل، يعني: جاء به ونطق به القرآن الكريم، فقال مخبرًا عن الملأ الكريم من أصحاب النبي ﷺ الذين اشتركوا معه في غزوة أُحد، وعندما علموا أن أبا سفيان يريد أن يرجع مرة أخرى إلى المدينة ليستأصل شأفتهم كما يقال - فلم يخافوا منهم ولم يخْشَوهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]».

وقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وجاء في حديث أبي هريرة[2]»[1] الذي رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى وسرد فيه الأسماء

---

(١) انظر: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للإمام أبي عبد الله القرطبي رحمه الله، بتصرف كثير جدًّا، [ج١، ص٥٠٤ وما بعدها]، دار الصحابة للتراث - طنطا، الطبعة الأولى - سنة ١٩٩٥.

(٢) أبو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيُّ اليَمَانِيُّ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ صَخْرٍ الإِمَامُ، الفَقِيهُ، الُمجْتَهِدُ، الحَافِظُ، صَاحِبُ رَسُوْلِ الله ﷺ. سَيِّدُ الحُفَّاظِ الأَثْبَاتِ رضي الله عنه. حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا كَثِيْرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ لَمْ يُلْحَقْ فِي كَثْرَتِهِ، وَعَنْ: أُبَيٍّ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأُسَامَةَ، وَعَائِشَةَ، وَالفَضْلِ، وَبَصْرَةَ بنِ أَبِي بَصْرَةَ، وَكَعْبِ الحَبْرِ رضي الله عنهم. وحَدَّثَ عَنْهُ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ. فَقِيْلَ: «بَلَغَ عَدَدُ أَصْحَابِهِ ثَمَانِ

الحسنى، وهذا الحديث حديث ضعيف. أما الحديث الصحيح: فهو في البخاري[٢] وغيره بدون سرد للأسماء الحسنى، والذي فيه: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، ويجوز إجراء اسم «الوكيل» على المخلوق.

أصل كلمة الوكيل واشتقاقاتها في اللغة

«وَكِيل» على وزن «فَعِيل»، من الوكالة، تقول: «وَكَلْتُ - بتخفيف الكاف - أمري إليه، أَكِلُه»، و«وكَّلْتُ - بتشديد الكاف - فلانًا، أُوَكِّلُه» أي: صيَّرتُه وكيلًا. و«التوكل»: الاعتماد على الوكيل. و«الوَكَل، والْوَكِل»: الضعيف العاجز، تقول: «فلانٌ وَكِلٌ أو وَكَلٌ» أي: ضعيف عاجز. وَ«وُكَلَةٌ» مثل «هُمَزة». و«تُكَلٌ» يعني: عاجز بكل أمره إلى غيره ويَتَّكِل عليه.

مائَة»! كَانَ مَقْدَمُهُ وَإِسْلَامُهُ فِي أَوَّلِ سَنَةِ سَبْعٍ، عَامَ خَيْبَرَ. وَكَانَ حِفْظُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الخَارِقُ مِنْ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه [٢٤٩٢] عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ! واللهُ المَوْعِدُ: كُنْتُ رَجُلًا مِسْكِينًا أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي، وَكَانَ المُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَكَانَتِ الأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَبْسُطْ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي**». فَبَسَطْتُ ثَوْبِي حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ، ثُمَّ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ». انظر - بتصرف: «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي رحمه الله، [٢/ ٥٧٩-٦٣٣]. ومناقبه ﷺ كثيرة مشهورة في الصحاح وغيرها. تُوفي سنة ٥٧، وقيل ٥٨، وقيل ٥٩هـ، ﷺ.

(٢) رواه الترمذي: [٣٥٠٧]. والحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ للهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً غَيْرَ وَاحِدَةٍ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، ثم ذكر تِسعًا وتسعين اسمًا من أسماء الله تعالى وصفاته.

(٣) رواه الإمام البخاري: [٧٣٩٢].

هذا هو اشتقاق الكلمة، ولا بد من ذكره حتى يعرف طالب العلم أصلَ الكلمة ومعناها، فأصلُ كلمة «وكيل» من «وَكَل» أو «وَكَّل»، و«التوكل»: الاعتماد على الوكيل، ولذلك أقام الوكيل مقامه إما لعجز أو لرفاهية نفس.

فإذا قلتَ: «وكَّلتُ أمري لفلان»، أَشْعَرَ ذلك بعجزك عن الأمر، وبتفويضك الأمر إليه لإقامته.

وإذا قلتَ: «وَكَلْتُ فلانًا»، فإنما معناه: أقمتُه مقامي، ولم يُشعر ذلك بعجز.

وإذا قلتَ: «توكَّلت على فلان»، أَشْعَرَ ذلك بالاستسلام التام في الحال، وبما لا يبلغه علمك في المآل، وهي إشارة إلى عدم استقلال المرء من حيث التقدير والتدبير. يعني لو قلتَ: «توكَّلتُ على فلان»، أَشْعَرَ بأنك قد استسلمتَ له في الحال في قيامه بهذه الأمور، وَأَشْعَرَ كذلك: بعدم علمك إلى ما يؤول إليه هذا الأمر من التوكيل، وذلك إشارة إلى عدم استقلالك لا بالتقدير ولا بالتدبير لنفسك.

والعبدُ المسكين يحتاج إلى الاعتماد على غيره في كثير من شئونه، وإذا كان كذلك، فعلى مَنْ يعتمد؟ أو على مَنْ يتوكل؟ أَعَلَى ناقصٍ يمكن أن يموت؟ أو على عاجز يمكن ألا يقوم بأمره؟ أو على خائن يمكن أن يخونه ولا يوفي له؟ أو على غير مُشفق عليه يمكن أن يضيع أمره؟ لذلك فالمرءُ إذا أراد أن يُشعر قلبه التوكل والاعتماد والتفويض والثقة.. إنما كل ذلك يكون لله تعالى ليثبت له نصف دينه، كما ذكرنا أن الدين نصفه عبادة: وهو الإنابة، ونصفه توكل: وهو الاستعانة.

تعريف التوكل

التوكل: هو تفويضٌ في المحسوس والمعقول للوكيل الحق المستقل بجميع ما يحتاج إليه جميعُ الخلق؛ من الكفاية والوقاية[1].

و«التفويض في المحسوس» يعني: أن يُفوِّض المرء في المحسوس، أي الشيءِ الذي يحسه، وتريد أن يقوم لك به؛ في أَكْلِكَ.. في شربِك.. في مالِك.. في صحتِك.. كل ذلك في المحسوس.

و«في المعقول» يعني: ما يتعلق بأمور العقل والفهم والعلم والدراية والضلال والهداية.. وغير ذلك، مما تُفوض فيه أمرَك إلى الله تعالى، وترتكن فيه إليه جلَّ وعلا؛ ليأخذ بيدك، وليقوم لك بهذه الهدايات، وليقوم لك ﷻ بهذا الحفظ، وليقوم لك ﷻ بهذا الفرقان، الذي تُميِّز به بين الضلال والحق، وليكون سببًا في أن يُلْقِي إليك ﷻ الفتوحاتِ التي تثبِّت القلب، وتهدي المرءَ إليه جل وعلا، والتي تُعينُ القلبَ على محبة الرب، والتي تُطَمْئِنُ القلب وتُسكنه إلى مقدور الله تعالى.. إلى غير ذلك من المعاني التي سنشير إلى بعضها إن شاء الله تعالى.

فهو تفويض في المحسوس والمعقول إلى الوكيل الحق المستقل، الذي يستقل - هو ﷻ - بجميع ما يحتاج إليه جميعُ الخلق: من الكفاية، والوقاية، والغياث - يعني أن

(١) انظر: «الأسنى» للإمام القرطبي رحمه الله، [ج١، ص ٥٠٥]. وهذا التعريف الذي ذكره الإمام القرطبي رحمه الله هو التعريف الذي ينبغي أن يحفظه طلبةُ العلم وأن يَعْمَلوا بمقتضاه. وفي الفصل الرابع أقوالٌ ومعانٍ أخرى في تعريف التوكل وحقيقته للعلماء والصالحين لمن أراد الاستزادة من هذه المعاني العالية، وفَّقكَ الله لما يحب ويرضى.

يغيثهم ﷻ - والنُّصرةِ، والرزقِ، والإقامةِ، والحفظِ، والرعايةِ.. إلى غير ذلك من معاني التدبير، فإذا وكلت أحدًا في المحسوس فمَنْ لك بالمعقول؟!

أقوال العلماء في معنى اسم الله «الوكيل»

قال الإمام القرطبي رحمه الله[1]: «قال الإمام ابن العربي رحمه الله تعالى: اختلف أهل اللغة في العبارة عن معنى الوكيل إلى أربعة أقوال؛ فحكى الفرَّاءُ[2] أنه: **الكفيل**، وحُكِيَ عنه أيضًا أنه: **الحفيظ**. والقول الثالث: أنه **المقسط**؛ قاله ابن عرفة[3]، والقول الرابع: أنه

---

(١) انظر: «الأسنى» للإمام القرطبي رحمه الله، بتصرف يسير، ج١، ص٥٠٦.

(٢) الفَرَّاءُ أَبُو زَكَرِيَّا، يَحْيَى بنُ زِيَادِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ مَنْظُوْرٍ الأَسَدِيُّ مَوْلَاهُمْ، الكُوْفِيُّ، النَّحوِيُّ، صَاحِبُ الكِسَائِيِّ العَلَّامَةُ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، وَكَانَ ثِقَةً. وَرَدَ عَنْ ثَعْلَبٍ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْلَا الفَرَّاءُ لَمَا كَانَتْ عَرَبِيَّةٌ وَلَسَقَطَتْ؛ لِأَنَّهُ خَلَّصَهَا، وَلأَنَّهَا كَانَتْ تَتَنَازَعُ وَيَدَّعِيهَا كُلُّ أَحِدٍ» اهـ. وَلَمَّا أَمْلَى الفراءُ كِتَابه «مَعَانِي القُرْآنِ»، اجْتَمَعَ لَهُ الخَلْقُ، فَكَانَ مِنْ جُمْلَتِهِم ثَمَانُوْنَ قَاضِيًا، وأَمْلَى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ فِي مائَةِ وَرْقَةٍ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «الفَرَّاءُ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ فِي النَّحْوِ». وَعَنْ ثُمَامَةَ بنِ أَشْرَسٍ: «رَأَيْتُ الفَرَّاءَ، فَفَاتَشْتُهُ عَنِ اللُّغَةِ، فَوَجَدْتُهُ بَحْرًا، وَعَنِ النَّحْوِ فَشَاهَدْتُهُ نَسِيْجَ وَحْدِهِ، وَعَنِ الفِقْهِ فَوَجَدْتُهُ عَارِفًا بِاخْتِلَافِ القَوْمِ، وَبِالطِّبِّ خَبِيْرًا وَبِأَيَّامِ العَرَبِ وَالشِّعْرِ وَالنُّجُوْمِ، فَأَعْلَمْتُ بِهِ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ، فَطَلَبَهُ» اهـ . قَالَ سَلَمَةُ: «أَمْلَى الفَرَّاءُ كُتُبَهُ كُلَّهَا حِفْظًا»! وَقِيْلَ: «عُرِفَ بِالفَرَّاءِ لِأَنَّهُ كَانَ يَفْرِي الكَلَامَ». مَاتَ الفَرَّاءُ بِطَرِيقِ الحَجِّ، سَنَةَ سَبْعٍ وَمائَتَيْنِ، وَلَهُ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، رحمه الله تعالى.

انظر- بتصرف: «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي رحمه الله [١٠/ ١١٩- ١٢١].

(٣) الإِمَامُ، الحَافِظُ، النَّحوِيُّ، العَلَّامَةُ، الأَخْبَارِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ إِبْرَاهِيمُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَرَفَةَ بنِ سُلَيْمَانَ العَتَكِيُّ، الأَزْدِيُّ، الوَاسِطِيُّ، المَشْهُورُ بِـ«نِفْطَوَيْهِ»، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ. وُلِدَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمائَتَيْنِ، وسَكَنَ بَغْدَاد، وَحَدَّثَ عَنْ إِسْحَاقَ بنِ وَهْبٍ العَلَّافِ، وَعِدَّةٍ. وَأَخَذَ العَرَبِيَّةَ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ

الكافي، قلتُ[1]: وذكر البيهقيُّ[2] عن الفراء في قول الله ﷻ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]. **يقال: ربًّا، ويقال: كافيًا».**

الجَهْم وَثَعْلَب وَالمُبَرِّد، وَتفقَّه عَلَى دَاوُد الظاهِري. وَكَانَ مُتَضَلِّعًا مِنَ العلوم. خَلَطَ نَحْوَ الكُوفِيّين بنَحْوِ البَصْرِيّينَ، وَصَارَ رَأْسًا فِي رَأْيِ أَهْلِ الظَّاهِر. وكَانَ ذَا سُنَّةٍ وَدينٍ وَفُتُوَّةٍ وَمُرُوءةٍ، وَحُسْنِ خُلُق، وَكَيْسٍ، وَلَهُ نَظْمٌ وَنثر. صَنَّف: «غَرِيْب القُرْآن»، وكتاب «المقنع» فِي النَّحْوِ، وَأَشياء. مَاتَ سَنَةَ ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ وَثَلاثِ مائَةٍ. انظر - بتصرف: السِّيَر للإمام الذهبي رحمه الله [١٥/ ٧٦].

(١) القائل هو: الإمام القرطبي رحمه الله.

(٢) هُوَ أَبُو بَكْرٍ، أَحْمَدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيِّ بنِ مُوْسَى الخُسْرَوْجِرْدِيُّ، الخُرَاسَانِيُّ الفَقِيهُ، العَلَّامَةُ، الثَّبْتُ، شَيْخُ الإِسْلامِ، الحَافِظُ الأُصُولِي، الدَّيِّنُ الوَرِع، وَاحِدُ زَمَانِهِ فِي الحِفْظِ، وَفَردُ أَقرانه فِي الإِتْقَان وَالضَّبط. و«بَيْهَق»: عِدَّة قُرَى مِنْ أَعْمَالِ نَيْسَابُور عَلَى يَوْمَيْن مِنْهَا. وُلِدَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلاثِ مائَة. مِنْ كِبَارِ أَصْحَاب الحَاكِم، وَيَزِيْدُ عَلَى الحَاكِم بِأَنْوَاعٍ مِنَ العلُوم. كتبَ الحَدِيث، وَحَفِظه مِنْ صباه، وَتَفَقَّهَ وبَرَعَ، وَأَخذَ فَنَّ الأُصُول، وَارْتَحَلَ إِلَى العِرَاقِ وَالجِبَال وَالحِجَاز، ثُمَّ صَنَّف. وَتوَالِيفُهُ تُقَارِبُ أَلفَ جُزْءٍ مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ. جمع بَيْنَ علم الحَدِيْث وَالفِقْه، وَبيَانِ علل الحَدِيْث، وَوجْهِ الجمع بَيْنَ الأَحَادِيْث. ثم انقطع بقريته مُقْبِلًا عَلَى الجَمْعِ وَالتَأْلِيف، فَعَمِلَ «السُّنَن الكَبِيْر» فِي عَشْر مُجَلَّدَات، لَيْسَ لأَحدٍ مِثْلُهُ، وَأَلَّفَ: «السُّنَن وَالآثَار» و«الأَسْمَاء وَالصِّفَات» و«المُعتقد» و«البَعْث» و«التَّرْغِيب وَالتَّرهِيب» و«الدَّعوَات» و«الزُّهْد» و«الخِلَافِيَّات» و«نصوص الشَّافِعِيّ» و«دلَائِل النُّبُوَّة» و«السُّنَن الصَّغِير» و«شُعَب الإِيمَان»، وَأَشيَاءَ كثيرة. قال الإمام الذهبي رحمه الله: «تصَانِيفُ البَيْهَقِيّ عَظِيْمَةُ القَدْر، غزِيرَةُ الفَوَائِد، قَلَّ مَنْ جَوَّد تَوَالِيفَهُ مِثْل الإِمَام أَبِي بَكْرٍ، فَيَنْبَغِي لِلعَالِمِ أَنْ يَعتَنِي بِهَؤُلاءِ سِيمَا سُننه الكَبِير». وقال أيضًا: «لو شَاءَ البَيْهَقِيُّ أَنْ يَعمَل لِنَفْسِهِ مَذْهبًا يَجتهد فِيْهِ؛ لَكَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ، لِسعَة علُومه، وَمَعْرِفته بِالاخْتِلَاف، وَلِهَذَا تَرَاهُ يُلوِّح بِنَصْر مَسَائِل مِمَّا صَحَّ فِيْهَا الحَدِيْثُ». وكَانَ البَيْهَقِيّ عَلَى سيرَة العُلَمَاء: قَانِعًا بِاليَسِير، مُتَجَمِّلًا فِي زُهْده وَوَرَعه. تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِ مائَة، وَعَاشَ أَرْبَعًا وَسَبْعِيْنَ سَنَةً.. رحمه الله تعالى. انظر - بتصرف كثير - «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي.

القول الأول: الله تعالى الوكيل، أي: **الكفيل** بكل ما وكَّلتَه فيه من أمور الدنيا والآخرة، يتكفَّل لك بها جل وعلا، ويقوم بهذه الكفالة على حقها.

القول الثاني: **الحفيظ**، فإذا قلتَ: «توكلتُ على الله»، فمعناه: توكلت على الحفيظ الذي يحفظ لك أعمالك وأشغالك في الدنيا والآخرة، التي وكَّلْتَه فيها، فهو يحفظها عليك إن رَكَنَ قلبُك إليه، واعتمد عليه، ولم يعتمد على البشر والأسباب، وقَوِيَ تفويضُه وثقته فيه ﷻ، فإنه يحفظها بعد أن يَكفُلها، يعني كأنه يقول: فهذه المعاني أنك إذا اعتمدت على الله تعالى، وفوضت أمرك إليه، واستسلمت له جل وعلا، وانقطعت عن الاستسلام للأسباب، والنظر إليها، مع القيام بها، فتقوم بالأسباب ببدنك، ولكنَّ قلبَك متعلقٌ بربك ﷻ.. فإن الله تعالى يحفظها عليك. ولا بد أن تأخذ بالأسباب، لأنَّ ترك السبب من الحمق والزندقة، أما التعلق بالأسباب فهو خروج عن التوحيد؛ أن يتعلق بالبشر في أن يقوموا له، وأن يقضوا له حاجته، وأنَّه لولا فلان لهلك، ولولا وساطة وشفاعة فلان، ولولا المال، ولولا الجاه، ولولا ولولا ولولا... كل ذلك خروجٌ عن مقتضى التوحيد لله تعالى، وخروج عن مقتضى التوكل عليه جلَّ وعلا، وعن إفراده ﷻ في القيام بشئون خلقه.

المعنى الثالث: **المقسِط**، يعني: الذي يقوم بالقسط، أي بالعدل. وهو وصفٌ مطلوب في الوكيل.

المعنى الرابع: **أنه الكافي** ﷻ، والكافي: هو الذي يكفي عبدَه كلَّ شيء، فلو علم المرء أنَّه إذا كان مع الله تعالى فإن الله تعالى يكفيه، وإذا كان في شُغُل الله كان الله تعالى في شُغُله، وأنه إذا اعتمد على الله فإنه جل وعلا يحفظه، ولا يكون مضطربًا، ولكن يدخل في شغل

الله تعالى وهو مطمئن أن الله ﷻ سيقوم لـه بشغله، وأن الله تعـالى سيدفع عنـه، وأن الله تعالى سيكفله، وأن الله تعالى سيحفظه.

ونحن نريد أن نتعلم هذه القضايا، لا أن نتعلمها على سبيل المعرفة فقط وانتهى، بل على سبيل أن تكون المعرفة طريقًا للتحقق بها، فنحن على الحقيقـة لسنا مُتـوكلين عـلى الله تعالى، وأقربُ الأمثلة التي تـدل عـلى ذلـك أنـك تقـول: «لـو صـليتَ بـضع ركعـات لـن أسـتطيع الـذهاب إلى العمـل، فبـدلًا مـن أصـلي ثـماني ركعـات سأصـلي أربـع ركعـات فقط..»!. وهذا مُنافٍ لهذا المعنى من معاني التوكل، فلو صليتَ هذه الركعـات الثماني لله تعالى فإن الله تعالى يكفيك؛ لأن في الصلاة استعانةً بالله تعالى، وفي الصلاة توكلًا عـلى الله تعالى، وفي الصلاة إقبالًا على الله تعالى، فإذا ما أقبلتَ عليه واشتغلتَ به ﷻ، فإنَّه يحفظك مما تخافه، ويعطيك ما ترجو - كما ذكرنا من قبل: يُعطيك تأميلًا، ويُحققُ لك جميلًا.. وكل هذه المعاني التي أشرنا إليها.

وقِسْ كلَّ أمورك على هذا الأمر: في الـصلاة، في القيـام، في الـصيام؛ يخـاف المرءُ أن يتعب من الصيام، وأنه لن يستطيع الذهاب لمكان كـذا، ولا أن يقـوم بعمـل كـذا. فنقـول له: ذلك تخويف الشيطان لك، ألا تقوم، فـإن توكلـتَ عـلى الله تعـالى، وقمـتَ بـشغل الله تعالى، وانتهزتَ فرصة العمر القصيرة في تحقيق هذا الصيام، إذا كل هـذه الأمـور تنقلـب في حقك إلى هذه المعاني الجميلة، وتجد حلاوة الإيمان، وتجد حفظ الله، وتجد كفالة الله ﷻ لك، فإنَّه متى قدَّم المرءُ ما عند الله قدَّمَهُ اللهُ تعـالى عـلى غـيره؛ أأنـت تُقـدِّم ربَّـك وتَحْفَظُـه وهو لا يَحْفَظُكَ، ولا يُقدمُكَ جل وعلا على غيرك؟!

لو كان المرءُ متوكلًا على الله تعالى لعَلِمَ أنَّ في القيام لله فَرَجَ الله تعالى، ومددَ الله تعالى.. لعلم أنَّ في القيام له قوةَ الله تعالى له.. أنَّ في القيام له أن يُصبِّره اللهُ تعالى، وأن يُعينه، وأن يفتح عليه، وأن يجد راحتَه في إقباله على ربه، وأن يجد نعيمه وسروره في إقباله عليه، والوقوف بين يديه، لا في النوم عنه والغفلة عن ذِكْرِه. فعلى المرء أن يتحلل من هذه العقد التي هي فيه: من الإقبال على الدنيا، والخوف عليها، ولا يخاف أنه عندما يصوم ويقوم ويذكر ويبذل مالًا وجهدًا سيضيع عليه ذلك!

يقول النبي ﷺ: «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[1]، ويقول المرءُ: «أنا لو تواضعتُ لفلان لظن أن ذلك ضعفًا أو خوفًا، وهذا ليس بكرامة»!! وفي قول النبي ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»[2] رأينا الصحابةَ - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وإن كانوا متفاوتين في هذه الدرجة - قد تحققوا بمعنى هذا الحديث، فوجدنا أنَّه لما حثَّ النبيُّ ﷺ على الصدقة جاء أبو بكر ﷺ بماله كُلِّه، فقال له النبي ﷺ: «**مَاذَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قال: «تَرَكْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ»[3]!! فهل افتقروا؟ أو حدث لهم ما يظنه أحدُنا؟!

أمَّا اليوم فإن المرء يأبى لنفسه تحصيلَ الكرامة والفضل من الله تعالى، فيجادل في الحسنات التي سيأخذها، ويفاصل - كما يقول أصحاب التجارات. يُقال له: «إذا فعلتَ

(١) صحيح الإمام مسلم [٢٥٨٨] من رواية أبي هريرة ﷺ.

(٢) صحيح الإمام مسلم [٢٥٨٨] من رواية أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في فضائل الصحابة: [ج١/ ص٦٠/ ح٥٢٧]، وبنحوه أبو داود [١٦٧٨]، والترمذي [٣٦٧٥] وقال: حسن صحيح؛ كلهم يرويه عن عمر بن الخطاب ﷺ.

كذا وكذا ستُحَصِّل حسناتٍ كثيرةً». يقول: «لا، أنا لا أريد كلَّ ذلك، أريد الأقل»!، وذلك بسبب خوفه من فقدان ماله، أو ضياع جُهْده، أو فقدان صحته، أو بعضها، وكلُّ ذلك مُنافٍ لهذه القضية من قضايا التوكل.

لذلك نحن واقفون لا نتحرك في طريق الله تعالى بسبب هذا العجز، بل نتأخر بسبب ضعف توكلنا على الله ﷻ؛ ذلك التوكل الذي قال فيه الربُّ جل وعلا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وذكر البيهقيُّ عن الفراء في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، وسنأتي على شرحها بالتفصيل إن شاء الله تعالى فيما بعد. فيقال: ربًّا، ويقال: كافيًا، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]، أي: كفيل.

وهذه المعاني كلها التي أشرنا إليها: من الكفيل، والمقسط، والحفيظ، والكافي.. كل هذه المعاني صحيحة في وصف معنى الوكيل؛ لأن الله تعالى تسمَّى بالوكيل، لأنه وَكَل أمورَ خَلْقه إلى نفسه.

وهذا - يعني: كونه ﷻ وَكَلَ أمورَ خَلْقه إليه - غير كونك قد وكَّلت أمورك إليه، وهذا نذكره حتى نعلم أن الله تعالى وكيل بذاته، لا يحتاج إلى تفويض منك، ولا إلى توكيل منك، بل هو وَكَلَ أمورَ خلقه كلَّها إلى نفسه ﷻ، فـ«الوكيل» على وزن «فعيل» بمعنى «مفعول». فيكون هو ﷻ قد وكَلَ جميع أمور عباده إليه - إلى نفسه - وعبادُه المتوكلون وكَّلوا أمورهم كلها إلى الله تعالى، فكان هو ﷻ وكيلهم، وهؤلاء هم الذين وَصَفَهم المولى ﷻ في كتابه الكريم حيث قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فطَوْرًا يكون «الوكيل» وصفًا ذاتيًّا، وطَوْرًا يكون وصفًا فعليًّا.

«الوكيل» من حيث كونه وصفًا ذاتيًّا لله جل وعلا

فإذا كان «الوكيل» بمعنى أنَّه الذي وكَّلَ العبيدُ أمورَهم إليه، واعتمدوا في حوائجهم عليه، فهو وصفٌ ذاتي، لأنهم بلا شكٍّ توكلوا عليه لذاته ﷻ، لأنه موصوفٌ بهذا المعنى في ذاته هو ﷻ؛ إذ لا يَكِلُ أمرَه إليه من عباده إلا قومٌ خاصَّة، وهم أهل الإيقان، وذوو العرفان.

وهذه المسألة المهمة: وهي أنه لا يكل أمرَه إلى الله، ولا يكل من الناس أمورَهم إلى الله تعالى إلا أهلُ الإيقان.

وذوو العرفان، يعني: إلا أهل الثقة في الله تعالى، وأصحاب اليقين فيه جل وعلا.

وذوو العرفان: يعني أصحاب المعرفة بربهم والأنس به؛ فهم يعرفون أن الله تعالى إذا وكَّلوا أمورَهم إليه وكَّلوها إلى القوي القادر الذي يقوم بها.. إلى **الكافي الحفيظ** الذي يَكْفُلهم ويحفظهم جل وعلا.. إلى **الرءوف الرحيم** الذي يرحمهم ويرأف بهم.. إلى **العليم** الذي يقوم بذلك على تمام العلم به.. إلى الذي لا يطلب منهم عِوَضًا.. إلى **الحي** الذي لا يموت. فهؤلاء هم ذوو العرفان، الذين يعرفون أسماءه ﷻ الحسنى وصفاته العليا. لا كهذه المعرفة التي نعرفها نحن اليوم، نعرف أنه الرءوف والرحيم والبر.. وكل ذلك، ولا نجد أثرًا يُذكر في تعلق القلب بالله، ومحبته لله تعالى، أو أثرًا يُذكر في أن يأخذ المرءُ حظه من هذا الاسم؛ في أن يتسم بهذه الصفات من صفات الله تعالى.

«الوكيل» من حيث كونه وصفًا فعليًّا لله ﷻ

وإذا كان «الوكيل» بمعنى أنه الذي وَكَلَ أمورَ عباده إلى نفسه، وقام بها، وتكفل بالقيام بها، كان وصفًا فعليًّا مضافًا إلى الوجود كله، لأن هذا الوصف لا يليق بغيره ﷻ، وعلى هذا أتى شرح العلماء - الفراء وابن عرفة وغيرهما - لهذا الاسم.

اسم الله «الوكيل» يتضمن أوصافًا عظيمة من أوصاف الله تعالى

وهذا الاسم يتضمن أوصافًا عظيمة من أوصاف الله تعالى، لذلك قُلْنا: لا يَكِلُ أمرَه إلى الله تعالى إلا ذَوُو العرفان والإيقان؛ لأنَّهم أكثرُ الناس معرفةً بهذه الأوصاف العظيمة من أوصاف الله تعالى..

- **كَحَيَاتِه**: فلا يَتوكل المرءُ على الميت.
- **وعِلْمه**؛ فلا يتوكل على الجاهل.
- **وقُدْرتِه**: فلا يتوكل على العاجز.
- **ووفاءِ عهده وصدقِ وَعْده**: فلو كان يخلف وعده معك لَمَا توكَّلتَ عليه ﷻ.
- **وأنَّه الكفيلُ بأرزاق عباده القائمُ عليهم بمصالحهم لعجزهم**: فالعبادُ عاجزون عن القيام بمصالحهم في الدنيا والآخرة، واللهُ تعالى يقوم لهم على تحصيل هذه المصالح، ويُقوِّيهم عليها جل وعلا، ويُمِدُّهم بمَدَدِه. ومَنْ رأى فيه إخلاصًا وصدقًا قوَّاه وأقامه في خدمته واصطفاه لعبادته جل وعلا.

(مسألة)

إذا كان الله تعالى هو الوكيل، فَلِمَ يموت البعضُ جُوعًا وعطشًا؟!

وهذا استطرادٌ يمكن أن يأتي من خواطر الشيطان: إذا كان اللهُ تعالى قد توكل وتكفل بأرزاق عباده وإقامة خَلْقه، فما بال مَنْ يموت جوعًا وعطشًا؟!

والجواب: أنَّ الله تعالى لم يقبض روح أحد حتى يستوفيَ رزقَه الذي كُتِبَ له وتكفل له به، وفي الحديث: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حتى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا**»[1]. فإن قال: «ولكنه يموت عطشًا أو جوعًا!»، فيقال له: نعم؛ لأنَّه انتهى أجلُه عند الله، وانتهى طعامُه وشرابه عند الله تعالى من الحياة عند هذه اللحظة، فاستوفى رزقه، ومات على الحال التي قد قضى اللهُ تعالى أن يموت هذا العبدُ عليها عندما يستوفي رزقه وأجله، وهذا أبين مِن أن يُحتاج فيه إلى إكثار.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه [٢١٤٤] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا إلى النبي ﷺ. وصححه الشيخ ناصر في «صحيح الترغيب» [١٦٩٨]. قال المناوي رحمه الله في شرح روايةٍ لأبي إمامة الباهلي ﷺ لهذا الحديث: «(**إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا**) الذي كَتَبَهُ لها المَلَكُ وهي في بطن أمها، فلا وجه للوَلَهِ والتعب والحرص والنصب إلا عن شَكٍّ في الوَعْدِ. (**وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا**) كذلك فإنه ﷻ قسَّم الرزق وقدَّره لكل أحدٍ بحسب إرادته، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، بحسب علمه القديم الأزلي، ولهذا سُئل حكيمٌ عن الرزق فقال: «إنْ قُسِمَ فلا تَعْجَلْ، وإنْ لم يُقْسَم فلا تَتْعَبْ». (**فَاتَّقُوا اللهَ**) أي: ثِقوا بضمانه، لكنَّه أمرَنا تعبُّدًا بطلبه من حِلِّه فلهذا قال: (**وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**) بأن تطلبوه بالطُّرق الجميلة المُحلَّلة بغير كدٍّ ولا حِرْصٍ ولا تهافتٍ على الحرام» انتهى - بتصرف - من «فيض القدير».

فيجب على كل مؤمن بعد ذلك - بعد الإشارة إلى هذه المعاني - أن يعلم أن كل ما لَا مَفَرَّ للمؤمن منه في الدنيا والآخرة، فالله ﷻ هو الوكيلُ - أي المتوكِّل - والكفيلُ بإيصاله إلى العبد: إما بنفسه؛ فَيَخْلق له الشبعَ والرِّيَّ كما يخلق له الهدايةَ في القلوب، أو عن طريق سبب ما يسوقه له.

فإذا علمتَ ذلك، علمتَ أنك إذا وكَّلتَ اللهَ تعالى كفاكَ، وأوصل لك هذه الكفاية.

الأحكام التي يختص بها «الوكيل» ﷻ[1]

فإذا علمتَ معنى «الوكيل»، فلله تمام الوكالة، وله أحكامٌ أربعة يختص بها:

١- انفراده ﷻ بحفظ الخلق.

٢- انفراده ﷻ بكفايتهم.

٣- قدرته ﷻ على ذلك: فلا يستطيع أحدٌ أن يقوم بخلق الخلق، أو أن يكفي الخلقَ كلهم، أو أن يَقْدِر على ذلك.

٤- أن جميع الأمرِ من خيرٍ وشرٍّ، ونفع وضر.. كل ذلك حادثٌ بيده ﷻ.

الأحكام التي يختص بها العبد[2]

ومنزلةُ العبد في ذلك أنَّ له ثلاثة أحكام:

---

(١) انظر - بتصرف: «الأسنى» للإمام القرطبي. ج١، ص٥٠٧.

(٢) انظر - بتصرف كثير: «الأسنى» للإمام القرطبي. ج١، ص٥٠٧، ٥٠٨.

الأول: أن يتبرأ من الأمور إليه، لِيَحْصُل له حقيقةُ التوحيد، ويَرْفع عن نفسه شرَّ مشقة الوجود..

فيتبرأ من الأمور إليه، أي يتبرأ من نفسه، يعني ليس له من أمره شيء، وليس له من نفسه إلا العَدَمُ، والفقرُ الذاتي. واللهُ تعالى له الغِنَى الذاتي، ولو أخذ اللهُ ﷻ منه سمعَه وبصرَه لم يكن له – أي لهذا العبد – شيء؛ لو أَخَذَ منه مالَه لم يستطع شيئًا، ولو أخذ رُوحَه لم يستطع أن يردَّها. لذلك على المرء أن يتبرأ – وهذه حقيقةُ التوحيد – من كل شيء إلا الموصول بالله تعالى: أن يتبرأ من قوته، وماله، وعقله، وعلمه، وفهمه، وجاهه، وسلطانه، وعِزْوَته، وولده.. وكل شيء، وأن يَكِلَ كلَّ ذلك إلى ربِّه ليَحْصُل له حقيقة التوحيد، فلا يحصل له حقيقة التوحيد إلا أن يكون فقيرًا في هذه الأمور.

فإنْ قال المرءُ: «أنا أفهم كذا، اترك لي هذا العمل، أنا أقوم لك به خير قيام، وإن شاء الله سأُحَصِّل لك الموضوع الفلاني، كُنْ أنتَ في كذا فقط وسأقوم لك بكذا وكذا، وسأنهي لك كذا...»، ففي هذا دليل على أنه نظر إلى عقله وفهمه وماله وجاهه وسلطانه ومعارفه، وأنَّه يستطيع أن يفعل أو لا يفعل، وأنه لم يتبرأ بعد من حَوْله وقوته إلى حول الله تعالى وقوته، والرسول ﷺ يقول: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[1]، فـ«لا حَوْلَ للمرء»

---

(١) وردتْ في أحاديثَ كثيرة وأنها كنزٌ من كنوز الجنة، ومنها في صحيح البخاري [٧٣٨٦]: عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النبي ﷺ في سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا فَقَالَ: **ارْبَعُوا على أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا**. ثُمَّ أَتَى عليَّ وَأَنَا أَقُولُ في نَفْسِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله. فَقَالَ لِي: **يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**». أَوْ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ بِهِ**». وفي العدد الرابع من سلسلة شرح أسماء الله الحسنى – شرح اسم الله تعالى «القوي» – إشارات لبعض المعاني المهمة المتعلقة بهذه العبارة النبوية الكريمة، فارجع إليها إن شئت [ص ١١–١٣]، ط١، ١٤٢٨هـ.

أي: لا تَحوُّل له، ولا قوة له، ولا قدرة له على هذا التحول إلا بالله تعالى: التحول من الطاعة إلى المعصية أو من المعصية إلى الطاعة، من الفقر إلى الغنى أو من الغنى إلى الفقر.. في كل الأحوال لا يستطيع المرءُ الانتقالَ من حالٍ إلى حال إلا بإذن الله تعالى، ولا تكون حقيقةُ التوحيد مُتحقِّقةً في قلبه إلا بتجرده من رؤية نفسه.

فمن فعل ذلك رأى نفسه فقيرًا لله تعالى، مُتبرِّئًا من أحواله كلها.. ليس به شيء، وليس منه شيء، ولا له شيء.. لا به يستطيع، ولا له ليملك، ولا منه ليتمكن.. كلُّ ذلك لله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا به ﷻ؛ وهذه هي حقيقة العبودية، وتجريد التوحيد لله تعالى.

فحقيقةُ العبودية: أن يكون العبدُ عبدًا، وأن يكون الربُّ ربًّا، وأن يرى العبدُ ربَّه هو الذي يقويه، ويكفله، ويحفظه، ويمده، وأنه بغير ربه لا حول له ولا قوة، ولا مال له ولا سلطان؛ لأن كلَّ ذلك محضُ وَهْبِ الله تعالى له، وفضلِ الله ﷻ عليه.

عندما يتأمَّلُ المرءُ هذا المعنى يعلم هل هو مُقْبِل على ربه؟ حقًّا هل هو محبٌّ له؟ هل هو فقير إليه؟ فإذا كان ذلك مُتحقِّقًا فيه فإنَّ الربَّ جل وعلا يحبه، ويُقبل عليه، ويُغنيه، ويُعلِّمه ﷻ. عندما يرى المرءُ أنْ لا قوةَ له فإن الله ﷻ يقويه، وتَصير كلُّ أحواله إلى هذا الحال الحسن. وهذا يُورِثُ المرءَ التواضعَ لله ﷻ، والتواضعَ للمؤمنين، فلا يرى نفسه شيئًا، ولا يرى لنفسه قدرًا ولا حالًا ولا مقامًا، وإنما يدخل على الله تعالى بالإفلاس المَحْضِ والفقرِ الصِّرْف.

الحكم الثاني الذي يختص به العبد في تلك المنزلة: ألَّا يستكثر العبدُ شيئًا يسأله اللهَ تعالى..

عندما تعلم أن الله تعالى هو «الوكيل» لا تستكثر أيَّ شيء تسأله إياه. إذا علمتَ أنه الوكيلُ، وأنه الحفيظ، وأن ملكوت كل شيء بيده ﷻ، فلا تستكثر على الله تعالى شيئًا.

وعكسُ هذه المسألة نراها عندما تقول لأحدهم: «افعلْ كذا». فيقول لك: «كيف؟... ومِنْ أَيْنَ؟ وماذا سأفعل؛ ليس هناك وقت ولا مال ولا جهد ولا صحة؟...». لكن المرء المتوكِّل على الله حقًّا لا يقول ذلك؛ لأنك إذا توكلت على الله علمتَ أنك بالله تعالى، أي أنَّك صِرْتَ بالله تعالى لا بنفسك، وبِعِلْمِه لا بِعِلْمِكَ، وبقدرته لا بقدرتك، وبماله لا بمالك. فإذا كان الأمرُ كذلك، فإنما تأخذ من مال الله، ومن قدرة الله، ومن قوة الله ﷻ.. وكلُّ ذلك لا ينفد، وما عليك إلا أن تقول: «الله المستعان، هو ﷻ الذي يُقَوِّينا»، وتجاهد نفسك وتتوكل على الله تعالى، واللهُ تعالى سيُمدكَ ويكفلك ويحفظك ويُغنيك، فلا تقل: «مِن أين؟ وكيف؟ وأنا أريد السفر، وأنا لا أملك مالًا، ولا أملك صحةً، ولا أملك... إلخ».

ومِثْلُ هذا يحدث أيضًا: إذا ما أرشده أحدٌ لأمرٍ من أمور الآخرة، ومصلحةٍ من مصالح الدين والإيمان، وجدْتَه يتعلل بأنه لا وقتَ له ولا جهد ولا صحة، وهذا دليل على عدم التوكل على الله تعالى، وأنه متوكل على صحته الضعيفة.. فلم يستطعْ، وعلى ماله القليل.. فلم يستطع، وعلى قُوَّتِه.. فلم يستطع. أما إذا توكَّلَ على القوي القادر العالم ﷻ، فحينئذٍ يستطيع بذلك أن يفعل؛ لأنه لا يفعل بنفسه، بل هو يفعل بالله تعالى، ويستمد من عنده جل وعلا.

انظر إلى هذه الحال وجَرِّبْها، فستجد نفسَك قد تغيرت مع الله تعالى، وأخذتَ بأسباب السعادة والاستعانة بالله تعالى، وانتقلتَ من العجز والكسل الذي أنتَ فيه، إلى

المسارعة إلى الله تعالى، والقيام بالأعمال؛ لأنها ستكون بقدرة الله وقوته، لا بقدرتكَ وقُوَّتِكَ أيها المسكين العاجز.. وتأمل أحوال الصحابة ﷺ.

الحكم الثالث الذي يختص به العبد: أنَّك إذا علمت أنَّ وكيلَك غنيٌّ وفيٌّ قادرٌ مَلِيٌّ[1]، فأَعْرِض عن دنياك، وأَقْبِل على عبادة من يتولَّاك..

تُعْرِض عن الدنيا لا بمعنى أن تترك الدنيا - ولن يتركها أحدٌ! - ولكنَّ المقصود بالإعراض عنها: الإعراض بقلبه عنها، وألَّا يُقبل عليها، وألا يكون انهماكُه بها وسَعْيُه فيها بحيث ينسى ربَّه ويَغفُل عنه ﷻ وينسى آخرته. بل إذا علمتَ أن الله تعالى هو القادر، وهو القوي، وهو المَلِيُّ، وهو الوليُّ[2]، وأنت متوكِّلٌ عليه.. إذا علمتَ هذا، فأَقْبِلْ على عبادته، لا تخف من ذي العرش إقلالًا[3]، ولا تخف مغبَّة هذه العبادة وهذا

---

(١) «مَلِيٌّ» يعني: مَلِيءٌ.

(٢) انظر شرح اسم الله تعالى «الولي»، وقد طبع منه درسان والحمد لله تعالى.

(٣) إشارة للحديث النبوي الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**أَنْفِقْ بِلالُ، وَلا تَخَافَنَّ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلالًا**». قال المنذري رحمه الله: «رواه أبو يعلى [١٠/ ٤٣٠]، والطبراني في «الكبير» [ح: ١٠٢٤، مكتبة العلوم والحكم - الموصل]. و«الأوسط» [ح: ٢٥٧٢، دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥هـ]، بإسناد حسن». اهـ من «الترغيب والترهيب» [ح: ١٣٦٣]، دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤١٧هـ. قال المناوي رحمه الله: «(**إِقْلَالًا**) يعني: فَقْرًا، من «قَلَّ» بمعنى: افْتَقَرَ، وهو في الأصل بمعنى صار ذا قِلة. وما أحسن قوله: (**مِنْ ذِي الْعَرْشِ**) في هذا المقام! أي: أتخافُ أنْ يُضيِّع مثلَك مَنْ هو مُدَبِّر الأمرَ مِن السماء إلى الأرض؟!! كلا.. وقال الطيبي رحمه الله: وإنما أمره بذلك لأنه تعالى وَعَدَ على الإنفاق خَلَفًا في الدنيا وثوابًا في العُقْبَى فمن أمسكَ عن الإنفاق خوفَ الفقر فكأنه لم يُصَدِّقِ اللهَ ورسولَه» اهـ. انظر - باختصار وتصرف كثير: «فيض القدير»، شرح حديث رقم: [٢٧٤٦].

الإقبال عليه.. لا تظن أنك عندما تتعبد إلى الله ﷻ ستتعب، أو سينقص مالك، أو ستضعف صحتك، أو ستفقد وقتًا وجهدًا، ولكن إذا أقبلت عليه ﷻ، فأَعْرِضْ عن هذه الدنيا التي قَطَعَتْكَ عن الله تعالى وشغلتك عنه، وأَقْبِل عليه، فإنه سيتولاك ويمدّك حينئذٍ؛ لأن نعيمَك وسرورَ نفسك وقُرةَ عينك وراحتَك وسكينتك وطمأنينتك في إقبالك عليه، فكيف يكون تعبُك وذهابُ بركتك في قيامك بحقِّه وتَلَذُّذِكَ بخدمته؟!

إذا أعرضتَ عن الدنيا بقلبك، ولم تتسابق فيها ذلك السباق على الحطام الفاني الذي تسعى إليه، وأقبلتَ عليه ﷻ فإنه سيعطيك هذه الدنيا. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»**(١).

فينبغي أن تتغير هذه السلوكيات مع الله تعالى في الفهم والعبادة على هذه الأحكام الثلاثة التي يختص بها العبد: فمن عرف ربَّه حُقَّ له أن يَتوكَّلَ عليه في جميع أموره، وأن يفوض إليه جميع شئونه؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٤١٠٥] من رواية زيد بن ثابت ﷺ مرفوعًا. قال الحافظ العراقي رحمه الله في تخريج «الإحياء»: «أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد»، دار صادر - الطبعة الأولى - سنة ٢٠٠٢م.



الفصل الثاني

نظرة إجمالية في الآيات الكريمة الواردة
في معاني اسم الله « الوكيل »

وبالتأمل في الآيات التي ذكرت اسمَ الله «الوكيل» وذكرت التوكل على الله تعالى، وجدناها تدور على هذه المحاور الأربعة، وهي:

أولًا: الله تعالى هو «الوكيل»..

وعليه فقد بينتْ كذلك: الأمر بالتوكل، أسباب الأمر بالتوكل، مظاهر التوكل.

ثانيًا: التوكل هو حالُ الرسلِ وأَتْبَاعِهم.

ثالثًا: التوكل متعلِّق بالإيمان.

رابعًا: العاقبة الحسنة للتوكل.

وكما هو منهجنا سنحصر الآيات ثم نشير إجمالًا إلى بعض معانيها تحت كل عنوان من تلك العناوين، لنبين ترابطها، وإفادتها للمعنى، ثم نتبعها بتفسير بعض تلك الآيات[1]؛ إذ التفصيل في ذلك خارج عن حدود الدرس.

أولاً: اللهُ تعالى هو «الوكيل»[2]

فإذا وكَّلوا اللهَ تعالى، فإنه يكفيهم ويحفظهم ويمنعهم ويحميهم من الدنيا كلها، ومن كل أحد؛ لأن الأمر كله بيديه ﷻ، وإذا شاء أمرًا فإنما يقول له «كُنْ» فيكون: «**مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**»[3]..

---

(١) انظر الفصل الثالث، وفيه شرح تفصيلي بعض الشيء لبعض الآيات التي أُجْمِلَ ذكرُها في هذا الفصل الذي نحن بصدده الآن.

(٢) انظر الفصلين الأول والرابع من هذا المبحث.

(٣) وردتْ هذه العبارة في حديث مرفوع لكنْ في سنده مقال في «سنن أبي داود»، برقم: [٥٠٧٥].

وفيما يلي نستعرض الآيات التي تُبيِّن أسباب توكل المتوكلين على الله تعالى.

أسباب توكل المتوكلين على الله تعالى

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الأول: لأنه ﷻ هو رب المشرق والمغرب: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فبسبب أنه ﷻ هو رب المشرق والمغرب، المُتَصَرِّفُ فيهما، والمتصرف في كل شيء، فلا يجوز التوكل على غيره؛ لأن غيرَه لا يملك شيئًا، فكيف يدفع عن غيره إن كان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه هو؟ ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وكيف ينوب عن غيره في قضاء مصالحه، وهو محتاج إلى ذلك، وليس له ذرة في المشرق أو المغرب، أو في أي شيء، فأنَّى يتوكل عليه؟! لذلك قال: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الثاني: لأنه ﷻ هو الهادي وهو الذي هداهم..

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

فالهدايةُ بيده ﷻ، وهو الذي هداهم إلى سبيله وطريقه. فكيف يهديهم إلى سبيله وطريقه، ثم يتوكلون على غيره ممن ليس بهادٍ ولا مُهْتَدٍ ولا يستطيع لهم الهداية؟!. لو كان هذا - الذي يتوكلون عليه من دون الله - يستطيع هدايتهم إلى صراط الله تعالى،

ويدخلهم جنة الله تعالى، كان يمكن أن يقال: إن لهم شريكًا في التوكل على الله ﷻ، ولكنه كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾[1].

وقد ذكر المولى ﷻ هذه الهداية في سورة يونس، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟! مَن هذا الذي يجوز أن يكون نظيرًا لله تعالى؟! ومن الذي يمكنه أن يعلم الجنةَ والنار والدنيا والآخرة والضلالَ والصواب والحقَّ والباطل والحساب والعقابَ والكُتُب والرسلَ حتى يتَّبِعَه الناسُ ويهتدوا بهَدْيِهِ، إلا أن يكون اللهَ ﷻ، وأن يكون ذلك عن طريق رسله الذين هداهم إلى طريقه. لا، لا يمكن ذلك لأحدٍ غيرِ الله أبدًا.. فهل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، ثم يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.. يعني: هذا الذي لا يَهتدي إلا أن يُهدى، أي يحتاج إلى أن يهديه غيرُه، كيف يكون مَنْ هذه حالُهُ هو الهادي؟!.. لذلك قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾.

فهم يتوكلون على الله تعالى: لأنه هو «الوكيل».. من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه هداهم سُبُلَهم، فهداهم إلى الحق والصواب في الدنيا، وإلى الصراط المستقيم في الآخرة. وغيرُه لا يُتَوَكَّل عليه؛ لأنه لا يستحق ذلك أحدٌ، والهدايةُ أعظم شيءٍ وَأَجَلُّه لأنها سعادة الدنيا والآخرة[2].

---

(١) لمعرفة المزيد من معاني هذه الآية الكريمة انظر: الفصل الثالث – ثالثًا.

(٢) لمعرفة المزيد من معاني هذه الآية الكريمة انظر: الفصل الثالث – ثانيًا.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الثالثُ: لأنـه ﷻ عزيـز حكـيم، قـال تعـالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٤٩].

فلماذا يتوكلون على الله؟ لأنه عزيـز حكـيم، ومـن صـفات «الوكيـل» التـي سـبق أن ذكرناها: **أنه لا يأخذ على وَكالته أجرًا**. وأنْ يكـون قويًّـا قـادرًا، فيَحْمِـي ويحفـظ ويـدفع عمَّن يتوكل عليه. وأنْ يتصرف له في الوكالة بالحكمة والتي هي وَضْع الشيء في موضعه المناسب فيخـرج عـن الحمـق والجهـل الـذي يمكـن أن يتـصرف بـه الوكيـل عـن مُوَكِّلِهِ، فَيَتَـصَرَّف لـه بالحكمـة والعـزة، فيستطيع أن يُوَصِّـله إلى مـا وَكَّلـه فيـه بالحكمـة والعلـم والقـدرة وتمـام الكفايـة لـه بـتمام القـوة والمنعـة. فأنـتَ تقـول: «هـذا فـلانٌ عزيـزٌ»، أي: لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه أو يتمكن منه؛ لأنه قوي مُمتَنِع قادر ولله المثل الأعلى.

وكـذلك فـإن المـولى ﷻ هـو الحكـيم، فيكـون قـضاؤه وتـصرُّفه لـيس بـالطَّيْش، ولا بالجهل، ولا بالحمق، ولا عدم العلم، ولا عدم تقـدير الأمـور، ولا تقـدير عواقبهـا.. بـل هو ﷻ القائمُ بذلك كله، فمَنْ أَجْدَرُ منه بالتوكل إذًا؟

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الرابع: لأن الحُكْم له ﷻ، بل هو مقصور عليه، قـال تعـالى: ﴿**إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [يوسف: ٦٧].

فإذا توكل المرءُ على مَنْ لا يحكم فـيمكن أن يمنعـه الحـاكمُ الحقيقـيُّ. أي: إذا توكـلَ المرءُ على المحكوم الذي ليس أمرُه بيده بل بِيَدِ غَـيْرِه، وناصيتُه بيـد غـيره، فإنـه يُمْكِـنُ أن يقع عليه مِنْ غيرِه الحبسُ والمنعُ والوقفُ عن التصرف.

وكذلك فإن الحكم مقصور على الله ﷻ لا لأحد غيره، ومن كان له شيء من الحكم فهو مما أعطاه اللهُ ووهبه إيَّاه، لذلك قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.. أي له وحده جل وعلا، لذلك فقد توكلتُ عليه. وكذلك فإن المتوكلين إذا أرادوا أن يتوكلوا فعليه سبحانه لا على غيره، ودل النفي والاستثناء على الاختصاص، أي: له الحكمُ سبحانه لا لأحدٍ غيره.

فلما علمتَ أنه الحَكَم والحاكم وأن له الحُكم ﷻ، فمن الجهل والحمق أن تتوكل على غيره، ممن لا يملك شيئًا ولا يستطيع شيئًا؛ لأن هذا المحكوم لا يتصرف في نفسه فضلًا أن يتصرف في غيره، بل كله بيد غيره: يُحرِّكه، ويمنعه من التصرف، ويُوقِفُهُ، ويَطْرُدُهُ، ويَحْرِمُهُ، ويُجَرِّدُهُ مالَه وحياتَه أيضًا. فإذا أردتَ أن تتوكلَ، فتَوَكَّلْ عليه هو صاحب الحُكْم والأَمْرِ والنهي ﷻ.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الخامس: لأن الأمر كله راجع إليه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

فله الأمرُ كله، وإليه يُرجع الأمرُ كله. إن كان الأمر يرجع لأحد، أو التصريف يرجع لأحد، أو الشأن يرجع لأحد، إن كان أيُّ شيء من ذلك يرجع لأحد غيرِه فتَوَكَّلْ على هذا الغير. ولكنْ إليه لا إلى غيره يُرجع الأمر؛ فلذلك فاعْبُدْه وتوكَّلْ عليه.

وكذلك الغيبُ كله له، وغيرُه لا يعلم ما سيحدث في غدٍ، بل لا يعلم ما سيحدث بعد قليل في محيطه المحدود. فلا شك أن قصور علمه سببٌ لوقوع الخلل في عمله وتدبيره، وأنه ليس له بَصَرٌ مِنْ ثَمَّ بعواقب الأمور ونتائج الأعمال، فمن له الغيبُ وتمام

العلم، هو الذي يحكم أحسنَ الأحكام للأعمال، ويُدبرها أفضلَ التدبير حالًا ومآلًا.. فاعْبُدْه وتوكَّلْ عليه.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب السادس: لأنه سبحانه هو الحيُّ الذي لا يموت، قال تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكان يمكن أن يقول: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ**﴾ فقط، فيفتح لك باب التوكل على أيِّ حَيٍّ تذهب إليه وتتوكل عليه، ولكن خَصَّص ذلك التوكل منك بأن يكون على ﴿**ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ**﴾ وهو الله سبحانه. فقيَّدها بأن هذا الحي الذي تتوكل عليه ينبغي ألا يكون معرَّضًا للفناء، فالذي يموتُ حياتُه بِيَدِ غيرِه. فإنْ توكلتَ عليه وأصبح ميتًا، ضاع عليك ما قصدْتَه لأجله، أو ما طلبتَه منه، أو توجهت به إليه.. إلى غير ذلك مما ذكرنا.

فلا تتوكلْ حينئذٍ على أحد في الدنيا ولا في غيرها إلا على الله، لا على نفسك، ولا على غيرها: حاكمًا كان.. أميرًا كان.. عظيمًا كان.. حقيرًا كان.. قويًّا كان.. ضعيفًا كان؛ لأن كل ذلك فانٍ، لأنه سبحانه أمرك بالتوكل عليه فقط، لأنه هو الحي، وهو الذي لا يموت. كما نهاك أن تتوكل على أيِّ أحدٍ بعده أو غيره؛ لأن هذا الغَيْرَ يموتُ ويفنَى وينتهِي، فالجنُّ والإنس يموتون[1]، فيخرج بذلك من قلبك كلُّ ركونٍ إلى غيره أو الثقةُ في ذلك الغير أو الاعتمادُ على هذا الزائل.

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [٢٧١٧]، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**».

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب السابع: لأنه سبحانه هو العزيزُ الرحيم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٨].

«العزيز» كما سبق أن ذكرنا: هو القوي المُمْتَنِع القادر، يصل إلى كل شيء، ولا يصل إلى جنابه شيءٌ، والذي تشتد إليه حاجةُ كل مخلوق.

و«الرحيم» مشتقٌّ من الرحمة، وهي من الصفات التي ينبغي توافرُها في الوكيل؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بأمرك إلا الرحيمُ بك؛ لأنه لو لم يكن رحيمًا بك لَفَرَّطَ في أمرك، ولم يقم لك بأشغالك على تمام الرحمة، ولا يُهمه ما يقع بك: يذهب ليُقِيمَ لك هذا الشيء، فإنْ أقامه لك كان بها، وإن لم يُقِمْهُ لك لم يكن لِيُهِمَّهُ ما يقع بك.. ليس رحيمًا أو رءوفًا أو مشفِقًا.. لا يحاول أن يأتي لك بكل خير وأن يمنع عنك كل شر، ولا يحاول أن يحصِّل لك كلَّ المصلحة، ولا يحاول أن يدفع عنك المفسدة أو المضرة.. لا يستطيع ذلك إلا الرحيمُ. لذلك تجد هذه الصفة في الأب؛ فهو يكافح من أجل أولاده، ويُهمه مصلحتُهم، ويقوم على تحصيل سعادتهم، فيقوم بأشغالهم، ويتحمل أعباءَهم، ويدفع عنهم السوء، كلُّ ذلك وهو غيرُ حزينٍ، ولا مُتضايِقٍ، ولا مُتأفِّفٍ مِنْ أن يقوم لهم بذلك، بل سعيدٌ أن يراهم على أحسن حال. فإن كان الأبُ كذلك، فما بالك بالرب الرحيم سبحانه، وقد وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الثامن: لأنَّ النبي ﷺ على الحق المبين، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

ويكون «الحقُّ المبين» مستفادًا من الله ﷻ: فتوكَّلْ على الله؛ لأن الله تعالى هو الحقُّ، وأنتَ على الحق الذي وهبَكَ سبحانه إياه، فلا تخشَ من شيء، لأنك متوكِّلٌ عليه سبحانه، فأنتَ على الحق الذي هو منه جل وعلا.

وتوكَّلْ على الله لأنك مُتَّبِعٌ للرسول ﷺ في أحوالك وأقوالك وأفعالك، ظاهرًا وباطنًا، والرسولُ ﷺ على الحق المبين، واللهُ ﷻ هو الذي يُظْهِرُ هذا الحقَّ ويُعْلِيه، ويُخْفِضُ الباطل ويمحقه، فلا تخشَ شيئًا، لأنك متوكِّلٌ عليه.

والتعبير هاهنا بالإلزام، أي: توكل على الله وتعليله أنك على الحق المبين. وكلُّ أحدٍ يظن أنه على الحق، ولكنَّ الحق المبين لا يكون إلا من عند الله. والرسولُ ﷺ على هذا الحق، وليس أي حق، بل الحق المبين الواضح، فلا تخشَ شيئًا. فكلَّما اتبعتَ الرسول ﷺ قَرُبْتَ من هذا الحق، وبالتالي من هذا التوكل العظيم.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب التاسع: لأنه هو الله الواحد المعبود الذي لا إله إلا هو، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣].

لأنه لا إله إلا هو.. لا معبود بحقٍّ إلا اللهُ جل وعلا، فهو الذي تُؤَلِّهُهُ القلوبُ وتُعَظِّمه، وتعبده وتُحبه، وتخافه وترجوه. فإذا كان هذا المعبود بحق هو الله ﷻ، فلا بد أن يقف جل وعلا لعبيده، ويَدْفع عنهم، وهو الذي يُقويهم ويَرزقهم ويَحْفظهم، إذا كان هو الرازقَ الخالقَ المحيي المميتَ، فلا بد أن يكون هو الإله المعبود، الذي لا إله إلا هو. وإذا كان هو المعبود الذي يعبده الناسُ، ويدعونه، ويُنِيبون إليه، ويَتضرعون إليه؛ فلا بد أنه

هو الذي يعطيهم ويمنحهم ويرزقهم، ويحييهم ويُميتهم، ويحفظهم ويرعاهم ويتولاهم بعنايته. لذلك قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

إذا كان لا إله إلا هو، فكيف يتوكل المرءُ على غيره؟! إذْ ليس ثَمَّ غيرُه إلهًا. لا إله إلا هو الواحد الحق ﷻ، فكيف يَلْوي على غيره، ويرجو غيرَه! وغيرُه ليسوا بآلهة؟.. لا يستحقون عبادةً ولا دعاءً ولا إنابةً ولا خوفًا ولا خشيةً ولا رجاءً؛ لأنهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ولا شيئًا. فالإلهُ الحقُّ هو الذي يجب أن يتوكل عليه العبدُ.. لماذا؟ لأنه يدعوه ويتضرع إليه ويطلب منه، ويصلي له ويسجد ويركع، ويصوم ويحج ويُزكي، وبقية العبادات التي يقوم بها المرء له سبحانه. أَلَا يكون ذلك مَدْعاةً لأنْ تتوكَّلَ عليه هو لا على غيره، فكيف تدعوه وتتضرع إليه وتطلب منه، وتصلي له وتسجد وتركع، وتصوم وتحج وتزكي.. ثم أنتَ تتوكل في أمورك على غيره الذي هو عَبْدٌ مِثْلُكَ يدعوه ويتضرع إليه، ويسجد له، ويتوكل عليه.

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب العاشر: لأنه سبحانه هو الحسيب والكافي، قال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

فالمتوكلون إذا أرادوا أن يتوكلوا، فإنهم يتوكلون على مَن يكفيهم. «حسبي اللهُ» تعني: اللهُ ﷻ يكفيني.

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ..﴾ وهي الآية التي شرحُها في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. فاللهُ ﷻ يكفيك، وإذا كان هو سبحانه الذي يكفيك فعليه توكَّلْ

- ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] - كْفِكَ أمورَ الدنيا وأمورَ الآخرة، وأمور نفسك وأمور الشيطان، يَكْفِكَ أمورَ الهوى والعباد والخلق والرزق والتدبير.. وكلَّ الأمور حتى أمورَ العبادة والتوكل والإنابة.

فيكفيك أنْ تعلم أنك عندما تقول: «حسبي اللهُ»، أنه هو الذي يكفيك، ولا يكفيك أحدٌ غيره، ولا يغفر لك أحدٌ غيره، ولا يقوم بشئونك في الدنيا والآخرة أحدٌ غيره، ولا يُصلحك في الدنيا والآخرة غيرُه، ولا يدفع عنك الضرَّ في الدنيا والآخرة غيرُه. مَن الذي يدفع عن أحد في الدنيا؟.. فإنْ دَفَع في الدنيا فمَن الذي يدفع عنه في الآخرة؟ من الذي يغفر؟ من الذي تُنيب إليه؟ من الذي يَرزق؟ من الذي يُحيي؟ من الذي يُميت؟ من الذي يُوفِّق ويَهدي؟ من الذي يُعْطي ويَشْفي ويَفُكُّ الكربَ ويُقِيل العَثَرات غيرُه ﷻ؟.. لذلك تتعلم حينما تقول هذه الكلمة أن الله تعالى هو الكافي. وستأتي هذه الآية معنا إن شاء الله تعالى في قوله سبحانه في عاقبة التوكل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لماذا يتوكل المرءُ على الله؟..

السبب الحادي عشر: لأنه سبحانه أعظمُ وكيلٍ، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

في هذه الآية الكريمة أمَرَ اللهُ ﷻ نبيَّه ﷺ بالتوكل، حيث إنه ليس هناك وكيلٌ يكفي إلا هو ﷻ، وهي - أي هذه الآية - لا تحتاج إلى كلام، ولكن ضعفُ الإيمان الذي جَلَّ بنا وعدمُ فَهْمِ قضية الإيمان والتوكل هما السببان في أن المرء يَهْلع ويجزع إذا نزل به شيءٌ، ونَسِي أن ذلك كله من الله، وأن الله تعالى هو الذي يرفع هذا الذي نَزَلَ، وأن الله ﷻ هو

الـذي يكفيـه. فعنـدما يقـول المـرء: «حـسبي الله»، ينبغـي أن يمتلـئ قلبُـه إيمانًـا ويقينًـا، وطمأنينةً ورضًا، وتسليمًا وتفويضًا واعتمادًا واستنادًا على الله تبـارك وتعـالى، ويُخْرِج من قلبه سوءَ الظن بربه، ويَثْبُتُ قلبُه عند ملاقاة ذلك، ويَنْشَرِح صدرُه لقضائه وقدره ﷻ. لذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

إذن.. فلماذا يتوكل المرءُ على الله؟

السبب الثاني عشر: لأنه خالق كلِّ شيء، وأنه على كل شيء وكيلٌ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

لذلك فقد قال المولى ﷻ أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢]. فالسماواتُ والأرض له سبحانه: هل لأحدٍ في الأرض شيءٌ؟ وإنْ كان لأحدٍ في الأرض شيءٌ، فمَن الذي له في السماوات شيءٌ.. ومَنْ كان فيها وما كان ويكون، وما يمكن أنْ يَحدث إلى أن تقوم الساعة.. كلُّ ذلك له ﷻ.. فعليه فتوَكَّلْ، لا على غيره، وحينئذٍ تتعلم أنه لا كافي إلا الله. وكذلك الآية الأخرى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

لـمَّا تحقق المؤمنون بتلك الأسباب من أسباب التوكل وَصَلَ بهم إلى هذه الحالة الحسنة، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

وهي تلك الحالة الجميلة التي يحتاجها المؤمنون، وهي: **كيف لا يكون للشيطان عليهم سلطان؟** ولا يكون ذلك إلا بالله تعالى، أي بالتوكل عليه سبحانه، لماذا؟ قال:

لأنه «كفى بالله وكيلًا»، فإذا توكل المرءُ على الله تعالى كان جزاؤه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.. لماذا؟ لأنهم متوكِّلون على الله تعالى.

ويظن المرءُ أن سياق الآية ينبغي أن يكون مثلًا في غير القرآن الكريم: «إن الله كان غفورًا رحيمًا»، أو «قويًّا عزيزًا»؛ لأنه ليس للشيطان عليهم سلطان. ويُفاجأ المرءُ عندما يجد سياق الآية ينتهي بقوله ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.. فلماذا كان خاتمة هذه الآية هكذا؟

والإجابة على هذا السؤال في آية سورة النحل؛ حيث يقول المولى جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

والمقصودُ في هذه الآية الإتيانُ بالتوكل وليس الإيمان؛ لأنه يخاطب المؤمنين، فالمولى سبحانه يُوَضِّحُ لعباده صفةً من صفات المؤمنين، والتي هي من أهم صفاتهم والتي لا يستطيع الشيطانُ بسبب وجودها أن يكون له عليهم سلطان، وهي صفة التوكل. إذن ما الذي يجعل الشيطانَ يَفْقِدُ سُلْطانَه على المؤمنين؟ إنها تلك المَنْزلة العالية، وهي منْزلة التوكل والتي يتفاوت فيها المؤمنون، والسرُّ في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

وفي المقابل بَيَّن اللهُ تعالى عَكْسَ هذه المنزلة العالية فقال في آيات سورة الحجر:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ

﴿ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢]. فهؤلاء الذين لم يتحققوا بتلك المنزلة وتسلَّط عليهم الشيطانُ أولئك الذين اتبعوا الشيطان من الغاوين.

أما في الآية التي نتناولها فقال فيها سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ لماذا؟ لأن هؤلاء المتوكلين قال فيهم المولى ﷻ: إن الشيطان ليس له عليهم سلطان، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾..

فهو لم يتسلط عليهم لأنهم عباد الله المتوكلون عليه ﷻ، ولما كانوا عبادًا له مخلصين وكان توكلهم عليه سبحانه كفاهم بكفايته.. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾.

ثانيًا: التوكل هو حال الرسل وأتباعهم

(أ) توكل النبي ﷺ:

وقد وضحته الآيات الكريمات والأحاديث، فنبدأ بما ورد عن صفة النبي ﷺ، فهو إمام المتوكلين وسيدهم عِلمًا وحالًا حتى سماه المولى ﷻ: «المُتَوَكِّل»..

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: «**لَقِيتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رضي الله عنهما - قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي التَّوْرَاةِ.**

قَالَ: أَجَلْ، وَالله إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو

وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حتى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ؛ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[1].

وأما الآيات، فقوله تعالى:

(١) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

(٢) ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما [٢١٢٥]، وأخرجه أيضًا بنحوه [٤٨٣٨] . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث ما حاصله: «(وَحِرْزًا) أَيْ: حِصْنًا، وَ(الْأُمِّيِّينَ) هُمْ الْعَرَب، قَوْله: (سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّل) أَيْ: عَلَى اللهِ؛ لِقَنَاعَتِهِ بِالْيَسِيرِ وَالصَّبْرِ عَلَى مَا كَانَ يَكْرَه. قَوْله: (بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظ) هُوَ مُوَافِق لِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قَوْله: (وَلَا سَخَّاب) كَذَا فِيهِ بِالسِّينِ الْمُهْمَلَة، وَهِيَ لُغَة أَثْبَتَهَا الْفَرَّاء وَغَيْره، وَبِالصَّادِ أَشْهَرُ. و«السَّخَب» وَ«الصَّخَبُ» وهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْخِصَامِ. قَوْله: (وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَة بِالسَّيِّئَةِ) هُوَ مِثْل قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. قوله: (وَلَنْ يَقْبِضه) أَيْ: يُمِيته. قَوْله: (حَتَّى يُقِيم بِهِ) أَيْ: حَتَّى يَنْفِيَ الشِّرْكَ وَيُثْبِت التَّوْحِيد وَالْمِلَّةَ الْعَوْجَاء مِلَّةَ الْكُفْر. قَوْله: (فَيَفْتَح بِهَا) أَيْ: بِكَلِمَةِ التَّوْحِيد (أَعْيُنًا عُمْيًا) أَيْ: عَنِ الْحَقّ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ... وَكَذَا الْكَلَام فِي الْآذَان وَالْقُلُوب» اهـ. انظر - باختصار وتصرف: «فتح الباري»، شرح الحديثين [٢١٢٥]، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله. قال ابن منظور رحمه الله في اللسان: «**الفَظُّ**: الخَشِنُ الكلام، وقيل **الفَظ**: الغليظ» اهـ من مادة: [ف ظ ظ]. وقال أيضًا: «**الغِلَظُ**: ضدّ الرِّقَّةِ في الخَلْق والطَّبْع والفِعْل والمَنْطِق والعيْش.. ونحو ذلك. و**غَلُظَ**، يَغْلُظ، غِلَظًا: صار غَلِيظًا» انتهى من مادة: [غ ل ظ].

(٣) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

(٤) ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

(٥) ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي الحديث من قول ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[(١)].

(ب) توكل الأنبياء عليهم السلام:

عن نوحٍ عليه السلام جاء قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

فقد واجه نوحٌ عليه السلام قوةً غاشمةً؛ كثيرةَ العدد والعُدَّة، وهو على العكس من قلة العدد وضعف العُدَّة، ومع ذلك يقول لهم: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

وعن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: [٤٥٦٣] موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذه الآية من أعظم الآيات الدالة على صدقِ الرسل. كيف يقوم رجل واحد أمامَ هذه الأمة العظيمة لِيُسَفِّهَ أحلامَهم، ويَسُبَّ أصنامهم، ولِيتحداهم جميعًا أن يَكيدوه ولا يُنظروه، ولا يُمهلوه، بل يعاجلونه العقوبة ولا يمنعهم عن ذلك مانع، ولكنه منتصرٌ عليهم، وممنوع بالله تعالى وممنوع بحسن توكله عليه. وفي ذلك أعظم الدليل أن قائل ذلك الكلام – هود عليه السلام – نبيٌّ مرسَلٌ من عند الله تعالى. وقد سبق أن تناولناها بالتفصيل في دروس توضيح شرح العقيدة الطحاوية[1].

وعن شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وذلك لما قالوا: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. فهو عليه السلام ليس خائفًا منهم، بل هو يريد الإصلاح. وفيها كذلك الافتقار إلى الله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

فينبغي أن تكون هذه الآياتُ كلُّها هي حالَ أهلِ الإيمان؛ في الدعوة، والتوكل، ونُصرة الدين لله جل وعلا. وينبغي عليهم أن يعلموا أنهم:

أولًا: يريدون الإصلاح.

ثانيًا: لا يخافون الظلم ولا الظالمين.

---

(١) في الدرس الخامس من هذه السلسة، والدرس متوفر صوتيًا على موقع طريق الإسلام ومواقع أخرى على الشبكة العالمية (الإنترنت).

ثالثًا: أنهم لاجئون إلى الله، وتوفيقُهم به سبحانه، لا يُهمهم سوى القيام بها أمرهم به الله، ويقومون بكل ذلك توكلًا على الله، ويكون ذلك سببًا لنصرتهم وكفايتهم وتأييدهم وتوفيقهم وكفايتهم وكَفِّ أعدائهم عنهم، ولا يقوم لهم أحد؛ لأن العاقبة في نهاية المطاف للتقوى وللمتقين.

رابعًا: أنهم لا يتزحزحون عن إرادة الإصلاح، ولا يُقَصِّرُون في طلب هذا الإصلاح دعوةً إلى الله تعالى، وسلوكًا إليه، ونصرةً لدينه بكل ما يستطيعون، وما توفيقُهم في هذا الأمر إلا بالله سبحانه كما قال شعيب ﷺ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ويقول لهم شعيب ﷺ كذلك فيما ورد عنه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وسيدنا شعيب ﷺ هو خطيب الأنبياء؛ وهذه الكلمات الجميلة القوية التي قالها تُبَيِّن ملامحَ الدين والدعوة إلى الله تعالى وعواقبها، وتبين ما يتعلق بها من أولها إلى آخرها، وقد اكتملتْ فيها كل ملامح وأصول الدعوة إلى الله تعالى: سواء أكانت في الداعي أمْ في مَن يدعوهم إلى الله تعالى، أمْ في وسائل الدعوة، أمْ في الدعوة نفسها والثبات عليها؛ إذ هي دعوة التوحيد.

وهذه الآية تُثير التساؤل لمن يقرأها: وهل كان سيدنا شعيب ﷺ على مِلَّتِهم؟ ألم يقل: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾؟ وإلا فكيف يقول سيدنا شعيب ﷺ هذه المَقُولةَ؟

الجواب: لا.. لم يكن شعيبٌ ﷺ في مِلَّتِهم، بل كان خطيبَ قومه، فهو يتكلم بلسانهم. فلم يكن شعيب ﷺ كافرًا، ولم يبعث الله نبيًّا كان على الكفر أبدًا، ولكنه ﷺ كان المتحدثَ باسم الذين آمنوا؛ يتحدث بلسانهم، فيقول للكفار: لا يجوز لهؤلاء أن يعودوا في ملتكم وقد نجاهم الله منها.

التوكل هو حال الرسل وأتباعهم، ويجب أن يكون حال المؤمنين اليوم، وعليهم أن يتفكروا في هذه الآيات التي ذكرها رسلُ الله عليهم الصلاة والسلام حالَ إعلانِهم التوكلَ على الله، ومُجابهتِهم للظلمة والكفرة بأنهم متوكلون على الله، وأنهم لا يخافون منهم شيئًا.

وعن يعقوب ﷺ: ﴿وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذلك في قصة يوسف ﷺ، في سورة يوسف لما فُقِدَ يوسف ﷺ وأُخِذَ ابنُ يعقوبَ ﷺ الآخرُ، وسَيُشَار إليها في الأمر بالتوكل والكلام عن الوكيل سبحانه.

أما قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فمعناه: أنه من أراد أن يتوكل فليتوكل على الله سبحانه، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء الخاص بأسباب التوكل على الله.

وعن إبراهيم ﷺ: قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ **قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

وكذلك ذكر اللهُ ﷻ عن إبراهيم عليه السلام وأتباعه في مجابهة قومه قولَه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

وعن موسى عليه السلام وقومه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

فبَيَّنَ ﷻ أن التوكل هو حال الرسل عليهم الصلاة والسلام، وحال أتباعهم المؤمنين الكرام، فكان موسى عليه السلام هو إمام قومه وأسوتهم في التوكل.

والآية الجامعة في توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

فهذا قول الرسل وحالهم كافةً - وإن ذُكر عن بعضهم - ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقد ذكر المولى سبحانه التوكلَ عن النبي ﷺ وأتباعه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

كان العكس ينبغي أن يحدث، أي أنَّه عندما يشتد الحال ويقسو الكفار والظالمون على المسلمين، وتضيق الدنيا عليهم، كان السياق يستدعي أن يَؤُول أمرهم إلى الدمار أو الهَلَكَة، أو الخوف، ولكن جاءت الإجابة: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وذلك لحسن توكلهم، ويقينهم على مولاهم ﷻ.

فقالوا: إن اللهَ جلَّ وعلا يكفينا ولو اجتمعت علينا الدنيا والآخرة والجنُّ والإنس وكلُّ أحد. لهذا جاء هذا المعنى في أصحاب النبي ﷺ، وهذه دعوة القرآن الكريم. فينبغي أن يكون أتباع الرسل على هذه الحالة الحسنة التي أشارت إليها الآيات. لماذا؟ الإجابة في الجزء الأول أو العنوان الأول من هذا الموضوع وهو أن الوكيل هو الله ﷻ.

ثالثًا: التوكل متعلِّق بالإيمان:

الإيمان من ثمراته التوكل، وعلى قدر الإيمان على قدر ما يكون التوكلُ على الله تعالى أو الهلع والجزع الذي نراه في أحوالنا، لذلك قال تعالى:

١ - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، [التغابن: ١٣].

٢ - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

٣ - ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

فهذه الآيات تبين علاقة الإيمان بالتوكل، وأنه عندما حَضَّهُم ﷻ على التوكل أثار فيهم قضيةَ الإيمان، يعني كأنه يقول لهم: «إن كنتم آمنتم بالله فتوكلوا عليه؛ لأنَّ التوكل دليل الإيمان ومرتبط به»، وأنَّ الضعف الذي نحن فيه إنما هو ضعفُ التوكل على الله، والاستنادِ، والتفويضِ، وتسليمِ الأمر إليه. فمقتضى التوكل أنْ تُسَلِّم إرادتَك إلى إرادته

ﷻ، وتصرفَك إلى تصرفه ﷻ، وأن يدبر هو جل وعلا لك شأنك، وأن يقوم على أمورك وأحوالك، وأن تعتقد في ذلك الاعتقادَ الجازم، وأن تعتقد أنه يُدبر لك ويقضي لك ويُهيِّئ لك أفضلَ ما يمكن أن يكون لك، وأن يقوم لك بأشغالك... إلى آخر ذلك، وذلك دليل الإيمان. فضعفُ التوكل دليلُ ضعف الإيمان، وأننا في درجات الإيمان الدنيا، والتي لا يصدر منها حُسن التوكل، ولا التفويض، ولا التسليم، بل التي يصدر منها الاعتراضُ على الله تعالى، وعدم الرضا بقضائه، ويقول المرء منا: «أنا متوكل على الله»، وكَذَب! فلو تَوَكَّل على الله لرضي بما فعل اللهُ، كما ذكرنا من قبل.

رابعًا: عاقبة التوكل:

أشار القرآن الكريم إلى عاقبة التوكل حتى يَحْمِلَ المؤمنين على التوكل والإيمان بالله تعالى، فذكر هذه العواقب:

العاقبة الأولى: الكفاية من الله تعالى للمتوكلين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. فأَعْظِمْ بالكفاية من شيءٍ، ولكنَّ القلوب لم تصل بعدُ إلى هذا المعنى.

العاقبة الثانية: محبة الله تعالى للمتوكلين: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

العاقبة الثالثة: ما عند الله خيرٌ وأبقى لهم: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

العاقبة الرابعة: أنَّ أجرهم أعظم الأجر بإضافة الصبر لهم: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

العاقبة الخامسة: أنَّ الشيطان ليس له عليهم سبيل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، فلا سلطانَ للشيطان على المتوكلين من المؤمنين.

فإذا نظرتَ لهذه الآيات وجدتَ تكامُلَ العاقبة الحسنة من الله تعالى للمؤمنين، فكلُّ الخيرات والعواقب الحسنة قد جمعها اللهُ تعالى لهم: فليس للشيطان عليهم سلطان، وإذا توكلوا على الله في الدنيا كفاهم همومَهم من أولها إلى آخرها، وإذا توكلوا عليه في العبادة وفي أمور الآخرة كذلك كفاهم أمور الآخرة، ثم رزقهم محبتَه ﷻ جزاءَ توكُّلِهم عليه، وأعظمَ الأجرَ لهم في الأولى والآخرة؛ فلا للشيطان عليهم سبيل، واللهُ حسبهم وكافيهم في الدنيا والآخرة.



الفصل الثالث

الشرح التفصيلي لبعض الآيات الواردة في معاني اسم الله « الوكيل »

وبعد هذا العرض الإجمالي للآيات نورد تفسير بعض الآيات بشيء من التوضيح والتفصيل.

أولًا: قوله تعالى:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]..

الملاحِظ يجد أن «**فتَوَكَّلْ**» ليست جوابَ الشرط لـ«**فإذا عَزَمْتَ**»، ولكنَّ جواب الشرط محذوفٌ، والتقدير: «إذا عزمتَ على أمرٍ فبادِرْ ولا تتردد حتى لا يفوتَ الوقتُ ولا يفوت الخير، وكُنْ في مبادَرَتِك هذه متوكِّلًا على الله تعالى»، وهنا يظهر معنيان:

الأول: المبادرة للأمر مع الأخذ بالأسباب.

الثاني: التوكل على الله سبحانه مع الأخذ بالأسباب، والدليل على أن «**فتَوكَّلْ**» ليست جوابًا لـ«**فإذا عزَمْتَ**»: أنها لو كانت جوابًا لها لَـمَا كان للشورى المأمورِ بها في الآية فائدةٌ، قال تعالى:

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]..

ولأنَّ التوكلَ علامةُ صِدْقِ الإيمان.

وفي التوكل ملاحظةُ عظمة الله وقدرته، لذلك فالعبدُ يتوكل عليه ﷻ، ويعتقد في نفس الوقت ضرورةَ الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، فهو يتوكل على الله سبحانه لأن:

- العبد محتاجٌ إلى الله تعالى.
- اللهُ سبحانه عظيمٌ قادر، إذا توكل عليه العبدُ كفاه ﷻ.

وهذا أدبٌ عظيم مع الخالق جل وعلا، يدل على محبة العبد لربه، فكان جزاؤه محبة الله له، فالمتوكلون أحبوا اللهَ تعالى لأنهم لجئوا إليه وعلموا أنهم غير مُستغنين عنه سبحانه، وفي نفس الوقت علموا عظمةَ الله تعالى وقدرة الله تعالى ورحمة الله تعالى بهم، واستيقنوا من ذلك؛ فدل ذلك كله على صدق إيمانهم به: أي دل على محبتهم له، وأنهم تَوَجَّهوا إليه بهذا التوكل لمحبتهم له، واعتقادهم في ربهم أنه هو قوي قادرٌ، وسيكون لمصلحتهم، مع صدق إيمانهم في كونه يمكن أن يقوم لهم بذلك كله، فكان جزاؤهم من الله تعالى على هذه المحبة التي أحبوها لربهم أن الله تعالى أحبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثانيًا: قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦]..

وهذه الآية اختصصناها بمزيد من التفصيل لأنها تجمع كثيرًا من المعاني التي أشرنا إليها في قضية التوكل، فهي تُبيِّن الأمرَ بالتوكل، وتبين كذلك أنَّ التوكل متعلق بالإيمان والإسلام، وتبين ثالثًا عاقبة التوكل الحسنة..

ونشرع إن شاء الله في تفصيل شرح الآية[1]:

---

(١) انظر - بتصرف كثير جدًا: تفسير «التحرير والتنوير» للعلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله، تفسير الآيات من الرابعة والثمانين حتى السادسة والثمانين من سورة يونس.

لـمَّـا أرسـل المـولى ﷻ موسـى ﷺ لقومـه ولفرعـون ولِـمَلَئِهِمْ، فـما آمـن مـن قـوم موسى – كما ذكر الله تعالى – إلا ذريةٌ من قومه، وآمنوا كـذلك عـلى خـوفٍ مـن فرعـون وملئهم أن يفتنهم، لماذا؟ قال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، فلما حدثتْ هذه القصة وآمن مَن آمن من ذرية هؤلاء القـوم مـن بني إسرائيـل خـاطَبَهم موسى ﷺ قائلًا: ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

والغرضُ من هذا الخطاب الـذي خاطـب بـه موسـى ﷺ هـؤلاء المـؤمنين: تثبيتُ الذين آمنوا في حَضْرة فرعون على توكلهم، وأَمْرُ مَن عـاداهم – الـذين خـاف ذريـتهم أن يُؤَنِّبُوهُم على إظهار الإيمان – بألا يُجَبِّنُوا أبناءَهم، وألا يخشوا فرعون، ويستفاد من ذلك:

أولاً: تثبيت الذين آمنوا في حضرة فرعون

فعندما قامت دلائلُ صحة نبوة موسى ﷺ أمام فرعون آمَنَ بعضُ قومـه، ولكـنهم آمنوا وفي قلوبهم خوفٌ من فرعون أن يَفْتِنَهم..

والفتنـةُ في الـدين تعنـي: أن يكفـروا مـرةً أخـرى، أو أن يَحمِلَهـم عـلى الإشراك والرجوع بالتهديد والوعيد، كما فعل في السَّحَرة؛ فإنهم لـمَّـا آمنوا وتوكلـوا عـلى ربهـم قالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: لا يُهِمُّنا ما تفعل بنا، فكانوا كفرةً في أول النهار، وكانوا شهداءَ في آخر النهار، لما صَلَّبهم في جذوع النخل! فالغرض من هذا الأمر ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾: تثبيتُ الذين آمنوا، وهذا المعنى نذكره حتى يفهم الناسُ أن المؤمنين لا يُثَبِّتهم على إيمانهم إلا التوكلُ بالله تعالى، وهذه هي الفائدة الأولى.

والثانية: أنَّ التوكل ينزع الخوف

فقد أَمَرَ مَنْ عاداهم - وهم الذين خافوا أن تؤنبهم ذريتُهم على إظهار الإيمان - ألَّا يُجَبِّنُوا أبناءَهم أو يخشوا فرعون، فالخطابُ للطائفتين: الطائفة التي آمنت، والطائفة الخائفة، والتي قال فيها المولى ﷻ: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

هذه الذرية آمنتْ بموسى، ولكن على خوفٍ من فرعون وملئهم أن يُؤَنِّبوهم: لماذا أظهرتم هذا الإيمان أمامَ فرعون؟ لماذا أشهرتُم إسلامَكم أمامه؟ فإن ذلك سببٌ في قتلكم، وسببًا في أن يزيد عليكم العذاب، وأن يزيد عليكم كذا وكذا مما تعرضْتُم له من الأذى - كما ذكر الله تعالى - كان يمكن أن تؤمنوا، ولكن أَخْفَوْا هذا الإيمان حتى لا يكون سببًا للإيذاء، وسببًا للتعذيب، وسببًا للمشاكل.

فوَجَّه موسى عليه السلام خطابًا للطائفتين - الذين آمنوا، والذين حاولوا أن يُجبنوا أبناءَهم: يعني أن يكون أبناؤهم هؤلاء جُبناء - بأن يُظهروا إيمانهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، يعني: إنْ كنتم آمنتم، فدليلُ هذا الإيمان هو التوكل على الله، أي: إن كنتم آمنتم بالله حقًا - وهذا الذي أظهرَتْه أقوالُكم - فعليه اعتَمِدوا في نَصرِكم، وفي دَفْع الضر عنكم، ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بأن تُصانِعوا فرعونَ وأن تُداهِنوه، ولا تعتمدوا على إظهار الولاء لهذا الفرعون. فأراد موسى عليه السلام بهذا القول أن يُثير فيهم حميَّة صدق الإيمان، وأن يُلْهِب قلوبَهم بجَعْل إيمانهم مُعلَّقًا بهذا الشرط: وهو الإيمان، ثم بشرطٍ محتمَّل وقوعُه.. لماذا؟ لأنهم تخوفوا من فرعون وملئِهم أن يفتنهم، فأرادوا أن يكتُموا إيمانهم تقيَّةً من فرعون وملئهم، ولذلك أمرهم موسى عليه السلام بالتوكل، وجَعَل عَدَمَ اكتِراثِهم ببَطْش فرعون علامةً على إيمانهم، يعني كأنه قال لهم:

«لا.. تَوَكَّلوا، وأَظْهِروا إيمانكم، وأنتم.. لا تُجبِّنوهم في أن يُخْفُوا إيمانَهم تقيَّةً من فرعون، وخوفًا منه، وأَظْهِروا عدمَ الاكتراث بفرعون، وعدمَ الاكتراث بالخوف منه، وبإيذائه، وبتعذيبه؛ وهذا علامة على إيمانكم..». وذلك لأن الدعوة في أول أمرها لا تَتقوَّى إلا بأنْ يُظْهِر مُتَّبِعُوهَا هذا الإيمانَ، فلا تُغْتَفر فيها التقيةُ.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ قدَّم المجرور وهو: «فَعَلَيْهِ»، ولم يقل: «تَوَكَّلوا على الله» أو «فتوكلوا عليه»؛ لإفادة القصر، يعني: «توكلوا على الله وحدَه، لا على غيره، لا تخافوا»، وذلك لَـمَّا قالوا: «نحن خائفون»، والآخرون يؤنِّبونهم لإظهارهم الإيمان كما أشرنا في قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ﴾. فقال لهم موسى عليه السلام: «لا، فعلى الله توكلوا»، يعني: لا تخافوا. وهذا معنى سياق الكلام، فلم يقل لهم: «لا تخافوا» مباشرةً، ولكن قال لهم: «توكلوا على الله لا على غيره»؛ ليكون ذلك سببَ عدمِ الخوف، لماذا؟ لأنه لو قال لهم: «لا تخافوا» فقط، لم تكن هناك فائدة، فالخائفُ خائفٌ فلن تؤثِّر فيه، وإنما لَـمَّا أَلْهَبَهُم بصِدْق الإيمان، وأظهر لهم أن التوكل على الله تعالى سببٌ في النجاة، وسببٌ في اللجوء إلى القوة التي لا تُقهر، كان ذلك تقويةً لإيمانهم، وإثارةً لذلك الإيمان فيهم، ويلهب عاطفتهم في أن يستمسكوا بأمر الله تبارك وتعالى؛ لأنهم متوكلون على الله لا على غيره، لذلك قال: فعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين.

ولكن لماذا جاء قوله سبحانه في ختام هذه الآية: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾؟

الجواب: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ شرطٌ ثانٍ مؤكِّدٌ للشرط الأول، وهو: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

يعني: إنْ كنتم مؤمنين بالله، مسلمين له حقًّا، قد استَسْلَمْتُم لرب العالمين؛ فعليه تَوَكَّلوا.. هو يَقِيكُم وهو يَحفظكم، وعليه تَوَكَّلوا.. لا تخافوا من غيره، وعليه توكلوا.. هو القويُّ القاهر ﷻ.

فحَصَل من مجموع الجملتين: أنَّ حصول هذا التوكل متوقِّف على حصول إيمانهم وإسلامهم. لماذا الإيمان والإسلام معًا حتى يحدث التوكل؟! الجواب: حتى يحدث الاهتمامُ بقضية التوكل، فلما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ بَيَّنَ لهم خطرَ التوكل وقيمته إيمانًا وإسلامًا: إن كنتم مسلمين.. إن كنتم مؤمنين؛ فعليه توكلوا. وليبين لهم في نفس الوقت عاقبة هذا التوكل: أن الله تعالى يكفيهم. فهل كفاهم ربهم أم لا؟ وهل حصلت لهم عاقبة التوكل أم لا؟

ولتعرف جوابَ هذا تأمَّلِ الآيات التي جاءت بعدها:

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] الذين ذكَّرهم سيدنا موسى ﷺ في بداية الآيات قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾. وفي آخر الآيات تمنى فرعونُ أن يكون منهم! وذلك لِيُبَيِّنَ لهم الربُّ جل وعلا هذه العاقبةَ الحسنة.

وقد أشرنا إلى هذا المعنى فيما سبق، وعرفنا لماذا قال لهم: «مؤمنين»، و«مسلمين»؟ وذلك لمزيد الاعتناء بالتوكل، وأن التوكل ملازِمٌ للإيمان والإسلام. ولا يكون المرء قد استسلم لله وآمن به إلا وهو متوكِّلٌ عليه.. يعلم شيئًا من قَدْر ربِّه ﷻ في قوته وقدرته ومنعته وعزته ورحمته وحكمته.. إلى آخر ما ذكرنا.

إذن قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: إن كان إيمانُكم إيمانَ مُسْلمٍ لله تعالى.. إيمان مُخلِصٍ له، غير شائبٍ هذا الإسلام ولا يَشُوبه ترددٌ في قدرة الله تعالى، ولا ترددٌ في أن وعد الله حق، وأنه سينصرهم. إنْ كنتم كذلك فعليه توكَّلوا.

والآن هذا الكلام كما كان لهم فهو لنا أيضًا: هم توكلوا فنجَّاهم المولى ﷻ، وواجبٌ علينا أن نتعلمَ التوكل حتى يكون سببًا للنجاة، ونتعلمَ التوكل حتى يكون سببَ الثبات على دين الله تعالى، ونتعلمَ التوكل ليكون سببَ محبة الله جلَّ وعلا.

قالوا في هذه الآية: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾. وتجد هذه الآية مُعَقَّبةً بالفاء للتعقيب على سرعة استجابتهم لأمر موسى ؏.. لم يترددوا، فبمجرد أن قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ قالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ مباشرةً، وهي الجملة الجميلة التي ينبغي أن تكون لنا بعد أن كانت لهم، وقد كان صادقُ إيمانهم مع نور الأمر النبوي الذي واجَهَهم به نبيُّهم ؏، مُسْرِعًا بهم إلى التجرد عن التخوف والمصانعة وإلى عقد العزم على التوكل على الله تعالى.

فكان إذًا السببُ الذي أسرع بهم إلى التوكل:

أولًا: صِدْقُ إيمانهم مع نور الأمر النبوي. يعني: كان صِدْقُ الإيمان منهم، ونورُ أمر النبوة لهم بالتوكل على الله، كان ذلك مسرعًا بهم إلى التجرد عن الخوف والمصانعة، ومسرعًا بهم إلى عَقْدِ العزم على التوكل على الله تعالى. لذلك بادروا بجوابه قائلين: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: على الله لا على غيره توكلنا، وخرج التجردُ والمصانعة والخوف، وظهرت المسارعة والمبادرة إلى التوكل عليه.

وبعد ذلك ذَيَّلوا قولَهم ذلك - هؤلاء المؤمنون - بعد أن قالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، باللجوء إلى الله لا إلى أنفسهم، فقالوا: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهنا عدة معانٍ جميلة في الآية:

المعنى الأول: أنهم ذيَّلوا كلمتَهم بالتوجه إلى الله ﷻ بسؤالهم منه أن يَقِيَهم ضررَ فرعون. لم يعتمدوا على أنفسهم، ولا على قوتهم، ولا على عِلمهم، ولا على فهمهم، ولا عَدَدهم ولا عُدَّتهم، ولكن تجردوا إلى الله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، فكان النصرُ حَلِيفَهم.

والمعنى الثاني: أنهم أَعْقَبوا هذه المقولة بهذا السؤال لله تعالى بأن يَقِيَهم ضرر فرعون ناظرين - وهذه المسألة المهمة التي ينبغي أن ينظر فيها المسلم - إلى مصلحة الدين لا مصلحة أنفسهم؛ لأنهم إنْ تَمَكَّن الكفرةُ من إهلاكهم أو تعذيبهم قَوِيَتْ شوكةُ أنصار الكفار، فيقولوا: «لو كانوا هؤلاء مسلمين لم يحدث لهم ما حدث، ولو كانوا مؤمنين على الحقيقة لم يكن ليُفعل ذلك بهم، لو كانوا كذا، لو كانوا كذا..»، فيكونوا سببًا في فتنة الناس، فيُفْتَتَنُ بذلك عامةُ الكفرة، ويظنون أن دينهم هو الحقُّ؛ لذلك نظروا إلى مصلحة الدين.

والمعنى الثالث في قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾، أي: نَجِّنا برحمتك لا بشيء آخر، فهذا تبرؤٌ منهم أن يَمُنُّوا على الله تعالى بالإيمان، كأن يقولوا: نَجِّنا بسبب الإيمان والتحمل والتعذيب والثبات.. لا لم يقولوا ذلك، بل قالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ تَبَرُّءًا من الإدلال بإيمانهم؛ لأن المنَّة لله ﷻ عليهم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وهناك من يظن أن الفتنة بمعنى أن فلانًا يَفْتِنَ على فلان!! لا، بل الفتنة المذكورة في الآياتِ المقصودُ بها الكُفر، لذلك قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. وليس المقصود منها أنَّ الناس ينقلون الأقوال والأفعال عن بعضهم كما يحتج الناس على بعضهم بهذه الآية، وإنما المقصود بها: أن الفتنة في الدين أشدُّ من القتل؛ لأنه لو قُتِلَ وهو مسلم أخفُّ من أنْ يُفتن في دينه فيموت كافرًا.

ونشرح آية أخرى من آيات التوكل، في نفس السياق أيضًا وفيها كثير من المعاني المتعلقة بما أشرنا إليه.

ثالثًا: قوله تعالى:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢]..

ونبدأ بجملة التوكل التي هي مقصودنا من هذه الآية، وهي في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. فهذه الآية كذلك تُبين أن التوكل هو حال الرسل عليهم السلام وأتباعهم، وأنه - أي: هذا التوكل الذي نتكلم عليه في أحوال الرسل وأتباعهم - هو ما يعنينا في أن يكون الوكيلُ لنا هو اللهَ جلَّ وعلا، وكيف ندعوه بذلك؟ وكيف نُوَحِّدُه به؟ وكيف يأخذ المرءُ حظَّه من هذا التوكل؟ كما هي العادة التي نسير عليها في شرح الأسماء الحسنى.

وجملة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: المِنَّةُ من الله تعالى على عباده وليست مُتوقِّفة على شيءٍ.

ولكن لـمَّا قال الكافرون:

- أَيَبْعث اللهُ رسلًا بشرًا من الناس يكونون رسلًا له إلى الناس ليؤمنوا به؟

قالت لهم الرسل:

- نعم، نحن بشر، ولكنَّ الله يَمنُّ على مَن يشاء بالنبوة والرسالة؛ لأنه لا حدَّ لفضله جلَّ وعلا، وأنه لا رادَّ لقدرته وقوته.

وهذه الأولى..

والثانية، لـمَّا قال الكافرون:

- كيف تكونون بشرًا مثلَنا ورسلًا في نفس الوقت؟ فأْتوا لنا بسلطان وبحُجة، أو بيِّنَاتٍ وآياتٍ حتى نؤمن لكم.

قالت الرسل عليهم السلام:

- لا؛ نحن لا نأتي بآياتٍ بأهوائنا، بل لا نتمكن من أن نأتي بآيةٍ واحدة.

وقومُ ثمود وقوم عاد تَعنَّتوا في طلب الآيات من رُسلهم، حتى كفار قريش تعنتوا مع النبي ﷺ كما ذكر الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فقالوا: «أو ترقى في السماء»، وبعد أن تصعد إلى السماء: فلن نؤمن حتى تصعد وتعود وتُلقي إلينا كتابًا نقرَؤُه!!

قال الرسل - عليهم السلام - في الردِّ على هؤلاء: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وهي الجملة التي نبدأ الشرح فيها.

يقول المولى ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، هذا أمرٌ للمؤمنين بأن يتوكلوا على الله تعالى، أي: توكلوا على الله أيها المؤمنون.

فهو أمر لمن آمن من قومهم - أي: من قوم الرسل - بالتوكل على الله ﷻ. والرسلُ مقصودون بذلك قصدًا أَوَّلِيًّا، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، لأن الرسل هم أَوَّل المؤمنين بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

ولما كان حصولُ إِذْنِ الله تعالى بتأييد الرسلِ بالحُجَّة غيرَ معلومِ الميقات ولا مُتَعَيَّنِ الوقوع، وكانت مدةُ ترقُّبِ ذلك مَظِنَّةَ تكذيبِ الذين كفروا رُسُلَهم تكذيبًا قاطعًا، وتوقع الرسل أذاة قومهم شأن القاطع بكذب من زعم أنه مرسل من عند الله، ولأنهم بدؤوهم بالأذى كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾. ونفصل شيئًا مما سبق من المعاني.

المعنى الأول: الرسلُ يَدْعُون إلى الله تعالى، ثم يأتي الكفارُ من قومهم فيقولون لهم: «نحن نريد آيةً تدل على صِدق هذه الرسالة التي تدَّعون أنكم مرسلون بها من عند الله».

والرسل - عليهم السلام - ليس في أيديهم شيءٌ.. لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات من عند أنفسهم، ولا أن يأتوا بها على حسب أهواءِ أقوامهم، وهم - عليهم السلام -

لا يعلمون أن الآيات آتيةٌ أم لا، وكذلك إن كانت آتيةً فهم لا يعلمون متى تأتي هذه الآيات؛ لأن هذه الآيات عند الله تعالى، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

فقد تأتي الآياتُ ولا يؤمن بها قومُهم ويَظَلُّون على كفرهم كما كانوا قبل مجيء الآيات. لذلك، فليس بأهوائهم وطلبهم أن يُؤْتِيَهم اللهُ الآياتِ: كُلَّما طلبوا منه آيةً أن يعطيها إياهم، إنما يأتي اللهُ تعالى بهذه الآيات على قدر المصلحة التي يعلمها ويُقَدِّرها ﷻ، ويأتي بالآيات في الميقات المحدَّد الذي تكون فيه الآياتُ صالحةً لذلك؛ وهذا هو المعنى الأول.

والمعنى الثاني: قد أشرنا في المعنى الأول أن ميقاتَ إتيانِ هذه الآيات غيرُ معلوم، ولا هي متعيِّنة الوقوع: الكفار يريدون آيات، والمولى ﷻ لن يُنزل عليهم آيات! فإن آمنوا فلأنفسهم، وإن كفروا فعليها.

وهذه الفترةُ التي بين سؤال الكفار لرسلهم بإتيان الآيات وبين مجيء الآيات فترةُ تَرَقُّب، ومُدَّةُ الترقب لهذه الآيات هي مدةُ الأذى التي يؤذي فيها الكفرةُ الرسلَ وأتباعَهم؛ يسألونهم بسخرية وتَهكُّمٍ: «أين الآيات؟»، فينتظرون هذه الآيات، فلا تأتي الآيات، فيقولون: «هذا كذب»! كما قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فمَن الذين استَيْئَسُوا؟ الجواب: الرسل.

ومِمَّ استيئسوا؟ من إيمان قومهم.. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، أي: الكفرةُ أنفسُهم هم الذين ظنوا أن الرسل قد كُذِبوا، أي أنهم يقولون: «أين الآيات؟..» ولا تأتي الآيات! فأنتم كذَّابون.. لا يوجد آيات، ولا هناك رسلٌ ولا شيءٌ. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أي: ظنَّ الكفرة ذلك. ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾.. يعني أنهم قد وصلوا إلى اليأس من إيمان قومهم، وظنَّ قومُهم أنه ليس هناك آياتٌ ولا شيءٌ سيأتي.. ولا الإنذاراتُ التي أنذرهم الرسلُ ستَقَع.. ولا الهلاكُ الذي بشَّر به الرسلُ أنه سيقع بهم.. وأنَّ كل ما جاءهم به الرسلُ إنما هو كذبٌ عليهم. ففي مدة الترقُّب هذه التي يَنتظِر فيها الكفرةُ يقولون ذلك، ويؤذون أهل الإيمان ورسلَهم.

فكانت مدةُ ترقب ذلك العذاب هي مظِنَّةُ تكذيب الذين كفروا رسلَهم تكذيبًا قاطعًا. يقول الكفار: «ليست هناك آيات، ولستم رسلًا، ولم يستجب اللهُ لكم، ولم يُنَزِّلْ شيئًا..»، وفي هذه الفترة – مدة الترقب – يتوقع الرسلُ زيادة الأذى من قومهم. كلُّ مدة بسيطة يسألهم الكافرون: «أين الآيات؟.. أنتم كذبة»، ويقومون عليهم، كما هو حال الكافرين مع المرسلين وأتباعهم من الإيذاء والتعذيب والتشريد والإخراج من ديارهم.

وفعلًا قد بَدَؤوهم بالأذى في قوله تعالى: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾. فأظهر الرسلُ لقومهم أنهم غير غافلين عن أنَّ كل ذلك سيقع، وأنهم يتلقون ما عسى أن يواجههم به المكذبون من أذًى بتوكلهم على الله.

ولما كان حصولُ إذن الله تبارك وتعالى بتأييد الرسل غيرَ معلوم الميقات وغيرَ متعيَّن الوقوع، وكانت مدةُ ترقب ذلك مظِنَّةَ الذين كفروا لرسلهم أن يكذبوهم، وتَوَقَّعَ الرسلُ

أذاةَ قومهم في هذه المدة، قالوا لهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ .. لأنهم – أي: الرسل وأتباعهم – يتلقون ما عسى أن يُكَذَّبُوا من أذى في هذه الفترة بتوكلهم على الله، هم ومَن آمن معهم.

فابتدأ الرسلُ – عليهم السلام – الكلامَ بأن أمروا المؤمنين بالتوكل، تذكيرًا لهم؛ لئلا يتعرض إيمانُهم إلى زعزعة الشك، وحرصًا على ثبات المؤمنين. فأظهر الرسلُ عليهم السلام – لما قالوا ذلك لقومهم – أنهم هم ومَن آمن معهم يواجهون تكذيبَ وأذى الكفرة بتوكلهم على الله تعالى.

وفي ذلك الأمر – أي: الأمر بالتوكل – إيذانٌ لهم أنهم لا يَعبئون ولا يهتمون بما يُضْمِره لهم الكافرون من الأذى، كما قال السحرة لفرعون لما آمنوا: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠]. وذلك لما قال لهم فرعون بعد أن آمنوا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. فردوا عليهم: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

وآية سورة طه:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧١-٧٣].

وآية سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: ليس هناك ضرر، فافْعَلْ ما شئت، واقض ما أنت قاض.

ونعود إلى الكلام على آية سورة إبراهيم:

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مُؤْذِنٌ أنهم لا يرجون نصرًا من غير الله تعالى؛ لِضعفهم وقلة ناصرهم، وكأنهم يقولون: «نحن منصورون إن شاء الله».

ففي قولهم هذا إيمانٌ إلى أنهم واثقون بنصر الله، فلما قالوا: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالمعنى: أننا سنصبر على الأذى لأننا واثقون من نصر الله تعالى. وهم لم يصبروا على الأذى إلا وهم يعلمون موعودَ الله تعالى، وأنَّ وعده حق، وأنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ولم يقتصروا على قولهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وإنما أردفوا ذلك بقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾، وذلك استدلالًا على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله، موضِّحين سببَ ذلك من هدايته لهم ﷻ.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، يعني: «كيف لا نتوكل على الله؟!».
وجاء الاستفهام في صورة الإنكار لأن الكفرة قالوا لهم: «ستتوكلون على الله.. وعلى الله فليتوكل المؤمنون.. حسنًا، لن نترك تعذيبكم، بل سنَزيدكم منه.. لن نَدَعَ قَتْلَكم وصَلْبَكم وتَشْرِيدَكم وكلَّ ما تتوقعون وما لا تتوقعون من العذاب وصُوَرَه المختلفة وأشكالَه الصعبة، فأين هذا التوكلُ الذي يُنْقِذُكم مِنَّا أو يَكْفِيكم ما يقع بكم؟!».

وهذا دليلٌ على ما هو معروف من استِحْمَاق[1] الكفارِ إياهم في توكلهم على الله. فلما قال المؤمنون: «نحن متوكلون على الله لأننا مؤمنون»، قام الكفار بالاستهزاء بهم، واستِحْماقِهم، وقالوا: «انظروا هؤلاء الحمقى والجهلة المتوكلين على الله.. ألَا يحدث لكم أيها المتوكلون كذا وكذا؟!». فرد المتوكلون عليهم: «أأنتم تَسْتَحْمِقون التوكل، وتتعجبون منه، وتسخرون منا لأننا متوكلون.. لا؛ هذه عناية الله بنا في الأُولَى، وسترون النتيجة في النهاية».

وفي الآية كذلك عدمُ اكتراث المؤمنين بأذى الكافرين؛ فلا يُهمهم الأذى الذي وقع عليهم، بدليل قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾، كأنهم يقولون لهم هذا المعنى استدلالًا على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله؛ لأنهم رَأَوْا بوارق عنايته ﷻ بهم، يعني: رأوا بدايات العناية من الله تعالى بهم، وذلك دليل على أن النهاية لهم سعيدة وأن العاقبة حسنة.

وبوارق العناية بهم: أنه قد هداهم إلى طرائق النجاة والخير في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾، لِـمَ لا نتوكل على الله وقد هدانا سُبلنا؟ وهذه السبل التي هدانا إليها دليل العناية في أولها، ودليلُ الرعاية والنصر في آخرها. فقد رأوا أن الله تعالى قد هداهم إلى طرائق الخير والحق، فعلموا من عناية الله بهم في بدايتهم أنه سيعتني بهم في نهايتهم، وأن عاقبتهم هي العاقبة الحسنة. فهذه البداية من عناية الله دليلٌ على العاقبة الحسنة منه ﷻ، لذلك استدلوا بها على صحةِ توكلهم على الله تعالى، وتفويضهم الأمرَ إليه جلَّ وعلا. فزادوهم تَيْئِيسًا من التأثر بالأذى، فأقسموا على أنَّ صبرهم على أذى قومِهم سيَسْتمر.

---

(١) «اسْتَحْمَقَهُ، يعني: عَدَّهُ أَحْمَق». انظر مختار الصحاح بتصرف، مادة: [ح م ق].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ يعني: «والله لَنَصْبِرْ على هذا الإيذاء». وهذه من الجمل البليغة جدًّا في العربية لِـمَا فيها من الإيجاز الجميل، فقولهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ دليلٌ على الاستقبال.. دليل على أنهم سيصبرون على إيذاءٍ متوقَّع في المستقبل، فصيغةُ الاستقبال مستفادة من الفعل المضارع المؤكَّد بنون التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾، يعني: «سنَصْبر على ما سيكون». ودلَّتْ أيضًا على أذًى مستَقْبَلٍ. ودلتْ صيغةُ الماضي المُنتَزَع منها المصدر في قوله: ﴿مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ على إيذاءٍ قد وقع في الماضي، فجاءت الآية لِتبين الصبرَ على الإيذاءَيْنِ معًا في جملة واحدة، ومعنى الآية: «والله لَنَصْبِرْ على أذًى متوقَّع كما صبرنا على أذًى مَضَى». وهذا من الإيجاز البديع.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهو تذييل لهذه الآية، فيُحتمل أن يكون من بقية كلام الرسل - عليهم السلام، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى. فإنْ كان من كلام الرسل يكون تأكيدًا للجملة، يعني: تأكيدًا لأنَّ المتوكلين من جملة المؤمنين، والمعنى: أنَّ مَنْ كان متوكِّلًا في أمره على غيره فليتوكَّلْ على الله.

وكذلك فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ تنويهٌ بشأن المتوكلين على الله ﷻ، وتعظيمٌ لأمرهم، ورِفعة لمقامهم ومنزلتهم؛ لأن المتوكلين على الله هم الذين توكلوا عليه لا على غيره، ومَن أراد التوكل فتَوَكَّلَ على اللهِ كان هو المتوكلُ حقًّا.

الفصل الرابع

التوكـــــل

المبحث الأول

التوكل متعلق بالإيمان[1]

لذلك قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، أي: إنْ كنتم مؤمنين فعلى الله توكَّلوا. وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وهذه الأولى: وهي أن المؤمنين مطالَبون بالتوكل على الله تعالى، وأنَّ التوكل دليلُ الإيمان وملازمٌ له، وأنه لا يكون المرءُ مؤمنًا حتى يكون متوكلًا على الله تعالى. فمَن خَفَّ إيمانُه خَفَّ توكلُه. ولذلك تَجِدُ ضعيفَ الإيمانِ ضعيفَ التوكل، خائفًا مما سيحدث له، نقول له: «أنت في شُغل الله فلا تَخَفْ شيئًا».

فإن قال: «إني أخاف على مالي»!! نقول له: «لا يَنْقُص مالٌ من صدقة»[2].

يقول: «هل أدفع كلَّ هذا المال لله تعالى؟! هكذا سأفتقر.. ومِن أين يأكل الأولاد؟!..». نقول له: «لـمَّا حثَّ النبيُّ ﷺ على الصدقة، جاء أبو بكر ؓ بماله كلِّه، قال له النبي ﷺ: **مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ؟** قال: تَرَكْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ». فلم يفتقر ؓ، ولم يحدث له حادث، ولم يقع ؓ فيما يخافه المرءُ اليومَ.

وهكذا في كل أمور المرء: في العبادة، في الصلاة، في القيام، في الصيام.

---

(١) انظر - بتصرف كثير جدًّا: «مدارج السالكين» للإمام العلامة ابن القيم رحمه الله، [جـ١/ صـ٩٤]، طبعة دار الحديث.

(٢) سبق تخريجه: الفصل الأول - أقوال العلماء في معنى اسم الله «الوكيل» - المعنى الرابع.

يقول: «لن أصوم اليوم مخافةَ أن يحدث لي مكروهٌ أو تعب»!. ولا يدري أنه عندما يتوكل على الله فإن الله سبحانه سيكفيه هذا الذي يخافه وهذا الذي يخشاه: في الصحة، وفي الوقت، والجهد.

يقول: «لو قرأتُ الوردَ سأتأخر عن كذا، وسَيَحْدُثُ لي كذا»! ولو قرأ وِرْدَهُ لَبارَك اللهُ له في وقته، وسهَّل له أشغاله.

وذلك الأمر قد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. حتى يقوم المرءُ بأعمال الإيمان ونصرة الدين وواجبات الناس وحقوق الخلق على أكمل وجهٍ، ويعتقد تمامَ الاعتقاد والثقة أنَّ الله سيعطيه أكثرَ من ذلك، وسيتكفل له بأحسن من ذلك، وسيبارك له بأفضل من ذلك، فلا يخاف شيئًا بعد ذلك. وبيَّن لهم ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]. **فاصْدُقْ مع ربك في التوكل عليه، وسترى النتيجة.**

لذلك قال ﷻ عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال أولياؤه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي نهاية المطاف ذكرهم ﷻ وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإذا ما توكلوا على الله تعالى، وخرجوا من نَظَرِهم لكلِّ ما يميل إليه القلبُ وتُحَدِّث به النفس: من المال والجاه والسلطان والمنصِب والوقت والجهد.. وفي كل شيء؛ فإنَّ الله

تعالى يحبِّهم، وما دام أحبَّهم ﷻ فلا ينتظرون شيئًا بعد ذلك في الدنيا ولا في الآخرة: قد تحققوا بالمرتبة العليا من مراتب الدين التي هي رحمةُ الله بهم في الدنيا والآخرة.

الأحاديث الواردة في هذه المعاني:

١- في الصحيحين في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب قال ﷺ: «**الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»(١).

٢- وفي صحيح البخاري ما يُبيِّنُ هذه القضية الخطيرة في التوكل على الله تعالى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «﴿**حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ **قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام **حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ** ﷺ **حِينَ قَالُوا**: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣]»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام البخاري: [٥٧٥٢]، وتمامه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا النبي ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: **عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ؛ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ** ﷺ **مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ. وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ فَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ. فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ. فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا. فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ. فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**. فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**. فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **نَعَمْ**. فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ: **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

(٢) أخرجه الإمام البخاري [٤٥٦٣] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه.

وهذه المسألة أخطر مما يتصور المرءُ، لـمَّا قالها إبراهيم عليه السلام: «حسبنا الله ونعم الوكيل» أي: نِعْم الوكيل اللهُ تبارك وتعالى، وله سبحانه وتعالى ملكوتُ كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

الواثِقُ في الله تعالى لا يُسِيء الظنَّ بربه جل وعلا، ويعلم أن ربَّه بيده ملكوت كل شيء سبحانه وتعالى، وأنه عندما يقول لأي شيء: «كنْ» فيكون، وأن الله تعالى يخرِق نواميسَ الكون لعباده المؤمنين.

ولا يُوجد أكثر من الإلقاء في النار، لكن لـمَّا وَثِق إبراهيم عليه السلام بربه عز وجل وتوكل عليه إذا بالله تعالى يقول: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

إذن فكلُّ شيءٍ يمكن أن يكون بردًا وسلامًا على المرءِ إذا قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وجعل يقينه على الله تعالى، ووجد العاقبة الحسنة من الله تعالى، كما قال سبحانه عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

٣- وفي الصحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[1].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [٢٧١٧]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «(اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ) أي: لكَ انْقَدْتُ وبك صَدَّقتُ... (وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ) أي: عليكَ لا على غيركَ اعتمدتُ في تفويض

٤- وفي الترمذي عن عمر ﷺ مرفوعًا: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ: تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(١).

وهذه المسألة هي الشُّغل الشاغل للمؤمنين، يقول المرء: «لا أجد عملًا، والأموالُ التي أملِكُها قد نَفَدَتْ، والأحوال صعبة... إلخ». وقضيته في حل هذه المشكلة في التوكل على الله تعالى: لو توكلوا على الله تعالى كما يقول النبيُّ ﷺ لرزقهم كما يرزق الطيرَ.

فقضيةُ التوكل من القضايا التي يَضْطَرِب لها القلبُ عند حدوث الفاقة - كما سيذكر بعض العلماء في معاني التوكل - لِمَ لا يضطرب القلبُ؟ لأنه متوكل على الله، وخزائن السماوات والأرض بيد الله تعالى، فلا يضطرب.. لأن التوكل على الله تعالى دلَّه على اليقين فيما عند الله، وأنه لن يخرج من الدنيا إلا وقد استكمل رزقَه وأجله.. توكُّلُه على

أموري. (**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**) أي: رَجَعْتُ وأَقْبَلْتُ بِهِمَّتِي. (**وَبِكَ خَاصَمْتُ**) أي: بكَ أَحْتَجُّ وأَدْفَعُ وأُخاصِمُ... (**أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ**) أي: الحيُّ الحياةَ الحقيقية التي لا يُجامِعُها الموتُ بحالٍ. (**وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**) عندما تُقْضِي آجالَهم. وكلمة (**تُضِلَّنِي**) مُتعلِّقة بـ(**أَعُوذُ**)، أي: أعوذ مِن أنْ تُضِلَّنِي. وكلمة التوحيد (**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**) مُعترِضةٌ لتأكيد العِزَّة». انظر - باختصار وتصرف كثير: «فيض القدير»، شرح الحديث رقم [١٥٠٢].

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٣٠] بهذا اللفظ، وصححه الشيخ أحمد شاكر في التحقيق. والترمذي: [٢٣٤٤] وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه: [٤١٦٤]. وقال الإمام النووي في «رياض الصالحين»: «معناه: تذهب أولَ النهار (**خِمَاصًا**) أي: ضامرةَ البطون من الجوع، وترجع آخر النهار (**بِطَانًا**) أي: مُمتلئةَ البُطون». انظر: «نزهة المتقين شرح رياض الصالحين»، [جـ ١ / ص ٩٢].

الله تبارك وتعالى أخرجَ من قلبه التعلّقَ بغير الله تعالى، فكان ذلك سببًا في أن يرزقه المولى ﷻ وأن يعطيه وأن يجود عليه، لذلك قال هنا هذا المعنى.

وحديثٌ آخر يبين هذا المعنى:

٥- في السنن عن أنس ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ على اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟!**»[1].

(١) أخرجه أبو داود: [٥٠٩٥] وصححه ابن القيم في «زاد المعاد» [٢/ ٣٣٥]، والحافظ ابن حجر كما في «الفتوحات الربانية» [١/ ٣٣١].

المبحث الثاني

منازل المتوكلين[1] على الله تعالى

نستكمل ما بدأنا من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله، والذي كان ملخصه: أن التوكل نصف الدين - كما أشرنا في الفصل الأول - والنصف الثاني: الإنابة، فإن الدِّين: استعانة، وعبادة.

فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. ومنزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعُها. فكل الناس - مسلمين ومشركين وكفرة - كلهم في منزِلة التوكل، ولا تزال هذه المنزلة - منزلة التوكل - معمورةً بالنازلين؛ لسعة مُتعلَّق[2] التوكل، وكثرة حوائج العالمين، ولعموم التوكل.

ومنزلة التوكل واسعة لأن متعلَّق التوكل واسع جدًّا: يتوكل المرء في كذا وكذا وكذا، والعالَـمون[3] حوائِجُهم كثيرة، فالكلُّ يتوكل على الله تعالى في قضاء هذه الحوائج: هذا له مشكلة في المال، هذا له مشكلة مع الناس، هذا له مشكلة في الصحة، هذا له مشكلة في العمل، هذا له مشكلة في العبادة، هذا له مشكلة في نصرة الدين، هذا له.. هذا له.. إلى غير ذلك، فكلُّ امرئ يسعى في التوكل.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» [٢/ ص٩٥ وما بعدها].

(٢) لأن التوكل مُتعلِّق بالإيمان.

(٣) «العالَـمون» جمع عالَـم، أي: الخَلْق كله، وكلُّ صِنفٍ من أصناف الخَلْق، كعالَمِ الحيوان وعالَمِ النبات. انظر: المعجم الوجيز، مادة: [ع ل م].

وعموم التوكل: أنَّ كل أحدٍ يتوكل؛ لأن التوكل عام في كل شيء، ويقع التوكل من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم. فأهل السماوات والأرض المكلَّفون وغيرُهم في مقام التوكل: الطير تغدو - كما يقول النبي ﷺ - خِماصًا وتروح بطانًا[1]، وإنْ تبايَن متعلَّقُ توكلهم. وتَدَبَّرْ هذا الكلام وما يليه حتى تفهمَ التوكل:

المنزلة الأولى: توكل أولياءِ الله تعالى وخاصَّتِه

فأولياؤُه وخاصَّته ﷻ يتوكلون عليه في الإيمانِ ونُصرةِ الدين وإعلاءِ كلمته وجهادِ أعدائه، وفي محابِّه وتنفيذِ أوامره. وهذا التوكل هم فيه ورثةٌ للأنبياء؛ يعني: هذا توكل الأنبياء - عليهم السلام - يَرِثُه منهم الأولياءُ وخاصَّةُ اللهِ تعالى، لذلك فهؤلاء في الدرجة العالية.

المنزلة الثانية: التوكل للاستقامة في النفس

ودون هؤلاء - من يتوكل على الله في استقامته هو نفسه؛ أي: يبذل توكلَّه وتضرُّعَه لله تعالى، وثقتَه فيه في أن يحفظ حاله مع ربه، وأن تستقيم نفسُه إلى الله جل وعلا، وأن تتهيأ نفسُه للعبادة والطاعة والإقبال على الله جل وعلا فارغًا من الناس. فهذا أقلُّ من الدرجة الأولى في أنه لا يقوم بجهاد أعدائه ولا بنشر دينه ولا بنصرة الإسلام ورفع رايته، أو غير ذلك من أعمال الأنبياء وورثتهم.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا: الفصل الرابع - المبحث الأول.

المنزلة الثالثة: التوكل لِنَيْلِ معلوم

ومن دون هؤلاء من يتوكل على الله تعالى في معلوم يناله. والمعلوم يعني: الرزقُ أو العافيةُ أو الزوجةُ أو الولدُ.. أو نحو ذلك.

المنزلة الرابعة: التوكل في تحصيل الآثام والفواحش

ونذكر ذلك حتى تعرف - أيها القارئ الكريم - سعةَ التوكل، ولتعرف المنزلة التي ينبغي أن تنزلها في هذه المعاني، والثقةَ التي ينبغي أن تكون بينك وبين الله تعالى. فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا بالاستعانة بالله تعالى وتوكلهم عليهم؛ بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يُلقون بأنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله تعالى أن يُسَلِّمهم. فتجد اللصَّ - مثلًا - يرمي بنفسه في المتالف والمهالك، وهو عارف أنه متوكل على الله بأنه سيُنجِّيه، يقول مثلًا: «استعنَّا على الشقاء بالله»!! فيتوكل على الله، ويذهب يقتل أو يَنْصِب أو يَسْرِق. وهم في توكلهم على هذا الحال معتمدين على الله أن يسلِّمهم ويظفرهم بمطالبهم!

أفضل التوكل

فأفضل التوكل: التوكل في الواجب، أعني واجب الحق ﷻ، وواجب الخَلْق، وواجب النفس. وأوسعه وأنفعه في الدنيا والآخرة: التوكل للتأثير في الخارج؛ يعني: التوكل لتحقيق مصلحة دينية، أو دفع مفسدة دينية؛ وهو توكل الأنبياءِ - عليهم السلام - في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكُّل وَرَثَتِهم، ثم بقية ذلك على حسب نيتهم ومقاصدهم.

فمن كان مقصِدُه ربَّه وما عند الله جل وعلا يزداد توكُّلُه، ومن كان مقصده الدنيا الخسيسة قلَّ توكله. وقد يعلو توكله في تحصيل الدنيا ولكن لا يكون له عاقبة حسنة في الآخرة على هذا التوكل. فمن الناس من يتوكل على الله في حصول المُلْك، ومن الناس من يتوكل عليه في حصول رَغيف! فهؤلاء على حسب الهمم والمقاصد. وكأن هذا السابق نَعْيٌ على المؤمنين أنه ينبغي أن تكون مقاصدهم وهممهم عاليةً لتحصيل هذه الرُّتب العالية عند الله تبارك وتعالى؛ في أن يكونوا من ورثة الأنبياء في تحصيل العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، ودفع المفاسد، وتحقيق المصالح، وجهاد أعداء الله، ورفع راية الدين، والدعوة إلى الله تعالى. ويُحقق المرءُ في نفس الوقت واجبَ التوكل في حق الله تعالى والخَلْق والنفس، فكل ذلك إنما يَصْلُح بالعلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

فمن لم يُحصِّل علمًا نافعًا ينفعه في الأولى والآخرة، لم يُحقِّقْ عملًا صالحًا ينفعه في الأولى والآخرة، وبالتالي يكون دعوتُه وبالًا عليه في الأولى والآخرة؛ لأنه إذا لم يُحقق العلم النافع والعمل الصالح، فكيف يدعو إلى الله تعالى؟! وكيف يجاهد أعداءً لله تعالى؟!

والخلاصة: أن مَن صَدَقَ توكُّلُه على الله في حصول شيءٍ ناله..

يعني: لو صدق توكُّل المرءِ على الله تعالى في حصول شيء نال هذا الشيء؛ فإن كان محبوبًا لله تعالى مَرْضِيًّا عنده، كانت للعبد فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطًا، مبغوضًا، كان ما حَصَل له بتوكله مضارَّةً عليه، وإن كان مُباحًا حصلت له مصلحة التوكل وإن لم يستعن بها على الطاعة.

أقوال العلماء في معنى التوكل:

التوكل عمل القلب[1]

ونريد أن نشير إلى معنيين في هذه الجزئية:

المعنى الأول: أن التوكل عملٌ قلبي وليس قولًا باللسان أو عملًا بالجوارح..

فلا يجوز أن يقول أحدٌ: «توكلتُ على الله.. فأنا متوكِّلٌ»، بل لا بد أن تكون حقيقة التوكل قد استقرَّتْ في قلب المرء: التوكل، والتسليم، والتفويض لله تعالى. وغيرُ ذلك يكون كلامًا فقط لا قيمةَ له، لأنه عند المحَكِّ يقول: «توكلتُ على الله»، فإنْ حدثَتْ له مشكلة كان أوَّلَ ما يَفْزع يَفْزع لغير الله تعالى، وأولَ ما يلجأ يلجأ إلى غير الله تعالى.

المعنى الثاني: أنَّ التوكل يعني التسليم لله تعالى..

فإذا توكل المرءُ على الله تعالى وحدث له شيء لم تجدْهُ مستسلمًا لله تعالى.. وجدتَه مُتَسخِّطًا مُعْتَرِضًا، يقول: «كنتُ متوكلًا على الله وحدث حادثُ كذا! فهل كان هذا وقته؟! وهل أنا ناقص؟!». فدل ذلك على أنه ليس متوكلًا ولا شيئًا، لأنه لو كان متوكلًا على الله تعالى لرَضِيَ بقضائه. ألم تجعله وكيلًا لك يقوم لك بأعمالك وأشغالك؟! فهل يقوم لك بها ثُمَّ تعترض عليه ولا ترضى بوقوع قَدَرِه! ففي هذا دليل على عدم صدق التوكل في قلبك!!

---

(١) ونَسب الإمامُ ابن القيم رحمه الله هذا القولَ إلى الإمام أحمد رحمه الله. انظر: «مدارج السالكين» [٢/٩٦].

وذكر الإمامُ ابن القيم رحمه الله تعالى أقوالًا كثيرة للمتكلمين في التوكل وأحواله، ونذكر هذه الأقوال على سبيل معرفة ما قاله أهلُ العلم في التوكل[1]:

التوكل علمُ القلب بكفاية الربِّ للعبدِ

ومن الناس من يجعل التوكل من باب المعارف والعلوم؛ فيقول: «هو علم القلب بكفاية الرب للعبد»، يعني: أن يَعْلَمَ قلبُه أن ربَّه كافيه ﷻ.

التوكل هو خمود حركة القلب

ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب؛ فالمتوكل ساكن مع الله تعالى، حركةُ قلبه قد خمدت؛ لأنَّه انطرح قلبُه بين يدي ربه، كانطراح الميت بين يدي الغاسل، يُقَلِّبُه كيف يشاء. وملخَّص ذلك أنه ترك اختياره لاختيار الله تعالى، واسترسل مع مجال الأقدار.

فأنتَ وكَّلتَ ربَّك، أي: تركتَ له الاختيار أن يعمل لك هذا، ويقوم لك بذلك، ويترك لك ذلك، ويُعينك على هذا، فلا تقل له بعدها: «لا.. أنا لا أريد هذا، وكنت أريد ذلك».

---

(١) وقد ذكرنا في الفصل الأول تعريف التوكل الذي ينبغي أن يحفظه طلبة العلم، وفي هذا الفصل نذكر أقوال أهل العلم في التوكل وذلك للاستزادة من تلك المعاني العالية التي ذكرها هؤلاء الكرام، ثم في المبحث القادم - إن شاء الله تعالى - نذكر تحقيق الإمام ابن القيم رحمه الله في حقيقة التوكل ودرجاته.

فأنتَ وكَّلتَ: القادرَ، القويَّ، الوفيَّ، المَلِيَّ، الغَنِيَّ ﷻ، العليمَ الشَّفِيقَ بك ﷻ، الذي لا يريد لك إلا مصلحتَك في الأولى والآخرة، وقد علمتَ أنه يعلم عينَ المصلحة، وموضعَ المصلحة والمفسدة، وقد علمتَ أنه قادرٌ على القيام بذلك، وعالمٌ بما يُصْلِحُك وما يُفسدك، وأنه يُبعِد عنك ما يفسدك، ويقوم لك بما يُصلحك. بِغَضِّ النظر عن أن يقع لك في الظاهر ما تَقْصُرُ فيه عقولُ الناس، وتتخيل أنه مَضرَّةٌ عليها. لكنه ﷻ لـمَّا وكَّلتَه علمتَ أنه عالمٌ بهذه المصلحة، وعالمٌ بعاقبتها، وعالمٌ أنه إنْ فَتح لك هذا الباب الذي تُريد فَتح لك بابَ المفسدة، ولو فتح هذا الباب الذي تظنه هو المفسدة إذا به هو المصلحة، فهو العليم ﷻ.

فإنْ تركتَ اختيارَك لمولاكَ وتوكلتَ عليه، علمتَ أنه إذا اختارَ اختار لك الخيرَ، واختار لك أفضل ما يُصلحك. وإذا اختار فإنَّ اختيارَه أفضلُ من اختيارك، وإذا اختار لك كانت السعادة في هذا الاختيار لك في الأولى والآخرة، فكيف تعترض إذن؟! وكيف لا تسكن لهذا المقدور؟! وكيف لا ترضى به؟! وكيف لا تحبه منه وهو قائم لك بكل شيء ﷻ، كما قال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وعلى عكس ذلك ترى أحدهم يقول: «كنتُ أود السفر ولم أسافر، لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد ضاع كذا وكذا»، فيقال له: «ألستَ متوكلا على الله تعالى؟»، يقول: «بلى»، يُقال له: «إذن فلم يَضِعْ شيءٌ، والله ﷻ عطَّل لك هذا الأمر لأنه ليس في مصلحتك، فتَسْكُن تحت المقدور. لا تقل: لا.. وكيف؟.. كنتُ أود..»!! أنتَ تركتَ له الاختيار

ليُصرِّفك ﷻ، وليُقَدِّرَ لك أمورَك، وليقوم على مصلحتك، وليحققَ لك أشغالك، وليَكْفُلَها لك، وليحفظَها لك، وليقومَ عليها بالقسط، وهذا معنى الوَكالة الذي سبق وأشرنا إليه؛ كيف تتردد حينئذٍ؟ وكيف لا تَقْبَلُ بما فعل؟ وكيف تتخيل أن عقلك القاصر يُدرك المصلحة ولا يدركها «الوكيل» ﷻ؟!!

فلا تقل: «لم يأتِ السفر، ولم تأتِ الأموال..»، فهذا هو اختياره سبحانه، وهو الاختيار الأصلح، والرضا ينبغي أن يكون به، والسكون تحت المقدور له. وخمود القلب: ألا يضطرب في الحركة بهذا الأمر، وأن يسترسل مع الأقدار، فهي التي تذهب به يمينًا وشمالًا؛ لذلك قال سهلٌ[1]: «التوكل هو الاسترسال مع الله تعالى مع ما يريد».

التوكل هو الرضا بالمقدور

ومنهم من يفسر التوكل بالرضا فيقول: «هو الرضا بالمقدور»، وإنما الرضا هو ثمرة التوكل..

---

(١) سَهْلُ بنُ عَبْدِ الله بنِ يُوْنُسَ أَبُو مُحَمَّدٍ التُّسْتَرِيُّ، شَيْخُ العَارِفِيْنَ، الصُّوفِيُّ الزَّاهِدُ. وَمِنْ كَلَامِه: «لَا مُعِينَ إِلَّا اللهُ، وَلَا دَلِيْلَ إِلَّا رَسُوْلُ الله، وَلَا زَادَ إِلَّا التَّقْوَى، وَلَا عَمَلَ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَيْهِ». وعنه: «أُصُوْلُنَا سِتَّةٌ: التَّمَسُّكُ بِالقُرْآنِ، وَالاقْتِدَاءُ بِالسُّنَّةِ، وَأَكلُ الحَلَالِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَاجتِنَابُ الآثَامِ، وَالتَّوبَةُ، وَأَدَاءُ الحُقُوْقِ». وعنه أيضًا: «مَنْ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ حُرِمَ الصِّدْقَ، وَمَنِ اشتَغَلَ بِالفُضُولِ حُرِمَ الوَرَعَ، وَمَنْ ظَنَّ ظَنَّ السَّوْءِ حُرِمَ اليَقِيْنَ، وَمَنْ حُرِمَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ هَلَكَ». وَعَنْهُ قَالَ: «مِنْ أَخلَاقِ الصِّدِّيقِينَ أَنْ لَا يَحْلِفُوا بِالله، وَأَنْ لَا يَغْتَابُوا وَلَا يُغْتَابَ عِنْدَهُم، وَأَنْ لَا يَشْبَعُوا، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَلَا يَمْزَحُوْنَ أَصلًا». تُوفي سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِيْنَ وَمَائَتَيْنِ. انظر- بتصرف: «سير أعلام النبلاء» [٣/ ٣٣١-٣٣٣].

لذلك قال بشر[1]: «يقول أحدُهم: «توكلتُ على الله»، يكذبُ على الله! لو تَوَكَّل على الله لرَضِيَ بما يفعل اللهُ». فمن تَوَكَّلَ على الله، رَضِيَ بما قَسَمه، ورضي بما أقامه فيه، وبما حرَّكه إليه، وبما منعه منه، وبما أوقعه فيه.. وهكذا.

وقد يقول المرء: «لقد حدث لي في صحتي كذا..»، فيقال له: «ألستَ متوكلًا على الله ﷻ وهو يعلم ما يُقِيمها وما يُصْلِحها، ويعلم ما يحدث لك عندما تكون صحيحًا، وعندما تكون مريضًا، ويعلم متى تكون مصلحتك في هذا الأمر أو لا تكون». فوقوع المقدور - حتى وإنْ كان على خلاف رغبة العبد - يستدعي الرضا من النفس؛ لأنه متى توكَّلَ على الله، اختار المولى سبحانه له ما يُصلحه.

---

(١) بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَطَاءٍ المَرْوَزِيُّ، الإِمَامُ، العَالِمُ، المُحَدِّثُ، الزَّاهِدُ، الرَّبَّانِيُّ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، أَبُو نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، المَشْهُوْرُ: بِـ«الحَافِي». وُلِدَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِيْنَ وَمائَةٍ. وَارْتَحَلَ فِي العِلْمِ، فَأَخَذَ عَنْ: مَالِكٍ، وَابْنِ المُبَارَكِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ.. وَعِدَّةٍ. قال الدَّارَقُطْنِيُّ فيه: «زَاهِدٌ، جَبَلٌ، ثِقَةٌ، لَيْسَ يَرْوِي إِلَّا حَدِيْثًا صَحِيْحًا». قَالَ إِبْرَاهِيْمُ الحَرْبِيُّ: «مَا أَخْرَجَتْ بَغْدَادُ أَتَمَّ عَقْلًا مِنْ بِشْرٍ، وَلَا أَحْفَظَ لِلِسَانِهِ... كَانَ فِي كُلِّ شَعرَةٍ مِنْهُ عَقْلٌ... وَطِئَ النَّاسُ عَقِبَه خَمْسِيْنَ سَنَةً... مَا عُرِفَ لَهُ غِيبَةٌ لِمُسْلِمٍ... مَا رَأَيْتُ أَفْضَلَ مِنْهُ»! كَانَ رَأْسًا فِي الوَرَعِ وَالإِخْلَاصِ، قال الحافظ أبو بكر الخطيب: «كان ممن فاق أهلَ عصره في الورع والزهد. وتفرَّد بوُفور العقل، وأنواع الفضل، وحُسْن الطريقة، واستقامة المذهب، وعزوف النفس، وإسقاط الفضول. وكان كثيرَ الحديث، إلا أنه لم يُنَصِّب نفسَه للرواية». مَاتَ بِشْرٌ الحَافِي - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ - سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِيْنَ وَمائَتَيْنِ، وَعَاشَ خَمْسًا وَسَبْعِيْنَ سَنَةً. وَقَدْ أَفرَدَ ابْنُ الجَوْزِيِّ مَنَاقِبَهُ فِي كِتَابٍ. وانظر قصةَ توبته وأقوالَه الحكيمة والمزيدَ من أحواله الحسنة جدًّا للاقتداء بهذا الإمام الجليل في «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رحمه الله [١٠/ ٤٧٠-٤٧٨]، و«تهذيب الكمال» للحافظ المِزِّي.

التوكل هو الثقة بالله تعالى، والطمأنينة إليه، والسكون إليه جل وعلا

ومنهم من يقول: «التوكل هو الثقة بالله تعالى، والطمأنينة إليه، والسكون إليه جل وعلا».

لذلك قال ابن عطاء رحمه الله[1]: «التوكل ألَّا يَظهرَ فيك انزعاجٌ للأسباب مع شدة فاقَتِكَ إليها».

وهذا كلام طيب: ألَّا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها فأنتَ افتقرتَ إلى السبب؛ فلا يظهر فيك انزعاجٌ إليه، وتَعلُّقٌ به، ومسارَعةٌ إليه مع نسيان الحق ﷻ. فأنتَ افتقرتَ إلى فلان، أو إلى المال والواسطة، أو إلى أي شيء آخر، فلا يَنْزَعِجُ قلبُك إليه ناسيًا مُتعَلَّقَكَ الأصليَّ؛ وهو الله جل وعلا.

وقال ابن عطاء أيضًا: «التوكل هو ألَّا تزولَ عن حقيقة السكون لله تعالى والرضا بما قَسَم من الحق مع وقوفِكَ على الأسباب».

أي: ألَّا ينزعج إلى الأسباب مع حاجته إليها، وألَّا يزول عن حقيقة السكون إلى الله مع وقوفه عليها. يعني: وقف على الأسباب ولم يزل ساكنًا إلى الله تعالى، فلو احتاج

(١) الزَّاهِدُ، العَابِدُ، المتَأَلِّهُ، أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ سَهْلِ بن عَطَاءِ الأَدَمِيُّ البَغْدَادِيُّ. حَدَّثَ عَنْ يُوْسُفَ بنِ مُوسَى القَطَّان. وَعَنْهُ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ حُبيش، وَقَالَ: «كَانَ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَتمَة، وَفِي رَمَضَانَ تِسْعُوْنَ ختمَة، وَبَقِيَ فِي خَتمَةٍ مُفردَةٍ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً يتفهَّمُ وَيتدبَّر». وَقَالَ حُسَيْنُ بنُ خَاقَان: «كَانَ ينَامُ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَة سَاعَتَيْن». قال الإمام الذهبيُّ: «لكنَّه رَاجَ عَلَيْهِ حَالُ الحَلَّاج، وَصحَّحَه». مَاتَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَثَلَاثِ مائَةٍ، فِي ذِي القَعْدَةِ. انظر: «السير» [١٤/ ٢٥٦].

الأسباب وافتقر إليها، لم ينزعج ويضطرب قلبُه إلى هذه الأسباب، بل هو واقفٌ مع الله تعالى في كلا الحالين، راضٍ به في كلا الحالين، فلا ينزعج إلى السبب إذا افتقر إليه، ولا يزول عن سكونه إلى الله ﷻ لو وقف على السبب.

وقال أبو تُراب رحمه الله[1]: «هو طَرْحُ البَدنِ في الْعُبوديَّةِ، وتَعَلُّقُ القلب بالربوبية، والطُّمأنينةُ إلى الكفاية: فإنْ أُعطي شَكَر، وإنْ مُنِع صَبَرَ».

فجعل التوكل مُركَّبًا من خمسة أمور:

الأمر الأول: القيام بحركات العبودية.

الأمر الثاني: تعلق القلب بتدبير الربوبية.

الأمر الثالث: السكون إلى قضائه وقدره.

الأمر الرابع: الطمأنينة إلى الكفاية - أي: كفايته له ﷻ.

الأمر الخامس: إنْ أُعطي شَكَر وإنْ مُنِع صَبَر.

(١) النَّخْشَبِيُّ أَبُو تُرَابٍ عَسْكَرُ بنُ الحُصَيْنِ، الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الطَّائِفَةِ. وَمَدِيْنَةُ نَخْشَب مِنْ نَوَاحِي بَلْخ، تُسَمَّى أَيْضًا: نَسَف. صَحِبَ حَاتِمًا الأَصَمَّ. وَحَدَّثَ عَنْ: نُعَيْمِ بنِ حَمَّادٍ، وَمُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الله بنِ نُمَيْرٍ، وَغَيْرِهِمَا. حَدَّثَ عَنْهُ: الفَتْحُ بنُ شَخْرَف، وَرَفِيقُهُ أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي عَاصِمٍ، وَعَبْدُ الله بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، وَيُوْسُفُ بنُ الحُسَيْنِ الرَّازِيُّ، وَأَحْمَدُ بنُ الجَلَّاءِ، وَطَائِفَةٌ. وَكَتَبَ العِلْمَ، وَتَفَقَّهَ، ثُمَّ تَأَلَّهَ وَتَعَبَّدَ، وَسَاحَ وَتَجَرَّدَ. وعَنْهُ: «ثَلَاثٌ مِنْ مَنَاقِبِ الإِيْمَانِ: الاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ، وَالرِّضَى بِالكَفَافِ، وَالتَّفْوِيْضُ إِلَى اللهِ. وَثَلَاثٌ مِنْ مَنَاقِبِ الكُفْرِ: طُولُ الغَفْلَةِ عَنِ اللهِ، وَالطِّيَرَةُ، وَالحَسَدُ». مَاتَ أَبُو تُرَابٍ بِطَرِيْقِ الحَجِّ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمَائَتَيْنِ. انتهى - بتصرف - من «سير أعلام النبلاء» [٥٤٦/١١].

فالمتوكلُ بدنُه في عبادة الله، وقلبُه متعلِّقٌ بتدبير الله.. هو مُنْشَغِلٌ بما لله تعالى عليه، وقلبُه متعلق بتدبيره ﷻ له، لا بتدبير نفسه. ساكنٌ إلى قضائه وقدره، غيرُ مُضْطَرِب؛ كلما نزل عليه أمرٌ سَكَن إلى هذا القضاء، وعَلِمَ أن ذلك محضُ تدبير الله تعالى - كما أشرنا - ثم يطمئن إلى كفاية الله له، أي: مطمئن إلى أن الله تعالى يكفيه، ليس مضطربًا، وليس سيِّئَ الظن بربه، بل كلُّ ما يطلبه يكفيه فيه ﷻ، وكلما توكل عليه أعطاه أكثرَ من هذه الكفاية. فلا يكون المرءُ إذًا خائفًا، بل وصل إلى الطمأنينة بهذا المعنى إلى الله تعالى، فأيُّ شيء في الدنيا أنتَ مطمئن إلى كفاية الله ﷻ لك فيها. فإنْ أُعْطِيَ بعد ذلك شَكَر وإنْ مُنع صبر.

وهذا مُلخصه: أن البدن في العبادة، والقلب معلَّق بتدبير الرب، وهو مطمئن إلى كفاية الله له ﷻ، وساكن إلى قضائه وقدره، إنْ أُعطي شكر وإن مُنع صبر. وبذلك انتهت قصته مع الله تعالى: **قلبه متعلق به، وبدنه منشغل بعبادته، وساكن إلى قضائه وقدره، ومطمئن إليه.. مرتكن عليه.. واثق فيما عنده.**

والمسألة التالية التي يخاف الناس منها هي: هل التوكل معناه ترك الأسباب؟..

التوكل لا ينافي القيام بالأسباب

وهو إجماع من علماء الدين كافة: أن التوكل لا ينافي القيامَ بالأسباب، بل لا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بَطَالة وتوكلٌ فاسد.

فمَن تَرَك الأسباب في اكتساب الرزق مثلًا نقول له: هل يَترك المرءُ الأسباب ويُرزق بولد؟! أو يترك الأسبابَ ويَخرج الزرعُ وحدَه دون أن يُنَظِّفها - أي الأرض - ويلقي الحَبَّ فيها، ويحرثها ويرويها ويتعهدها ويُنَقِّيها من الحشائش الضارة؟!

فأجمع القومُ على أنَّ التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فلا يصح التوكلُ إلا مع القيام بها، وإلا فهو بَطَالة، كالذي يريد أن يكون متقدِّمَ القومِ في الدين والعلم، ولا يذاكر العلم، ولا يسعى إلى الآخرة، ولا يسعى سعيَ الصالحين في البذل والجُهد في تحقيق هذه الدرجة العليا عند الله تعالى، ويقعد عن العمل ويتمنَّى على الله أنه سيكون طيبًا، وسيقوم بعمل منهجٍ للتعلُّم والعبادة، وإن شاء الله يحفظ غدًا، وإن شاء الله يعمل كذا... وهذه هي الأماني الكاذبة. فالذي يريد أن يصل إلى هذه الدرجة فلا بد أن يبذل لها ما يصل به إليها، ثم بعد ذلك - بعد أن يبذل جهده ووقته - فإن ما سوى ذلك يقوم اللهُ تعالى به له، والنهاية والعاقبة لله تعالى، واللهُ تعالى يُكرمه على حسب نيته، وإخلاصه، ووقته، وجهده، وبذله الذي بذل.

التوكل حالُ النبي ﷺ.. هو سيد المتوكلين، والكسب سُنَّتُهُ

فالتوكل هو حال النبي ﷺ.. هو سيد المتوكلين، والكسبُ سنته، فمَنْ عَمِل على حال النبي ﷺ[1] فلا يَتْرُكَنَّ سُنَّتَه، وهذا معنى قول أبي سعيد[2]: «التوكل: هو اضطرابٌ بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب». يعني: أن ظاهرَ العبد متحركٌ في تحصيل الأسباب، وباطنَه ساكنٌ مع الله تعالى متوكِّلٌ عليه. هذا معنى الاضطراب: في ظاهره يأخذ بالأسباب المطلوبة، وباطِنُه ساكنٌ مع الله تعالى؛ لا يضطرب، ولا يتقلقل، ولا يتململ.

---

(١) «من عمل على حال النبي ﷺ» أي: من عمل عملًا يرجو به أن يتأسَّى بحال المصطفى ﷺ.

(٢) شَيْخ الصُّوفِيَّة، القُدْوَة، أَبُو سَعِيدٍ، أَحْمَد بن عِيسَى البَغْدَادِيّ، الخَرَّاز. وَقَدْ صَحِبَ سَرِيًّا السَّقَطِيّ، وَذَا النُّونِ المِصْرِيّ. قال الإمام الذهبي: «وَيُقَالُ: إِنَّهُ أَوَّل مَنْ تَكَلَّمَ فِي عِلْم الفَنَاء وَالبَقَاء، فَأَيُّ سَكْتَةٍ فَاتته قصد خيرًا، فولد أمرًا كَبِيْرًا، تشبَّث بِهِ كُلّ اتِّحَادِي ضَالٍّ بِهِ». وَتُوُفِّيَ سَنَة سِتٍّ وَثَمَانِيْنَ - أو سَبْعٍ وَسَبْعِيْنَ - وَمائَتَيْنِ. انظر: «سير أعلام النبلاء».

المبحث الثالث

حقيقة التوكل ودرجاته[1]

حقيقة التوكل أَنَّه حال مركبة من مجموعة أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وكلُّ من سبق ذِكْره من العلماء في المبحث الثاني أشار إلى واحدٍ من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر، فأَوَّلُ ذلك:

الدرجة الأولى: معرفةٌ بالربِّ وصفاته

أي: معرفةٌ بالرب وصفاته ﷻ، وكفايته، وقيُّومِيَّته، وانتهاءِ الأمور إلى علمه، وصدورِها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أولُ درجة يضع بها العبدُ قدمَه في مقام التوكل، وهذه هي الدرجة الأولى إجمالًا، ونفصل بعض الشيء:

«أن يَعْرِف العبدُ ربَّه ﷻ وأن يعرفَ صفاتِه»: فإذا عرف ذلك علم قدرته ﷻ، وعلم أنه قادر على أن يقوم له بكل شيء.

«وعرف كِفايَتَه» أي: عرف أنه ﷻ يكفيه كلَّ شيء يحتاجه، ويقوم بالكفاية له فيها[2].

---

(١) انظر - بتصرف كثير جدًّا -: «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم رحمه الله.

(٢) قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. وهذه الكفاية من الله للعبد تكون على قدر عبودية العبد لله. ولمزيد من التفصيل فارجع إلى شرح اسم الله «الحسيب» للمؤلف، وهو متوفر على هيئة خمس محاضرات صوتية على مواقع الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

«وقَيّومِيَّته» يعني: علم قيوميَّةَ الله تعالى، أي علـم أنَّ الله تعـالى قـائم عـلى كـل شيء، وأنَّ الله تعالى قائم على كلِّ نفس. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

«وعَلِمَ انتهاءَ الأمور إلى علمِه» أي: علم أنَّه عليم ﷻ، وكـلُّ أمـور الـدنيا والآخـرة والناسُ ظاهرُهم وباطنُهم وما كان وما يكون.. كلُّ ذلك بعلمه ﷻ. فإذا علمتَ أنه عـالمٌ بكل ذلك فإنك لا تشك لحظةً واحدة أنَّ ما يقوم عن علمه ﷻ يقوم على المصلحة؛ لأنَّـه عَلِمَ بما تؤول إليه الأمورُ، وعلـم مقاصـدَها ومـصالحها ومفاسـدها، وشرهـا وخيرهـا، وضرها ونفعها، وما ينفع لك وما لا ينفع لك، وكلَّ ما يتعلق بك، وكلَّ ما يتعلق بـأمورِ الدنيا والآخرةِ والإنسِ والجنِّ، والظـاهرَ والبـاطنَ، ومـا كـان ومـا يكـون ومـا يمكـن أن يكون.. فاطمأننتَ إلى علمِ الله تعالى بك، وإلى أنَّ ما يكون من صلاحٍ لك يَعلمـه فيُقَدِّره ﷻ، ومِن فسادٍ فيَدْفَعُه عنك جل وعلا.

و«صُـدُورَها عـن مَشِيئَتِه وقدرتِـه» أي: ويعلـم كـذلك مـن صـفات الـرب أنَّ كـل الأمور تصدر عن مشيته وقدرته.

فأنتَ أيها الإنسان المسكين عندما تقع بعضُ الأمـور لـك تقـول: «أنَّـى هـذا؟! لقـد كنتُ متوكلًا على الله تعالى، وكنتُ أريد كذا، وهذا الأمرُ سيُعَطِّلني!!». أنتَ إذن بحالك هذا قد فقدتَ المرحلة الأولى من مراحل التوكل؛ وهي أنْ تعلـم أنَّ كـلَّ أمـرٍ صـادِرٌ عـن مشيئة الله تعالى، فلا يـصدر شيءٌ في الكـون ولا يقـع ولا يمكـن أن يقـع إلا بمـشيئته ﷻ. فليس هناك ما يصدر عن غير مشيئة الله تعالى. فإذا علمتَ أنه صادرٌ عن الله تعالى وتَبَيَّنْتَه علمتَ أنه هو الأصلحَ، فينبغي لك أن تَسْكُنَ لـه وتـرضى بـه وتـسترسل معـه أينـما كـان؛ لِتَرْكِكَ اختيارِك لاختيارِ الله تعالى.

وهذه المعاني مهمة حتى يُفِيقَ الناسُ مما هم فيه من ركونهم إلى الدنيا، قوَّتهم وعِلْمهم والخوفِ من الواقع والمستقبَل، والخوفِ من فلانٍ وعلّان.. كلُّ ذلك ينفيه التوكل على الله.

الدرجة الثانية: إثباتٌ في الأسباب والمسببات، فإنَّ مَنْ نفاها فتوكُّله مدخول

فمَنْ نَفَى الأسبابَ فتَوَكُّلُه مدخول؛ أي غير صحيح. وهذا ردٌّ على من يقول أن التوكل هو التواكل. وتوكل هؤلاء مَدْخول؛ لأن نُفَاةَ الأسبابِ لا يستقيم لهم توكلٌ البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكّل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله اللهُ تعالى سببًا في حصول المدعُوِّ به. فإذا اعتقد العبدُ أن توكله لَمْ يَنْصِبْهُ اللهُ سببًا، ولم يجعلْ دعاءَه سببًا، وسواءٌ دعا أم لم يدعُ كان سيحدث ما حدث، وإنْ ذهب أو لم يذهب فسيحدث له ما حدث، فتوكله مَدْخول[1].

وقد يقول قائلٌ: «سواء أسافرتُ أم لم أسافر كان هذا الذي حدث هو الذي سيحدث»، نقول له: «لا.. ولكن هٰذا الذي حدث قد يكون متعلِّق بهذا السبب، فَقَدَرُ الله تعالى إنما هو متعلِّق بالسبب الذي نَصَبَهُ اللهُ تعالى له، كالزواج مثلًا، فمِنْ أين يأتي المرءُ بالولد من دون أن يتزوج؟!».

يقول: «والله إنْ كان المولى ﷻ قد كتب لِيَ الولدَ فسيأتي»!! كيف وأنتَ لم تأخذ بالأسباب؟! هذا من ناحية، والثانية: أنك لا تعلم هل الله ﷻ كتب لك هذا أم لا. فليس هناك أفسد من ذلك.

---

(١) وحاصل ما ذُكر أنَّ التوكلَ نفسَه يُعَدُّ من قبيل الأخذ بالأسباب، بل هو من أقوى الأسباب كما ذكرنا عاليه لتحصيل مُرادِ المرء ومطلوبه.

ومثال آخر: عندما يقول قائل: «والله إنْ كتب اللهُ ليَ النجاحَ فسأنجح، وإن لم يكتبه لي فلن أنجح، ولن أذاكر»!! يُقال له: «لا.. كَتب لك أن تنجح بالسبب؛ وهو المذاكرة، وكتب لك أن تَرْسُب بترك السبب؛ وهو ترك المذاكرة». وهذه الأقدار إنما هي مرتبطة بأسبابها، يعني هناك أقدار مرتبطة بالأسباب لا ينبغي للمرء أن يترك السببَ فيها ويظن أنْ يحدث له ما يريد.

فقد قضى ﷻ بحصول الشِّبَعِ إذا أَكَل العبدُ، والرِّيِّ إذا شرب، والحجِّ إذا أخذ في مناسكه وذهب إليه، والولدِ إذا تزوَّج ولم يكن هناك مانع من أن يُنْجِب.. وهكذا، فهذه الأمور متعلِّقة بأسبابها لا تقع بلا سبب، وقضى ﷻ بإنضاجِ الطعام بإيقاد النار تحتَه، فقضى الله تعالى أن تكون هذه الأمور مرتبطة بأسبابها. فلا بد من حدوث السبب لحدوث النتيجة أو المُسَبَّب.

وقد لا تحصل النتيجةُ لأي مانع من الله تعالى؛ فالناسُ قد تَزْرَعُ وتتعب ثم تأتي جائحةٌ[1] من الله تعالى من السماء تأخذ ذلك كله؛ لماذا؟ حتى لا يرتكن الناسُ إلى السبب. يقول المرء: «قد ذاكرتُ ثم رَسَبْتُ في الامتحان! فلِمَ ذلك؟!»، والجواب: أن ذلك حدثَ حتى لا تَرْكَنَ للسبب، فَخُذْ بالسبب وقَلْبُكَ مُرْتَكِنٌ لله تعالى.

فـ«اضطرابٌ بلا سُكون» معناه إذًا: أن يأخذ المرء بالسبب، ولكنَّه ساكنٌ مع الله تعالى، يعلم أنَّه يأخذ بالسبب الذي أمره اللهُ به، ولكن لا يرتكن إليه، فقد لا يأتي السببُ

(١) «جاحَ الشيءَ»: اسْتَأْصَلَه، ومنه «الجائحة»، وهي: الشِّدَّةُ التي تَجْتاح المالَ من سَنَةٍ أو فِتْنة. يقال: «جَاحَتْهُم الجائِحةُ، واجْتاحَتْهُم». و«جاحَ اللهُ مالَه» و«أجَاحَه» بمعنًى، أي: أَهْلَكَهُ بالجائِحة. انظر - بتصرف: «مختار الصحاح»، مادة: [ج وح].

بالعاقبة المطلوبة. وقد ينتفي السببُ نفسُه ولا يقع له شيءٌ[1]. وعلى عكس هذا: شخصٌ قلبه متعلِّق بالسبب، يقول: «فلانٌ سيقضي لي المصلحةَ الفلانية»، فيذهب إلى فلانٍ هذا فيجده قد مات!! وهكذا، فلا بد أن يكون المرءُ قلبُه متعلِّقًا بالله تعالى في حصول كلِّ شيء، وألا يضطرب هذا السكونُ، وأن يرضى بالواقع.

الدرجة الثالثة: رُسوخ القلب في مقام توحيد التوكل

يعني لا يستقيم توكلُ العبد حتى يَصِحَّ له توحيده، بل حقيقةُ التوكل توحيدُ القلب، فما دامت فيه - أي في القلب - علائِقُ الشِّرك، فتوكُّلُه معلولٌ؛ أي به عِلة، وعلى قَدْرِ تجريد التوحيد لله تعالى - يعني على قدر ما تُوَحِّد ربَّك ﷻ بأنه الكافي والقادر والقوي والعليم والحفيظ والغني والوفي، وأنه يقوم لك ويقوم معك على قدر هذا التوحيد والتعلُّق بالله تعالى، يكون قَدْرُ التوكل في القلب.

«**فإنَّ العبدَ متى التفتَ إلى غير الله تعالى، أخذ ذلك الالتفاتُ شُعْبةً من شُعَبِ قلبِه**».
يعني: إذا التفتَ العبدُ إلى غير الله تعالى أخذ ذلك الالتفاتُ شُعْبةً من شعب التوحيد من هذا

---

(١) وهذا واقعٌ ومشاهدٌ؛ فقد يَمْرَض العبدُ ولا يأخذ بالأسباب من الذهاب إلى الطبيب وأخذِ الدواء، وبالرغم من ذلك يشفيه الله تعالى بغير سبب. وقد يكون الزوجان عقيمين قد جزم الأطباء باستحالة إنجابهما فيَهَب الله لهما الولد، وقد ذكر الله تعالى شِبْهَ ذلك في قصة نبي الله زكريا عليه السلام: كانت امرأته عاقرًا وبَلَغَ هو عليه السلام من الكِبَرِ عِتيًّا، وبالرغم من ذلك وهب اللهُ له الولد. ومثالٌ آخر لخَرْقِ الله تعالى نواميسَ الكون - فتَحْدُث النتيجة بدون السبب - قصة مريم عليها السلام، كلَّما دخل عليها زكريا المحرابَ وَجَد عندها رزقًا لم يَسْعَ مخلوقٌ في تحصيله لها. وقد بَيَّن المؤلف كثيرًا من المعاني المهمة المتعلقة بما سبق في رسالة: «يا زكريا إنا نبشرك بغلام» فارجع إليها للأهمية.

القلب، فنَقَصَ من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة. وهذه مسألة مهمة! ينبغي أن يُجرِّد فيها المرءُ توحيدَه لربه ﷻ، وأن يكون غِناه به وافتقارُه إليه جل وعلا، وأنْ يعلم أنه القادر كما ذكرنا في الدرجة الأولى وهي: «معرفتُه بربه ﷻ وبصفاته.. من القدرة والكفاية والقيومية، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدور الأمور عن مشيئته وقدرته جل وعلا».

فالتوكلُ لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب: فافهمْ هذه المسألة حتى تعلم كيف يُترك السبب. فالقلبُ يرفضها، أي لا يتوكل عليها، ولا يعتمد عليها، وتتعلق الجوارحُ بالأسباب، فيكون المرءُ منقطعًا منها: أي منقطع القلب من الأسباب، متصلًا بها: أي متصل الجوارح بهذه الأسباب، ومتصلٌ بالله ﷻ.

فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها: فعندما يكون في قلبك شيءٌ من الأعمال المتعلِّقة بالجوارح دل ذلك على ذهاب شُعبةٍ من شعب القلب في التوكل، وشعبةٍ من شعب الإيمان، وعدمِ تجريد التوحيد لله تعالى في كل أمورك.

هذه المسألة نتعلمها ونبدأ في تحقيقها من هذه اللحظة في وقتنا.. في عِلمنا.. في مالنا.. في جاهنا.. في سعينا.. في كلِّ شيء.

الدرجة الرابعة: اعتمادُ القلب على الله تعالى واستناده إليه وسكونه إليه

كيف يكون ذلك بحيث لا يبقى في القلب اضطراب من آثار الأسباب؟ فالأسبابُ تُشوش على القلب، يقول قائل: «وماذا أفعل؟ ليس معي نقود؟» يُقال له: «توكَّل على الله تعالى»، يقول: «نحن متوكلون على الله، فأين النقود والأموال؟». وهذا من عدم السكون، وهو ما يُسمى بتشويش الأسباب على القلب.

وعلامة هذا - أي علامةُ اعتماد القلب، واستناده إلى الله تعالى - أَلَّا يُبالي بإقبال الدنيا، ولا بإدبارها، ولا يضطرب قلبُه ويَخفِق[1] عند إدبار ما يحب منها. فأولُ ما يذهب منه شيءٌ يريده المرءُ يضطرب قلبُه، ويَحدث له هذا الاضطراب والتشويش الذي يراه المرءُ من نفسه، فتجده متضايقًا وحزينًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! وهذا هو معنى اضطراب القلب وخفقانه عند إدبار ما يحب أو عند إقبال ما يكره.

فحال المُعتمِد على الله تعالى المستنِد إليه هو حالُ مَن خرج عليه عدوٌّ عظيم، لا طاقةَ له به، فرأى حِصنًا مفتوحًا، فأدْخله ربُّه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطرابُ قلبِه وخوفُه من عدوه في هذه الحال لا معنى له!!

أي إن التوكل على الله كهذا المعنى: أنَّ العدوَّ قد خرج عليك، فأَدْخلَك المولى ﷻ الحصنَ، وأغلق عليك الباب، وأمَّنَكَ ﷻ بهذا التوكلِ والاستنادِ عليه، وأنه هو القوة الدافعة لك، وهو المُؤَمَّل لك في ذلك كلِّه.. فحينئذٍ إنْ خَفَقَ قلبُك واضطرب فيكون ذلك لا معنى له.

ومثال ذلك: مَن أعطاه المَلِكُ درهمًا فسُرِق منه، فقال له الملك: «عندي أضعافُه، فلا تهتمَّ، متى جئتَ إليَّ أعطيتُك من خزائني أضعافًا»، فإن عَلِم صحةَ قول المَلِك، ووَثِق به، واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك، لم يُحزنه فوتُه.

وكذلك الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه، لا يعرف غيرَه، وليس في قلبه التفاتٌ.. كما قال بعض العارفين: المتوكِّل كالطفل مع ربه تعالى، لا يعرف الطفلُ شيئًا يأوي إليه إلا ثَدْيَ أمه. كذلك المتوكِّل؛ لا يأوي إلَّا إلى ربه ﷻ.

---

(١) خَفَقَ الشيءُ، يَخْفِق ويَخْفُق، خُفُوقًا وخَفَقانًا: اضْطَرَب وتَحَرَّك. انظر: «المعجم الوجيز»، مادة: [خ ف ق].

الدرجة الخامسة: حُسن الظن بالله ﷻ

وعَكْسُ حُسن الظنِّ هو سوء الظَّنِّ الذي يقع فيه الكثيرُ من الناس، ومثال سوء الظن أن تقول لأحدهم: «إنَّ الله قوي سيمنعك»، فيقول: «كيف؟!».

يقال له: «المولى غنيٌّ، لا تخفْ، سيعطيك»، يقول: «مِن أين؟!».

يقال له: «المولى يقوم لك بهذا الأمر»، يقول: «وكيف يحدث هذا؟!».

وهذا هو سوء الظنِّ بالله تعالى، لذلك فهذه الدرجة التي أشرنا إليها من الأمور المهمة في التوكل: «حسن الظن في الله ﷻ». وهذا - أي سوء الظنِّ - قادِحٌ في توحيد المرء: في أنَّ الله تعالى قادرٌ، وأنَّه غني، وأنَّه قوي، وأنَّه عليمٌ، وأنَّه مليء، وأنَّه يُوَفِّي لعباده، وأنَّه الحفيظ، والكفيل.. إلى آخر هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا.

فعلى قَدْرِ حُسن ظنك بربك ﷻ ورجائك فيه، يكون توكُّلُك عليه. ولذلك فسَّر بعضُهم التوكلَ بحسن الظن بالله تعالى، والتحقيق في هذه المسألة: أنَّ حسنَ الظن بالله يدعو العبدَ إلى التوكل عليه، إذ لا يُتصور أن تتوكل على مَن ساء ظنُّك به. فينبغي على المرء أن يُحسن ظنَّه بالله تعالى، وأن يَدعُوَه أن يوفِّقه إلى التوكل عليه، وكما لا يُتصور التوكل على من ساء ظنك به، فكذلك لا يُتصور التوكل على مَنْ لا ترجوه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعته

استسلام القلب لله تعالى، وانجذاب دواعي القلب إلى ربه ﷻ: أي ليس هناك ما يدعو القلبَ إلَّا إلى الله تعالى، فلا تنجذبُ هذه البواعث في القلب إلا لله تعالى؛ لا للدنيا والهوى والمال والأسباب والجاه والسلطان والنظر إلى الصور، ولا للواسطة والعلم

والفهم والعقل... إلخ. وإنما كلُّ دواعي القلب يمينًا وشمالًا إنما تنجذب لله تعالى، وتتعلق به بعد استسلام القلب له.

وهذا معنى القلب السليم في بعض التفاسير: وهو القلب السالِم لله تعالى من كل ما سوى الله تعالى.

ومعنى «وقَطْعُ منازعتِه»: أن يقطع العبدُ عن القلب منازعتَه لله تعالى، فلا يُنَازِعُ اللهَ تعالى فيما فعل؛ لا في ظاهِره وباطِنِه، ولا بالكلامِ ولا غيرِه، يقول: «الحمد لله على ما حَدَث» وهو في قلبه حزينٌ ومتضايقٌ على ما وَقَع به، ومُتَأَفِّف من ذلك الحادث الذي أنزله اللهُ تعالى به، ومن هذا الحُكْم الذي قضى اللهُ تعالى عليه، ويقول: «الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله» بأسلوب التأفُّف! وهذا دليلٌ على أنه لم يقطع منازعتَه لربه، ولم يستسلمْ له ﷻ استسلامَ المحبِّ.. استسلامَ المُوَحِّد.. استسلامَ المتعلِّق بالله.. استسلامَ المفوِّض له أمره.. استسلامَ الواثق فيه.. استسلامَ المتوكِّل عليه.

فعلى المرءِ أن يقطع منازعتَه لله تعالى: فأول مَا يَنْزِلُ به شيءٌ من البلاء يكون فَرِحًا به؛ لأنه وَكَّل ربَّه فيه، وعَلِم أنه قضى له بأحسن القضاء، حتى ولو كان هذا القضاءُ - في ظاهره - مُرًّا، أو كان في ظاهره كذلك مصيبةً أو محنةً أو سُوءًا، وإنَّما كلُّ ذلك للعبد، وإنما يقضي له ﷻ الخيرَ. لذلك فعلى العبد أن يقطع منازعتَه لربِّه.. أنتَ مُتوكِّلٌ فلا تُنَازِعْ مولاكَ إذًا في شيءٍ من هذه الأمور، وبهذا فسَّره من قال: «**التوكلُ أن يكون العبدُ بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسِل يُقَلِّبه كيف أراد**».

وهذا معنى أيضًا قولِ بعضهم: «**التوكلُ إسقاطُ التدبير**»، يعني: الاستسلامُ لتدبير الربِّ لك.

وقد يسأل امرؤٌ: «هل معنى ذلك أن نترك الأسباب؟».

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «هذا في غير باب الأمر والنهي»، أي: هذا فيما يفعله بك ﷻ، لا فيما يأمرك به. فاستسلامُك لله تعالى يعني: الاستسلامُ لتدبير الرب لك فيما يفعله بك، لا فيما يأمرك به. فما يأمرك به ليس فيه هَزْل، قال لك: «افعلْ»، فعليكَ أن تفعل، قال لك: «لا تفعلْ»، انتهى.. لا تفعل. فإذا قصَّرتَ في الواجبات وأعمال الإيمان والطاعات، هل هذا من باب الاستسلام لتدبير الله؟! لا، تدبيرُه فيما يفعله بك لا فيما يأمرك به - كما ذكرنا - ولذلك: **فأنتَ مُسْتَسْلِمٌ فيما ينزِل بك من الله تعالى، ومجتهدٌ فيما أمرَك به أن تأتِيَه، ومجتهدٌ فيما نهاكَ عنه أن تَجتنِبَه.**

وهذه المسألة عالية، ونحن نتكلم على قدر أهل العلم في الماضي، فقد كانوا يتكلمون بهذا الكلام وهم متحقِّقون به، فلم يكونوا لِيَخْتلِقوا قصصًا لم تكن قد وقعتْ أو حدثت، وأن هذه القصص مما يَقْضُون به مجالسهم، أو يتكلموا بما لا يعلمون، أو يتكلموا بما لا يعملون. لا، بل كانوا يعملون بما يقولون، وكانت هذه الأحوالُ أحوالَهم الحسنة التي نتكلم عنها. لذلك فكلُّ هذه المعاني التي ذكرنا هي لسان حال هؤلاء العلماء، يعني أنهم عاشوا هذه الحالة فقال: «التوكل كذا..»، هذه الحالة كانوا يَحيَوْنها هم مع الله تعالى، ويتحققون بها، لا أنهم يقولون كلامًا فقط كما نحكي نحن مع بعضنا، ونَفَضُّ المجلس، ولا نعمل بهذه المعاني.

والاستسلامُ: كتسليم العبدِ الذليل نفسَه لسيِّده، وانقيادِه له، وتركِ منازعات نفسه وإرادته مع سيده. فالعبدُ الذليل مُسْتَسْلِم تمامَ الاستسلام لربه ﷻ، منقادٌ لأوامره وإرادته فيما يريده ربُّه ﷻ، وترتيبِه فيما رتَّبه له المولى ﷻ.

الدرجة السابعة: درجة التفويض

فالتفويضُ هو روح التوكل ولُبُّه وحقيقتُهُ، وهو: إلقاء العبدِ أمورَه كلَّها إلى الله تعالى وإنزالُها به، طلبًا واختيارًا، لا كُرهًا واعتراضًا، كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كلَّ أموره إلى أبيه العالِم بشفقته عليه، ورحمتِه له، والعالِمِ بتمام كفايته، وحسنِ ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أنَّ تدبيرَ أبيه له خيرٌ من تدبيره لنفسه، وقيامَه بمصالحه وتوَلِّيَه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالح نفسه وتولِّيه لها، فلا يجد له أصلحَ ولا أرفقَ من تفويض أموره كلها إلى أبيه، فهذا أصلحُ شيءٌ له. هو عاجزٌ لا يستطيع أن يقوم بأموره، وضعيفٌ لا يستطيع أن يقوم بها، وجاهلٌ بوجوه المصالح فيها، ففَوَّض أمورَه كلها إلى أبيه.

وقد سبق أن ذكرنا: أنَّ المرء يُفوض أمرَه إلى العالِم الرفيق الشفيق، الذي لا يطلب شيئًا نظيرَ وَكالته، لا مالًا ولا أُجرةً عليها؛ لأنه لو لم يكن شفيقًا به لضَيَّعَه. ولو كان هذا الوكيلُ يطلب مالًا لو أعطاه أحدٌ آخر هذا المال لأهمله، ولو كان جاهلًا لَـمَا قام بهذا الأمر، ولو كان غيرَ مُقتدِر ما استطاع. لذلك يُفَوِّض المرءُ أمورَه إلى العالِم القادر الشفيق، الذي لا يطلب على وَكالته أجرًا ولا شيئًا.

فإذا وضع المرءُ قَدَمَه على هذه الدرجة، فلا يجد أعلمَ ولا أشفق به ولا أرحم به من الله تعالى، ولا يريد منه ﷻ شيئًا نظيرَ ذلك. فإنْ وكَّل وفوَّض أمرَه إلى الله تعالى، قام له المولى ﷻ على تمام الكفاية، وعلى أحسن المصالح، وتولاه أحسنَ الولاية، ودبَّر له أحسن التدبير، وقام بمصالحه أحسنَ القيام. فإذا وضع قدمَه في هذه الدرجة، انتقل إلى الدرجة الثامنة وهي: درجة الرضا..

الدرجة الثامنة: درجة الرضا

وهي ثمرةُ التوكل، ومَن فسَّر التوكلَ بأنه الرِّضا بما يفعل، فسَّره بنتيجته لا بنفسه، ففسره بأَجَلِّ ثمراته وأعظم فوائده. فإنه إذا توكَّل المرءُ حقَّ التوكُّل رضيَ بما يفعله وكيلُه، فإذا توكلتَ على المولى ﷻ رضِيتَ بما وكَّلْتَه فيه، ورضيتَ بما يفعله لك. أمْ أنك تُوكِّله ثم تقول له ﷻ بلسان حالك: «لِمَ فعلتَ ذلك؟!.. وكيف تفعل ذلك؟! وكل ذلك لا يجوز في حق الله تعالى، لا يجوز ذلك مطلقًا.

وكان الإمام ابن تيمية رحمه الله[1] يقول: «المقدورُ يَكْتنِفه أمرانِ: التوكلُ قبْلَه والرضا بعده». يعني أن أي شيء يحدث للعبد فهو مقدورٌ؛ قدَّره اللهُ تعالى على عبده وكتبه عليه. فمَن توكَّل على الله قبْل الفعل ورضي بما قضاه الله سبحانه بعد الفعل، فقد قام بالعبودية التي اقتضاها، وهذا معنى جميل.

وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ**»[2]. فتَوَكَّلَ العبدُ على الله وفوَّض أمرَه

(١) انظر ترجمته رحمه الله في شرح اسم الله تعالى «القدوس».

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه: [١١٦٢]، وتمامه: «عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رضي الله عنهما - قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: **إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي**

إليه، لذلك قال: «**فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَتَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**». فأنتَ أيها العبد المُوَكِّلُ المسكين قد تبرأتَ من كل حولٍ، ومن كل علمٍ، ومن كل قوةٍ، إلى علم الله وحولِه وقوتِه، وقد أثبتَّ الحول والعلم والقوة لله تعالى، ونَفَيْتَها عن نفسك أيها المسكين: «**فَإِنَّكَ** - يا رب - **تَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَتَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**»، فهذا تَبَرُّؤٌ إلى الله تعالى من العلم والحول والقوة، وفي نفس الوقت تَوَسُّلٌ إليه ﷻ بأسمائه وصفاته التي هي أَحَبُّ ما تَوَسَّل إليه بها المتوسِّلون.

ثم سأل العبدُ ربَّه أن يقضي له ذلك الأمرَ إنْ كان فيه مصلحتُه عاجلًا أو آجلًا، وأن يَصْرِف عنه هذا الأمرَ إن كان فيه مَضَرَّتُه عاجلًا أو آجلًا. فهذه هي حاجتُه التي سألها، فلم يبقَ عليه بعد ذلك إلا الرضا بما يقضيه الله تعالى له، فقال: «**وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ**».

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، والتي مِن جُمْلَتِها التوكلُ، والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعد أن يقع هذا المقدور وهو ثمرة التوكل.

والتفويضُ لله تعالى علامةُ صحة التوكل، فإنْ لم يرضَ بما قُضِيَ له فتفويضُه فاسد معلولٌ، فلم يُفَوِّضْ ولم يتوكلْ مِنْ أَصْلِه على الله تعالى!! فأنتَ قلتَ له ﷻ: «**أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ**»، ثم أنتَ بعد أن يقع عليك القضاءُ تقول: «أنا لم أكن أُريد هذا.. أنا كنتُ أريد أمرًا آخرَ»، فتقع في منازعةِ الرب ﷻ

دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ - قَالَ - وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ».

والاعتراضِ، وتركِ التسليم والرضا بما كان، وذلك يدل على ترك التفويض الذي هو لُبُّ التوكل.

وباستكمال هذه الدرجات الثمان، يستكمل العبدُ مقامَ التوكل، وتَثْبُتُ قدمُه فيه، وهذا معنى قولِ بِشْر رحمه الله: «يقول أحدُهم: «توكلتُ على الله». يَكْذِبُ على الله!! لو تَوَكَّلَ على الله لرَضِيَ بما يفعله اللهُ به». وقال يحيى بن معاذ رحمه الله وقد سُئِل إلى متى يكون الرجل متوكِّلًا؟ قال: «إذا رَضِيَ بالله وكيلًا».

المبحث الرابع
بعض صور اشتباه التوكل الصحيح المحمود ببعض المعاني المذمومة[1]

وكثيرةٌ هي الصور التي يشتبه فيها التوكل الصحيح المحمود بالمعاني المذمومة، ويظن أصحابُها أنهم متوكِّلون على الله، وهذا الحال مما ينبغي أن يَنظر فيه المرءُ، وهو الغالب من حال أهل الإيمان اليوم إلا مَن رحم الله.

الصورة الأولى: اشتباه التفويض بالإضاعة

كثيرًا ما يَشتبه في هذا الباب المحمودُ الكاملُ بالمذمومِ الناقص، فيَشتبه التفويضُ بالإضاعةِ؛ فيُضَيّعُ العبدُ حظَّه من الله تعالى ظنًّا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لا تفويض.

فنجد المرءَ قد ضيَّع ما ينبغي أن يكون سببَ إقباله على الله وتوكله عليه، ثم يقول إنه يتوكل على الله! فبدلًا من أن يعمل الأعمال على أقصى ما يمكن من البذل والجهد، تجده يقول كقول عموم الناس: «الحمد لله.. عَمِلْنا الذي علينا والباقي على الله»! وهو لم يفعل حقًّا ما عليه. فضَيَّع حظَّه من الله تعالى، سواء فيما أمره اللهُ تعالى به، أو في حظِّ قلبه من إقباله على ربه، أو في حظ قلبه من التفويض والتسليم إليه ﷻ الحقيقي. وهذا حالُنا جميعًا إلا من رحم اللهُ.. فلا يوجد أحدٌ يبذل على المعنى الذي به يُحصِّل هذا الحظَّ من الله

---

(١) انظر - بتصرف كثير جدًّا: «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم رحمه الله.

تعالى، يُضَيِّعُ حظَّه وهو يظن أنه عَمِل ما عليه، وأنه والحمد الله فَوَّض أمرَه إلى الله، وأنه متوكِّل على الله في الباقي!

الصورة الثانية: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز

وأيضًا مما يَشتبه فيه المحمودُ بالمذموم: اشتباه الثقة بالله من جهةٍ، والغرور والعجز من جهة أخرى. والفرق بينهما: أنَّ الواثق بالله قد فعل ما أمره اللهُ به، ووَثِق بالله في طلوع ثمرته وتَنْمِيتها وتَزْكِيتها، كغارسِ الشجرة وباذِر الأرض. أما المُغْتر العاجز فقد فرَّط فيما أمره الله به، وزعم أنَّه واثق بالله! والثقةُ إنما تصحُّ بعد بذل المجهود.

ومثالٌ لاشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز: أنْ تجد المرءَ لا يستطيع القيام للصلاة، أو عَجَز عن أن يصوم أيامًا، أو عجز أن يبذل مالًا أو جهدًا أو وقتًا - في دعوةٍ أو غيرها من أعمال الدين. وهو المُتَسبِّب في هذا العجز، وبذل شيئًا لا يوازي ما ينبغي أن يبذله. فيَشْتبه عنده التوكلُ، يقول: «أنا متوكِّل على الله.. فقد بذلتُ، وواثِقٌ في أنَّ أمر الله تعالى سيَتِمُّ»، ونام على هذا الحال. فيُقال له: «هذا ليس ثقةً في الله، وإنَّما هو غُرور وعجزٌ منك».

وليس الغرورُ هنا بمعنى التكبُّر، ولكنَّ المغرور هنا بمعنى أنه قد غُرِّرَ به، كما يقول المولى ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فلا تَعني متاع الكِبر، ولكن تعني الشيءَ الذي يُغْتَرُّ به المرء، ثم يراه زائلًا، لا يرى له حقيقةً، وإنما هو كأضغاث الأحلام.

لذلك معنى اشتباه الثقة بالله بالعجز والغرور - أي: غُرور المرءِ بما يَفعل - أنْ يتخيل أنَّ ما فعله له قيمة، أو أنَّ عجزَه هذا الذي تَرَك به الأعمال ثقةٌ في الله، أو حسنُ

ظنٍّ به، أو توكلٌ عليه ﷻ!! وهو في الحقيقة كان ينبغي أن يَخْرج من هذا العجز إلى كمال العمل وإتمامه وبَذْل الوُسع واستفراغِ الجهد فيما يقوم فيه لله تعالى، حتى يصحَّ له هذا التوكلُ.

الصورة الثالثة: اشتباه الطُّمأنينة إلى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلى المعلوم

ومنها اشتباه الطمأنينة بالله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم(١) وسُكون القلب إليه، ولا يُميِّز بينهما إلا صاحبُ البصيرة، كما ذُكر عن أبي سليمان رحمه الله(٢) أنه رأى رجلًا بمكة لا يتناول شيئًا إلا شَربةً من زمزم، فمرَّ أبو سليمان عليه يومًا فقال له: «أرأيتَ لو غارَتْ زمزم، فأيُّ شيءٍ كنتَ تشرب؟!»، فقام الرجل وقبَّل رأسه وقال: «جزاكَ الله خيرًا حيث أرشدتني، فإني كنت أعبدُ زمزم منذ أيام»! ثم تركه ومضى. فنبَّهه أبو سليمان رحمه الله على أنَّه كان معتمدًا على وجود زمزم، لا متوكِّلًا على الله تعالى؛ لأنه

---

(١) المقصود بـ«المَعْلوم» هنا: الدَّخْل أو الرَّاتب.

(٢) الإِمَامُ، الكَبِيْرُ، زَاهِدُ العَصْرِ، أَبُو سُلَيْمَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ أَحْمَدَ - وَقِيْلَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَطِيَّةَ، وَقِيْلَ: ابْنُ عَسْكَرٍ - العَنْسِيُّ، الدَّارَانِيُّ. وُلِدَ فِي حُدُوْدِ الأَرْبَعِيْنَ وَمائَةٍ. أصلُه واسِطِي. سكن دمشق. وَرَوَى عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وغيره. قال الحافظ في «تقريب التهذيب»: «ثِقَةٌ، لم يَرْوِ مُسْنَدًا إلا واحدًا، وله حكايات في الزهد» اهـ. من أقواله الحَسَنة: «مَنِ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ شُغِلَ عَنِ النَّاسِ، وَمَنِ اشْتَغَلَ بِرَبِّهِ شُغِلَ عَنْ نَفْسِه وَعَنِ النَّاسِ». وعنه: «مَنْ وَثِقَ بِالله فِي رِزْقِهِ، زَادَ فِي حُسْنِ خُلُقِهِ، وَأَعْقَبَهُ الحِلْمَ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ، وَقَلَّتْ وَسَاوِسُهُ فِي صَلَاتِهِ». وَعَنْهُ: «الفُتُوَّةُ أَنْ لَا يَرَاكَ اللهُ حَيْثُ نَهَاكَ، وَلَا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ». مات سنة اثنتي عشرة ومائتين. انظر: «السير» للذهبي [١٠/ ١٨٣]، و«تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر.

لو كان معتمدًا على الله تعالى واثقًا به، لعَلِمَ أن رِزْقَه ليس بزمزم، وأنَّ ماءه ليس بزمزم، وشُرْبَه ليس بزمزم، وإنما هو من عند الله تبارك وتعالى!

وهذه من المسائل التي ينبغي أن نتعلمها: فمعناها أنَّ الأحوال تَشتبه عند المرءِ بين التوكل على الله وسكون القلب إليه، وبين اطمئنانه إلى ما في جَيْبِه، يعني اطمئنانه إلى الشيء.

فلا يكن إذن يَقِينُك على فلانٍ ولا على ما في جَيْبك من نقود، فيقينُ المرء وثقتُه لا يُميز بينهما إلا صاحبُ البصيرة، الذي يميز فعلًا بين أنَّه راكنٌ إلى الله تعالى أم أنَّه راكنٌ وساكن إلى ما لهُ عند فلان، أو إلى مالِهِ هو، أو إلى ما يملِك، أو ما سيقوم له به فلانٌ، وأنه متوكل على الله تعالى! لا، هو متوكِّل في هذه الأحوال التي ذكرنا على فلانٍ.. متوكِّل على ماله.. متوكِّل على عقله، ومَثَلُه كمَثَلِ الرجل الذي ذكرنا أنه متوكلٌ على زمزم.

وأكثرُ المتوكلين سُكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم، وهم يظنون أنه - أي توكُّلهم - على الله، وعلامة ذلك - أي علامة أنهم متوكِّلون على المعلوم - أنه متى انقطع معلومُ أحدِهم، حضره الهَمُّ، وحضره بَثُّه وخوفه، فعَلِمَ أن طُمأنينته وسكونه لم تكن إلى الله تعالى!

الصورة الرابعة: اشتباه خَلْعِ الأسباب بتعطيلها

ومما يَشتبه فيه المحمودُ بالمذموم اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها، فخلْعُها توحيدٌ، وتعطيلُها إلحاد وزَنْدقة، فخلعها عدمُ اعتمادِ القلب إليها مع قيامه بها، وتعطيلُها إلغاؤها على الجوارح.

الصورة الخامسة: اشتباه الرضا عن الله بعزم المرء

أي اشتباه الرضا عن الله تعالى - بكل ما يفعله بعبده مما يحبه ويكرهه - بعزمه على ذلك وحديث النفس به، وذلك شيءٌ والحقيقة شيء آخر.

وهذا أمر مهمٌّ جدًّا: أن الرضا عن الله تعالى لا بد أن يكون حالةً للعبد، لا حديثَ نفسٍ، بأن يقول المرء: «إن شاء الله عندما يحدث لي كذا سوف أرضى عن الله»!!

وقد حُكي عن أبي سليمان رحمه الله أنه قال: «أرجو أن أكون قد أُعْطيتُ طرَفًا من الرضا، لو أدخلني النارَ لكنتُ بذلك راضيًا». وهذا كلامٌ من كلام الصوفية، ويردُّ عليه شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذا عزمٌ منه على الرضا، وحديثُ نفسٍ به، ولو أدخله النارَ لم يكن من ذلك شيء».

فلا يَشتبه عندك حالُ الرضا بالعزم على الرضا، وإنَّما تُحَقِّقُ في نفسك أن تَنْزِل منزلة الرضا نفسَها.. أنْ تكون فيها، وليس قولُك: «إن شاء الله لو حدث كذا سأرضى..» هو منزلةَ الرضا، ولكنه العزمُ وحديث النفس، ولكن قُل: «أنا راضٍ اليوم وغدًا بما فعله الله تعالى، وبما يفعله، وبم سيفعله»، وادعُ اللهَ تعالى أن يُحقِّق لك هذا المعنى من معاني الرضا، واستَمْطِرْ رحمةَ الله تبارك وتعالى أن يُقيمك في هذه المنزلة، وأنْ يقيمك في هذا المقام من مقامات المحبة والقرب منه سبحانه وتعالى.

والسؤال الذي قد يسأله المرءُ في هذا الموضع، هو: «لم أكن راضيًا حتى يحدث الحدثُ، فكيف إذن يَشتبه العزم وحديثُ النفس بالرضا؟».

والجواب له: أن الرضا منزلة عالية لا بد أن ينزلها العبدُ، بأن تكون نفسُه منشرحةً بأوامر الله تعالى وأحكامه وقضائه، وقد نَزَلها قبل أن يكون حديثَ النفس. وهذه منزلة عالية بعض الشيء لأنها أعلى من منزلة الصبر، فالرضا هو انشراح النفس وسُكونها لمقدور الله تعالى، وهذا غير حديث النفس: أنه إن حدث شيء فسيرضى، لا.. بل هو نَزَل منزلة الرضا نفسَها، فهو في منزلة الرضا وليس في مرحلة أنه سيجاهد نفسه على الرضا، لا.. بل هو قد نَزَلها مُنْشَرِحَ النفس بها، متعلِّقًا بالله تعالى في حدوث ما يحدث أو في منع ما يَمتنع، وهو ساكنٌ تحت المقدور بما يَنْزِل به من الله تعالى، لا يُحدِّث نفسه بالرضا، بل قد نزل منزلةَ الرضا حقيقةً.

المهم أنَّ المرء نَزَل أو لم يَنْزِل: هو راضٍ.. نزل أو لم ينزل: هو منشرِح بأمر الله تعالى.. نزل أو لم ينزل: هو ساكنٌ تحت مقدور الله تعالى.. نزل أو لم ينزل: فسُرُوره في مواقع القضاء.. نزل به شيءٌ أو لم ينزل به شيءٌ: هو منشرِح بالله تعالى راضٍ به.

الصورة السادسة: اشتباه عِلْم التوكل بحال التوكل

ومنه اشتباه علم التوكل بحال التوكل، فكثيرٌ من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله، فيظن أنه متوكل، ولكنه ليس من أهل التوكل! فحال التوكل أمرٌ آخر من وراء العلم به، فليس كلُّ مَنْ عَلِمَ التَّوَكُّلَ صار التَّوَكُّلُ حالًا له، أو مقامًا له، يعني أنَّ حاله لم يصبح من الأحوال الحسنة التي هو فيها متوكِّل على الله.

فلا بد للمرء بعد أن عَلِمَ التوكلَ أن يُحقِّق في نفسه حالَ التوكل. فالعلمُ شيءٌ، والعملُ به والحال شيء آخر. علمُ التوكل.. وتفاصيله.. ودرجاته.. وحالاته، هل

بمجرد عِلْم المرء هذا صار متوكلًا على الله، أم أنه لا بد بعد عِلْمِ التوكل أن يتحقق بحال التوكل؟ لأنه عند الامتحان يُكْرَم المرءُ أو يهان، فيَظهر هل العلمُ الذي تعلَّم صار مقامًا له حقيقةً أم لا؟ هل صار حالًا له أم لا؟ لذلك يَشتبه!!

ومثالُ هذا كمعرفة المحبةِ والعلمِ بها وأسبابِها ودواعِيها، وكمعرفة علم الخوف: فهل لو تعلَّم المرءُ محبة الله ﷻ، وأسباب المحبة، ودواعي المحبة، ودرجات المحبة.. وكل هذه المعاني من معاني المحبة، صار مُحِبًّا لله تعالى، وقدَّم محابَّ الله تعالى على جميع المحابِّ، وانتقل إلى هذه الحال التي تتبين فيها أعلى درجات الدين؟!

ومثال آخر: علم الخوف، فعِلم الخوف شيءٌ وحال الخائف شيء آخر، فنحن نعلم الخوفَ من الله تعالى، والخوف من الموت، والخوف من الحساب، والخوف من الخاتمة السيئة، والخوف من السابقة، والخوف من النار، والخوف من الحشر والبعث والصحف.. فهل ظهرت على الناس أحوالُ الخوف؟ وصار الخوف لهم حالًا يظهر عليهم في أحوالهم؛ من البكاء، والمسارعة إلى الله تعالى؟ ومِن كذا وكذا.. مما يظهر على أحوال الخائفين؟ الحمد لله! ليس هناك من يبكي على حاله، ولا على أي شيء، فهذا حالُ مُدَّعٍ!

فهذا الباب يكثر فيه اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمقالد، والآفات القاطعة بالأسباب المحصِّلة، واللهُ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والتوكلُ من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنى؛ لأنه يكثر فيها التعلق بأسماءٍ حُسْنَى كثيرةٍ؛ فللتوكل تعلُّقٌ باسمه الغفار، والتواب، والعفو، والرءوف، والرحيم، وله

تَعَلُّقٌ باسمه الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن، وله تعلق بأسماءٍ فيها خلاف بين أهل العلم: المُعِزّ، المُذِلّ، الحافظ، الرافع، المانع.. له تعلق بكل ذلك.

فهو من أوسع المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى من جهة توكُّلِه عليها، فله في هذه الأسماء تعلُّقٌ باسمه المعز والمذل، وذلك من جهة توكله عليه ﷻ في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم من أسباب النصر، وله تعلُّق بأسماء القدرة والإرادة، وله تعلقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحسنى. ولهذا فسَّره مَن فسَّره من الأئمة بأنه: «المعرفةُ بالله»، يعني كأنه المعرفة بأسمائه الحسنى كافةً، وإنما أراد أنه: بحَسَبِ معرفة العبد يَصِحُّ له مقامُ التوكل، فكلما ازدادت معرفة العبد بالله تعالى، ازداد توكُّلُه؛ لأنه عندما يعلم أن الله تعالى هو العالم، وهو القوي، وهو القادر ﷻ، وهو الرءوف، وهو الرحيم.. كل ذلك يجعله متوكلًا عليه ﷻ.

وهنا مسألة مهمة وهي: أن كثيرًا من المتوكِّلين يكون مغبونًا في توكله، يعني يظلم نفسَه في قضية التوكل، كمن انصرف توكُّلُه إلى حاجةٍ جزئية استَفْرَغ فيها قوةَ التوكل، وكان يمكنه أن ينالها بأيسر شيء، وتفريغُ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيرٌ من ذلك. أي حَقَّقَ في نفسه فعلًا حقيقة التوكل، ولكنه صرف هذا التوكل إلى شيء جزئيٍّ بسيط، كان يمكن أن يناله بأقل من ذلك في قوة توكله، ويصرف هذه القوة في التوكل لأعلى منها درجةً في مطلوبه من الله تعالى، كمن يصرف بعضَ همته وتوكله ودعائه إلى وَجَعٍ يمكن مُداوَتِه بأدنى شيء، أو إلى جوع يمكن إزالته بكذا، إلى أعمال قليلة يمكن أن يقوم فيها بأدنى مجهود، يصرف فيها هذا التوكل، ويصرف هذه القوة العظيمة في غيرها، والأفضل له أن يصرف توكلَه القويَّ في نصرةِ

الدين، وزيادةِ الإيمان، والعلم والتأثير في العالم، ومصالح المسلمين، وقمع المبتدعين.. إلى غير ذلك، حتى لا يكون قاصرَ الهمة في هذا التوكل، وحتى لا يصرف قوةَ التوكل إلى شيء يمكن أن يحققه بأدنى بذل، وبأدنى مجهود، فيكون حينئذٍ مغبونًا في هذا التوكل، مع أنَّه حصَّل في نفس الوقت حقيقة التوكل، وقوة التوكل، فيصرف هذه القوة - وهذه الحقيقة من حقائق الإيمان العليا - إلى أشياء دانية قليلة، كان يمكن أن يحصلها بأدنى شيء.



القسم السادس

أسماء الله

الملك والمالك والمليك



مقدمـة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعدُ..

فإنَّ أسماء الله تعالى المشرفة «**المَلِك والمَالِك والمَلِيك**» من أعظم أسمائه الحسنى التي تُجَرِّد القلبَ والبدن والتوجه إلى الله تعالى، حيث يجد القلب ملكًا قادرًا يقول للشيء «كُنْ» فيكون، يركن إليه القلبُ ويصمد إليه ويعتمد عليه، فيملأه قوة وغنًى عن الناس جميعًا ويحميه ويَذُود عنه ويجعله من جنده. وليس هو ملكًا يحكم أو يملك فقط، بل له الملكوتُ والرزق والتصريف والإحياء والإماتة وإليه المصير والحساب والجزاء.

إنَّ ملكًا من ملوك الدنيا يملك ويحكم قليلًا ثم يزول، ويكون مصيره إلى غيره.. إلى الله الملك الحق ﷻ؛ إذ لم نسمع أن ملكًا من ملوك الدنيا بعد فناء الناس قد عادوا إليه ليحاسبهم ويجازيهم ويقول «لمن الملك اليوم»، بل يقف الملوك كغيرهم ينتظرون ما يُفْعَل بهم، ومن ثَمَّ كان للقلب مَلِكٌ يدعوه ويُنزهه ويُفرده بالتوحيد والتعلُّق والثقة والتوكل، فيتجرد حينئذٍ التوجهُ له والإقبالُ عليه والخوف منه والخشية له والرجاء فيه، يفني عنده كل ملك، وأنه ليس هناك ملك على الحقيقة إلا الله ﷻ. عندها يتجرد البدن لمن له الملكُ والخَلْق والأمر، فيطيعه ويُنَفِّذ أوامره ويقدِّمها على النفس والأهل والمال، ويصبح من جنده المقربين ومن خاصة أوليائه الصالحين، يقدم محبته على كل المحابِّ، ويسارع إلى مرضاته بكل طريق، كما وَقَرَ في قلوب الصحابة من تسبيحه وحمده وتمجيده سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، فيَلْهَجون بذِكْره وحمده لا يَفتُرون عنه ولا يسأمون من طاعته.. نَعِيمُهم وقُرَّة أعينهم

ولَذَّتُهم وسعادتهم في قربهم من المَلِك والقيام بأمره، يعلمون أن كل شيء يقع في مملكته إنما هو بأمره، فيُحِسُّون ببَرْدِ اليقين والسكون تحت المقدور، لا يعترضون ولا يتشككون، بل يفهمون من ذلك الحِكَمَ البالغة.

لِمَا ذكرنا كان تفريغ هذا الدرس المهم من دروس فضيلة الشيخ محمد الدبيسي حفظه الله تعالى وعفا عنه، نضيفه إلى بقية الأسماء الحسنى المشروحة من قبلُ رجاءَ رحمة الله وتوحيده بما يرفع عن أمة محمد ﷺ شيئًا مما نزل بها، وذلك بالأخذ بأيدِ الناس إلى معرفة الرب وتوحيده ومحبته وطاعته والقيام على أوامره، وكذا نشرًا للبركة والعلم النافع بمعرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا. وما كان بعد ذلك من خطأ فبابُ النصح مع الإخلاص لله تعالى مفتوح..

نسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وناشره وقارئه والناظر فيه إنه سميع قريب.

مسجد الهدي المحمدى

الفصل الأول

معاني أسماء الله تعالى

« الملك و المالك و المليك »

ينبغي على أهل الإيمان المهتمين بمعرفة الرب ﷻ الاهتمام بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأن يتعلموها ويفهموا معانيها ويحفظوها، وأن يدعوا الله تعالى بها ويوحدوه بها. فمعرفة الله ﷻ بأسمائه الحسنى هو دين الله تعالى، وهو أساس معرفتهم بربهم ﷻ.

ومن الأسماء التي تُصَفِّي القلب من الركون إلى غيره أو اعتقاد الملك والملكوت لسواه مما يترتب عليه الائتمار بأمره والانتهاء عن نهيه والمسارعة في مرضاته، هو: «**الملك والمالك والمليك**» ﷻ، فيكون المرءُ من جنده يَعْلَم أن قوته به ومدده منه وحسابه عليه، فهو الذي يحفظ جنده وينصرهم ويُثَبِّتُهم ويقوي عزائمهم ويدفع عنهم، فيوحدونه ويدعونه، مما يغير أحوالهم ليصيروا من حزبه المفلحين وجنده الغالبين. كان هذا الدرس إذًا ليحمل المؤمنين المتقين إلى مَلِكِهم ﷻ.

وأولُ ما نبدأ به أدلةُ هذا الاسم المشرف..

و«المَلِكُ» و«المَالِكُ» و«المَلِيكُ»، هذه الأسماء الثلاثة قد وردت في القرآن الكريم.. فـ«المَلِك» قد ورد في قوله ﷻ: ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ**﴾ [الحشر: ٢٣].. وقد ورد «المَالِكُ» في قوله ﷻ: ﴿**مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ**﴾ [آل عمران: ٢٦].. و«المَلِيك» ورد في قوله سبحانه تعالى: ﴿**فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر: ٥٥].

المعنى اللُّغوي

و«المُلْكُ» معروف؛ فمُلْك الله تعالى ملكوته وعظمته وسلطانه ﷻ، فعندما نقول: «مُلْك الله تعالى» نقصد بذلك هذه العظمة وهذا السلطان والعز لله جلَّ وعلا.

و«المَلْك» و«المَلِك» و«المَلِيك» و«المَالِك»؛ كلها بمعنى أنه ذو المُلْك ﷻ.

وجمع «مَلِك»: أملاك، فهو مَلِك الأملاك ﷻ. قال ﷺ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ**»[1]. و«مَلِيك» جمعها: مُلَكَاء، مثل: شَرِيك وشُرَكَاء. و«مَالِك» جمعها: مُلَّاك، ومُلَّك. و«المُلْكُ الحَقُّ» يعني: الدائم، وليس ذلك إلا لله تعالى جلَّ وعلا؛ قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

والملكوت مُختَصٌّ بمُلْك الله تعالى؛ فلا يقال: «مَلَكُوت فلانٍ»، وإنما يقال: «مِلْك فلانٍ» أو «مُلْك فلانٍ»؛ إن كان مَلِكًا يقال: «مُلْك فلانٍ»، وإن كان يَمْلِك يقال: «مِلْك فلانٍ». فلا يقال «ملكوت» إذن إلا على ما يَختص بالله تعالى.

و«ملكوت» يعني: مِلْك، وأضيفت إليها التاء كـ«رَحَمُوت» و«رَهَبُوت». و«مِلَاك الأَمْر»: ما يُعتمد عليه منه، و«القلب مِلَاك الجسد» يعني: ما يَعتمد عليه الجسدُ وهو سلطانه. و«الإِمْلَاك» يعني: التزويج؛ «أَمْلَكُوهُ فلانةً» يعني: زَوَّجُوهُ فلانة، فكأنه صار مُتَمَلِّكًا هذه المرأة التي تزوجها.

و«تَمَلَّك فلانٌ الشيءَ» أي: مَلَكَهُ قَهْرًا. وأما «المَلْك» و«المِلْك» و«المُلْك»، فمعناها: احتواءُ الشيءِ والقُدرةُ على الاستبداد به، فـ«تَمَلَّك فلانٌ شيئًا» يعني: احتواه لنفسه واستبد به وقدر على التصرف فيه.

و«المَمْلُوك» هو العبد، و«فلانٌ حَسَنُ المَلَكَة» يعني: حسن الصنيع إلى مماليكه.

---

(١) رواه البخاري [٦٢٠٦] ومسلم [٢١٤٣] واللفظ له من حديث أبي هريرة ؓ مرفوعًا إلى النبي ﷺ. و«أَخْنَع» أي: أذلّ. وسيأتي شرح هذا الحديث في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى.

معنى المَلِك في حق الله تعالى

ونذكر بعض المسائل حتى يتبين لنا معنى الملك في حق الله تعالى:

ماهية المُلْك والتملُّك

اختلف العلماءُ في ماهية أو حقيقة «المُلْك» أو «التَّمَلُّك»، فقال بعضُهم: إنه عبارة عن التصرف في الشيء، وعلى هذا يكون «المَلِكُ» من صفات الأفعال لله تعالى. وصفات الأفعال، يعني: ما يقوم به المولى ﷻ من الأفعال الاختيارية؛ كالتكلم والنزول والمجيء وغير ذلك من الأفعال التي تقوم بالله تعالى.

ولو قلنا إنَّ حقيقة «المُلْك» القُدرة نفسها على التصرف، أي بمعنى كون المالِك أو المَلِك قادرًا، فتكون من صفات الذات؛ يعني: القدرة نفسها من صفات الذات، عندما يقال: «هذا الشخص قادر» تصبح هذه من صفات ذاته، أما لو قيل: «هذا الشخص يمشي»، فهذه من صفات فعله، يعني: ليست صفة ذاتية فيه من صفات الذوات.

فصفات الأفعال تتعلق بما يقوم به المولى ﷻ من أفعال تليق بجلاله ﷻ على حسب علو الذات له جلَّ وعلا.

وصفات الذات هي صفات للذات - كالحياة مثلًا - تتميز بها وتكون من لوازم الذات نفسها.

المُلْك ليس إلا لله على الحقيقة

المُلْك ليس إلا لله على الحقيقة، هذه المسألة الأولى التي يجب أن نعتقدها في «المَلِك» وفي كل الأسماء الحسنى. إذن ما نعتقده في كون الله تعالى مَلِكًا ومالِكًا أنه هو المَلِكُ على الحقيقة، وأنه ﷻ يَمْلِكُ ولا يَمْلِكُ سواه، وإن كان هناك مَنْ يملك سواه فعلى الحقيقة إنما يملك منه ﷻ بِتَمْلِيك الله إياه، سواءً كان مُلكًا أم مِلْكًا؛ سواءً كان مالكًا لهذه الأشياء يتصرف فيها فهي بتمليك الله له، وسواءً كان مَلِكًا يعني: يتصرف في الخَلْق بالأمر والنهي فهو أيضًا بتمليك الله إياه، فلا لِأَحَدٍ على الحقيقة مُلْكٌ ولا مِلْكٌ إلا للمولى ﷻ.

إذن فالعبد لا يملك شيئًا، بل الملك الحقيقي لله تبارك وتعالى، وإنما الله جلَّ وعلا أثبت لبعض عباده اختصاصًا ببعض الأشياء؛ كمُلْك سليمان مثلًا أو ما ذكر الله تبارك وتعالى في السفينة: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، لذلك جاز أن يُطلق «المَلِك» على غير الله تعالى ولكن ليس على الحقيقة؛ لأن المالك على الحقيقة هو الله، لأن المتصرف على الحقيقة في الوجود هو الله ﷻ، والمالك أبدًا وأزلًا هو الله، والمالك الذي أنشأ الملك وأقامه هو الله ﷻ، وغيره زائل، فإنْ مَلَكَ شيئًا فبتمليك الله له، وإن قَدَرَ على شيء فبإقدار الله له ثم لا يلبث أن يفنى ويبقى مُلْك الله تعالى، ويبقى كذلك مِلْكُ الله تبارك وتعالى للدنيا والآخرة؛ فهو ﷻ ملك السماوات والأرض وما فيها.

فهذا الكلام ينبغي أن يفهم على هذا النحو؛ لأنه بعد ذلك يَعْلَمُ المرءُ أنه لا يملك شيئًا ولا يتصرف في شيء ولا يقدر على شيء إلا بإقدار الله له؛ حينئذٍ ينسب المُلك والملكوت والتملُّك لله جلَّ وعلا، وإنْ مَلِكَ المرءُ شيئًا في الدنيا فإنه لا يَمْلِكُ السماواتِ والأرضَ، وإن ملك الدنيا كلها فإنه لا يملك الآخرة؛ لذلك قال الله تبارك وتعالى في

الآخرة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]؛ ويقول ﷻ في الحديث القدسي: «أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»(١)، والإجابة في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

علمنا - كما سنذكر ذلك بالتفصيل لاحقًا إن شاء الله تعالى - كيف يركن المرء إلى الله تعالى وهو المالك على الحقيقة؛ وكيف يوحده ﷻ بهذا الاسم المشرف؛ لأنه لا يتصرف في هذا الملك إلا هو... ولا يملك هذا الملكوت إلا هو ﷻ؛ فيخلو قلبه حينئذٍ من التذلل للمخلوقين، والميل لهم والطلب منهم، وإنما يكون قلبه ممتلئًا من مَلِك الملوك، وإذا أراد شيئًا توجه إليه ﷻ، فهو الذي يعطي ويمنع، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - شرح هذه الآيات.

أيهما أبلغ "المَلِك" أم "المَالِك"؟

اختلف العلماء في أيهما أبلغ «المَلِك» أم «المالِك»؟ ..

قالوا «المَلِك» أبلغ من وجهٍ، و«المالِك» أبلغ من وجه؛ «المَلِك» يحكم ويتصرف ويأمر في كل أحد، أما المالك فإنه يَمْلِكُ ولا يَحْكُم ولا يأمر ولا يتصرَّف، ومن ناحية أخرى: «المالِك» يَمْلك، و«المَلِكُ» قد لا يَمْلِكُ، فيكون من هذه الوجهة «مالك» أبلغ،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ: البخاري [٦٥١٩]، ومسلم [٢٧٨٧].
وتمامه عند الإمام مسلم: قال رسول الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ تَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». وفي رواية أخرى عند الإمام مسلم أيضًا [٢٧٨٨]: «..أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

ومن الوجهة الأخرى «المَلِك» أبلغ، وكلا الوصفين ثابت لله تعالى؛ فهو يَمْلِك الأرضَ والسماوات والجبال ويملك الدنيا والآخرة والناس ومن فيها؛ لأنه الخالق وفي نفس الوقت هو المُتَصَرِّف في مُلْكه والآمر الناهي ﷻ فيه.

واستطرد العلماء في ذِكْرِ الأدلة على أن «المالك» أبلغ، أو أن «الملك» أبلغ وكذا وكذا، وحاصل هذا الكلام ما ذكرناه.

أمَّا «المليك» فلا خلاف أنه أبلغ؛ لأن «المالك» و«المليك» كـ«النَّاصِر» و«النَّصِير»، فيكون «المليك» من صيغ المبالغة في «المَلِك»، و«المليك» هنا هو الذي يَمْلِك ويحكم، أمَّا «المَلِكُ» فإنه يَحْكُم وقد لا يَمْلِكُ شيئًا، و«المالك» يَمْلِك ولا يحكم، قد يملك لكنه لا يأمر ولا ينهى، أمَّا «المليك» فإنه يَمْلِكُ ويحكم في نفس الوقت.

وأمَّا «مَالِك المُلْك» فهو الغاية في المبالغة؛ لأنه يأخذ من «مَلِيك» و«مَلِك» أقصى ما فيهما من المبالغة.

"المَلِكُ" الحَقُّ هو الله سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

«المَلِكُ الحق» هو الغنيُّ مُطلقًا في ذاته وفي صفاته عن كل ما سواه، ويحتاج إليه كل ما سواه في ذاته وصفاته احتياجًا إما بغير واسطة وإما بواسطة، فكل ما سواه محتاج إليه من جميع الوجوه ﷻ..

وهو جلَّ وعلا - وهو معنى المَلِك الحق - لا يحتاج إلى أحد وإنما هو يَمْلِك كلَّ شيء، وكلُّ شيء إليه فقير، وكل شيء في قبضته، وكل شيء مملوك له، وكل شيء يتصرف

فيه ﷻ بقدرته وقوته، وكل دابة هو آخذ بناصيتها ﷻ؛ له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين[1].

«**المَلِك**»[2]: هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود؛ بل لا يستغني عنه موجود في هذه الحياة في كل شيء؛ إذ كل شيء منه، ولو منع أيَّ شيء فهو المانع

---

(١) فائدة: وهذه المسألة نحتاج إليها في الأسماء الحسنى التي ندعو الله تعالى بها، كيف يدعو الإنسان ربه ﷻ بهذا الاسم المشرف دعاء المسألة ودعاء التوحيد. وكيف يأخذ بحظه من هذه الأسماء. كيف يعلم أن «المَلِك» هو الله تعالى على الحقيقة، وأن الفقير المحتاج هو هذا المرء على الحقيقة فيُنَزِّلُ نفسَه هذه المنزلة من ربه، وينزل نفسه هذه المنزلة من الخَلْق فلا يرى لنفسه لا مُلْكًا ولا مِلْكًا ولا سلطانًا ولا يرى لنفسه أمرًا ولا نهيًا، ولا يرى لنفسه قدرة ولا تصرفًا، ولا يرى ذلك كله إلا بالله؛ هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: يعلم العبدُ أنه عبدٌ، ويعلم في نفس الوقت أن له ربًا ملكًا هو الذي يُسَيِّره، وهو الذي يُصَرِّفه، وهو الذي يَقْدِر عليه، وهو الذي يُعطيه ويَمْنعه، وهو الذي يرفعه ويخفضه، وهو الذي يُعز ويُذل، ويعطي المُلْكَ من يشاء وينزعه ممن يشاء ﷻ. وهذا هو المقصود الذي يجب أن تعلمه القلوب وأن تميل إليه، فيخرج من هذه القلوب رعونتُها، ويخرج منها عُجْبُها، ويخرج منها كِبْرُها، ويخرج منها ما كان فيها من بقية سلطان وجاه ونزعةٍ وتطلع واستعلاء على خَلْق الله تعالى، فيرى نفسه على الحقيقة - كما أشرنا - فقيرًا محتاجًا مملوكًا لغيره؛ لا يحسن التصرف ولا يملك التصرف ولا يقدر على شيء إلا أن يشاء الله ﷻ ذلك، حينئذ يكون قد سار على قدم العبودية لله تعالى وخرج عن شطط النفس وعن هواها وكبرها وميلها إلى الآفات وإلى الصفات المرذولة التي يجب أن يجاهد المؤمنون أنفسهم على التخلص منها حتى يكونوا عبيدًا مملوكين حقًّا لله تعالى. وللتوسع في هذا المعنى المهم - معنى العبودية لله تعالى - أفرد المؤلف سلسلة من الخطب بعنوان «العبودية»، وهي متوفرة على شبكة «الإنترنت»، فارجع إليها للاستفادة.

(٢) انظر: المقصد الأسنى للإمام الغزالي ؒ، بتصرف كثير جدًّا. ص٥٠، ٥١ - مطبعة الصباح، دمشق - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

ولا معطي لما منع، ولو أعطى فلا يستطيع أحد أن يمنع؛ لأنه المعطي ﷻ فلا يمنع أحدٌ عطاءه.

«المَلِك» إذن لا يستغني عنه شيءٌ في شيء..

وانظر إلى نفسك لا تستغني عن الله تعالى؛ لا في وجودك من العدم ولا في مشيك ولا في نظرك، ولا في سمعك ولا في كلامك ولا في قوتك ولا في ذرة من ذرات نفسك؛ لو وقفت ذرة من هذه الذرات ما يستطيع أحد أن يحركها ويُحْيِيها مرة أخرى إلا هو ﷻ؛ ففي كل ذرة من ذراتك الظاهرة والباطنة أنت خاضع مملوك للرب جلَّ وعلا، إنْ حرَّكَها فلا مُوقِف لها، وإنْ أحياها فلا يستطيع أحد أن يذهب بها، لذلك لا يستغني عنه موجود في شيء؛ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه، بل كل شيء وجوده منه ﷻ، فهو الذي أوجد كل شيء كما قال ﷻ عن نفسه: ﴿**أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ [طه: ٥٠]. وكل شيء سواه فهو له، مملوك لله تعالى في ذاته وصفاته، لا يستطيع أحدٌ أن يَخْرج عن مُلْكه، في النهاية يقول له ﷻ: «مُتْ»، فيَمُت! لا يستطيع أحدٌ لو جاءه مَلَكُ الموت أن يقول: «لا.. لن أموت»! ..

فدَلَّ ذلك على أنه قد كتب ﷻ الفناء على الخلق كافة مما يدل على القدرة التامة والتصرف التام والمِلْك والمُلْك التَّامَّيْنِ، والسلطان التام لله جلَّ وعلا، وكل شيء سواه فهو له مملوك في ذاته وفي صفاته، وهو - أي المولى - «المَلِك» ﷻ «مالِك المُلْك»، مُسْتَغْنٍ عن كل شيء، فهذا هو المَلِك المطلق، وهذا هو المُلْك المطلق.

(تنبيه) لا يتصور العبد أن يكون مَلِكًا مُطلقًا:

لا يُتَصَوَّر أبدًا أن يكون العبدُ كذلك، فإنه لا يستغني عن كل شيء؛ من الذي يستغني مثلًا عن الأكل والشراب واللبس والمشي والركوب؟! فهو فقير لمن يأتيه بما يلبس، وفقير لمن يأتيه بما يأكل، وفقير لمن يساعده في أن يركب وينزل، وفقير لَمَنْ يعالجه، وفقير لمن يعمل عنده ليعطيه في النهاية مالًا، فقير في كل شيء، فإنَّ المرء أبدًا فقيرٌ إلى الله تعالى وإن استغنى عمن سواه؛ يعني أنه حتى لو استغنى المرء عمن سواه فإنما بِغَنَاء الله له، وبإعطاء الله إياه. لو استغنى المرء عن الناس في بعض الأشياء والأمور ولم يَحْتَجْ إليهم تراه قد استغنى عنهم بذاته أم بما أعطاه الله تعالى؟ بما أعطاه الله تعالى لا شك؛ لأنه لو حُرِمَ ذلك أو أخذ اللهُ تعالى منه ذلك فلا شك سيعود محتاجًا إلى هؤلاء الذين يمكن أن يفيدوه فيه.

علم المرء إذن أنه فقير ومحتاج - وهذه المسألة هي التي نريد أن نهتم بها - وأنه لا يملك شيئًا وأن المالك له هو الله تعالى، وأنه الحق مستغنٍ عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه، وكل شيء في قبضته يملكه ﷻ. فحَمَله ذلك على معرفته بربه وتعلقه به وتوحيده إياه، وعدم الالتفات إلى العبيد الزائلين، فإنْ دعا دعا ربَّه.. وإن طلب فمنه.. وإن أخلص فله، ينكسر بين يديه لِيَجْبره.. يفتقر إليه ليغنيه.. يذلُّ له ليعزه، صار عبدًا قد عرف له ربًّا يصمد إليه، لا يدخل عليه إلا بالإفلاس الصِّرف والفقر المحض وهو حقيقة العبودية.

الفصل الثانى

مُلك الله تعالى

حقيقة المُلْك(١)

إن حقيقة المُلْك في قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] تتم بالعطاء والمنع، فلا يكون ملكًا إلا أن تتحقق فيه حقيقة المُلْك بأن يكون هذا الملك قادرًا على أنْ يُعطيَ وأن يَمنعَ، وأن يُكرم هذا، وأن يُذل مَن يليق به الذُّل، وأن يُهين هذا، وأن يُعز مَن يليق به العز، وأن يرفع هذا وأن يخفض هذا، وأن يُقَرِّب هذا وأن يَطْرد هذا، وأن يُثيب المحسِن وأن يعاقب على الخطأ والمعصية، وأن يغضب ويرضى، وأن يُوَلِّي هذا وأن يَعْزِل هذا؛ قال تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]. هذه حقيقة المُلْك؛ من الذي يُدْخِلُ الليلَ في النهار ويُخْرِجُ النهارَ من الليل؟ ومن الذي يُحيي ويُميت ويعطي ويمنع ويولي ويعزل، ومن الذي يرزق ويمنع؟! لا أحد غيره ﷻ، ولم يَدَّعِها أحدٌ في الدنيا من لَدُن آدمَ إلى أن تقوم الساعة إلى أن يقول ﷻ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وشأنه هذا حقيقة ملكه. ومن شأنه ﷻ(٢):

---

(١) انظر بتصرف كثير: طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام ابن القيم، ص١٥٩، دار ابن رجب.

(٢) انظر: شفاء العليل للإمام ابن القيم رحمه الله، بتصرف كثير جدًّا.

يَغْفِرُ ذنبًا، ويُفَرِّجُ كَرْبًا[1] ويَكْشِفُ غَمًّا، وينصر مظلومًا ويأخذ ظالمًا، ويفكُّ عانيًا - يعني: يفك أسيرًا - ويُغني فقيرًا، ويَجْبر كسيرًا، ويَشْفي مريضًا، ويُقِيل عسرةً، ويَستر عَورةً، ويُعز ذليلًا، ويُذل عزيزًا، ويُعطي سائلًا، ويُذْهب بدولةٍ، ويأتي بأخرى، ويُداوِل الأيام بين الناس، ويَرْفع أقوامًا ويَضَع آخرين، ويسوق المقاديرَ التي قدَّرها قبل خَلْق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها؛ يسوقها إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كلٌّ منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه ﷻ وجرى به قلمه ونفذ فيه حُكمه وسبق به علمه، فهو المُتصرِّف في الممالك كلها وحده تَصرُّف مَلِكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحيمٍ تامِّ المُلْك لا يُنازعه في ملكه منازعٌ، ولا يُعارضه فيه مُعارِضٌ، وتَصَرُّفُه في المملكة دائرٌ بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، ولا يخرج تصرُّفُه عن ذلك.

هذا تقريبٌ لحقيقة المُلك على مبلغ كلام الأئمة؛ أمَّا حقيقة الملك نفسها فلا يصل إليها أحد.

---

(١) أخرج ابن ماجه [٢٠٢]، وابن حبان [٦٨٩]، وغيرهما عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، قال: «**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ**». والحديث صححه الشيخ الألباني مرفوعًا في (ظلال الجنة) برقم [٣٠١]. وأخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم موقوفًا على أبي الدرداء في (كتاب التفسير - سورة الرحمن) كما في (الفتح) [٨/ ٧٢٨]، دار الحديث - سنة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

سَعة مُلْكِهِ سبحانه وتعالى

وهي مسألة مهمة: أن اللهَ ﷻ يملك مُلْكًا لا نهاية له، والذي يراه المرء في مُلْك الله تعالى إذا قاسه إلى ما يملكه الرب جلَّ وعلا وما يمكن أن يُحدثه ﷻ ويخلقه بـ«كُنْ» فيكون كالعدم، فلو قال ﷻ لِمُلْكِهِ كُنْ فيكون يمكن أن يكون هذا المُلْك على هذا الحال ملايين المرات مثلًا أو أكثر، فملكه يمكن أن يكون مثل هذا الملك إلى ما لا نهاية في مُلْكه ﷻ، فهذا الملك الذي نحياه اليوم متناهٍ صغير؛ والمتناهي إلى اللامتناهي كالصفر؛ كالعدم، فمُلْكه سبحانه تعالى لا متناهي، وأن الحادث المتناهي لا يوازي هذا اللامتناهي، بل هو ذرة في هذا المتناهي... بل هو لا شيء في هذا الملك؛ هذا الملك الذي نراه ملك محدود متناهٍ قد وصل إليه بصر الإنسان مثلًا أو علمه أو كذا وكذا؛ أمَّا الملك الذي لا يعلمه أحد فهو لا متناهٍ، لا يحيط بِكُنْهِهِ ولا بقدره ولا بشيء منه أحد على الإطلاق في الأولى والآخرة إلا هو ﷻ.

اللهُ ﷻ مَلِكُ جميع الموجودات؛ ولأنْ يستقصي المرء في شرح ملكه يقتضي ذلك شرح جميع الموجودات حتى يستطيع المرء أن يستقصي أن الله تعالى يملك كذا وكذا. وجميع الموجودات التي أشرنا إليها كالذرة الصغيرة في ملكه ﷻ، كالعدم كما أشرنا، ومع ذلك إذا أراد المرء أن يشرح جميع الموجودات؛ هل يستطيع أحد أن يشرح جميع الموجودات؟! فلو اجتمعت الدنيا كلها من أولها إلى آخرها في هذه الأيام من أيام العلم لما استطاعت أن تفسر لنا الموجودات، أو أن تحيط لنا بموجودات الله، أو تبين لنا موجودات الله تعالى في الأرض فقط، ولا في البحار، ولا في السماء فضلًا، عن بقية مُلْك الله تعالى وموجوداته!

وتلك المسألة نذكرها حتى يعلم المرء قدرة الله تعالى وقوته وملكه. فإذا أراد المرء أن يرجوه علم أنه يرجو ملكًا قويًا قادرًا مقتدرًا متصرفًا يقول للشيء كن فيكون، وأنه ﷻ لا يبخل على عباده، ولا يمنع عنهم عطاءه ولا رِفْدَه ولا معونته ﷻ متى تعلقوا به وطلبوا منه ولم يلتجئوا إلى غيره.

ثم مَنِ الذي يمكنه أن يشرح أحوال جميع المُحْدَثات التي خلقها الله تعالى؟ نحن في الأمور البسيطة؛ في الهندسة أو في الطب أو أي شيء من أمور الدنيا لا يستطيع أن يحيط بها أحد مهما بلغ، لا يستطيع أن يحيط بكتبها فضلًا عن أن يقرأ هذه الكتب، فضلًا عن أن يشرح هذه الكتب؛ من الذي قام بذلك؟ هل سمعنا بأحد قام بمثل ذلك في شيء صغير متناهٍ؟!

بل من الذي يمكنه أن يعرف آثار مُلْك الله تعالى في تخليق جناح البعوضة؟ ومن الذي يمكن أن يطلع على آثار مُلك الله تعالى في ذلك وقوته وقدرته؟

شأن "المَلِك" ﷻ كما يذكر القرآن الكريم[1]

والمتأملون لخطاب القرآن الكريم يجدون هذا المعنى للملك لله تعالى؛ تَأَمَّلْ خطابَ القرآن تجد مَلِكًا له المُلْك كلُّه، وله الحمدُ كلُّه ﷻ، أَزِمَّةُ الأمور كلها بيده؛ كل الأمور ومصدرها منه، ومردُّها إليه، مستويًا على سرير مُلْكه ﷻ لا تخفى عليه خافيةٌ في أقطار مَمْلَكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة

(١) انظر: الفوائد، للإمام ابن القيم رحمه الله، بتصرف كثير جدًّا. ص٣٠ - دار العقيدة - الطبعة الأولى - سنة ٢٠٠٤م.

ﷻ، يسمع ويرى ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق ﷻ؛ ليس عنده ليل ولا نهار جلَّ وعلا وإنما يقول: «كُنْ».. فيكون، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي ويُقَدِّرُ ويقضي ويُدَبِّر، الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، يعني: صغيرها وكبيرها، والأمور كلها صاعدة إليه؛ هذا «الملك» ﷻ لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، فتأمل كيف تجده يُثني على نفسه ﷻ؛ لأنه «المَلِكُ» الذي مِن مُلْكه ما ذكرنا، فتجده يثني على نفسه ويُمَجِّدُ نفسه ويَحْمَد نفسَه، وينصح عبادَه، ويَدلُّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويُرَغِّبهم فيه، ويُحَذِّرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحببُ إليهم بنِعَمِه وآلائه، فيُذَكِّرُهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها - يعني: يأمرهم بما يأخذون به تمام هذه النعم من الله تعالى - ويُحَذِّرهم من نقمه، ويذكِّرُهم بما أعدَّ لهم من الكرامة إن أطاعُوه، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عَصَوْه، ويُخبرهم بِصُنْعِهِ في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء، ويُثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذمّ أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويَضْرِب الأمثالَ، ويُنَوِّعُ الأدلة والبراهين، ويُجيب عن شُبَهِ أعدائه بأحسن الأجوبة، ويُصَدِّق الصادقَ ويُكذِّب الكاذبَ، ويقول الحقَّ ويهدي السبيل ﷻ، ويدعو إلى دار السلام ويَذْكر أوصافها وحُسْنها ونعيمها، ويحذِّر من دار البوار، ويُذَكِّر بعذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّرُ عباده فَقْرهم إليه، وشدةَ حاجتهم إليه من كل وجه حتى يخشعوا ويخضعوا ويطيعوا ويرجعوا وينكسروا ويذلوا لله الخالق ﷻ، وأنهم لا غِنًى لهم عنه ﷻ طرفة عين، ويَذْكُر غناه عنهم وعن جميع الموجودات وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقيرٌ إليه بنفسه بذاته، وأنه لا ينال أحدٌ ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته ﷻ، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته،

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه بألطف عتاب؛ يعني: يعاتب أحبابه لما ينصرفون عنه ويغفلون عنه ويزهدون في الآخرة ويتوسعون في الدنيا فإذا فعل المرء ذلك وجد لطيفَ العتاب من الله تعالى بأن يردَّه إليه وأن يُوقفه مرة أخرى على بابه، وأنه مع ذلك مُقِيلٌ لعَثَراتهم، وغافرٌ ذَلَّاتهم، ومقيم أعذارهم؛ يعني: إذا تعسَّروا ووقعوا أقالهم ﷻ وأقامهم مرة أخرى وشرح صدورهم، وإذا زلَّوا ووقعوا في المعصية غَفَرَ لهم، وإذا اعتذروا إليه قَبِل عُذْرَهم، وإذا فسدوا أصلح فسادهم، والدافع عنهم - كما قال ﷻ عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ..﴾ [الحج: ٣٨] - والمحامي عنهم؛ أي يحميهم ﷻ، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والمُوَفِّي لهم بوعده وأنه وَلِيُّهم الذي لا وَلِيَّ لهم سواه، فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

فإذا شهدت القلوبُ من القرآن مَلِكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنه فكيف لا تحبه؟! وكيف لا تتنافس في القُرْب منه؟! وكيف لا تُنْفق أنفاسَها - نَفَسًا نَفَسًا - في التودد إليه ﷻ؟![1]. ويكون جلَّ وعلا أحب إليها -إلى هذه النفوس- من كل ما سواه هو ﷻ، وأن يكون رضاه جلَّ وعلا آثَرَ عندها من رضى كل ما سواه، يعني كيف لا يؤثر رضا ربه جلَّ وعلا - رضا محبوبه هذا الملك الجميل العظيم الجليل الرحيم البر - عن كل رضا؟!

---

(١) فلا تنفق هذه القلوب التي شهدت مليكها على هذا الحال المعظَّم أنفاسَها في الدنيا وفي الشهوات والملذَّات والغفلات، وتُضِيع الأوقات في المعاصي والمكروهات. فإن فَعَلَتْ ذلك فهي لم تشهد ذلك على الحقيقة.

كل هذه الأمور ينبغي أن يحفظها كلٌّ منا، كيف لا يُحِبُّه كل أحد مِنَّا؛ هذه الأولى؟! وكيف لا يتنافس في القرب منه؟ هذه الثانية. والثالثة: كيف لا ينفق أنفاسه في التودد إليه؟! والرابعة: أن يكون أحب إليه من كل ما سواه، والخامسة: أن يكون رضاه آثر عنده من رضا كل ما سواه، والسادسة: وكيف لا تلهج بذكره؟! هذه النفوس المحبة، ويصير حُبُّه والشوقُ إليه والأنسُ به - لا الأنس بالدنيا واللذات والمال والجاه والأولاد والشهوات والسلطان - هو غذاءَها وقُوتها ودواءها بحيث إن فقدت النفس ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها.

معاقد مُلك الله تعالى

ذكر اللهُ سبحانه وتعالى معاقِد مُلْكه خمسة أنواع في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

و«معاقد مُلْك الله تعالى» يعني الأمور الواضحة التي يُعْقَدُ عليها؛ يعني: الأمور المهمة التي ينبغي أن ينظر إليها المرء.

أولها: أنَّ إبقاء المُلْك ونزعه له سبحانه وتعالى

وهذا يدخل فيه مُلْك الدين ومُلْك الدنيا؛ لا يستطيع أحدٌ أن ينزع ملكًا أو أن يعطي ملكًا إلا أن يكون الله تبارك وتعالى هو المعطي له والمانع له؛ لأنه صاحب المُلْك.

فلا يستطيع أحد أن يُحَصِّل شيئًا بنفسه، فمن الممكن أن يكون مَلِكًا اليوم وفي اليوم الثاني يذهب مُلكه ولا يكون ملكًا؛ وإن بقي ملكًا فمن الممكن أن يأتي مَلَكُ الموت فيأخذه وتنتهي حياته ومُلْكه وكلُّ شيء، فمن الذي دام له مُلْكٌ؟ ومن الذي وَسِعَ مُلْكُه الدنيا مثلًا بأسرها؟ ومن الذي إن وسع مُلْكه الدنيا بأسرها دام له ملكه مائتي أو ثلاث مائة سنة مثلًا فضلًا عن أن يدوم له أبدًا؟

إذن إبقاء الملك ونزعه من معاقد ملك الله تعالى، ويدخل فيه مُلْك الدين ومُلْك الدنيا..

فأمَّا مُلْك الدين يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، من الذي يستطيع أن يَمْلِك الدين؟ مَن الذي يستطيع أن يَهْدِيَ أحدًا أو أن يُضِلَّ أحدًا أو أن يُدْخِلَ الإيمانَ في قلب أحد أو أن يُخْرِجه من قلب أحد؟! لا يستطيع ذلك أحدٌ غيره ﷻ، فكل ذلك تصريف الله تبارك وتعالى وقدرته على حسب الحكمة والعلم منه جلَّ وعلا.

وأمَّا مُلْك الدنيا فيدلُّ عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

والمعنى أنه جعل البعض خادمًا وجعل البعض مخدومًا، كأنه قيل: يا إلهنا ما الحكمة في أن ترفع أقوامًا وأن تضع آخرين، وأن تجعل هذا خادمًا وهذا مخدومًا؟

والجواب في قوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يعني: ليختبركم فيما آتاكم: فإن كان المرءُ سيدًا كيف يفعل في مُلْكه؟ وإن كان خادمًا كيف يفعل في أَمْرِ الله له؟ وهل يتغير من

كونه خادمًا إلى كونه مخدومًا أو من كونه مخدومًا إلى كونه خادمًا؟ هل سيتغير على الله تعالى في عبادته وتوحيده ومحبته والقيام بأمره ونهيه أم لا؟

فإنْ تمرَّدَ هذا الخادم أو هذا المخدوم على ملك الله فقد قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، وإن كان مطيعًا فكيف صفته؟ قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لغفور في الدنيا، رحيم في العُقْبى. هذا هو الأمر الأول في معاقد ملك الله تعالى؛ إبقاء الملك ونزعه وهو في الدين والدنيا وأن ذلك كله له ﷻ كما علمنا في تفسير الآية.

ثانيها: مُلْك الإعزاز والإذلال

ثاني هذه المعاقد أنَّ الله تعالى يملك العز والذل، يقول ﷻ: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وكأن العزة إنما تكون للمؤمنين فيُعزّهم بطاعته، وكذلك يُعزهم في الدنيا ويرفع مرتبتهم ويرفع رايتهم، وكأن الذلة كذلك تكون في معصية الله تعالى، وكل من عصى اللهَ تعالى أذلَّه اللهُ تبارك وتعالى، ورأى نفسه ذليلًا للمعصية التي عصى الله بها وللشهوة التي قَدَّمها على الله تعالى؛ تراه عبدًا للشهوة، تراه عبدًا للمال، تراه عبدًا للدرهم والدنيا[1]، تراه عبدًا للدنيا وكلما أمرته الدنيا بشيء أطاعها، وكلما قَلَّتْ منه بكى عليها

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ». أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [٦٤٣٥]، وفي رواية أخرى له أيضًا [٢٨٨٧]: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»، قال الحافظ في شرح هذا الحديث ما حاصله: [«تَعِسَ» أي: سقط، والمراد هنا: هَلَكَ. وقوله «عَبْدُ الدِّينَارِ» أي: طالبه الحريص على جمعه، القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده. و«الْقَطِيفَة» هي الثوب الذي له خَمْل. و«الخَمِيصَة» الكساء

وحزن لها وحاول أن يُحصلها وهكذا، لذلك قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فله الإعزاز ﷻ، وله الإذلال؛ في الطاعة - يعني: في الدين، وكذلك في الدنيا.

ثالثها: تقليب الليل والنهار

قال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران: ٢٧].

فإن استطاع أحدٌ أن يقول أنه يملك شيئًا في الدنيا أو كذا أو كذا نقول له: نعم أنت تملك ذلك في الدنيا؛ لكن هل تملك تقليب الليل والنهار؟ كما قال إبراهيم ﷺ للنمروذ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ لذلك هذه من معاقد ملك الله تعالى التي لا يستطيع أنْ يَدَّعِيَها أحد؛ فلا يستطيع أحد أن يدعي أنه يملك من مُلْك الله أن يُقَلِّب الليل أو النهار، أو أن يُقَصِّرَ النهار وأن يُطيل الليل، أو أن يُقَصِّرَ الليل وأن يُطيل النهار، أو أن يمسك الليل فلا يتحرك، أو أن يمسك بالنهار فلا يتحرك.. كل ذلك لو نظر المؤمنون إلى معاني ملك الله تعالى لتغير حالهم وعلموا كيف أن القدرة والقوة لله جميعًا وأن المُلك له ﷻ لا لأحد، قال تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، وكما ذكر عن نفسه ﷻ أنه الملك الحق في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

المُرَبَّع. قال الطيبي: [«تَعِسَ وَانْتَكَسَ» فيه الترقِّي في الدعاء عليه؛ لأنه إذا تَعِسَ انْكَبَّ على وجهه، فإذا انْتَكَسَ انْقَلَبَ على رأسه]. وقوله: «وإِذَا شِيكَ» أي: إذا دخلت فيه شوكة لم يجد مَن يخرجها بالمِنْقاش، وهو معنى قوله «فَلَا انْتَقَشَ»، وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوَّغ الدعاء عليه كونُه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أُمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات] ا.هـ ملخَّصًا من الفتح: ١١/ ٢٨٦ - دار الحديث.

لذلك قال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران: ٢٧]، يعني: تُدْخل الليل في النهار وتُدْخل النهار في الليل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]. وهذه دعوة للمؤمنين إلى أن يتفكروا في أنفسهم وما خَلَق اللهُ تعالى؛ ليكون عونًا لهم على معرفتهم بربهم ﷻ وتوحيدهم له جلَّ وعلا، ومتى عرفوا ربهم أحبوه ﷻ، ولكن الناس - والمؤمنون خاصة - في غفلة عن النظرِ في آيات الله -كما أمرهم ﷻ- والتدبرِ فيها حتى يكون ذلك هاديًا لقلوبهم إلى معرفة ربهم ﷻ، وفي غفلة عن أن ينظروا في كَوْنه، وفي الآفاق، وفي الأنفس، وفي تدبر السماء والأرض أو ما خَلَقَ الله تعالى من شيء.

فتأمل في اختلاف أحوال الليل والنهار وتعاقبهما، وتأمل في المنافع الحاصلة من ذلك لتعرف هذه الآية التي بينت معاقد ملك الله تعالى.

رابعها: مُلْكُ الإحياء والإماتة

أنه يملك الإحياء والإماتة، لا يملكها أحد سواه ﷻ وهو قوله: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧]، ويدخل في ذلك - يعني في قوله تعالى: يخرج الميت من الحي ويخرج الحي من الميت - أنه يخرج الإنسان من النطفة التي لا روح فيها، وكذلك يخرج الأموات يوم القيامة أحياءً بعد ما صاروا أمواتًا ﷻ وأنه يحي ويميت - جلَّ وعلا- ولا يستطيع أن يدعي ذلك أحد.

ويدخل فيه أيضًا أحوال النبات في قوله: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩]، فبعد أن كانت الأرض خاشعةً هامدةً أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج[1]، ويدخل فيه تولد المُحِقّ من المُبْطِل كإبراهيم عليه السلام من آزر، وتولد المبطل من المحق مثل كنعان من نوح عليه السلام، يعني يُخرج ﷻ - كما يقال - من ظهر العالم جاهلًا، ومن ظهر الجاهل عالمًا، كل ذلك ليُبيِّنَ لنا قدرته سبحانه وتعالى وملكه وأنه لا يشاركه في ملكه أحد جلَّ وعلا.

خامسها: أنه يملك الرزق ﷻ

وخامس معاقد ملك الله تعالى هو الرزق، قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، والرزق كما ذكرنا في شرح اسمه ﷻ «الرَّزَّاق» نوعان:

النوع الأول: يختص بالأبدان.

والنوع الثاني: يختص بالقلوب والأرواح.

والنوع الثاني هو أشرف النوعين، وهو الذي ينبغي أن يكون اهتمام المرء متجهًا إليه ومنصبًّا عليه، وهو غذاء القلوب والأرواح في معرفة الرب ﷻ وتوحيده ومحبته والأنس به ﷻ والشوق إلى لقائه وغير ذلك من الرزق الذي هو من الفتوحات الإلهية والعطايا الربانية، و على حسب سلامة القلوب التي تنزل عليها وعلى صفاء هذه الأرواح والنفوس يسوق الله تعالى إليها هذا الرزق على ما تستحق هذه القلوب من فضل الله تعالى.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

أمَّا رزق الأبدان فقد علمنا كيف أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذريات: ٢٢].

وقد ذكرنا من قبل(١) قصة سليمان ﷺ لما طلب من الله تعالى أن يرزق العالَمَ يومًا واحدًا، فأخذ يجمع أرزاقًا كثيرة عدَّة أيام وليالٍ ليحاول أن يدعو الخلقَ إلى طعامه؛ الإنس والجن والحيوانات وكذا وكذا، فإذا بحوت يخرج من البحر فيأكل كلَّ الطعام الذي قد جمعه سليمان ليطعم به خلق الله تعالى!

وقلنا إن هذه القصة تُبَيِّنُ رزق الله تعالى وكيف أن سليمان الذي أوتي ملكًا لم يُؤْتَه أحدٌ من العالمين ولا ينبغي لأحد من بعده كما طلب من الله تعالى، إذا به لا يستطيع أن يطعم حوتًا في البحر وجبةً واحدة، والحوت قد اشتكى لأنَّ طعامه ثلاث مرات هذا الطعام الذي أكله من سليمان وأنه قد أجاعه ذلك اليوم!

إذا علم المرء هذه الأمور التي قد أشرنا إليها ومعاقد ملك الله تعالى علم شيئًا مهمًا؛ عَلِمَ أن له ربًّا مَلِكًا ﷻ يملك كل شيء، وبيده مقاليد السماوات والأرض، وله سبحانه تعالى كل السماوات والأرض، وأن هذا الرزق وهذا المُلْك وهذا العطاء وهذا المنع وهذه الإماتة وهذا الإحياء كل ذلك بيده، فتجرد حينئذ هذا القلب لتوحيد الرب ﷻ، وتجرد هذا القلب من الطلب إلا من الله ﷻ، وإلى اللجوء إلا إلى الله، وإلى القوة إلا بالله ﷻ، فحينئذ إذا علم أن ربه كذلك وأن المخلوقات كلها من أولها إلى آخرها لا تملك لنفسها شيئًا: لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فكيف يلتجأ إلى أحدٍ

---

(١) في دروس شرح اسم الله تعالى «الرزاق».

زائلٍ مثلِه؟! أو يطلب شيئًا من زائلٍ مثلِه؟! أو يستعين بزائلٍ مثلِه؟! أو يتذلل لزائلٍ مثلِه؟! أو يَخْنَع[1] له أو يَذِل له؟!

قد علمت أن مَعاقِد الملك لا يشاركه فيها أحد ﷻ، بل الكل مَرْبُوبُون ومملوكون له، الكل تحت قهره وقوته ﷻ. قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، يقول يوم القيامة: أين ملوك الأرض؟ فلا يجيبه أحد سبحانه تعالى.

حظ العبد المؤمن من اسمه "الملك" سبحانه وتعالى[2]

معرفة الأسماء الحسنى من أهم أمور الدين، والله تعالى يحبُّ أن يتصف العباد بما يليق بهم من هذه الصفات وأن تظهر عليهم آثار هذه الصفات. فهو الرحيم يحبُّ أن تظهر على عباده آثار الرحمة. وهو الغفور والسلام والمؤمن والقوي القادر إلى غير ذلك، فيُحِبُّ أن تظهر آثار هذه الأسماء عليهم ويأخذوا بحظهم منها، وكلما أخذ العبد بحظٍّ أَزْيَدَ كان أقربَ إلى الله تعالى، وأشد توحيدًا له ﷻ وتعلقًا به جلَّ وعلا.

الحظ الأول: أن يكون العبدُ مَلكًا في عالم الأرض

وأهمية هذه المسألة تنبع من كونها من مسائل حظ العبد من اسمه تعالى «الملك».

العبد لا يمكن أن يكون ملكًا إلا من وجهين:

---

(١) [«خَنَعَ الخُنُوع: الخُضوع والذّلُّ، خَنَعَ - له وإليه - يَخْنَعُ خُنُوعًا: ضَرَع إليه وخَضَع وطَلَب إليه وليس بأَهْلٍ أَن يُطْلَب إليه]. انظر: لسان العرب مادة: [خ ن ع].

(٢) انظر بتصرف كثير: المقصد الأسنى للإمام الغزالي رحمه الله - ص٥٠، ٥١.

الوجه الأول: أنه إذا انقطعت حاجته عن غير الله تعالى كان ملكًا. وتمام هذا المقام إنما حصل للنبي ﷺ. فالنبي ﷺ لم يكن محتاجًا في مُلْك الدين إلى أحد غير الله تعالى، وكذلك لم يكن محتاجًا في الدنيا إلى أحد غير الله تعالى؛ لَـمَّا قال له ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، لم يتوكلْ على أحدٍ آخرَ غيرِه. ولَـمَّا توكل عليه واستند عليه وفوَّض أمره إليه ﷻ أغناه عن غيره، ولم يجعل له حاجة عند البشر ﷺ.

فهذا المقام هو المقام العالي: مقام النبي ﷺ، ومقام الأنبياء كذلك، ويأخذ من هذا المقام العلماءُ وهم ورثة الأنبياء، فبقدر ما لا يحتاجون إلى أحد من أمور الدنيا بقدر ما يأخذون من هذا المُلْك.

فإذا انقطعت حاجته عن غير الله تعالى كان ملكًا، وهذا الذي يستفيده المرء من هذه النقطة؛ كيف يتصف بما يليق بالعبد من صفات الله تعالى؟ وكيف يحاول ويجاهد نفسه على أن يتصف بالحِلْم والجود والمغفرة والسلامة والإيمان والمُلْك والقوة والقدرة... إلى غير ذلك مما ذكرنا من الصفات الجميلة والأسماء الحسنى لله تعالى، فالله تعالى لم يأمر الخلق بها سُدًى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

ولذلك قال تعالى في صفة النبي ﷺ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٧، ١٨]. وخُيِّرَ ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولًا أو مَلِكًا رسولًا، فاختار العبودية ﷺ[1].

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: [جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا المَلَكُ مَا نَزَلَ مُنْذُ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ. فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ؛ أَمَلِكًا جَعَلَكَ لَهُمْ أَمْ عَبْدًا رَسُولًا؟ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ﷺ: «**لَا بَلْ عَبْدًا**

وبالجملة: من كان اللهُ له.. كان له كل شيء؛ إذا كان الله له تُراه قد نقص منه شيء؟! والمتأمل لهذه العبارة يعلم كم هو بعيد عن الله تعالى، وعن التعلق به، وتوحيده، والإقبال عليه، وأنه يمكن أن يغتني المرء وأن يكون قويًا وأن يكون كريمًا وأن يكون قادرًا وأن يكون مَلِكًا وأن يكون متعبدًا وأن يكون عارفًا بالله تعالى، وأن تتحق له ولاية الله تعالى ومحبة الله تعالى وغير ذلك، لكنَّ العبد هو المُقَصِّرُ في حق نفسه، المفرِّط فيها، المتكاسل عنها، وإن كان في النهاية هو رزق الله تعالى يسوقه لمن يشاء متى شاء ﷻ.

وعلى العكس: من لم يكن اللهُ له.. لم يكن له شيء؛ إذا لم يكن الله في قلبك وقد امْتَلَأْتَ به غنًى ومُلْكًا وقوةً وقدرةً ورحمة وبرًّا وإحسانًا، فأنت فقير ومُعْدَم؛ وذلك لأن من كان الله له فالأصل له، ومن كان له الأصل فله الفرع لا محالة، فكما لك الله تعالى فكل ما تفرع عنك عن كونه لك لا بد أن يكون لك كذلك؛ من الهداية والإقبال والدنيا والآخرة كل ذلك له؛ يكفيك أن يمتلئ قلبُك غنًى وأن يسد حاجتك، لذلك قال النبي ﷺ: **«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»**[1]. إذا لم يُعِنْكَ فلن يُعِينَك أحدٌ، وإذا لم يُعْطِكَ فلن يُعْطِيَك أحدٌ؛ لأن كل أحد إنما هو داخلٌ في ملكوته جلَّ وعلا، فإذا لم يعطك الأصل فكيف بالفرع الفقير الذي هو محتاج معك إلى الأصل؛ إلى الله تعالى.

رَسُولًا»]. أخرجه ابن حبان في صحيحه [٦٣٦٥]، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(١) رواه الترمذي [٢٥١٦] من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وقد شرح المؤلف هذا الحديث العظيم في مصنف مستقل ضمن سلسلة «شفاء السقم بتوضيح وتهذيب جامع العلوم والحكم»، وهو العدد الأول منها بعنوان «احفظ الله يحفظك»، وقد طُبع حديثًا. وانظر فيه شرح هذه الجملة النبوية الشريفة المذكورة أعلاه ص٥٨-٧٣.

وقد ذكرنا من قبل أنه لا يتصور أن يكون العبد ملكًا مطلقًا لأنه لا يستغني عن كل شيء. فإنه أبدًا فقير إلى الله تعالى وإن استغنى عَمَّنْ سواه، ولا يتصور - كما ذكرنا - أن يحتاج إليه كل شيء، لأننا ذكرنا من قبل أن الملك الحق هو الذي يستغني عن كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله. وأنَّ كل شيء يحتاج إليه في ذاته وصفاته وأفعاله بالواسطة وبغير الواسطة، وهذا هو الملك الحق. وهذا ليس موجودًا في خَلْق الله تعالى - كما أشرنا.

الوجه الثاني - من وَجْهَيْ كيف يكون العبد ملكاً في عالم الأرض - : أن المَلِكَ من العباد هو الذي لا يملك إلا بالله، يعني: أن يكون الله له كما ذكرنا، ويستغني عن كل شيء سوى الله.

الحظ الثاني: أن يملك العبد المؤمن مملكته فتطيعه ولا تعصيه

وهو - أي المرء المؤمن مع ذلك - يملك مملكته بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه، وهذه المملكة الخاصة به هي قلبُه وقالبه. وجنده هم شهوته وغضبه وهواه. ورعيته هم لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه. فإذا ملكها ولم تملكه وأطاعته ولم يطعها فقد نال درجة الملك في عالمه..

وهذا المعنى متعلقٌ بنا نحن أصحاب الأهواء والشهوات في حظ المرء من الله تعالى «الملك».

يعني إن حدث العكس وملكتْه جنودُه وأطاعها امتلأ قلبُه بالآفات من الشهوةِ والغضبِ والهوى والغل والحقد وطول الأمل والزهد في الآخرة، والميلِ للدنيا والركونِ إليها والعمل لها، والتوسع فيها، ومحبة الملذات والشهوات، والكذب والغش والخداع

والمراوغة، وحب النفس والإعجاب بها... وغير ذلك من الآفات التي يراها الواحد منا في نفسه والتي لو اطلع عليها الناس لَلَطَّخُوا وجهه[1].

هذه المملكة يظهر فيها كيف يغتني المرء بالله، وكيف يكون المرء قد تحقق بشيء من مُلْك الله فيها؛ وهي: كيف يملك قلبه وشهواته وأن يكون ذلك كله في طاعة الله، ولا يطيع شهواته ويكون أسيرًا لها لا مَلِكًا عليها. هذا المعنى هو مُنْطَلَق كيف يكون المؤمن مؤمنًا؟ كل هواه حسب ما أمر الله به، وكل شهواته فيما يحبه ربه ﷻ ويرضاه، وكل غضبه إنما يكون لله، وبقية أحواله كذلك كيف تكون كلها لله تعالى؟

وهذه تحتاج إلى المجاهدة على تعبد الله تعالى بهذا الاسم الكريم: كيف يتعبد المرءُ اللهَ تعالى بهذا الاسم المشرف وكيف يدعوه به؛ تجد النبي ﷺ في دعوات كثيرة يقول: «**رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ**» كذا وكذا وكذا. «**مالك المُلْكِ**...»[2]، إلى آخر هذه الأدعية التي يدعو المرء ربه بها دعاء العبادة والخضوع والتذلل لله تبارك وتعالى، وأن يدعوه ﷻ بأسمائه الحسنى؛ ليحقق له هذه المعاني ولتظهر عليه هذه الآثار من بركة هذا الاسم الكريم؛ وكيف يكون المرء على الحقيقة مُوَحِّدًا لربه ﷻ، وهو الهدف من هذه الأمور كلها: كيف يعلم العبد قوةَ الله، وقدرةَ الله، ومُلْكَ الله حتى لا يكون له ربٌّ إلا هو، ولا

---

(١) وقد رَهَّب ﷺ من بعض هذه الآفات وحذر منها، من ذلك قوله ﷺ: «**وَأَمَّا المُهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ**». رواه البزار في مسند عبد الله بن أبي أوفى. قال المنذري: «مَرْوِيٌّ عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يَسْلَمُ شيءٌ منها مِن مَقالٍ، فهو بمجموعها حسنٌ إن شاء الله تعالى» ا.هـ. من الترغيب والترهيب [ح: ٦٢٣]. طبعة مكتبة المعارف - الرياض - الطبعة الأولى - سنة ١٤٢٤هـ.

(٢) انظر مثلًا الحديث الذي رواه الترمذي [٣٣٩٢].

مَلِكٌ إلا هو... ولا إله إلا هو... ولا يتوجه إلى أحد إلا إليه... ولا يسأل إلا إياه... ولا يستعين إلا به... ولا تكون حوائجه وطلباته إلا منه ﷻ... ولا يكون خوفه إلا منه... ولا رجاؤه إلا فيه... ولا خشيته إلا له... أن يكون عبدًا لربه ﷻ كما شاء الله له أن يكون، وهذا هو التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ.

فإذا انضم إلى هذه المعاني بأن يملك مملكته -وهي قلبه وهواه وجوارحه كما ذكرنا- وأن يكون هو الملك عليها ولا تكون هي الملكة عليه، يعني: أن يطيع هو فيها ربه ولا يطيعها، وأن تكون هي المطيعة له لا هو، وهذا كله في خاصة النفس. فإذا انضم إليها استغناؤه عن كل الناس واحتاج الناس كلهم في حياتهم العاجلة (أي الدنيا) والآجلة (أي الآخرة) إليه، فهو المَلِكُ في العالم الأرضي.

وتلك رتبة الأنبياء، فإنهم استغنوا في الهداية إلى الحياة الآخرة عن كل أحد إلا الله، فهم ليسوا محتاجين إلى أحد ليدعوهم إلى الله تعالى أو ليهديهم إلى صراطه أو يُبَيِّنَ لهم طريقه. وفي المقابل فقد احتاج إليهم كل أحد في ذلك بلا شك. يليهم في هذا المُلْك العلماءُ الذين هم ورثة الأنبياء؛ وإنما مُلْك هؤلاء العلماء بقدر قدرتهم على إرشاد العباد، واستغنائهم عن الاسترشاد. وبهذه الصفات الجميلة يقرب العبدُ من الملائكة في الصفات، يعني: تصير صفاته أقرب إلى صفات الملأ الأعلى، فالله تعالى ما اختار ملائكته لمجاورته في الملأ الأعلى إلا لكونهم قد تنزهوا عن الصفات المرذولة، فلا يحيط بعرشه وسمائه أحدٌ قد تدنس بشيء من الشهوات والمصائب والآفات، وإنما هم مطهرون عن ذلك كله كما قال ﷻ عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، وبذلك أيضًا يكون قد اتصف المرء حينئذٍ بهذه الصفات الحسنة التي هي صفات القرب من الله تعالى.

الحظ الثالث: أن يطلب العبد هذا المُلك من الله تعالى

وهذا الملك عطيةٌ للعبد من الملك الحق ﷻ الذي لا مثنويَّة[1] في ملكه[2]. ولقد صَدَقَ بعض العارفين لـمَّا قال له بعض الأمراء: «سَلْني حاجتك؟» قال له: «أَوَ تقولُ لي هذا ولي عبدان هما سيداك؟» قال: «مَن هما؟!»، قال: «الحرص، والهوى». أي أنت حريص على الدنيا والمُلك وكذا وكذا وتتصرف فيها كما يأمرك هواك يمينًا وشمالًا، وهؤلاء هما سيداك؛ أي هما اللذان يُحركانِك في الدنيا وفي الآخرة، لذلك قال له العارف: «فقد غلبتُهما وغَلَباك وملكتُهما ومَلَكاك» يعني: كيف أسألك أنت إذن أيها المسكين؟!

وقال بعضهم لبعض: «أوصني»، فقال له: «كُنْ مَلِكًا في الدنيا ومَلِكًا في الآخرة»، فقال: «وكيف أفعل ذلك؟» قال: «اقْمَعْ طَمَعك وشهوتَك في الدنيا تَكُنْ مَلِكًا في الدنيا والآخرة، فإنَّ المُلْك هو الحرية والاستغناء»؛ أن يكون حرًّا لا عبدًا لأحدٍ في مالٍ ولا في جاهٍ ولا في سلطان ولا في كذا ولا في كذا ولا أي شيء، وأن يستغني بالله عن كل أحد. وعلى قدر هذه العَطِيَّة من الله تعالى على قدر ما يكون مُلك المرء، وإذا المرء تعرض لهبة الله تعالى بالعمل الصالح والإقبال على الله تعالى والتضرع والدعاء وطول الوقوف على باب الله تعالى يوشك الله تبارك وتعالى أن يَمُنَّ عليه بشيء من هذه العطية فتكون خيرًا له من الدنيا والآخرة، وأن يكون كذلك في الدنيا والآخرة مَلِكًا قد اتصف بهذا المعنى من معاني اسمه ﷻ **«الملك»**.

---

(١) «المثنوية: الاستثناء». انظر: تهذيب اللغة، مادة: [ث ن ي].

(٢) والناظر في أحوال نفسه يتحسر كثيرًا ألَّا يَرَى نفسه قد تحقق بهذا المعنى المهم من معاني المُلك؛ إذ لو استحق ذلك لمنحه الله تعالى إياه بفضله.

ومن تحقق بهذه المعاني التي أشرنا إليها؛ عَرَفَ مُلْكَ ربنا وقوته وقدرته على التصرف ﷻ، وبَذَل نفسه لله ﷻ حتى يعطيه شيئًا. فنحن لا نبذل وقتًا ولا جهدًا ولا صحة ولا شيئًا لله تعالى، وما تأتي طاعة من طاعات الله ﷻ إلا بالبخل والحرص؛ إذا قيل للمرء: «صَلِّ» مثلًا، يقول: «أنا مريض..»! أو إذا قيل له: «أنفق»، يقول: «ليس معي إلا نقود يسيرة، أنا في احتياج إليها..»! وكل هذا تشكك في معرفة المَلِك القوي القادر ﷻ، وينبغي للمؤمن أن يعلم أنه طالما له مَلِك يُعطيه ويمنحه ويقويه ويثيبه ﷻ، وله المُلْك كله وله الحمد كله، وله الثناء كله، فمُقَصِّرٌ إذن من يقول تلك الأقوال المذمومة التي أشرنا إليها؛ لأنه لو قال ذلك لدلَّ على أنه ما زال مفتقرًا إلى الأسباب وليس مفتقرًا إلى الله، ما زال جاهلًا بالله تعالى لا يعلم قدرته وقوته ﷻ ومُلْكه الواسع الذي لا يحيط به شيء.

الحظ الرابع: أن يتبرأ العبد من الحول والقوة ويسلم الأمر لمالكه جل وعلا

وإذا تحقق العبدُ أن الله تعالى هو المَلِكُ تَنكَّبَ عن وصف الادعاء وتبرأ من الحول والقوة في تسليم الأمر لمالكه، و«تَنكَّبَ عن وصف الادعاء» يعني: امتنع وابتعد عن طريق الادعاء. بألا يقول: «هذا بي أو بقوتي أو قدرتي...» إلى آخره[1]. بل علم نفسه فقيرًا في النهاية، وأنه لا يجد نفسه شيئًا في ملك الله، وينظر إلى الدنيا ومن فيها من الملوك وما كان وما يكون: لا يراهم في مُلْك الله شيئًا، فكيف يدَّعي لنفسه مُلْكًا أو قدرةً أو قوةً، بل لا يزال عبدًا لا يملك شيئًا. هذا هو معنى العبد في الإسلام؛ فالعبد لا يملك

---

(١) وانظر العدد الرابع من سلسة «الفتوحات الإلهية شرح الأسماء الحسنى للذات العلية»: «القوي» للمؤلف لمزيد من التفصيل لهذا المعنى المهم.

شيئًا، حتى نفسه لا يملكها؛ بل يُباع ويُشْتَرى، ويعمل ويؤدي لسيده. وكذلك العبد المؤمن.. اللهُ تبارك وتعالى أمرهم - هؤلاء العبيد - أن يعملوا وأن يؤدوا إليه، فإذا بهم عبيد السوء؛ يعملون ويؤدون إلى غيره: الشيطان والنفس والهوى والشهوات. وهذا هو معنى حديث العبد: حديث سيدنا يحيى بن زكريا عليه السلام في: أن يعملوا، وأن يؤدوا إلى الله، وإذا بهم يعملون ويؤدون إلى غيره[1]. وهذا الأمر الأول وهو أن ليس له شيء ولا به شيء ولا منه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

---

(١) ونذكر تمام هذا الحديث النبوي الشريف لما فيه من المعاني المهمة جدًّا؛ عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: «إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ». فَقَالَ يَحْيَى: «أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ». فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي، فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ. فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟! وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ. وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ».

قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ

والمُلْك لله على الحقيقة، وأنت فقير محتاجٌ إليه لا تقدر إلا بإقداره لك، ولا تستطيع إلا بأن يُقَوِّيَك ﷻ، وأنك أيًّا ما كنتَ، فأنت في النهاية زائل لا تنفع نفسك فضلًا عن أن تنفع غيرك. ولا يدخل المرء على الله تعالى إلا من هذا الباب؛ وهو باب أن لا يرى لنفسه شيئًا وأن لا يرى من نفسه شيئًا ولا بنفسه شيئًا، لا له مُلْكٌ.. ولا قدرةٌ.. ولا قوةٌ.. ولا عطاء.. ولا منع.. ولا نفع.. ولا ضر.. ولا بذل.. ولا شيء، بل يدخل مفتقرًا إليه ﷻ، عبدًا يسمع كلامه فيطيعه ﷻ، يأتمر بأمره وينتهي عن نهيه ويكون كما أمره الله تبارك وتعالى: يعمل ويؤدي لربه يعني: يسعى سعيه المتواصل في عبادة الله ويؤديها له لا للهوى والرياء والشيطان والسمعة وإنما يكون كل سَعْيِه خالصًا لربه.

فإذا تحقق العبدُ مِن أنَّ الله تعالى هو الملك والمليك ومالك الملك تَنكَّبَ عن وصف الادعاء كما أشرنا، ولم يَدَّعِ لنفسه شيئًا، وتبرأ من الحول والقوة في تسليم الأمر لمالكه، يعني: تبرأ من كل شيء وسلَّم الأمر لله تعالى، وعلم أن الذي يسير الكون هو الملك؛ هو الذي يرفع ويضع، ويعطي ويمنع، ويغني فقيرًا ويفقر غنيًا، ويعز ذليلًا ويذل عزيزًا، ويقيم دولة ويأتي بأخرى... وهكذا، سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن[1]. ولم يُعوِّل

مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ. وَمَنِ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله! وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ»]. رواه الترمذي [٢٨٦٣، ٢٨٦٤]، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وبنحوه أخرجه ابن خزيمة [١٨٩٥]، وابن حبان [٦٢٣٣] في صحيحيهما.

(١) والمتأمل في حالنا اليوم يجد عكس ذلك؛ إذا حدث للمرء مصيبة تعلَّق قلبُه بالأشخاص والأسباب، ولم يتوجه بقلبه إلى الله ﷻ «المَلِك» القوي القادر الذي لا يتحرك شيء في هذا الوجود ولا يسكن إلا بأمره ﷻ.

المرء على اختيار نفسه وهو الشخص المسكين ولم يفزع إلى احتياله عند طلب الخلاص؛ يعني: لم يفزع إلى حيلة نفسه عندما يقع في شيء يريد أن يتخلص منه في مرض.. في مشكلة.. في كذا.. في كذا، لا يفزع إلى حيلة نفسه وقدرته إلى الخلاص من ذلك، بل يفزع إلى الله تعالى الملك المدبر.

الأمر الثاني: ومن تحقق بمُلْك سيده عاد جمال ذلك المُلْك إلى نفسه في أخلاقه وعباداته وفي سلوكه.

الحظ الخامس: أن يتجرد العبدُ لمالكه في القرب والقصد

ومن عَرَفَ أن الله تعالى هو المُتوحِّد بالمُلْك أَنِفَ أن يتذلل لمخلوق؛ لأن المعرفة بمالكه توجب للمرء المؤمن التجردَ له في القُرْب إليه وقصده سبحانه وتعالى. أي يتجرد له هو فقط جل وعلا. فليس له ربٌ سواه، ولا يشاركه في قلبه أحد يظن أنه ينفع أو يضر... لا يشاركه في قلبه أحد يظن أنه يخافه أو يخشاه... لا يشاركه في قلبه أحد يحبه كمحبة الله... لا يشاركه في قلبه أحد يذكره كَذِكْرِهِ أو يُقْبِلُ عليه كإقباله أو يطمئن له كاطمئنانه، لا يشاركه في ذلك شيء.

ولا يَجْمُل بالعبد المريد لله تعالى أن يتذلل للعبيد وهو يجد من مولاه ما يريد، يعني: أَيَجْمُل بالعبد أن يترك سيده الذي قد أغناه وقد أعطاه وتصدى له وحماه؟ أيجمل به أن يذهب لغيره يطلب منه وعند مولاه كل شيء سبحانه وتعالى؟!

الحظ السادس: الثقة في مالكه سبحانه وتعالى

ومن آداب من عَرَف أنه هو المَلِك الحق ﷻ أن يثق بما يرجوه من الله ويأمله في جميع ما يُنفق ويفعل ويذر، وأن يكون بما في يد الله أوثق بما يكون في يده، لأن ما في يده يمكن أن يضيع منه، أو أن يأخذه منه أحد، أو أن يُسْرَق، أو أن ينام عنه فيصبح لا يجده... وهكذا، لذلك يجب أن يكون العبدُ أوثق بما في يد الله مما في يده؛ فما في يده مُعَرَّضٌ للزوال والفناء، وما في يد الله باق كما قال ﷻ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

الحظ السابع: أن يترك العبد تدبيره لتدبير الله عز وجل

فإن من ترك تدبيره لتدبير الله دبَّر اللهُ له مُلْكه؛ وهو أن يكون العبد كالطفل مع أبيه؛ هو الذي يقوم بحاجاته ويُدبر له ويرتبه ويقوم على مصلحته ولا ينام حتى ينام وكذا وكذا، وهذه معنى تربية الرب ﷻ للعبد؛ أنه إذا ترك العبد له تدبيره دبر الله له وقام على رعايته واعتنى به وكان من خاصة أهله.

مسألة مهمة:

لما كان الله تبارك وتعالى هو الملك اختار عبادًا له ﷻ وأدخلهم في عبوديته الحقة؛ لأن عبودية الناس إلى الله تعالى نوعان:

النوع الأول: عبودية عامة، فكل الناس - بَرِّهم وفاجِرِهم، مؤمنهم وكافرهم - عباده ﷻ قهرًا ومُلْكًا.

النوع الثاني: عبودية خاصة، ولا تكون إلا للمؤمنين الذين اتبعوا ربهم وآمنوا به ﷻ.

وهذه العبودية الخاصة هي المقصودة بقولنا: العبودية الحقة وهي عبودية المؤمنين لله تعالى وهي درجات أيضًا. فمن سبقت له عنايتُه وحقت له في عموم الأحوال رعايته فإنه ﷻ يُمَلِّكُهُ هواه، ويعتقه من أسر نفسه ومُناه، ويحرره من رعونة نفسه وإنسانيته[1]، لأنه لما ارتضاهم لعبوديته لم يقبل منهم أن يكونوا عبيدًا لغيره، لذلك قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ...**»[2] إلى آخر الحديث، لذا فأن يكون المرء عبدًا لله وأن يكون عبدًا لغيره فذلك لا يقبله الله تعالى. فإذا اصطفاه أن يكون عبدًا له وحده طَهَّر قلبه من عبودية ما سواه ﷻ؛ هواه ونفسه وشيطانه كل هذه العبوديات يحرره منها.

الحظ الثامن: ألا يحتشم من الإنفاق والبذل في سبيل الله تعالى

والله تعالى هو الملك؛ والملك ينفق؛ فهو المالك والملك ﷻ والمليك ومالك الملك ينفق على الرعية ولا يخشى شيئًا ﷻ، لذلك قال: ﴿**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ**﴾ [الإسراء:١٠٠].

وقال ﷺ: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى، لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**»[3]، انْظُرْ كَمْ من أناس أكلوا وشربوا وتملكوا في الدنيا وكانوا؛ كل ذلك

---

(١) «رُعونة نفسه» أي: رُعونة كونه إنسانًا له شهوات وأهواء، و«يُحَرِّره اللهُ منها» أي: يُقَوِّيه عليها.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الإمام البخاري [٧٤١١]، وبنحوه الإمام مسلم [٩٩٣]، كلاهما من رواية أبي هريرة ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

من مُلْكه ورزقه ﷻ. وهذه الآداب هي من آداب مَن كان واثقًا بالله تعالى، وينبني عليها أن لا يحتشم[1] من الإنفاق والبذل في سبيل الله، لذلك قال النبي ﷺ لبلال رضي الله عنه: «**أَنْفِقْ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا**»[2]، والله تعالى يقول في الحديث القدسي الشريف: «**أَنْفِق أُنْفِقْ عَلَيْكَ**»[3]، ولا بد أن يكون كرم الله تعالى هو الغالب، لذلك لا ينبغي للعبد أن يخاف التلف؛ لأن المَلَك يدعو له كما في الحديث: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[4]، ومعنى «**تَلَفًا**»: أن تحدث مصيبة تأخذ ماله، أو يأتيه الموت فيأخذه الوارث؛ أمَّا هذا المنفق فيأتيه الخلف في الدنيا مُعَجَّلًا وحُسْن العاقبة في المؤجل؛ فما ينفقه العبدُ يضاعفه اللهُ له إلى سبعمائة ضِعْفٍ.

ولعلَّنا قد عرفنا شيئًا عن ملك الله، وتطهرت قلوبُنا بهذه المعاني، وبدأنا في مجاهدة أنفسنا على التحقق بها، والظفر بهذه الآثار من آثار اسمه المليك والمالك ﷻ؛ ليكون ذلك زادًا لنا في الدنيا والآخرة؛ وليكون ذلك كذلك سببَ حُسنِ التوحيد للرب ﷻ والإقبال عليه والدعاء له جلَّ وعلا.

---

(١) «لا يَحْتَشِم من الإنفاق» أي: لا يخشى من الإنفاق ولا يحرص على المال.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم: [١٠٢٠، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٩٨] مكتبة العلوم والحكم. وفي الأوسط [٢٥٧٢] دار الحرمين - القاهرة - سنة ١٤٢٥هـ. وأبو يعلى في مسنده [٦٠٤٠]، قال المنذري: «رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن»، الترغيب [ح: ١٣٢٠].

(٣) متفق عليه: البخاري [٤٦٨٤]، ومسلم [٩٩٣]، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) رواه البخاري [١٤٤٢]، ومسلم [١٠١٠]، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

الفصل الثالث

نظرة إجمالية في الآيات الواردة

في معاني أسماء الله تعالى

« الملك و المالك و المليك »

وبالتأمل في الآيات التي ذكرت اسم الله تعالى «الملك» و«الملك» و«المليك» وجدناها تدور على هذه المحاور التالية:

أولًا: مظاهر ملك الله تعالى.

ثانيًا: ثناء المَلِك على نفسه سبحانه وتعالى.

ثالثًا: كل مظاهر المُلْك مسلوبة عن غيره سبحانه وتعالى.

وكما هو منهجنا سنحصر الآيات ثم نشير إجمالًا إلى بعض معانيها تحت كل عنوان من تلك العناوين؛ لنبين ترابطها وإفادتها للمعنى، ثم نتبعها بتفسير بعض تلك الآيات، إذ التفصيل في ذلك خارج عن حدود هذا الفصل[1].

أولاً: مظاهر مُلك الله تعالى

المظهر الأول: الله تعالى له المُلْك وله الحمد على ذلك الملك

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١].

هذه الآية تشير إلى أنه إذا كان له الملك فليس له الملك فقط، وإنما له الملك وله الحمد على هذا المُلْك.

(١) انظر الفصل الرابع وفيه شرح تفصيلي لبعض الآيات التي أجمل ذكرها في هذا الفصل الذي نحن بصدده الآن.

فكأنه ﷻ يقول في هذه الآية له الحمد مع الملك، وهذا يخالف مُلْكَ البشر؛ فمن الممكن أن يكون المرء مَلِكًا في الدنيا وعظيمًا فيها وكذا وكذا، لكن لا يُحْمَدُ على أفعاله ولا يُثْنَى عليه فيها؛ وإنما هو ظالم جائر، أو فاسق فاسد، أو غير ذلك من الأوصاف التي تنزل به. والسؤال: أيكون هذا الحمد والمُلْك مخالفا لمُلْك البشر حتى لو كان هذا المَلِك من البشر صالحًا؟ الجواب: نعم؛ يمكن أن يكون صالحًا، ولكن لا يأخذ الحمد الذي لله تعالى؛ لأن كل الصفات التي تستحق الحمد والثناء إنما هي مُخْتَصَّةٌ بالله تعالى لم يحصلها أحد من البشر؛ بل كل ما يحصله البشر إنما هو محض فضل الله تعالى.

وهذه الآية وهي: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ كذلك مرتبطة بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ...﴾ [الحشر:٢٣]، فهذه الأوصاف المتتالية لها ارتباط مع بعضها البعض «الملك القدوس السلام المؤمن»؛ فالقدوس: هو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص، السلام: الذي سَلِمَ الخلقُ - وهذه أحد المعاني التي أشرنا إليها في شرح اسم الله تعالى «السلام» - من ظُلْمه أو من جَوْره، والمؤمن: الذي أَمَّن عبادَه كذلك من ظلمه[1]؛ فكانت متناسبة أن يقال: «الملك القدوس السلام المؤمن» إلى آخر هذه التركيبة من أسمائه الحسنى التي أشار إليها القرآن الكريم في هذه الآية[2].

---

(١) وهذه المعاني للأسماء الثلاثة ذكرناها على سبيل الإيجاز بما يليق بهذا المقام، ولمعرفة بقية المعاني والوجوه في هذه الأسماء المشرفة لله ﷻ فارجع إلى شرح هذه الأسماء المشرفة للمؤلف، وهي متوفرة في صورة صوتية في موقع طريق الإسلام على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) وفي مواقع أخرى.

(٢) وانظر: سبب اقتران اسم الله تعالى «القدوس» باسمه تعالى «الملك» في القرآن الكريم في شرح اسم الله «القدوس» ص ٦، ٧ – الطبعة الأولى ٧-١-٢٠٠٧م.

المظهر الثاني: الله هو المَلِكُ له المغفرة والمؤاخذة وهو على كل شيءٍ قديرٌ

والآية التالية إذا كان له الملك فله المغفرة وله المؤاخذة؛ لأن المُلك بيده، علاوة على أن مصير كل شيء إليه، فيقضي فيه بما شاء: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[المائدة: ١٨]؛ لأنه يملك كل شيء، ومن ثَمَّ هو مالك لعباده، وهو جلَّ وعلا المتصرف فيهم، وهو الحاكمُ عليهم الآمرُ الناهي لهم؛ فمن استجاب فإنه يغفر له على ما كان منه، ومن فسق وخرج فإنه شديد العقاب.

وقال ﷻ: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[المائدة: ١٧]، فما الزائد في هذه الآية عن الآية الأولى في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؟

الجواب: أن هذه الآية الأخيرة تُبيِّن مدى قدرة هذا المَلِك؛ ليس يملك ويأمر وينهى فقط، بل هو مَلِكٌ وهو على كل شيء قدير: يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، بل إن أهلكهم جميعًا لا يملك أحد أن يرد عليه ذلك أو أن يُوقِفَ ذلك أو أن يمنع شيئًا من ذلك. لذلك قال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[المائدة:١٧].

المظهر الثالث: الله تعالى هو المَلِك يخلقُ ما يشاء

وهذه آية التالية وهي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ...﴾ لها علاقة بشيء آخر وصفة أخرى من مظاهر مُلْك الله تعالى نشير إليها؛ أنه له

ملك السماوات والأرض؟ لا؛ ليس ذلك فقط، بل له ملك السماوات والأرض وما بينهما. فإذا كان ملوك الدنيا لهم شيءٌ في الأرض فليس لهم كل الأرض كما ذكرنا، وليس لهم كل الزمان على الأرض، وليس لهم فيها كل التحكم الذي يمكن أن يكون لله، وإنما إن تحكم في شيء لا يتحكم في بقية الأشياء وإن أَمَر أو نَهَى فإنه لا يملك الأرض ومن عليها، وإن مَلَكَ يومًا لا يَمْلِكُ بقية الأيام ويموت، وإن مَلَكَ فزائلٌ مُلْكُه. أليس كذلك؟ إلا الله ﷻ. وحتى لو مَلَكَ مُلوكُ الدنيا الأرضَ كلها فإنه ليس لهم شيء في السماوات أو فيما بين السماوات والأرض، لذلك قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...**﴾.

ما الصفة الزائدة الأخرى في مُلكه في هذه الآية؟ قال: مع أنَّ له الملك فإن له الخلق كذلك ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ...**﴾.

وإذا كان أهل الدنيا وملوكها ومَنْ عليها من أولهم إلى آخرهم إلى أن تقوم الساعة لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له كما قال المولى ﷻ: ﴿**ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ**﴾[الحج:٧٣]..

فدلَّ ذلك على قوته وقدرته ﷻ على إنشائهم من العدم. وهذا الذي يستفيده قلبُ المؤمن كذلك أنَّ هذا الملك المسكين من ملوك الدنيا لا يستطيع أن يملك من في الأرض جميعًا، ولو استطاع ذلك فلا يستطيع أن يخلق شيئًا، فدَلَّ على ذلك أن الخلق بيد الله؛ وليس الخلق فقط، بل الإحياء والإماتة بيده ﷻ كما سنشير في العنوان التالي «الله تعالى هو الملك بيده الإحياء والإماتة».

المظهر الرابع: الله تعالى هو المَلِكُ بيده الإحياء والإماتة

قال الله ﷻ: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ..﴾[الأعراف: ١٥٨]، فزاد في ذلك هذا المعنى أنه ﷻ له ملك السماوات والأرض وله الخلق وله الإحياء وله الإماتة. وكل ذلك لا يستطيع أن يدعيه أحد من ملوك الأرض، ولم يَدَّعِهِ أحدٌ إلا كذبًا. في قصة النمروذ مع إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ لما حكم على اثنين بالقتل قال أنا أحي وأميت: فعفا عن أحدهما على أنه قد أحياه، وقتل الآخر على أنه قد أماته!! فلم يكن ذلك على الحقيقة إماتة أو إحياءً.

لذلك بَيَّن ﷻ هذا المعنى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ - وهو الذي يُقَوِّي قلبَ المؤمن كذلك ويجعله متعلقًا بربه - أنه لا يُحييه أحدٌ ولا يُميته أحدٌ إلا ربه ﷻ، ولا يقدر على ذلك إلا الله جلَّ وعلا، فكان ذلك توحيدًا لربه من هذا الوجه، وإيمانًا به ﷻ من هذا المنطلق الذي به ينبذ قلبه مَنْ في الأرض جميعًا، لا يقوم له فيها أحدٌ، ولا يُخيفه أحد، ولا يَخْشى أحدًا إلا الله ﷻ. علم المرء إذن أنَّ رُوحه بيد الله تعالى وأنه يحيي ويميت وأنه يخلق ما يشاء ﷻ؛ وليس ذلك فقط بل زاد على ذلك أن له المُلْك وله الرزق.

المظهر الخامس: الله تعالى هو الملك يملك الرزق

ليس له المُلْك فقط، بل له الملك والرزق. فإن المَلِك يمكن أن يملك ولكنه لا يملك أن يرزق أحدًا، بل لا يملك أن يرزق نفسه فضلًا عن أن يملك لغيره الرزق، لذلك قال ﷻ في الرزق: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس:٣١] يعني: لا يملك الرزق إلا هو سبحانه وتعالى.

وكانت الآية المقابلة لها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]..

فأَمَّنَ اللهُ تبارك وتعالى المؤمنَ الموحِّدَ الذي اطَّلَعَ على هذه الآثار العظيمة لهذا الاسم المشرف وهو «الملك»؛ أمَّنه ﷻ من ناحية الإحياء والإماتة والخلق والعدم، ومن ناحية الشفاعة، ومن ناحية الرزق كذلك، فإن المرء في هذه الدنيا إنما يخاف على رزقه ويخاف على مستقبله - كما يقولون - ويخاف على نفسه من الموت أو من وقوع الضر به فأمَّنه من هاتين المسألتين، يحيي - هو ﷻ - ويميت، لا يستطيع ذلك أحد غيره ﷻ، وكذلك هو الذي يرزق..

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]..

وهؤلاء الذين تدعون لا يملكون لكم رزقًا؛ لأنهم لا يستطيعون أن يرزقوا أنفسهم؛ وإنْ جاءهم مرضٌ أو جاءهم شيء هم أنفسهم لا يستطيعون شيئًا [1].

لذلك قال أيضا في هذا المعنى - معنى الإحياء والإماتة -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ..﴾ [التوبة:١١٦].. وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد:٢]..

فهذه الآيات تُبيِّن هذه المظاهر من مُلك الله تعالى التي ينبغي أن يكون المرء على بينة منها في توحيد المرء لله تعالى بها.

---

(١) وقريب من ذلك المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣].

المظهر السادس: الله هو المَلِكُ

يَهَبُ لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور.. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا.. ويجعل من يشاء عقيمًا..

وإذا كان هو ﷻ يخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير، فهناك مسألة أخص من الخلق وهي في قوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا...﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] ..

ولا يملك أحدٌ ذلك إلا هو ﷻ، فلو كان المرء عقيمًا لا ينجب فلا شك لو أنَّ الدنيا كلها اجتمعت على أن ينجب فلن ينجب، أو لو كان قد رزقه الله تعالى البنات فقط فلا يستطيع أحدٌ أن يفعل شيئًا حتى يرزقه الصبيانَ أو العكس وهكذا.

لذلك كانت تلك الآية تتمةً لهذا المعنى من معاني تَعَلُّقِ القلب بالله تعالى، وإظهارِ مُلْك الله جلَّ وعلا؛ أنَّ المرء إذا وقع في شيء مما ذكرنا كان مردُّه التعلقَ بالله تعالى، وكان مرده إلى الله جلَّ وعلا. وعلى العكس الناظر في حالنا يرى أنَّ كل مُرادنا فيها أو تعلقنا فيها ليس بالله تعالى؛ بل تعلق الواحد منا بأن يذهب إلى الطبيب، أو أن يذهب إلى من يُقيم له شيئًا، أو أن يُعطيه شيئًا، أو أن يُقرضه شيئًا، أو أن يَرْفع عنه شيئًا، أو أن يتوسَّط له في شيء، أو أن يَشْفع له في شيء. إذا علمت أنَّ الشفاعة والرزق والخلق والموت والإحياء وكل شيء لله تعالى فينبغي أن يستقيم قلبك له سبحانه تعالى، وينفرد قلبك بتوحيده ﷻ؛ ويخرج من قلبك كل شريك ونِد إلا لله تعالى، فلا يشاركْ أحدٌ ربَّك في قلبك؛ لا الدنيا ولا المال ولا الولد ولا الجاه ولا السلطان ولا الخوف ولا الخشية من غيره جل وعلا، بل كل ذلك له ﷻ.

المظهر السابع: الله تعالى هو المَلِكُ وإليه المصير

وكذلك له المرجع وله المصير؛ يعني: كل ملك في الدنيا لا يأمن على نفسه أن يموت غدًا فينتهي أمرُه، أما المَلِكُ - مَلِك الملوك ﷻ.. المليك.. مالك المُلك جلَّ وعلا، فيقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]، ليس ثمَّ ملكٌ في الدنيا من قبل أو من بعد أن حَكَمَ حُكْمَه يُرْجِعُ الناسَ مرة أخرى إليه بعد أن يموتوا مثلًا، بل على العكس كل ملك في الدنيا لا بد أن يموت؛ ثم مرجعه إلى الله تعالى ومصيره إليه، بل الدنيا كلها مرجعها إليه ومصيرها إليه ﷻ، بل رجوع الأمر كله لله جلَّ وعلا كما قال ﷻ: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥].

هل مَلِكٌ في الدنيا تُرجع إليه الأمور، أو يصير ويرجع إليه الناس؟ لا شك أن ذلك لا يكون إلا لله تعالى. فيستعد الناس ملوكًا وغيرهم لهذا المصير.

المظهر الثامن: الله تعالى هو المَلِكُ وهو على كل شيء شهيدٌ

وهناك مظهر آخر من مظاهر ملك الله تعالى لا يستطيعه أحد إلا هو؛ وهو المُلك مع الشهادة؛ يعني: أن الله على كل شيء شهيد. وهذه كذلك يُفارِقُ فيها ملوكَ الدنيا..

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، أليس كذلك؟ إذن له المُلك وله الشهادة على مماليكه، وليس على ظاهرهم فقط، وإنما على ظاهرهم وباطنهم ويعلم السر وأخفى، وليس ذلك فقط، بل هو شهيدٌ عليهم يعني: ناظرٌ إليهم، مطلعٌ عليهم، سميعٌ بهم، فالشهيد هو من يشهد على غيره بما رأى أو بما

سمع، يعني: هو قد سمعهم ورآهم، كما ذكرنا عند شرح اسمه «**الشهيد**» سبحانه وتعالى[1].

فمن الذي له شيء من ذلك في الشهادة؟ هل هناك ملك في الدنيا يستطيع أن يشهد خلقه وأن يَحْضرهم وأن يراهم يفعلون ويقولون ويتكلمون؟! وإن حَضَر أحدًا في الظاهر هل يستطيع أن يَحْضَر باطنَهم وما كان وما يمكن أن يكون مما يفكرون فيه أو مما يمكن أن يحدث لهم بعد ذلك؟! لذلك هذه المسألة من مُلك الله تعالى الذي يُفارِق فيها -كما أشرنا- مُلْكَ البشر، وليس كذلك فحسب بل هذه المسألة تعلمنا كيف يكون المرءُ مراقبًا لربه ﷻ كما ذكر رسول الله ﷺ في تعريف الإحسان «**أن تعبد اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2] ﷻ، وهذه تُطلع القلب على هذه المعاني الحسنة التي يجب أن تسود قلوبَ المؤمنين وهي مراقبتهم لله تعالى، فإذا ما راقبوا ربهم جلَّ وعلا كان ذلك مدعاةً إلى المسارعة إلى مرضاته والانكفاف عن زواجره ونواهيه ﷻ، وكذلك كان ذلك مدعاةً إلى إحسان العمل، وإحسان الإقبال عليه ﷻ، وأن يراهم حيث أمرهم وأن لا يجدهم حيث نهاهم، وأن لا يخرج منهم ما يغضبه جلَّ وعلا، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى تراهم كذلك يُسارعون في مرضاته؛ عندما يرى المرءُ أن ربه ناظرٌ إليه أو شاهدٌ عليه إذا به يُحْسن العملَ ويَبْذل وقته وجهده، ويَنْفي عن نفسه الملَلَ والتكاسلَ والتوانيَ والتسويفَ وغير ذلك. وهكذا المرء في أمور الدنيا فإنك إذا رأيت من يطَّلع على رأسك

(١) راجع شرح اسم الله تعالى «الشهيد» وهو متوفر في صورة صوتية على موقع الإسلام وغيره من مواقع شبكة (الإنترنت).

(٢) أخرجه الإمام البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، ومسلم [٩]، وغيرهما عن أبي هريرة ؓ مرفوعًا.

وواقفٌ عندك أَجِدْتَ عملك وأخلصت فيه وبذلت له وكنت على أحسن الأحوال التي إن رآك صاحبُ العمل أَجْزَاكَ فيها وأعطاك فيها ما يمكن أن يكون من حسن العطاء وجزيل الثواب. فهذا أيضًا مظهر من مظاهر ملك الله تعالى الذي لا يستطيعه أحد كما أشرنا.

المظهر التاسع: الله تعالى هو المَلِكُ لا شريك ولا ولدَ له

ومن مظاهر ملكه كذلك نفي الشريك والولد؛ لا يكون ملكًا أو مالكًا للملك من كان معه شريك، فهذا الملك كله لمن؟ لله تعالى. من الذي يدَّعي أنه قد خلق شيئًا فتملَّكه في الأولى والآخرة أو فيما كان أو فيما هو كائن اليوم؟! وكذلك وجود الولد ينفي المُلْك التام؛ لأن وجود الولد يمكن أن يكون سببًا لميراث هذا الملك وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**..﴾ [الحديد: ١٠]، كيف يرثه غيرُه ﷻ؟!

لذلك قال في هذه الآيات بالذات: ﴿**وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا**﴾ [الإسراء: ١١١]، أي: قل الحمد لله الذي لم يكن له شريك في الملك؛ لأنه كما قال ﷻ: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال أيضًا ﷻ: ﴿**مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [المؤمنون: ٩١][(١)]، وكانت الواقعة الكبرى، وقال كذلك:

---

(١) وهاتان الآيتان من الأدلة العقلية الدالة على انفراده بالألوهية ﷻ. وقد شرحنا كثيرًا من هذه الأدلة في دروس توضيح شرح العقيدة الطحاوية، وهي متوفرة في صورة صوتية على موقع طريق الإسلام وغيره من المواقع على الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنت).

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ...﴾ [الفرقان: ٢]، كذلك اتخاذ الولد يدل على الضعف، ويدل على نفي الملك التام، لأنه يدل على طلبِ المساعدة والقيام بأوامره ومن يقوم له به ومن يضعه في محل ثقته حتى يكون سببًا لتيسير ملكه وتيسير أموره وأحواله، والله تعالى متنزهٌ عن ذلك كلِّه جلَّ وعلا.

المظهر العاشر: الله تعالى هو الملِك.. ملوك الدنيا والآخرة وكل شيء بيده سبحانه وتعالى

ثم بعد ذلك قال المولى ﷻ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وهذه المعاني في آيات الله تعالى نريد أن يطلع عليها الناس حتى إذا قرأها المرء اتضحت له هذه المعاني التي لم يكن يخطر بباله أن تقع في سياق تأمله لكلام الله تعالى، وكأن الله تعالى لم يدع شيئًا يمكن أن يكون في ملكه إلا وقد وضَّحَهُ مما يدل على تمام الملك وتمام القدرة على هذا الملك ونفي قدرة أحد على أن يكون له شيء في مثل هذا الملك أو في مظاهر ذلك الملك لله تعالى، حتى يعلم المرء أن له مَلِكًا قويًا قادرًا ﷻ؛ يَغْفر، ويُثيب، ويُعذِّب ويُؤَاخِذ ويرحم، وكذلك هذا الملك يَرزق ويخلق ويُحيي ويُميت ويَمْلك الشفاعة جميعًا، كل ذلك إذا علمه المرء اطلع على هذه الروضة الجميلة من معرفة الرب ﷻ، وانشرح صدره وخفت أثقاله وازداد تعلقه بربه وصفا توحيده بالله تعالى فنبذ المخلوقين والنظرَ إليهم والالتفاتَ إليهم والخوفَ منهم والرجاءَ فيهم وانتظارَ أي شيء يأتي من خلفهم، بل كل انتظاره وكل أمله وكل تعلقه وكل طلبه وكل دعائه من الملك ﷻ، فصار بذلك عبدًا جديدًا مؤمنًا موحدًا متعلقًا بربه، يملك كل شيء؛ لأنه كما ذكرنا

من قبل: من كان الله له كان له كل شيء وصار كل الملكوت - كما أشرنا - له، هذا الملك في الدنيا والآخرة له. ومُلْك الآخرة هو المُلْك على الحقيقة؛ لأنه إذا ادَّعَى أحدٌ في الدنيا أنه يملك شيئًا فلا يستطيع أن يدَّعي ذلك في الآخرة، بل الكلُّ - كما ذكر ﷻ - خاشعون لله جلَّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

يقول في مُلْكه يوم القيامة: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج:٥٦]، وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فدَلَّت هذه الآيات على أن المُلْك عند النفخ في الصور له، والمُلْك يوم القيامة له: يقول أين ملوك الأرض. فلا يجيبه أحد، فيقول: لمن المُلْك اليوم؟ فلا يرد أحد، فيرد هو على نفسه ﷻ ويقول: لله الواحد القهار. ويقول: الملك يومئذ الحق للرحمن؛ أي على الحقيقة الملك الثابت الدائم الذي لا يتغير إنما هو لله، ومن كان في الدنيا يملك شيئًا جاء يوم القيامة فقيرًا كما خَلَقَه ربُّه وكما ولدته أمُّه لا يملك شيئًا.

ثانيًا: ثناءُ المَلِك على نفسه سبحانه وتعالى

لذلك قال المولى ﷻ يُعَظِّمُ نفسه ويُثني عليها بعد أن ذكر كل هذه المظاهر من مظاهر مُلْكه جلَّ وعلا: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ..﴾، تعالى الملك ﷻ؛ تعالى وتقدس، وجلَّ وعلا، فتعالى الله الذي له الدرجات الرفيعة ﷻ في نفسه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥]. وقوله ﷻ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ ذكره في آيتين:

الأولى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ...﴾ [طه:١١٤].

والثانية: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وختم بآية جميلة المعنى من الآيات التي تبيِّنُ ملكه ﷻ؛ وهي من الآيات التي يقف المرء عندها متحيرًا شديد التَّحَيُّر وهي قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ [فاطر: ١٣-١٥].

من عادة القرآن الكريم أنه دائمًا يأتي بالنتيجة في وسط المقدمات لها؛ يعني: الترتيب المنطقي في علم البشر أن يأتي بالمقدمات ثم يصل بك إلى النتيجة، أما القرآن فلا؛ القرآن يأتي بمجموعة مقدمات ثم يأتي بالنتيجة ثم يأتي ببعض الأدلة الأخرى بعد النتيجة تُبيِّنُ قيمة هذه النتيجة، فتأتي النتيجة في الوسط لتربط هذه المقدمات التي كانت والمقدمات التي ستأتي ليُبيِّنَ لك بهذه الأدلة الواضحة هذه النتيجة التي يصل إليها القرآن.

قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ...﴾ [فاطر: ١٣].. الآيات التي قبل هذه الآية كلها في معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ...﴾ كما سترى، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾[فاطر: ٩-١٣].

بل لو رجعنا قبل هذه الآيات الأخيرة نجده ﷻ يقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر:١، ٢]، فهاتان الآيتان أيضًا في معنى قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ...﴾ .. فالذي يقرأ هذه الآيات يتبيَّنَ له أن كلَّ هذه الآيات جاءت لتختم هذا النسج العظيم لهذه المعاني التي تتضح منها في نهاية المطاف صورةٌ ما أعظمها لمُلْك الله تبارك وتعالى، فإذا تأملت هذه الصورة العظيمة وحاولت أن تتدبر شيئًا من هذه الآثار وتلك المظاهر من مظاهر الملك فلا بد أن تقول في النهاية ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ...﴾.

ذكرنا أن غالب آيات القرآن يأتي بالنتيجة؛ وهي من المفروض أن تأتي في النهاية ولكنها جاءت في الوسط؛ لماذا؟ قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ فبيَّنَ الوجه المقابل الذي به تتميز كذلك مظاهر قدرة الله تعالى وقوته في استماعه لدعائهم وإجابتهم لتضرعهم ﷻ إلى أن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [فاطر:١٥،١٦]، كذلك هذه الآية أتت[1] - بعد تقرير هذه النتيجة في وسط تلك الآيات العظيمة التي أشار إليها - لتبين بتفصيلها هذه القضايا من قضايا مُلْك الله تعالى العظيم، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ...﴾ أي هذا هو ربكم الذي يجب أن تنظروا إلى أسمائه وصفاته وإلى آثار قدرته ومُلْكه وإلى بديع صنعته ونظامه ﷻ، وإلى بقية ما يتعلق بهذه الآثار وتلك الصفات التي يحتار فيها العقلُ أو ينشرح بها الصدرُ ويتوحد بها القلب لله تعالى ويكون بعد ذلك على هذا الحال من محبة الله تعالى.

(فوائـد)

الأولى: الترهيب الشديد من التسمي بـ «ملك الملوك» ونحوه:

ولما كان الله تعالى كما قال عن نفسه جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ...﴾ .. إذا به ﷺ ينهى عن التسمية بملك الأملاك كما جاء في الحديث: «**إنَّ أَخْنَعَ الأسماءِ يَوْمَ**

(١) أي: آية ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ...﴾ [فاطر: ١٣].

القيامة عند الله رجلٌ تَسَمَّى بمَلِكِ الأَمْلَاك»، وهذه الرواية في الصحيحين[1]؛ في رواية مسلم: «**لا مَالِك إلا الله**»[2]، وجاء في رواية مسلم: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ على الله تعالى يومَ القيامةِ وأَخْبَثُهُ وأَغْيَظُهُ عليه رجلٌ كان يُسَمَّى مَلِك الأَمْلَاك**» «شاهنشاه» مثلًا أو يقول «ملك الملوك» أو غير ذلك من الألفاظ التي كان يطلقها ملوك الأرض على أنفسهم، قال هذه أخبث الأسماء وأغيظها، و«أخنع الأسماء» يعني: أذلها، وإن كانت الأسماء ذليلة فصاحبها أذل عند الله تعالى؛ لأنه إذا كان ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فلا يجوز لأحد أن يتسمى بذلك إلا هو؛ لا مالك إلا الله ﷻ. لذلك يقول ﷺ: «**اشتد غضبُ الله على رجل تَسَمَّى بملك الأملاك؛ لا مَلِكَ إلا الله عز وجل**»[3]، ولذلك أظهر الله تعالى ذُلَّهم يوم القيامة من إغلاق أبواب السماوات بينه وبينهم واحتجابه عنهم وأنه تأتي مغلولةٌ أيديهم إلى أعناقهم ويحرمون الشفاعة إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث التي سنذكرها في الفائدة التالية.

الفائدة الثانية: ترهيب الولاة والملوك من الظلم وعدم العدل وقضاء حاجة الرعية:

علمت إذن أن باب الله تعالى مفتوح وأن رزقه واسع، وله الشفاعة، ويحيي ويميت، ويغفر ويعذب، ويهلك من يشاء ﷻ، وهو السلام المؤمن إلى آخر المعاني التي أشرنا؛ إذا به يقول ينبغي حينئذ لكل من أعطاه الله تعالى مُلكًا في هذه الحياة الدنيا أن يكون على هذا

---

(١) رواه الإمام البخاري [٦٢٠٦] ومسلم [٢١٤٣] واللفظ له من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح الإمام مسلم [٢١٤٣].

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٢/ ٤٩٢] عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعا إلى النبي ﷺ، قال الشيخ شعيب في التحقيق: «صحيح وهذا إسناد منقطع».

الوصف الذي أراده الله تعالى له؛ لذلك: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَاحْتَجَبَ دُونَ خَلَّتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ وَفَاقَتِهِمُ احْتَجَبَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَفَقْرِهِ وَفَاقَتِهِ» [1]؛ وفي الشفاعة: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُما شَفاعَتِي: إِمامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ» [2]؛ إلى آخر هذه المعاني فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود بنحوه [٢٩٤٨]، والحاكم [ح: ٧٠٢٧] وقال: «صحيح الإسناد»، قال الذهبي في التلخيص: «صحيح». وصحح إسنادَ الحاكمِ ابنُ المُلقن في البدر المنير [٩/ ٥٦٨] دار الهجرة - الرياض.

قال في عون المعبود: [«خَلَّتهم» بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام: الحاجة الشديدة. والمعنى: مَنَعَ أربابَ الحوائج أن يدخلوا عليه ويَعْرِضوا حوائجهم. قيل: «الحاجة» و«الفقر» و«الخَلَّة» متقارب المعنى، كُرِّر للتأكيد.] اهـ. وفي آخر هذا الحديث أن معاوية ﷺ لما سمع هذا الحديث جعل رجلًا على حوائج الناس.

(٢) رواه بنحوه الطبراني في الكبير [ح: ٨٠٧٩] عن أبي أمامة ﷺ مرفوعًا، قال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.اهـ. قال المناوي في الفيض: «إمام» أي: سلطان، «ظلوم» أي: كثير الظلم للرعية. «غشوم» أي: جاف غليظ قاسي القلب ذو عنفٍ وشدة.

ثالثا: كل مظاهر الملك مسلوبة عن غيره سبحانه وتعالى

ونأتي إلى المعنى المقابل وهو أن الله تعالى إذا كان قد مَلَكَ السماوات وما بينهما وإليه المصير وإليه ترجع الأمور ويغفر لمن شاء ويعذب من يشاء وله الشفاعة جميعًا ويخلق ما يشاء ويرزق من يشاء ﷻ؛ إذا كان كل ذلك من مظاهر ملكه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ فكل هذه المظاهر من مظاهر الملك مسلوبةٌ عنهم، وهذه مسألة جميلة ذكرها القرآن بالتفصيل كما سيأتي:

١- نَفْيُ المُلْكِ والشفاعة عن غيره سبحانه وتعالى

قال ﷻ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ...﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]. وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣]. وقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ...﴾ [الزخرف:٨٦]، هذه الآيات في الملك والشفاعة؛ ولا يملكون مثقال ذرة ولا يملكون من قطمير، ولا يملكون شيئًا من الشفاعة بل لله الشفاعة جميعًا.

٢- نفي الرزق عن غيره سبحانه وتعالى

قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣]، يعني: لا يملكون فلا يستطيعون، لم ينفِ عنهم المِلْك فقط؛ فالمرء

من الممكن أن لا يملك لكنه يستطيع بعد ذلك أن يتملك؛ قال: لا؛ لا يملكون ولا يستطيعون، ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ...﴾[العنكبوت:١٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾[العنكبوت:١٧]، فأرِحْ عقلك وقلبك وابتغِ عند الله تعالى وحده الرزق، وتوكلْ عليه ﷻ، وارتكنْ إليه، ولا تخفْ على نفسِك ويومِك فضلًا عن مستقبلك الذي لا تعلمه ولا يعلمه إلا الله ﷻ، ووظِّفْ قلبَك على توحيدِ الرب حينئذ، وعلى إفرادِه ﷻ بالتوكل واليقين والثقة، وأنه مهما كان لك من رزقٍ فإن الله تبارك وتعالى معطيه لك في الدنيا قبل أن تذهب إلى الآخرة.

٣- نفيُ ملك الإحياء والإماتة عن غيره سبحانه وتعالى

وقد ذكرنا كذلك أن من ملكه ﷻ أنه يحيي ويميت.

وعلى عكس هذا المعنى: قال ﷻ في الأنداد والأشباه والدنيا كلها: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣]، فنفى عن غيره ﷻ ذلك كله وفي نفس الوقت أثبت لنفسه ﷻ كل هذه المعاني من معاني الملك وآثاره حتى لا يدعي أحد أنه يملك شيئًا. وبهذه المعاني وأضدادها تكتمل الصورة كما بيَّنَ الله تعالى.

٤- نفي الضر والنفع عن غيره سبحانه وتعالى

وبيَّنَ مسألة أخرى كذلك - وهذه المسألة متكررة في القرآن كثيرًا - وهي نفي النَّفْعِ والضرِّ عن غيره ﷻ، يقول المولى تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا...﴾ فلا يملك أحدٌ الضَرَّ والنَّفْعَ إلا الله ﷻ، حتى يستيقن المرء - باستكمال هذه الصورة التي

بيَّنها القرآن الكريم لملك الله تعالى وقدرته - أنه لا يستطيع أحدٌ أن يضر أحدًا أو أن ينفع أحدًا، بل كل ذلك مردُّه إلى الله ﷻ، حتى تستقيم القلوب حينئذ على توحيده جلَّ وعلا فيُخْرِج من هذه القلوب كلَّ خوفٍ أو خشيةٍ أو رجاء في غيره ﷻ، وتكون هذه القلوب خالصةً له، سليمةً به ﷻ، لذلك قال:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وهذه موجَّهةٌ للمشركين ومَنْ كان في قلبه شائبة من ذلك؛ وهذه الآيات – آيات الضر والنفع – كثيرة في القرآن؛ بل إن القرآن الكريم لما ذكر ذلك ذكره كذلك عن أنبيائه حتى لا يظن الظان أن النبي من دون الله تبارك وتعالى ينفعهم أو يضرهم، فيخرجه ذلك الظن عن الإيمان بالله تعالى؛ لا حتى النبي ﷺ نفى عن نفسه ذلك؛ ليكون كل ذلك لله جلَّ وعلا، حتى لا يتوهم أولئك المشركون لما أسلموا أن النبي ﷺ يمكن أن يكون له شيءٌ من الأمر أو أن يكون له شيءٌ من النفع أو الضر من دون الله تعالى؛ حتى لا يظنوا ذلك فتستقيم قلوبهم على الله تعالى وحده... على توحيده وحده...على أنه المالك وحده ﷻ.

لذلك قال النبي ﷺ كما ذكر القرآن الكريم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ...﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ [يونس:٤٩]، ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١،٢٢]، قال لهم ﷺ: لا أملك لكم ذلك بل الذي يملكه هو الله ﷻ، حتى تنخلع قلوبهم إليه، وتنخلع قلوبهم من غيره ﷻ وليكون توحيدهم كله لله جلَّ وعلا.

(لطيفة)

لماذا لم تنفِ الآيات ملك المغفرة والتعذيب عن غيره سبحانه وتعالى؟

هذه الصورة التي بينتها الآيات القرآنية لملك الله تعالى وبيَّنَت مظاهر هذا الملك العظيم، وكذلك العكس: وهو أن الذين يدَّعون شيئًا منها لا يملكونها على الحقيقة. وقد يسأل سائل: قد فصلت الآيات في أنهم لا يملكون كل ما ذكر الله تعالى من آثار ملكه فلماذا لم تذكر المغفرةَ والتعذيب؟ والجواب: لأن أحدًا لم يدعِ أنه يمكن أن يغفر لأحد ولا أن يعذب أحدًا في الآخرة أو في الدنيا بما يترتب عليه شيء في الآخرة، لذلك لم يذكرها المولى سبحانه وتعالى؛ لأنها لا تحتاج إلى ذكر.

كما أن هذه الآيات لها ميزة أخرى - كما أشرنا - وهي كيف يطلع المؤمنون على كلام الله تعالى وأن ينظروا في هذه الآيات لتكون مددهم ولتكون صلتهم بربهم ولتكون الواحة الجميلة التي يطلعون منها على توحيد الرب سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته جلَّ وعلا وأن تنشرح وتنفسح بها صدورهم وقلوبهم كما ذكر الله جلَّ وعلا.

(موعِظة)

إذن هذه دعوة إلى التدبر كذلك بعد التوحيد والتعلق بالله تعالى، وأن يأخذ المرءُ حظَ قلبه ونفسه من هذه الآيات، وأن يُنْزِلَ كل آية من هذه الآيات على أمراض قلبه؛ ليستشفي بها، فإذا كان مرض قلبه في الرزق، تأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [سبأ:٢٤]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾[العنكبوت:١٧]،

وإذا كان مرضه في التعذيب والمغفرة، تأمل قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ...﴾ [المائدة: ١٨] ﷻ..

وهكذا في كل هذه المسائل التي ذكرنا: في الخلق.. في الرزق.. في المغفرة.. في التوبة.. في الشفاعة.. كيف يُنَزِّلُ هذه الآيات الكريمات على أمراض قلبه ليصح هذا القلب؛ ليكون هذا القلب قلبًا سليمًا ينفع صاحبه يوم القيامة.

وأعظم من ذلك كله أن يوحد المرء ربه بأسمائه وصفاته ﷻ، وذلك الدين الحق الذي يجب أن يجاهد المرء نفسه عليه وأن يسعى له وأن يبذل له كل وقت وكل نفيس وكل غالٍ ليُحَصِّلَ شيئًا منه؛ فإنْ حَصَّلَ شيئًا منه كان هو الأقرب إلى الله؛ فيعرف أن الله قد فتح عليه، وأن الله أحبه، وأن الله قرَّبه، وأن الله رفع درجته وأعلا منزلته، وأن الله تبارك وتعالى اصطفاه واجتباه.



الفصل الرابع

الشرح التفصيلي لبعض الآيات الواردة

في معاني أسماء الله تعالى

« الملك و المالك و المليك »

أهمية دراسة الآيات القرآنية في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته العلية

لقد بَيَّنَ القرآن الكريم الجوانب المهمة من معاني أسماء الله وصفاته ﷻ؛ والذي يجب أن يَفْهَمَهُ المرء في هذا السياق القرآني هو الكيفية التي ذكر بها القرآن العظيم هذه الأسماء، وما حظ المؤمن من هذه الأسماء وكيف ينبغي أن يوحِّد ربه ويعبده ويدعوه بها؟

وأعظم مَن تكلم عن هذه الأسماء هو القرآن الكريم؛ لأن القرآن كلام الله، فالله ﷻ هو الذي وصف نفسه بذلك، وهو الذي أطلعنا على هذه المعاني؛ لذلك كان الاهتمام بورود هذه الأسماء في القرآن الكريم هو المقام الأول الذي ينبغي الاهتمام به والوقوف عنده.

ونرجع إلى الآيات الواردة في القرآن الكريم المتعلقة باسمه المعظم «المَلِك» ﷻ، والتي سبق وأن حصرناها في الفصل السابق تقريبًا؛ وذكرنا عندها ما يتعلق بها من آثار المُلْك.

وذكرنا أنَّ من آثار المُلْك أنَّ الله -تعالى- يملك الدنيا والآخرة؛ ويملك الناس، ويملك كُلَّ شيء في الظاهر والباطن، وكذلك يملك الشفاعة في الآخرة، ويملك الخلق والإحياء، والإماتة والمغفرة، وعدَّدنا كثيرًا من الأمور التي لا يملكها إلا الله وحده ﷻ.

ونشرع الآن - بحول الله وقوته - في الشرح التفصيلي لبعض الآيات التي سبق وأن أشرنا إليها إجمالًا في الفصل السابق:

أولاً: قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1]

المتأمل للآيات الكريمات في سورة الفاتحة يجد أن هذه الآية الكريمة لها علاقة بما سبقها من الآيات.. فقد قال ﷻ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١-٣]، فوصف نفسه ﷻ في هذه الآيات بثلاثة أوصاف: «الرحمن» و«الرحيم» و«الرب»، ثم أتبعها في هذه الآية بوصف رابع فقال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، كما هي في قراءة، أو ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كما هي في قراءة أخرى. والقراءتان متواترتان.

والمتدبر لهذه الآيات يجد أن إتباع هذا الوصف «مالِك» أو «مَلِك» بعد هذه الأوصاف الثلاثة التي ذكرنا ليس لمجرد سرد هذه الصفات، بل هو مما أثارته هذه الصفات المتقدمة «الرب والرحمن والرحيم» لذلك كان المعنى التالي لها أنه «ملك يوم الدين».

وذلك لأن المرء عندما يعرف أنَّ الله هو الرحمن، وهو الرحيم، وما يقتضيه ذلك من أن الله تعالى قد أقام عباده على الرحمة وشرع لهم القيام بالمصالح على الرحمة، وهو الرب الذي يعتني بعباده، وأن الله تعالى قد شرع لهم من المصالح والتكاليف على الرحمة التي تُعِينُهُم على تحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة -قد يظن أنَّ الأمر كله يمضي على الرحمة فيُطْمِعُهم ذلك في التَّخفّف من هذه التكاليف، أو في ترك هذه التكاليف؛ فلما كانت هذه

(١) انظر - بتصرف كثير: تفسير التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور ﷺ، تفسير الآية الرابعة من سورة الفاتحة، أو ج١/ ص١٧٣-١٧٧، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

الأوصاف المتقدمة خِيفَ منها أن تثير أطماعهم في العفو، ويمتلكهم الطمع، فيتركوا هذه التكاليف ويتخففوا منها؛ جاء قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لِيُبيِّنَ لهم أنه اليوم الذي تُجزى فيه كل نفس بما كسبت؛ لأن اليقين بالجزاء على الفعل سببٌ في الامتثال للطاعة والابتعاد عن المعصية من أجل حفظ مصالح العباد والعالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد[1]، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة؛ لأن الجزاء على الفعل سببٌ في القيام بالطاعات والاجتناب للمحرمات؛ لأن الله يأمر بالعدل والإحسان، وحسن معاملة الخلق.

لكن لماذا اخْتِيرَ وصف «مَلِك» أو مالك مضافًا إلى يوم الدين؟..

أمَّا وصف «مَلِك» بعد صفات «الرحمة، والربوبية، والرحمن»، ليشير إلى أن المُلْك هنا مؤذنٌ بإقامة العدل، وعدم الهوادة فيه؛ لأن شأن الملك أن يدبّر صلاح الرعيَّةِ، وأن يَذُبَّ[2] عنهم؛ لذلك أقام الناسُ الملوكَ عليهم، وإلا كانت فوضى وكانت عبثًا، وكانت الأمور تجري على الاختلال، وتُرِكَ النظام، وهلك العالم.

ولو قيل: «ربّ يوم الدين» لكان فيه طمع للمشركين؛ لأن من شأن الرب الرحمة، ولوجدوا فيه فرحة وراحة لهم؛ كما أن فيه معنى قيام الربّ على خلقه من هداية المربوبين والقيام على مصالحهم؛ فكان فيه مفسدة لما مرَّ.

---

(١) «الوعد» تشعر به وتحسه في الثلاث الأولى بذكر أوصاف «الرحمن» و«الرحيم» و«الرب»، أما «الوعيد» فتشعر به وتحسه في الوصف «مالك – أو ملك – يوم الدين».

(٢) أي: يدفع عنهم ويحميهم. انظر المعجم الوجيز مادة [ذ ب ب].

لذلك فإن دلالة الوصف بـ«ملك» هنا معناها القيام على البشر بالعدل وعدم ترك المسيء، وكذا لتحذير العباد من المعاصي والاجتراء على المحرمات.

وأما الوصف بـ«مالك» فمثل «مَلِك» في إشعاره بإقامة الجزاء على أوسط[1] كيفياته على أفعال المحاسبين؛ فالمعنى أن الله هو الملك يقيم العدل في المُلْك، وهو المالك الذي يقيمه على أوفق[2] كيفياته التي يُجزى عليها.

فإذا كان إجراء الأوصاف السابقة مشعرًا بأن جميع تصرفات الله فيها رحمة؛ فقد كفى ذلك في حَثِّ العباد على الامتثال للأمر والانتهاء عن المحرم والنشاط للعمل الصالح؛ إذ المرء لا يخالف ما هو رحمة به، فلا جرم أن يمتثل للشريعة في اختياراته وأعماله.

والمخاطبون مراتب، منهم:

المرتبة الأولى: من لا يهتدي بفهم ذلك إلا بعد تعقيب تلك الأوصاف بهذا الوصف؛ أي أن منهم من لا يهتدي إلى أن هذه التكاليف في مجملها رحمة به إلا إذا ذكر الشدة، فيعرف أن هذه الشدة هي التي تحمله على إقامة التكاليف التي فيها الرحمة.

المرتبة الثانية: ومنهم من يهتدي بفهم ذلك، ولكنه يظن أن فعل الملائم له رحمة به، أي أنه عندما يجد الشيء يناسبه يعمله على ما يناسبه هو لا على ما يناسب الشرع، ويظن أن في ذلك الرحمة التي قرّرها الشرع؛ مثل أن تتحدث مع أحدهم ناصحًا له وتدعوه إلى

---

(١) الأوسط من كل شيء بمعنى: الأعدل. انظر الوجيز مادة [و س ط].

(٢) وَفْق الشيء: ما لاءَمه، فالأَوْفق: الأكثر مُلائمة للحال. انظر الوجيز مادة [و ف ق].

الخير وإلى ما فيه رشده وصلاحه، فيقول لك: «ربنا غفور رحيم، وأنا أعمل على قدر استطاعتي»!!

فيظن أنه عندما يعمل ما يلائمه هو في نفسه، ولا يلائم الشرع، فهذه رحمة من الله تعالى، كأنه يقول ذلك، فالكثير يعتمد على رحمة الله تعالى، فيفعل ما يمكن أن يناسبه هو وانتهت المسألة، بغض النظر عن أن هذا العمل هل يناسب الشرع أم لا؟!

وتجد - مثلًا - شخصًا يزعم أن رِجْله مُتْعَبة قليلًا؛ فيصلي جالسًا، وعندما تقول له: إن هذا شيء بسيط، ويمكنك أن تصلي قائمًا، كيف تفعل ذلك؟[1] يقول لك: «ربنا غفور رحيم». وتجد بعضهم يزعم أنه لا يستطيع الصوم، على الرغم من كونه قادرًا على الصيام! وكذا في بقية الأفعال الشرعية. فمنهم من تجده يكذب، فتقول له: أنت تكذب؟! يقول لك: «هذه كذبة بيضاء، وربنا رحيم»؛ فكأنه يظن أن الملائم لنفسه هو تلك الرحمة من الله تعالى، ويخرج بذلك عن مقتضى الرحمة في الشرع؛ وليست هذه الرحمة التي يريدها الله سبحانه وتعالى.

لذلك يُذَكَّر هذا الشخص بقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وأنه سوف يُحاسَب؛ لذلك تجد المكلفين مراتب: هناك أناس تحملهم على الرحمة وتبشرهم بها؛ فيمتثلون أوامر الشرع، ويحافظون عليها، وبعضهم تذكر له رحمة الله، فيجمع بين الصلاتين معًا، ويترك السُّنَّة، وربما يكذب؛ لذلك هذه المراتب لم يتركها الشرع لكل أحد يفعل ما يلاءم نفسه ظنًّا أن هذه الرحمة من الله تعالى.

---

(١) والمعلوم أن القيام في صلاة الفريضة ركن من أركان الصلاة عند القدرة عليه وإلا بطلت الصلاة، ولا يسقط هذا الفرض إلا بضوابط حددها الشرع الحنيف لا يتسع المقام لذكرها هنا.

فالرحمة المقصودة من الرب تبارك وتعالى هي المقتضية للقيام بهذه المصالح المتعلقة بالشرع، والتي بيَّنها الشارع، وليست هي التي تلائم نفسك أو لا تلائمها، لا؛ وإن كل ما قرره الشارع هو الرحمة؛ لماذا؟ لأنه عندما يطالب العبد بالجهاد مثلاً؛ تجد من يقول: «لا، أنا لا أستطيع، وهذا فيه موتي، وفيه كذا وكذا»، فلو كانت الرحمة ما يلائمك فسوف تتخفف من التكاليف الشرعية وتتركها، وتقع بعد ذلك في المكروه والمحرم وعصيان الرب ﷻ.

لذلك فقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يشعر بقيام العدل وعدم الهوادة فيه، والقيام بالجزاء على أعدل كيفياته؛ ليحاسب كل نفس بما كسبت.

وهذا الكلام يدلنا في نهاية المطاف على عظمة هذا الاسم المشرف؛ لكون هذا الاسم المشرف حاملًا للمرء على التزام الشرع، وعلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وعدم الاتكال على بعض الصفات، وترك بعض الصفات من صفات الرب ﷻ، ولذا فهذا الاسم يقوم عليه الناس في تحقيق أسباب نجاتهم وأسباب صلاحهم في الدنيا، وكذلك على أسباب سعادتهم في الآخرة.

وربما علم العبد جميع ما تشتمل عليه التكاليف من المصالح، ولكن ملكته شهوته، وغلبت عليه شقوته؛ فهذا مظنة الإعراض عن التكاليف الشرعية، ولأمثاله جاء هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فكل من كان مظنة أن يتخفف من التكاليف الشرعية، وأن يترك هذه الأوامر، وألا يمتثل بها جاء تعقيب الصفات الماضية من «الرب» و«الرحمن» و«الرحيم» بهذه الصفة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تذكيرًا لهم بما سيحصل من جزاء يوم الحساب، حتى لا يفسد المقصود من التشريع حين تتلقفه أفهام كل متأوِّل؛

إذ لو أن كل واحد من البشر أخذ الرحمة على وفق مزاجه وهواه لفسد المقصود من التشريع الذي شرعه الله تعالى لإقامة مصالح الدنيا والآخرة بسبب تأويلاتهم، فجاء هذا الاسم ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ليذكّرهم بما سيكون من جزائهم يوم الحشر؛ حتى تستقيم مصالحهم، وحتى لا يفسد المقصود من التشريع، وحتى تقام هذه التكاليف.

ثم إن في تعقيب قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ معنًى جديدًا وإشارة إلى أنه ولي التصريف في الدنيا والآخرة؛ وهذه دلالة للمرء ليكون على يقين أن الله تعالى هو ولي التصرف في الأولى والآخرة؛ عندما يقول لك أنه هو «الرحمن الرحيم»، ثم يقول لك أنه هو «المالك» وينسب الملك إلى يوم الدين دلَّ كل ذلك على أن الملك على الحقيقة سيكون يوم الدين.

وهذا دليل وإشارة إلى أنه مالك الدنيا ومالك الآخرة ﷻ؛ ودليلٌ وإشارةٌ على أنه وحده ولي التصرف في الدنيا والآخرة؛ وأن كمال التصرف ومطلقه في الدنيا والآخرة إنما هو له ﷻ؛ التصرف في الأولى مثل التصرف في الخلق بالإحياء والإماتة والرزق، والإعطاء والمنع، والقبض والبسط، والرفع والخفض، والعز والذل، كما ذكر ﷻ في الآية التي أشرنا إليها:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]..

كل ذلك يدل على أنه هو ولي التصرف في الأولى والآخرة ﷻ.

ويوم الدين: يوم القيامة، وهو مبدأ الدار الآخرة، أي: بداية مراحل الدار الآخرة، والدين فيه بمعنى الجزاء؛ لذلك يقول الفِنْدُ الزِّمَّانيُّ- وهو شاعر من شعراء الجاهلية [1]:

فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى العُدْوَانِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

«دِنَّاهُمْ كما دانوا» أي: جازيناهم على صنعهم كما صنعوا؛ فالدِّين هنا بمعنى الجزاء.

واعلم أن وصفه تعالى بـ«مالك يوم الدين» تكملةٌ لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى؛ لأنه ذكر أنه «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بعد أن وصف ذاته العلية بأنه رب العالمين، وهذا معنى العظمة الحقة، وليست العظمة المدعاة المختلقة من أسماء مفتراة، أو من زور الأوصاف، وباطل التشبيهات، وخرافات الأسماء والألقاب كشاهنشاه مثلًا، أو ملك الزمان، أو ملك الدنيا وما شابه ذلك من هذه الأسماء.

فوَصْفُه بـ«مالك يوم الدين» أفادنا أن ملكه ﷻ في عموم المخلوقات، وفي عموم التصرفات يوم الجزاء، ودلَّ ذلك على أنه صاحب الملك الذي لا يشذّ عن ملكه شيء؛ وصاحب الملك الأبدي الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، ولا ينفك عنه شيء، وهو

---

(١) الفند الزماني: اسمه شهل بن شيبان بن زمان بن مالك، قيل سمي الرجل الفند لعظم خلقته تشبيهًا بفند الجبل وهو قطعة منه واسمه شهل فهو لقب له وجمع الفند أفناد. وأما زمان فيحتمل أن يكون من باب زممت الناقة، وبنو زمان إحدى قبائل ربيعة بن نزار. كان الفند أحد فرسان قبيلته المشهورين، وشهد حرب بكر وتغلب، وقد قارب المائة عام، فأبلى بلاءً حسنًا. ويقال: إن بني شيبان أرسلت في محاربة قوم الفند، فأرسلوه مع سبعين فارسًا، فقالوا: إنا أرسلنا لكم ألف فارس. وقد قطعت يده اليمنى، ورغم النزف الذي أصابه حمل سيفه، وأخذ يدافع عن نسائه، وأهل بيته، فقالوا: يد واحدة وتقاتل؟! قال: الفحلُ يحمي شوله معقولاً، وذهبت كلمته مثلًا..

صاحب التصرف في كل هذه الأملاك ما كان، وما يمكن أن يكون؛ فدلَّ ذلك على أنه أعظم الصفات التي تلت صفتي الرحمن والرحيم؛ فإذا كان قد وُصِفَ بأنه رب العالمين فلا إله معه، ولا شريك له، ولا رب سواه، مما كان يعبد الناس من آلهة وأصنام؛ فهو رب ذلك كله؛ فجاء هذا الوصف وهو مالك يوم الدين لِيُبيِّنَ لنا أنه ﷻ له مطلق التصرف فيهم، وفي آلهتهم، وفي الدنيا وفي الآخرة؛ وأنه لا يشذّ عن تصرفه شيء، كما لا يشذ عن ملكه شيء، وأن ملكه عظيم لا يفنى، وأن ملكه كبير لا ينقضي؛ فأين ذلك من ملوك الدنيا؟! وأين ذلك مما يدعيه الناس لأنفسهم؟! أو من المبالغة في آلهتهم أو ملوكهم من ملوك الدنيا. وكل ذلك يبيِّن أن هؤلاء كلهم مخلوقون مربوبون لربِّ العالمين ﷻ.

ثم تأتي الرحمة لتبيِّنُ العظمة، ثم يأتي الملك ليبيِّن أن تصرفهم هؤلاء في يد غيرهم؛ في يد الله تعالى؛ كيف يكونون أربابًا، أو كيف يكونون آلهةً، أو كيف يكونون ملوكًا، وملكهم في ملك الله وربوبيتهم التي يدعون هذه إنما هي على الكذب؛ لأنهم مربوبون له، يصرّفهم كيف يشاء ﷻ، وإحياؤهم بيده، ورزقهم بيده جلَّ وعلا، فجاء هذا الوصف وهو «مالك» و«ملك» ليبيِّن وينبئ عن عموم تصرفات الله تعالى في المخلوقات من أولها إلى آخرها، ويُظهر ذلك كله عيانًا يوم القيامة؛ لأنه يوم تظهر فيه الحقائق، وتبدو السرائر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩].

هناك معنًى آخر وهو أنه لم يقل: «مالك يوم الحساب»، أو «ملك يوم الحساب»، وإنما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يعني: مالك يوم الجزاء، فلماذا؟

يُشعِر الوصف بـ«مالك يوم الدين» - أي: يوم الجزاء نفسه - أن يُحاسب العامل بما يُحصى عليه من أعماله المجزيّ عليها في الخير والشر؛ ولو قال الحساب لا بد وأن يحتاج

إلى الجزاء بعد الحساب، فلما قال الجزاء دلَّ على المعادلة لأعمال الحساب؛ إن شرًّا فشر وإن خيرًا فخير، ويجازيه عليها، ويعامَل شره بشره الذي يجده يوم القيامة، ويعامَل خيره بخيره الذي يلاقيه يوم القيامة.

وإلى ذلك يشير العرض الخاص كما قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، فلذلك لم يقل ملك يوم الحساب أو مالك يوم الحساب؛ فوصف نفسه ﷻ بأنه ملكَ يوم العدل الصرف؛ لأنه لما ذكر الجزاء دلَّ ذلك على العدل الصرف، وأنه يُجازي على السيئة بالسيئة وعلى الحسنة بالحسنة، فكان هذا هو العدل الصِّرْف، وإنْ كان من فضله أن يجازي الحسنات الزيادة على ما شاء الله تعالى.

لذلك قال ملك يوم الجزاء أو مالك يوم الجزاء ليدل على أنه ﷻ ملك يوم العدل الصِّرْف؛ لأن هذا الوصف وصفٌ له بأشرف معاني الملك الذي يتشرف بها الملوك في الدنيا وهو وصف العدل.

فالله أحق بأن يُوصَف بأشرف معاني المُلْك؛ فإن الملوك تتقلب محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل، وقد عرف العرب المدح لذلك قال النابغة يمدح الغسَّاني ملك الشام:

وَكَمْ جَازَانَا بِأَيْدٍ غَيْرِ ظَالِمَةٍ .. عُرْفًا بِعُرْفٍ وَإِنْكَارًا بِإِنْكَارِ

يمدحه بأنه يجازي على العرف بالعُرْف، أي: على الحسنة بالعرف أي المعروف، وعلى المنكر بالمنكر كما يقول:

مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِي وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ

فلما قال: «ملك يوم الدين» دل على أنه يجازي العدل بالعدل، والإساءة بالإساءة، ووصف الله تعالى بهذا الوصف هو أعظم ما يُوصَف به المَلِك: وهو العدل.

فلما كانت هذه الأوصاف الخطيرة الجميلة الجليلة لله تبارك وتعالى بهذا الترتيب دلَّ على أنه ﷻ حقيقٌ بالحمد على كل ذلك؛ لَمَّا قال بالرحمة، ولَمَّا قال بالربوبية، ولَمَّا قال بالرحمن، ولَمَّا قال بملك يوم الدين دلَّ على أن المشتمل على هذه الأوصاف هو الجدير بالحمد، فجاء الحمد كمقدمة لهذه الأوصاف لله تبارك وتعالى؛ لأن إجرائها يدلّ على أن الحمد الكامل ليس إلا له ﷻ.

إذا فهم المرء ما سبق يبين له بعض حظه من توحيد الله بكونه «الملك».. فلا ملك سواه ولا متصرف إلا هو.. هو المتصرف في مملكته بجميع أنواع التصرفات التي لا شبيه لها ولا معقب عليها..

فيأتمر المرء حينئذٍ بأوامره وينتهي عن نواهيه، ويسارع في أن يكون من جنده المؤمنين وأوليائه المطيعين، وفي نفس الوقت يطمئن المرء إلى ربه وحفظه وتوفيقه ونصره، ويرضى بما ينزل من أوامر «الملك» وتسكن نفسه لمقدوراته، ويعلم أن كل شيء بأمر «الملك» فلا يعترض عليه ولا يتشكك فيه ولا يتبرم منه، بل سروره في مواضع القضاء والقدر؛ إذ هي نازلةٌ بإرادته ﷻ وتصريفه، يرى فيها كلمته.

يأخذ حظَّه إذن بتوحيد «الملك» في ذلك، ويدعو بأن يدخله في زمرة عباده، ويسأله الرضا بالقضاء والثقة فيه والتوكل عليه، والركون إلى الملك، فلا يهتز قلبه لشيء إلا ويعلم أنه من أحكام الله وقضائه النازل.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]

هذا الجزء من الآية مقول لقولٍ محذوف، والتقدير: أن الله ﷻ يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وفعل القول المحذوف جملة في موضع الحال، أو استئناف بيانه أنه جواب عن سؤال السائل عن ماذا يقع بعد بروزهم بين يدي الله؟ أي بعد أن برز الناس لله -تبارك وتعالى- في هذا الموقف العصيب كان السؤال المنتظر، ماذا سيحدث؟ يخبر المولى ﷻ أنه جلَّ وعلا سيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾. لكنْ من الذي قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾؟ فيه قولان للمُحْدَثين:

الأول: أن القائل هو الله تبارك وتعالى.

الثاني: أن القائل هم أهل المحشر.

فإما أن يكون الرد ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ من الله تعالى يرد على نفسه عندما لا يرد أحد من خوفه ومن هول الموقف، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، أو الرد من أهل المحشر؛ لما قال الله تعالى لهم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ، قالوا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

والاستفهام «لمن الملك اليوم؟» إما تقريري؛ ليشهد الطغاة من أهل المحشر على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا مخطئين فيما يزعمون لأنفسهم من مُلْكٍ لأصنامهم، فهم يُمَلِّكُون هذه الأصنامَ، وكذلك فيما زعم هؤلاء الطغاة لأنفسهم من سلطان على الناس لا يشاركهم فيه غيرهم، كقول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص : ٣٨]،

---

(١) انظر- بتصرف كثير: تفسير التحرير والتنوير، تفسير الآية السادسة عشر من سورة غافر، أو: جـ٢٤، ص١١٠-١١٢، دار سحنون للنشر.

أو قوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].. وتلقيب الأكاسرة بلقب ملك الملوك «شاهنشاه»، وتلقيب ملوك الهند أنفسهم بملك الدنيا «شاه جهان»..

ويفسر هذا المعنى ما في الحديث في صفة يوم الحشر «**ثُمَّ يَقُولُ اللهُ أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ**»؟! استفهام غرضه إظهار عجزهم وضعفهم، وإلا فأين هم اليوم؟ أو لماذا لم يَظْهَروا بعظمتهم وخيلائهم؟ أين هم اليوم؟ وهذا الاستفهام قد ذكرنا أنه يسمى استفهامًا تقريريًّا، أي: يقرر الطغاة على خطئهم الذي كان منهم في الدنيا وعلى الظلم وعلى الفسق والفساد الذي كانوا فيه.

وإما أن يكون الاستفهام كناية عن التشويق إلى ما يرد بعده من الجواب ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فهناك معنى آخر هنا وهو تشويق السامعين إلى ما سيرد من جواب الله تعالى بعد هذا الاستفهام.

وهذا التشويق لا يفوّت التقرير الذي ذكرناه أولًا؛ فقد قلنا: إن إجابة السؤال ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ قد تكون جملة ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ من مقول الرب ﷻ أو من مقول أهل المحشر.

ويجوز كلام آخر ملخصه الإقرار منهم بأن الكل قد قام مقهورًا تحت ملكه اليوم، لم يرفع أحد رأسه بأنه ملك، أو بأنه ذو سلطان، أو أن له جاهًا أو غير ذلك، والتقدير فيكونوا بارزين لله الواحد القهار.

وذِكْرُ الصفتين «الواحد، القهار» دون غيرهما من الصفات؛ لأنه ﷻ قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ فلم يَرُدّ أحد فهو الواحد وكلهم مقهورون؛ الطغاة ومن تحتهم، فكان

مناسبًا أن يقول: «الواحد القهار» ﷻ؛ حيث دلائل الوحدانية في ذلك اليوم ظاهرة لله تعالى، والقهر لجميع الطغاة والجبارين.

لذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

فهذه الجمل الثلاثة لا ريب أنها متصلة بالمقول السابق من جانب الله؛ يعني: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هذه الجمل الثلاث متصلة بقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، سواء كان المقول من الله تعالى، أو المقول من أهل المحشر، فترتيب هذه الجمل الخمس؛ لما تقرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عددت آثار التصرف في ذلك الملك.

ولقد ذكرت الآيات آثار التصرف بذلك الملك، وهي الحكم على العباد بنتائج أعمالهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وأنه حكمٌ عادلٌ لا يشوبه ظلم، فقال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، وأنه سريع لا يُبطئ؛ لأن الله تعالى لا يشغله عن تصرف الحق شاغل، وليس هو بحاجة إلى تدبرٍ أو تأمل في طرق القضاء، وعلى هذه النتائج جاء تفصيل اليوم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت، فلما تقرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم ظهرت آثار هذا الملك؛ وهي:

الأثر الأول: الحكم على العباد بنتائج أعمالهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

الأثر الثاني: أن يكون هذا الحكم عدلاً لا ظلم فيه: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾.

الأثر الثالث: أن يكون هذا الحكم سريعًا لا بطء فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾..

لأن التباطؤ في الحكم يمكن أن يكون سببًا في الظلم؛ لأنه مَن تباطأ في الحكم؛ إما أن يحكم لك بحقك فيكون قد أخّرك - هذا في الجزاء الذي تستفيد فيه بحقك - وإما أن يزيد عليك بظلمك، مثل أن يسجنك مثلًا بالإضافة إلى التباطؤ في الحكم..

لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يعني يقضي في نفس الوقت، والله يقضي بالحق، كما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وعلى هذه النتائج جاء ترتيب ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾، ثم ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾، ثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

تُرى أين ملوك الدنيا ساعتها؟! وأين مُلكهم وتصرفهم وطغيانهم وعلوهم وصَوْلتهم؟! إنَّ الكل مقهورٌ بقهر الله له، لا يملك شيئًا، بل هو واقفٌ مع بقية الخلق ينتظر ما اللهُ فاعلٌ فيه.. يرتجف أن يذهب به.

لما عَلِم المؤمنون ذلك لم يبق في قلوبهم تعظيمٌ وخوفٌ على الحقيقة إلى لله، خرج من قلوبهم كلُّ أمرٍ إلا منه، وكل طاعة ومحبة إلا له، وكل لجوء وركون وثقة إلا فيه، وكل توكل إلا عليه.

ثم علموا واجتهدوا ليكون موقفُهم موقفَ السعداء أمام المِلك عندما يرجعون إليه ويُعرضون عليه.

ثالثا: قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]

وهذه الآية تبين أحد آثار المَلِك ﷻ التي لا يشاركه فيها أحد، وهي أنه يحي ويميت، وأن له ملك السماوات والأرض، ولم يدَّع أحدٌ أن ملك السماوات والأرض له، ولم يدَّع أحد الإحياء والإماتة على هذا الوجه.

بدأت هذه الآيات بقول الله ﷻ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ١، ٢]..

فافتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه ﷻ مُؤذِنٌ بأن أهم ما اشتملت عليه هذه السورة إثبات وصف الله تعالى بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزَّهٌ عما ضلَّ في شأنه من ضلَّ من أهل الضلال عندما وصفوه بما لا يليق، أو ذلك التنزيه هو نفي الشريك عنه في الإلهية ﷻ، وصيغة فعل التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أن تنزيهه ﷻ أمرٌ مقرَّر، أمرَ الله تعالى به عباده من قبل وألهمه الناس، وأودع دلائله في أحوال مَن لا اختيار له، كما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

---

(١) انظر– بتصرف كثير: تفسير التحرير والتنوير، تفسير الآيتين الأولى والثانية من سورة الحديد، أو: جـ٢٧، ص٣٥٦، دار سحنون.

وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

فجيء الفعل «تسبيح» مضارعًا ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ فالملك والتسبيح مرتبطتان ببعض، «يسبح» لأن له الملك و«سبح»؛ لأن له الملك؛ وهذه هي العلة؛ أن الكون كله يسبح لله، وسبح؛ قال: لأن له ملك السماوات والأرض ﷻ يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

فجيء بالفعل مضارعًا للدلالة على تجدّد ذلك التسبيح ودوامه، فسبح في الماضي لها معنًى، ويسبح بالمضارع لها معنًى؛ وكلا المعنيين يكمّل الآخر، سبح يعني: أن أمرَ التسبيح أمرٌ مقررٌ في الماضي إلى الآن. ثم قال ﴿يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ ليدل على أن التسبيح أمرٌ متجدد ودائم، وهذا هو الذي يليق بالله تعالى. تُرى هل يوجد شيء من خلقه لا يسبحه؟! وهذا إنكار وتوبيخ لهؤلاء العقلاء الذين لا يسبحون ربهم، ولا ينزهونه، فكأن فيه توبيخًا لهم أنه إذا كان كل شيء يسبح بحمده ﷻ، ويسبح له، وسبح له، وقد تكرر التسبيح وظهرت دلائله، فلماذا أنتم جهلة لا تسبحون الله تعالى ولا تنزهونه؟!

وهذه الآية تعم المؤمنين التاركين لتسبيح الله تعالى؛ يوبّخهم كذلك أن كل شيء يسبح الله تعالى، وسبح، ويسبح ويديم التسبيح، ويتجدد منه التسبيح كل وقت، وأنتم على الغفلة التي أنتم فيها.

و«سَبَّح» تعريض بالمشركين الذين أهملوا أهم التسبيح، وهو تسبيحه الذي يعني تنزيهه ﷻ عن الشريك والند.

فالمؤمنون مطالبون بأن يأخذوا بحظهم من توحيد الملك ﷻ؛ بتسبيحه وتنزيهه في كل أوقاتهم بعموم التسبيح من ذكرٍ وصلاة وحمد وتقديس، وتطهيرِ القلب والعمل والجوارح له؛ إذ ذلك هو الدخولُ على الملك ﷻ، متنزهين ومتطهرين في نفس الوقت، ليحصلوا من ربهم شيئًا يفوزون به من حفظهم وحراستهم وتوفيقهم ونصرهم وتثبيتهم، لأن ذلك من فعل الملك ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَعُّم الموجودات كُلَّهَا.. ومضمون هذه الجملة - وهي قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ..﴾ - يُعْلِم المرءَ بتعليل تسبيح الله تعالى؛ لأن من له ملك العوالم العليا، وله ملك العالم الدنيوي حقيقٌ بأن يَعْرِفَ الناسُ صفاتِ كماله ﷻ، وأن يُنَزِّهوه جلَّ وعلا. يعني: الذي له ملك السماوات والأرض ينبغي أن تسبحوه؛ يعني: أن تنزهوه، وأن تقوموا بذلك التسبيح وتداوموا عليه، وأن لا تفتروا عنه كما ذكر المولى سبحانه وتعالى عن الملائكة: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ...﴾ أُسلوب قَصْرٍ؛ قَصَرَ فيه المُسنَد على المسنَد إليه، يعني: يُفيد قَصْر مُلك السماوات والأرض عليه ﷻ وأن غيره لا يملك شيئًا، ولا يُعْتدُّ بملكه، وأن كل مُلْكٍ لغيره إنما هو من ملكه ﷻ.

وتلك الآية تُعَلِّم الناسَ كم هم فقراء إلى الله تعالى، وأنهم لا يملكون شيئًا؛ لا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا فضلًا على أن يملكوا لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا. وهذا يحملهم على الافتقار إلى ربهم سبحانه وتعالى؛ وعلى التعبد له، والتذلل له والخضوع له، والإئتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه ﷻ.

وهو قَصْرٌ لعدم الاعتداد بمُلك غيره في الأرض؛ لأن ملك غيره في الأرض مُلكٌ ناقص، فضلًا عن كونه هو سبحانه وتعالى صاحب هذا الملك كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ...﴾ [آل عمران: ٢٦].

ومُلك غيره ناقص لأنَّ الملوك مفتقرون إلى من يرفع ما يقع عليهم من أعدائهم أو من عوادي الزمن، ولا بد أن يكون لهم أحلاف وجند يدفعون عنهم ذلك. وكذلك يحتاجون - أي: ملكوك الدنيا - إلى من يدبر لهم نظام المملكة من وزراء وقواد، ويحتاجون إلى من يجبي لهم الأموال ونحو ذلك من الجزية حتى يستطيعوا أن يوفروا في مملكتهم أسباب قيامها وانتعاشها وبقائها شيئًا من الزمان.

وقوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ..﴾ بعد قوله: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يشير إلى أن الإحياء والإماتة مما يشتمل عليه معنى ملك السماوات والأرض؛ يعني: لما مَلَكَ ﷻ هذه السماوات ومَنْ فيها والأرضَ ومَنْ فيها دلَّ هذا على أن من أحوال هذه الممالك أن تموت وأن تحيا، وإذا كان هو مالكها ﷻ فالإحياء والإماتة من شأنه وتدبيره جلَّ وعلا.

وتخصيص الإحياء والإماتة بالذكر للاهتمام بهما لدلالتهما على دقيق الحكمة في تصرف الله تعالى في السماوات والأرض، فلو كانت أحياءً كلها لتغيرت الحكمة، ولو كانت موتًا كلها لتغيرت الحكمة، ولو بقي من بقي ومات من مات ولم تكن الأرض هكذا يتجدد فيها الموت والإحياء لتغيرت كل هذه الحِكَم؛ فدلَّ ذلك على هذه الحكمة لله الملك سبحانه وتعالى، وأنها حكمةٌ عظيمة لا يستطيعها أحد، ولم يدعها أحد، بل كل أحد تحتها - تحت حكمة الإحياء والإماتة - لله تعالى. هذا هو المعنى الأول المستفاد من تخصيص الإحياء والإماتة بالذكر.

المعنى الثاني: أن هذين الفعلين بالذات ظاهران لا يستطيع المخلوق ادِّعَاءَ أن له عملًا فيهما؛ بعد أن قال: له ملك السماوات والأرض يحي ويميت، لا يستطيع أحد أن يدعي أن له في الإحياء والإماتة عملًا.

وفيها - أي في قوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ..﴾ - دليلٌ آخر؛ وهو التذكير بدليل إمكان البعث؛ فلما أمات أناسًا وأحيا أناسًا بعدهم دلَّ على أن هؤلاء يمكن أن يحيهم مرة أخرى أو لا؟ نعم. دلَّ هذا على إمكان البعث كذلك؛ لأنه لما أحيا وأمات وظهر ذلك للناس دلَّ على أنه سبحانه وتعالى قادر على بعثهم مرة أخرى؛ إذا كان ﷻ يحي من لا شيء، أفلا يستطيع أن يحي من أماتهم وهو قد خلقه من قبل؟ فهذا أسهل من أن يحييهم من لا شيء كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، وهذا في نفس الوقت تعريضٌ بالكفرة وآلهتهم بأنهم يزعمون لهم ما لا يملكون، وكذلك تعريض بملوك الدنيا أنهم يملكون ما لا يستطيعون، ولا يستطيعون ما لا يملكون.

وجملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تفيد التزييل لجملة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لتبين أنه على كل شيء قدير - وليس الإماتة والإحياء فقط - بل كل ذلك داخل تحت قدرته ﷻ.



القسم السابع

اسم الله السلام



مقدمــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعدُ..

نواصل الكلام في شرح أسماء الله الحسنى بشرح اسم الله ﷻ السلام، لأن الكلام على اسمه ﷻ السلام مما يهم المرء في دينه ودنياه، ومرجع ذلك لأسباب عدة:

أولها: أن أحوال المؤمنين المتقين هذه الأيام يغلب عليها عدم الثبات على الطاعة، وكثرة الانقطاع عن السير في طريق الله تعالى، وذلك بسبب كيد الشيطان، واتباع النفس والهوى والاشتغال بالدنيا، ولا يسلمهم من هذه القواطع إلا السلام ﷻ، فإذا أخذ المرء حظه من توحيد الله تعالى بهذا الاسم المشرف، ودعاء الله تعالى به كما قالﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ إذ به يَسْلَم بتسليم الله تعالى له من كل شيء يخشاه،فيتعلق المرء حينئذ بربه ﷻ ويحبه ويقبل عليه، ويتزود بزاد الإيمان والتقوى الذي تتقوى به جوارحه وقلبه، فيخرج من الهمة الضعيفة والعزيمة المنهارة إلى مدد الله تعالى وقوته؛ فيستعين بالله فيقويه ﷻ على مواصلة السير في طريقه تعالى.

ثانيها: أن المرء في هذه الحياة الدنيا معرض للآفات والشرور، ومعرض للنقص والعيب والمصائب ومعرض كذلك لأنواع الإيذاء كافة سواء كانت من نفسه أو من غيره، ولا يحفظه ويؤمنه ويسلمه من هذه المصائب والمؤذيات في دينه ونفسه ودنياه وآخرته إلا السلام ﷻ، فيكون أخذه بحظه من هذا الاسم سببًا لسلامته في الدنيا والآخرة.

ثالثها: أن معاملات الناس اليوم يغلب عليها الأخلاق السيئة والنوايا الخبيثة التي يملؤها الحقد والغل والتربص وإرادة الشر مما كان سببًا في إخفاقهم وتفرق قلوبهم وتشتت شملهم وذهاب هيبتهم، ولن تتغير هذه الأحوال إلا باستبدال هذه الأخلاق الرديئة بالأخلاق الحسنة من سلامة القلب والصدر، وأن يتعلموا هذا السلام ويتخلقوا به ويفشوه بينهم، وأن يتحققوا من هذا الاسم بما تعود آثاره على الناس كما ظهرت عليهم بركات آثار الله تعالى من السلام، فيصبحوا ويغدوا سلامًا مع غيرهم، يرجون لهم الرحمة، ويتمنون لهم الهداية، ولا يحملون في قلوبهم ولا جوارحهم ولا نوايهم ما يخالف معنى السلام، وعندها ينتظرون رحمة الله بهم، وتأييده لهم بنصرهم وإعلاء كلمتهم ورفع رايتهم.

ولما كان درس السلام (وهو من دروس الفتوحات الإلهية في شرح الأسماء الحسنى للذات العلية، والتي يلقيها فضيلة الشيخ: محمد الدبيسي – حفظه الله تعالى – بمسجده المبارك الهدي المحمدي) بهذه الأهمية، قام إخوانكم – حفظهم الله تعالى – بتفريغ هذه الشرائط الصوتية لتخرج في هذه الرسالة، راجين مولاهم ﷻ أن يعم بها النفع، وأن تساهم في اتصاف المؤمنين بما يقوي دعوتهم، ويحَسِّن صورتهم؛ فيظهر بهم وجه الإسلام أشد إشراقاً، ويصبحوا دعاة إلى الإسلام بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فينفضوا بهذه الحالة المشَرِّفة عن أنفسهم تلك الحال المؤذية الصادين بها عن سبيل الله تعالى.

نسأل اللهَ تعالى أن ينفع به قارئَه وكاتبه وناشره والناظر فيه.

مسجد الهدي المحمدي

الفصل الأول

معاني اسم الله تعالى « الســـــلام »

معنى السلام لغة[1]

قال الزمخشري[2]: "سلم من البلاء سلامة وسلاماً، وسلم من المرض: بريء، وسلمه الله. وسلم إليه الشيء فتسلمه. وسالمت العدو مسالمة، وتسالموا، وخذوا بالسلم، وفلان سلم لفلان وحرب له. وعقد عقد السلم، وأسلم في كذا. وأسلم لأمر الله وسلم واستسلم. وأسلمه للهلكة. وهو سلم في يد العدو: مسلم." اهـ. وقال الرازي[3]: "والسِّلْم السَّلاَم. وقرأ أبو عَمْرو (ادْخُلوا في السِّلْم كافَّةً) وذهب بمعناها إلى الإسلام. والسِّلْم الصُّلْح بفتح السين وكسرها يُذَكَّر ويؤنَّث. والسِّلْم المُسَالِم تقولُ أنَا سِلْمٌ لمن سَالَمني. والسَّلامُ السَّلاَمة. والسَّلامُ الاسْتِسْلام. والسَّلام الاسمُ من التسليم. والسَّلام

---

(١) قال ابن منظور رحمه الله تعالى: "السَّلامُ والسَّلامَةُ: البراءة: تَسَلَّمَ منه أَيْ تَبَرَّأَ وقال ابن الأَعرابي: السَّلامة العافية، وقوله تعالى { وإِذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قالوا سَلاماً } معناه تَسَلُّماً وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر.اهـ. وليس المَقْصُودُ في الآيةِ السَّلام المُسْتَعْمَل في التحيَّة لأَن الآية مكية ولم يُؤْمَرِ المسلمون يومئذ أَن يُسَلِّمُوا على المشركين; ومنهم من يقول سَلامٌ أَي أَمري وأَمرك المبارأَة والمُتاركة، قال ابن عرفة قالوا سَلاماً أَي قالوا قولاً يَتَسَلَّمون فيه ليس فيه تَعدٍّ ولا مَأْثم. وقيل قالوا سَلاماً أَي سَداداً من القول وقَصْداً لا لَغْو فيه وقوله قالوا سَلاماً قال أَي سَلِّمُوا سَلاماً وقال سَلامٌ أَي أَمري سَلامٌ لا أُريد غير السَّلامَة وقرئت الأَخيرة قال سِلْمٌ قال الفراء سِلْمٌ وَسَلامٌ واحد; وقال الزجاج الأَول منصوب على سَلِّموا سَلاماً والثاني مرفوع على معنى أَمْري سَلامٌ. اهـ وكانت العرب في الجاهلية يُحَيُّون بأَن يقول أَحدهم لصاحبه أَنْعِمْ صباحاً وأَبَيْتَ اللَّعْنَ ويقولون: سَلامٌ عليكم فكأَنه علامة المُسالَمَة وأَنه لا حَرْب هنالك ثم جاء اللهُ بالإِسلام فقصروا على السلام وأُمروا بإِفْشائِهِ; وقوله ﷻ { سَلامٌ هي حتى مَطْلَعِ الفَجْر } أَي لا دار فيها ولا يستطيع الشيطان أَن يصنع فيها شيئاً" اهـ بتصرف... انظر لسان العرب مادة (س-ل-م).

(٢) انظر أساس البلاغة (١/ ٢٢٥).

(٣) انظر مختار الصحاح (١/ ١٥٠).

اسمٌ من أَسْماءِ الله تعالى. والسَّلاَمُ البراءةُ منَ العُيُوب في قَوْل أمَيّة. وقرئ (ورَجُلاً سَلَماً)." اهـ

وللسلام في اللغة في حق الله تعالى ثلاثة معان:

الأول: ذو السلام، يعني صاحب السلام، وهو في صفاته ﷻ الذي سلم من كل عيب، وبرئ من كل آفة ونقص تلحق بالمخلوقين.

الثاني: أنه ﷻ المعطي للسلامة في المبدأ والمعاد، وقيل: هو الذي سلم المخلوق من ظلمه[1].

الثالث: الذي يُسَلِّم على أوليائه في الآخرة كما قال: ﴿ **سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ** ﴾ [الزمر: ٧٣]، ﴿ **سَلَٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس: ٥٨]، وسنشير إلى هذه الآيات -إن شاء الله تعالى- عند ذكر معاني السلام بالقرآن الكريم.

ومعنى السلامة: البراءة من العيب والنقص، وذلك بأن يسلموا من الآفات والمؤذيات، والخلاص من التبعات والمهلكات، فهو ﷻ الذي يعطيهم السلامة من العيوب في خلقهم وفي مبدئهم، وذلك بخلقهم ﷻ سالمين كما قال ﷻ: ﴿ **مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ** ﴾ [الملك: ٣]، وكما قال ﷻ: ﴿ **ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ [طه: ٥٠]، وكذلك السلامة في معادهم وهو قوله: ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [فصلت: ٤٦]، فقد أمنهم ﷻ أن يُظْلموا في الآخرة بألا يأخذوا حقهم كاملاً، أَظَلَمَكَ كتبتي؟!.

---

(١) وهذا ليس معناه وقوع الظلم منه ﷻ؛ إذ هو ﷻ قد حرم الظلم على نفسه، وإنما المقصود على معنى قوله تعالى: "وما ربك بظلام للعبيد" فصلت: ٤٦.

وذهب بعض أهل اللغة إلى أن السلام بمعنى التحية(١)، ويكون لهذا القولِ معانٍ:

أولها: أن قول: السلام عليكم إعلام بالسلامة من ناحية القائل، فلا يصدر منه شر، أو عداوة، أو خيانة أو غدر وخسة، فكأنه يقول: أنا سلم لك غير حرب، وولي لك غير عدو، فلا تحذر ولا تخف؛ فيأمنه فى عَمَلَىْ الجوارح والقلب، ففي ظاهره يأمنه من شره وغائلته فلا يغتابه ولا يظلمه ولا يوقع بينه وبين غيره بالنميمة، وفى باطنه يأمنه من حقده وغله، فليس في قلبه له غش، ولا حسد، ولا مكر؛ فصار سلاماً متحققاً باسم الله ﷻ السلام المفهوم من قول النبي ﷺ: «**الْمُسْلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٢)، و ينبغي إذن أن يكون ذلك في محل نظر أهل الإيمان.. والسلام هنا كما ذكرنا بمعنى التحية من أسمائه ﷻ.

ثانيها: أن السلام إنما هو اسم من أسماء الله تعالى، فإذا قال المؤمن لأخيه: السلام عليكم فإنما يعوذه بالله تعالى، ويبارك عليه باسم الله تعالى من أن يمسه سوء أو شر، فكأنما يقول: الله تعالى يبارك عليك، والله تعالى يعيذك، والله تعالى يمنعك ويحميك، رحمة

---

(١) فائدة: لمّا كان السلام من أسماء الله ﷻ فإنّه لا يقال: "السلامُ على الله"؛ لأنّ الله هو السلام ﷻ. ودليل هذا حديث ابن مسعود ﷺ قال: " كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَقُولُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللهَّ هُوَ السَّلَامُ وَلَكِنْ قُولُوا التَّحِيَّاتُ للهِّ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِّ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِّ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ." رواه البخاري (٧٩١) ومسلم (٦٠٩) وأبو داود (٨٢٥) والنسائي (١١٥٥) وابن ماجه (٨٨٩) وهذا لفظ البخاري.

ولأن المؤمن إذا قال لأخيه: السلام عليكم فإنما يعوذه بالله تعالى، ويبارك عليه باسم الله تعالى من أن يمسه سوء أو شر، والله -جل وعلا- منزّه عن أن ينالَه شيءٌ من السوء أو من الآفات أو من الشر، وكل شيء إليه ﷻ، وهو المدعو، فلا يُدعى له ﷻ؛ لأنّ الدعاء إنّما يكون للمخلوق المحتاج، أمّا الله جل وعلا فإنّه غنيٌّ لا يحتاج إلى شيء. والله أعلم.

(٢) رواه البخاري (٩) ومسلم (٥٨) والنسائي (٤٩١٠) والترمذي (٢٥٥١).

بك ومحبة لك بهذا السلام الذي هو اسمه ﷻ، ودليل صحة هذا التأويل حديث أنس - رضي الله عنه- الذي رواه البخاري في الأدب المفرد -وقد حَسَّن هذا الحديث الحافظ ابن حجر في الفتح- عن النبي ﷺ قال: « **إِنَّ السَّلامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الله، وَضَعَهُ اللهُ فِي الأَرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَلَّمَ عَلى القَومِ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَتْ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ، لأَنَّهُ ذَكرهُم السَّلام، وإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَطْيَبُ**»[1].

وهذا المعنى هو حظ المسلم في علاقته بالناس، وهو أن السلام هو الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده، وأنه إذا قال لأحد: السلام عليكم فقد أمنه من كل شر يأتيه من جانبه.

لذلك قال النبي ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» [2]،فبين أن دخول الجنة موقوف على الإيمان، وأن الإيمان متوقف على المحبة، ثم بين ﷺ طريق المحبة وهو إفشاء السلام بين المؤمنين.

لذلك قال ﷺ في إلقاء السلام: «**وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»[3] وإلقاؤك السلام على من لا يعرفك إعلام له بأنك سالم مني من الشر ومن الأذى، وأنا ولي لك غير عدو، وأنا سِلْمٌ لك غير حرب، وأنا أعيذك وأبارك عليك بالسلام من الله

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد حديث (١٠٣٩).

(٢) رواه مسلم (٨١) وأبو داود (٤٥١٩) والترمذي (٢٦١٢) وابن ماجه (٣٦٨٢). وهذا لفظ مسلم.

(٣) رواه البخاري (١١) ومسلم (٥٦) وأبو داود (٤٥٢٠) والنسائي (٤٩١٤) وابن ماجه (٣٢٤٤) ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ).

تعالى، فإفشاء هذا السلام دليل إفشاء المحبة بينهم والتراحم وترك الحقد والغل والحسد وباقي الصفات السيئة الرديئة الموجودة بين أهل الإيمان والتي فشت بدل السلام؛ الذي هو أدعى للمحبة ودليل على الإيمان وطريق لدخول الجنة.

السلام مع الناس في الدنيا طريق السلامة في الدنيا والآخرة

وهذا الحال من أعظم الأحوال التي تنقص أهل الإيمان، وهو أن قلوبهم التي تدعي المعرفة والمحبة لله تعالى لا بد أن تكون صافية لإخوانها، مُحِبَّةً لهم ترجو سلامهم حيث يأمنوا شرها وبوائقها كما ذكر النبي ﷺ، فلا يكون القلب سالماً وسليماً وسلاماً حتى يتنزل عليه سلام الله تبارك وتعالى، **فكأن السلام من الله -جل وعلا- لا ينزل على هذه القلوب التي امتلأت بالشحناء و البغضاء، وتلك الجوارح التي وقعت في الآثام والمحظورات، وتخلقت بهذه الأخلاق واتصفت بتلك الصفات السيئة** فكأن هذه الصفات وهذه الأخلاق وهذه الجوارح التي وقعت في كل ما لا يكون من السلام في شيء، لا تستحق السلام من الله تعالى.

وهذا هو السبب في هذا الاضطراب النفسي الذي يعانيه المسلمون من هذا القلق وعدم الثبات على الطاعة واستقامة السير إلى الله تعالى، فإذا لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فكيف يسلم هو من نفسه؟ وإذا لم يسلم هو من نفسه كيف يكون أهلا لتنزل السلام عليه من الله تعالى؟

إن نزل عليك السلام من الله تعالى فإنك حينئذ تشعر بالطمأنينة والسكينة، وبالقرب من الله تبارك وتعالى، فيخف عنك قلقك واضطرابك وخوفك، فصرت آمناً مطمئناً على يومك وغدك ومستقبلك، فأمنت في دنيا الناس من أن يصيبك شيء يؤذيك

إلا أن يشاء الله ﷻ.. حينئذ يكون هذا القلب أقرب إلى العبادة والمحبة والطاعة والإقبال على الله تعالى، وتكون تلك النفس أصفى في سيرها إلى الله تعالى فتقل غفلتها وتستعد للقاء الله -جل وعلا-، فتستقبل أنوار المعرفة من الله تعالى وأنوار المحبة والذكر والإخبات والإنابة والخوف والرجاء والخشية والتوكل والثقة... إلى بقية الأمور التي سنشير إليها في معنى القلب السليم في حظ المرء من هذا الاسم المعظم.

وقد ورد عن النبي ﷺ خبرٌ صححه أهل العلم يبين قيمة هذا السلام، وأن الله تعالى يجزي عليه ويضاعف مثوبته فيقول ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ. وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ. وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1]، ودخوله بيته بالسلام ليس مقصوده أن يدخل فيقول السلام عليكم، ثم يبدأ الشجار والعراك.. ولكن دخل وأهله سالمون من لسانه ويده، سالمون من صفاته السيئة كالحقد والغل وإرادة الشر، سالمون من آثامه وخطاياه ومن الوقوع في الذنوب والسيئات، قد فشا السلام والأمن في هذا البيت، فكان كذلك خارجه، فالله ضامنٌ له.

فطريق أهل الإيمان إلى الجنة ومحبة الله جل وعلا، والسلامة في الأولى والآخرة هو: أن يسود السلام ببيوت المؤمنين المتقين وأن ينتشر خارجها، سواء بينهم وبين من يعرفون أو بينهم وبين من لا يعرفون..

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٩٤) والنسائي (٣١٢٠). وقال النووي في الأذكار (ص٣٤): حسن، وأورده ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٣٤٨) وقال: صحيح، وقال ابن حجر العسقلاني في هداية الرواة (١/ ٣٤٠): حسن.

وفي مثل هذا يحسن أن نشير إلى قوله عز وجل: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[مريم: ١٥]، فإن حظ أهل الإيمان من قوله وسلام عليه يوم يموت هو ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، يعني يبشرونهم حال موتهم بأعظم بشارة؛ قال أهل العلم[1] في تفسيرها: إن المؤمن ليدخل الجنة وما يزال في قلبه حلاوة هذه البشارة التي بشر بها عند موته، حيث تتنزل عليه الملائكة ألا تخاف مما أنت مقدم عليه من أمور الآخرة، وألا تحزن على ما تركت من أمور الدنيا، وأبشر بالجنة، وعلى مقدار ما يتحقق لك من معانى السلام في سلامة جوارحك وصفاتك وقلبك بقدر ما تنال حظك من الله تعالى من هذا الاسم المعظم، وبقدر ما تحوز من سلام الله تعالى وسلامته في هذا الموضع عند القبض وفي الأولى والآخرة.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٧/ ١٧٧) "وقوله: { تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ } قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت قائلين: { أَلا تَخَافُوا } قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، { وَلا تَحْزَنُوا } أي على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، { وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء رضي الله عنه: "إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان". وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا قرأ سورة "حم السجدة" حتى بلغ: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ } فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، { وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له في الدنيا. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا، وهو الواقع." اهـ.

فَحَظُّ العبد من هذا الاسم:

أولاً: السلامة في الدنيا بأن يتخلص من المؤذيات، فمن أفشا السلام على الشرح المذكور وتحقق به فإنه يحصل له هذا السلام الذي ذكر الله تعالى.

ثانياً: السلامة في الدين، وهي على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يسلم قلبه ليأتي الله تعالى بقلب سليم؛ وهي أهمهم.. لأن من سلم في الدنيا قلبه فقد أتى الله تعالى بقلب سليم ينفعه يوم الفزع كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

الثانية: أن يسلم في أخلاقه بأن يكون عقله كما ذكرنا أمير غضبه وشهوته وألا يكون أسيرًا لهما.

الثالثة: أن يسلم في عمله من البدع والشبهات ومتابعة الهوى والشهوات.

فإذا وحد المؤمن الله تعالى بهذا الاسم المعظم، ودعاه أن يرزقه حظه منه، وجاهد على أن يتخلق بهذا السلام مع نفسه ومع الناس كما بينت الآيات والأحاديث يوشك أن يأخذ حظه من هذا السلام.

القلب السليم أهم حظوظ العبد من اسمه السلام

وذلك لأن هذه السلامة إذا تحقق بها قلب المرء تحقق له الفوز في الآخرة، فكل ما نتكلم عليه من معانى السلام فإنما مؤداه هذه المحصلة وهي: ﴿ **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾، ومعنى الآية: يوم لا ينفع شيء إلا من أتى الله بقلب سليم، لماذا؟ لأن أكثر ما ينفع المرء فى دنياه ولده وماله، فإذا أراد تحصيل شيء في الدنيا حصله

بالمال أو بالولد، فالأولاد إما يدفعون عنه، أو يقومون له بأمره، وينصرونه؛ لأن الولد هو أشفق من يدفع عن أبيه، فإذا وقع المرء في مصيبة وكان له ولد دفع عنه هذه المصيبة، بأن يقع بدله أو ينصره فيها، فإذا لم يكن الولد هو الذي سيخلص أباه، فمن أين يأتي بمن يرحمه أكثر من ولده؟!.. أما إن كان له مال، فإن يدفع عن نفسه بهذا المال ما استطاع، فأصحاب المال في الدنيا يظنون أنهم يستطيعون أن يفعلوا كل شيء بما أوتوا من مال، بأن يشتروا سلامهم وأمنهم وسعادتهم والناس من الرجال والنساء؛ كذلك المال هو الذي يأتي له بالسلطان والجاه؛ فجاءت الآية لتقول يوم القيامة لا يفقدون ذلك كله، ولا ينفع أحدٌ أحداً إلا القلب السليم.

ونذكر معنى القلب السليم ليحفظه أهل الإيمان وليكون دليلهم على سلامة قلوبهم وعونهم فى مجاهدة أنفسهم على التحقق بهذه السلامة، وأن يكون دعاؤهم لله تعالى باسمه السلام سببًا في أن يتحقق لهم هذا القلب السليم، فيفشوا السلام بينهم، فيتسبب فى نزول سلام الله تبارك وتعالى عليهم؛ فيكون سبب سعادتهم في الأولى والآخرة.

ذكر هذا المعنى الإمام ابن القيم[1] فعَرَّفَ القلب السليم بأنه القلب السالم، فقال:

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى طريق الهجرتين (١/ ٣٧): " حقيقة القلب السليم الذى سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض فى الباطن خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خلاقه تحت الأمر، واضمحل خوضه فى معرفته بالحق فاطمأن إلى الله معرفة به ومحبة له وعلماً بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الدينى.بل الأحكام ثلاثة: حكم شرعى دينى، فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم [والإذعان والقبول فإذا تلقى بهذا التسليم والمسألة إقراراً] وتصديقاً بقى هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذاً وعملاً، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه."اهـ.

"القلب السليم الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله وهديه، ومن كل شبهة تعارض قدره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسول الله ﷺ.

والمعنى: أن القلب السليم ليس فيه شبهة تخالف أمر الله ونهيه، فإذا قال المولى ﷻ: افعل، ليس عنده ما يمنع ذلك: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ** ﴾ [النور: ٥١]، وإذا قال له: لا تفعل، كان كذلك أيضا، فكأن المؤمن ليس بينه وبين أن يقوم بأمر الله إلا أن يعرف أمر الله، فليس عنده شبهة ولا شهوة تعارض أمره ونهيه بهذا القلب السليم، فكأن القلب السليم ليس قلباً يأتيه أمر الله تعالى أو أمر النبي ﷺ أو يأتيه نهي الله تعالى أو نهي النبي فيتعلل ويتحجج حتى لا ينفذ أمر الله أو يؤخره أو لا ينفذ أمر النبي أو يؤخره أو لا ينتهي عن نهيه أو يقع في هذا النهي أو يسارع إليه، فليس عنده شيء مِنْ ذلك، وإنما كما قالت الآية: ﴿ **لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ** ﴾ [الحجرات: ١]، وكما قالت الآية: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ** ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فلا يقول حتى يقول الله تعالى، ورسوله ولا يفعل حتى يُؤْمَر، فإذا قال له: افعل. فعل، ولا يقول لماذا ولا كيف؟! المؤمنون قولهم سمعنا وأطعنا، يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنات عرضها السماوات والأرض، ليس له أحد يحكمه في أمره وأقواله وأفعاله في الظاهر والباطن إلا رسول الله ﷺ، وإلا لم يكن قلبه سالمًا، وإنما هو قلب متردد متشكك متخوف، يريد أن يتفلت من أوامر الشرع، وأن يتكاسل وينام عنها، أو أن يتخفف منها، لا يريد أن يحتكم إليها، وإن احتكم إليها يستصعبها ويستثقلها، ولا يريد أن يقوم بها، وإن قام بها قام بها على الملل والضيق والضجر، ويريد أن ينتهي منها، فلا يجد فيها حلاوة الإيمان، والتلذذ بالطاعة، والإقبال على الله تبارك وتعالى والراحة كما كان هدي النبي ﷺ في ذلك بقوله في الصلاة:

«أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ»[1].

فهذا العبد ذو القلب السالم كل همه التماس مرضاة مولاه، وقد ذكرنا مثل ذلك في الكلام على اسمه الرحمن الرحيم في حديث النبي ﷺ عن العبد الذى كل همه أن يلتمس مرضاة الله تعالى فإذا بالله تعالى يقول: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةِ الله فَلا يَزَالُ كَذَلِكَ، فَيَقُول اللهُ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ عَبْدِى فُلَانَاً يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِى، أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ الله عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ العَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهَمْ حَتّى يَقُولها أَهْلُ السمَواتِ السبْعِ ثُمَّ يَهْبِطُ إِلى الأَرْضِ**»[2].

لهذا يقول الإمام ابن القيم: فسلم هذا القلب في محبة الله تعالى ولا يرده عن محبته شيء، فسلم في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته على كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده ﷻ.

فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام بالنبي ﷺ والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب، ويسلم كذلك في أعمال الجوارح والقلوب فلا يكون في جوارحه ولا قلبه ولا في اعتقاداته إلا تابعا للنبي مؤتما به - صلى الله عليه وآله وسلم- على المحبة وعلى الخضوع وعلى الاستسلام له فلا يتقدم بين يديه ﷺ بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٧) وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٢٤): صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩، رقم ٢٢٤٥٤)، قال الهيثمي (١٠/ ٢٠٢) : رجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقة . والطبراني في الأوسط (٢/ ٥٧، رقم ١٢٤٠) . قال الهيثمي (١٠/ ٢٧٢) : رجاله ثقات .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١].

لهذا قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان يوم القيامة: لم فُعِلَت؟ وكيف فُعِلَت؟...

فالسؤال الأول: لم فُعِلَت؟ ألله تعالى وابتغاء مرضاته والدار الآخرة؟ أم أنها فعلت لحظ النفس والرياء وطلب المدح والثناء وأن يراه الناس على هذه الحال انتظاراً لحظ من حظوظ الدنيا الزائلة العاجلة، أو دفعاً لذمهم وخوفاً من مسبتهم وعارهم؟!..

والسؤال الثاني: كيف فُعِلَت؟ أمتابعةً للنبي ﷺ، ومحبةً له ﷺ والتزاماً لهديه في الظاهر والباطن أم أنها فُعلت كيفما اتفق، لا يريد بذلك اتباعاً ولا هدياً ؟!..

فالمسألة العظيمة إذن أن يعرف المرء هذا القلب السليم الذى هو سبب نجاته يوم القيامة، لأنه إن لم يأت بهذا القلب السليم فإنه سيأتي بقلب مريض أو ميت، والقلب المريض أو الميت لا ينفعه عند الله تعالى، ولا يكون سبب نجاته، وهذا يوقع المرء في خوف شديد يدفعه على الفور إلى توحيد الله تعالى باسمه السلام، وبدعاء الله تعالى به، وبالتحقق بمعانى هذا الاسم، وذلك بمحاولته:

أولاً: أن يسلم له قلبه مع الله تعالى منتظراً بهذه السلامة تلك الأنوار التي تتنزل عليه من جراء المحبة والرضا واليقين والتوكل والإقبال على الله والاستعداد للآخرة والزهد في الدنيا فيشعر بحلاوة الإيمان بقربه من الله تعالى، إذ كلما كان المرء متصفاً بصفات الله تعالى كان أقرب إلى الله جل وعلا، وأحب إليه ﷻ فتتنزل عليه آثار هذه الأسماء، وتناله بركتها، ويرضى عنه ربه، وتسعه رحمته ﷻ.

ثانياً: أن ينشر هذا السلام مع نفسه ومع الناس، وأن يعمل على أن يكون الناس سالمين منه في صفاته وأفعاله وأقواله وجوارحه، بأن ينقي قلبه من الغش والحقد والغل والحسد وإرادة الشر لهم، وهذا يستدعي منه إن كان بينه وبين أحد شيء من القطيعة أو الشجار أو الاعتراك على أمور الدنيا أن يسلمه منه ومن شره ومن أذاه، فيطهر بذلك قلبه له، رجاء سلامة الله تعالى وتسليمه في الأولى والآخرة. ونزيد توضيح وصف السلام لله تعالى وما ينبغي في حق خلقه منه وذلك بكلام بعض العلماء فنقول:

معنى السلام شرعًا:

قال الإمام الغزالي[1] رحمه الله تعالى: **"السلام هو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه صادرة منه وقد فهمت أن أفعاله ﷻ سالمة عن الشر، أعني الشر المطلق لذاته وليس في الوجود شر بهذه الصفة، كما سبق الإيماء إليه"**، فليس في أفعاله ﷻ شر مطلق[2]، وإنما إن كان فيها شر فلما يتضمنه من الخير، وقد أشرنا قبل ذلك في كلامنا على اسمه الرحمن الرحيم ﷻ ، كيف يقع في ملكه ﷻ تعذيب الصغار والكبار، أو يقع في ملكه الآفات والأمراض والمحن، وذكرنا المثل الذي ضربناه لذلك وهو هذا الولد

---

(١) انظر "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" للإمام الغزالي.

(٢) قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في جامع الرسائل (١/ ٣٥٦): "والضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شراً مطلقاً، وإن كان شراً بالنسبة إلى من تضرر به. ولهذا لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ إضافة الشر وحده إلى الله، بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة، إما أن يدخل في عموم المخلوقات فإنه إذا دخل في العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تعلق بالعموم، وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل، وإما أن يحذف فاعله."

المريض الذي تلزمه الحجامة للعلاج، فتأتي أمه لتمنعه أن يحتجم رحمةً به، فيحجمه أبوه مع تألم الولد منها، فتكون أمه عدوة له في ثياب الرحيم به، ويكون أبوه هو الرحيم به على الحقيقة؛ لأن ذلك الأب الذي قد آلمه وأتعبه كان السبب في شفائه من الأمراض والعلل.

لذلك فليس في أفعاله ﷻ الشر المطلق، وإن كان في ظاهرها بالنسبة للإنسان شر، فإنها تتضمن من الخير أكثر مما تتضمنه من الشر، وقد ورد ذلك أيضا في حديث النبي ﷺ حيث قال: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(1) وهذا يُعَلِّمُ المؤمن كيف يرضى عن ما يقع به من المحن والأمراض والمصائب؛ لأن الله تعالى ما فعل به ذلك إلا لخير ضمن هذه الأفعال يريده الله تبارك وتعالى بعبده، لأن الله ﷻ لا ينتفع بشيء من تعذيب عباده.

إذن المؤمنون المتقون مطالبون بحفظ هذه الجملة فيما يتعلق بالله تعالى، أنه قد سلمت ذاته ﷻ عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر، وأن كل ما يوجد في هذا الوجود من السلامة معزو إليه صادر منه ﷻ.

وهذا هو حظ المؤمن من هذا الاسم المشرف قال الإمام الغزالي: "**تنبيه: كل عبد**

---

(1) رواه مسلم (١٢٩٠) وأبو داود (٦٤٩) والترمذي (٣٣٤٤) والنسائي (٨٨٧)، وقال العيني فى شرحه على البخاري (١٣/ ٧٠): "قال ابن بطال هذا الحديث أصل لأهل السنة في أن السعادة والشقاوة بخلق الله تعالى بخلاف قول القدرية الذين يقولون إن الشر ليس بخلق الله، وقال النووي: فيه إثبات للقدر وإن جمع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره لا يسأل عما يفعل وقيل إن سر القدر ينكشف للخلائق إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها، وفيه رد على أهل الجبر لأن المجبر لا يأتي الشيء إلا وهو يكرهه والتيسير ضد الجبر ألا ترى أن النبي قال: إن الله تجاوز عن أمتي ما استكرهوا عليه قال والتيسير هو أن يأتي الإنسان الشيء وهو يحبه."

سلم عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبه، وسلمت عن الآثام والمحظورات جوارحه، وسلمت عن الانتكاس والانعكاس صفاته فهو الذي يأتي الله تعالى بقلب سليم، وهو السلام من العباد"

والمعنى أن المولى ﷻ قد سلمت ذاته وصفاته وأفعاله عن العيب والنقص والشر فينبغي أن يكون حظ المؤمن من هذا الاسم أن يسلم قلبه وجوارحه وصفاته عن تلك المعاني، فيسلم قلبه من الحقد والغل والغش وإرادة الشر، وتسلم جوارحه عن المعاصي والآثام، وتسلم صفاته عن الانتكاس والانعكاس.

وهذه جملة يشرحها الإمام لتفهم معناها في صفاتك التي ينبغي أن تكون متحققة بصفات الله تعالى، فيقول: **"وأعني بالانتكاس في صفاته أن يكون عقله أسير شهوته وغضبه إذ الحق عكسه وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه وإذا انعكس فقد انتكس"** يعني أن الحق الذي يجب أن تكون عليه أن تكون شهوتك وغضبك أسيرين لعقلك، فيكون عقلك هو الذي يتحكم في الشهوة والغضب فلا ينعكس عليك، ومعنى الانتكاس في صفاته، أن تكون صفات الشر غالبة على عقله، فلا يكون عقله هو الذي يحرك هذه الصفات ويذبح هذه الشهوات، ويمنع هذه الشرور والآثام أن يتصف بها أو أن يتخلق بشيء منها ، بل يكون أسير الهوى وأسير الشهوة وأسير الصفات المذمومة وهي التي تغلبه وتحركه، فعلى المؤمن ألا يكون الغضب سببا لإخراجه عن حدود الشرع والعقل، ولا تكون شهواته في الدنيا وصورها وأكلها وشربها وماها هو الذي يُسَيِّرُهُ في هذه الحياة، بل العقل هو الذي يتحكم في هذه الشهوات بما أوضعه الله تعالى فيه من الأخلاق الحسنة المغروسة في طبع المرء.

فإذا انعكس فقد انتكس، يعني إذا انعكست هذه الصفات فصارت هي المتحكمة في العقل صار المرء تابعاً لهواه لا يتحكم في شهوته ولا يتمكن من أن يحفظ نفسه أو أن يتوب مما وقع فيه فضلا عن أن يسير إلى الله تعالى وإن أراد شيئًا لنفسه وحظوظها، ترك مجاهدة نفسه وسار في مطلوبها وأمضاه، وإن كان عقله يقول: لا! هذا خطأ.

انتكاس الصفات سبب ترك مجاهدة النفس

ومن أمثلة ذلك أن يقول أحدهم: نويت أن أصلي بالليل هذه الليلة، وبعد العشاء إذا نفسه تغلبه تقول له: نم قليلاً ثم استيقظ قبل الفجر فصل، فلا يستيقظ ولا يصلي فيضيع عليه الوتر وربما ضاع عليه الفجر أيضا!..

أو يقول مثلاً: قد وظفت على نفسي كل يوم ورداً من القرآن، فيأتي الهوى والشهوة ويدخل الشيطان له من تلك المداخل ليقول له: أنت مُتْعَبٌ ولا تستطيع أن تتدبر القراءة ولا أن تتفهمها، نم قليلاً ثم اقرأ بعد أن تستيقظ، أو اجلس مع أهلك قليلا وائتنس بهم ثم اقرأ بعد، فتجد أوراداً قد تراكمت عليك وتكاثرت فلا تستطيع أن تؤدي منها شيئاً !...

مثلاً تأتي ليلة الاثنين وقد أراد أن ينوي الصوم فيُصَعِّبَ عليه الشيطان أمر الصيام، احتجاجاً بالأعمال والمهام، ويمنيه بصيام الخميس بدلاً منه، وهكذا فيضيع عليه صيام الاثنين والخميس.

لهذا لابد أن يحزم المرء أمره مع عقله وقلبه في أمر هذه الشهوات وأن يُقدم فيها الشرع فإن عاهد الله تعالى على شيء لا بد أن يوفي به، فالشيطان كما قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر آية: ٦]، يعني قد تربص بك وترصد لك ليله ونهاره أن تزل إلى شهوة أو غضب حتى يدخل إليك منها فيضيع عليك ليلك وأورادك، ويوقعك في الخطأ، والغيبة والنميمة والتطاول، أو يوقعك في الرياء والشبهة والشهوات والشبهات، كل ذلك ليخرجك من عبادة الله تعالى إلى حظوظ النفس وشهواتها، فإن لم يستطع الإيقاع بك في شيء من ذلك أوقعك في التكاسل والنوم وطول الأمل، أو أوقعك في المكروهات والمحرمات، أو أوقعك في الغفلة والنسيان.. المهم أن يبعدك عن الله تعالى، فهو عدوك الذي ينتظر أن يوقع بك ويهزمك، ويفل عزيمتك، ويضعف همتك، ويقعدك عن العمل والاستعداد للآخرة.

كيف يحقق المرء السلام ومعناه في نفسه ؟

يقول الإمام الغزالي: **"ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده، فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه[١]؟"** يعني إذا لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فكيف يسلم هو من نفسه! وإذا نظرنا إلى هذا المعنى من كلام الإمام نجد أن هذا هو حظ المرء من اسم الله تعالى السلام، وهو الحظ الذي لم نُحَصِّلْ منه ما يكون سبباً في استقامة سير المرء إلى الله تعالى، انظر إلى حالك، إلى نفسك: كم أنت مضطرب! وكم أنت قلق! وكم أنت متردد ومتشكك! ولا تستطيع أن تستقيم على شيء من العمل الصالح، ولا أن تثبت على عبادة، ولا أن تسير السير الحسن الصحيح إلى الله تعالى، فإذا ما سلم لك قلبك وسلمت لك جوارحك وشعرت بهذا السلام بينك وبين الله تعالى وبينك وبين نفسك استقرت لك أحوالك، واستنار لك قلبك، واستضاء لك طريقك

---

(١) انظر المقصد الأسنى للإمام الغزالي رحمه الله.

إلى الله تبارك وتعالى، فتتنزل عليك آثار هذه البركات من الله -جل وعلا- فتكون سبباً لحفظك في طريقك إلى الله -جل وعلا-، وكذلك كانت هذه الآثار وتلك الأنوار والبركات زادك الذي كلما فترت همتك وضعفت عزيمتك أخذ بيدك إلى الله، وأعاد القوة لعزيمتك، وأبعد عنك المؤذيات من الشيطان والنفس والهوى وأنار لك الطريق مرة أخرى إلى الله ﷻ.

ولن يتحقق لك ذلك أيها المسكين إلا بالمجاهدة، فمجاهدتك لنفسك تبدأ من الآن بأن تتفكر في معاني اسمه السلام، فتجاهد نفسك وتحملها على التحقق بها بتصفية جوارحك وقلبك وصفاتك من كل ما يخالف معانى السلامة، من العيب والنقص والشر والسوء، لتعود شخصاً جديدًا كلما راودتك نفسك على ذلك خشيت الانتكاس والانعكاس الذي يغلب فيه الهوى والشهوة والغضب والشيطان على العقل والشرع والأخلاق الحسنة، فدفعك ذلك لمواصلة المجاهدة وسارعت إلى الالتجاء إلى الله تعالى أن يعينك ويقويك، وأن يهبك ﷻ من رحمته، وأن ينزل عليك من سلامه ما تستطيع أن تدفع به هذه الشرور وتلك المؤذيات، فلا تؤخر التفكر في هذه المعاني فتؤخر المجاهدة، لأنك إن أخَّرت ذلك أخذتك الدنيا وانشغلت بها، أو أخذك التسويف والتكاسل فتعود مرة أخرى كأن لم تسمع شيئًا عن اسمه السلام، ولم تجاهد على التحقق بشيء من معانيه!..



الفصل الثانى

التفسير الإجمالي

للآيات الوارد فيها ذكر « السلام »

في القرآن الكريم

ونتكلم في هذا الفصل عن مواضع السلام في كتاب الله تعالى، وهذه المواضع تشكل الكثير من المعاني التي يلزم أهل الإيمان فهمها، وحمل النفس عليها، وسنشير إلى معانى هذه الآيات إجمالاً؛ لأن المقصود فقط هو معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ﷻ، كما ذكر النبي ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة»(1).

وقد ورد ذكر اسم الله السلام ﷻ في قوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣].

وبالنظر الإجمالي في الآيات المتعلقة بالسلام لاحظنا أنها تشتمل على هذه العناوين وما يندرج تحتها من آيات:

الأول: أن الله تعالى سَمَّى الدارَ الآخرة بدار السلام.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٣١) ومسلم (٤٨٣٥) والترمذي(٣٤٢٨) وابن ماجه(٣٨٥١)، وقال النووي فى شرح مسلم (٩/ ٣٩): "وَأَمَّا قَوْله ﷺ: (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة) فَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَاد بِإِحْصَائِهَا، فَقَالَ الْبُخَارِيّ وَغَيْره مِنْ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَاهُ: حَفِظَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَر؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (مَنْ حَفِظَهَا) وَقِيلَ: أَحْصَاهَا: عَدَّهَا فِي الدُّعَاء بِهَا، وَقِيلَ: أَطَاقَهَا أَيْ: أَحْسَن الْمُرَاعَاة لَهَا، وَالْمُحَافَظَة عَلَى مَا تَقْتَضِيه، وَصَدَّقَ بِمَعَانِيهَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: الْعَمَل بِهَا وَالطَّاعَة بِكُلِّ اِسْمهَا، وَالْإِيمَان بِهَا لَا يَقْتَضِي عَمَلًا، وَقَالَ بَعْضهمْ: الْمُرَاد حِفْظ الْقُرْآن وَتِلَاوَته كُلّه، لِأَنَّهُ مُسْتَوْفٍ لَهَا، وَهُوَ ضَعِيف وَالصَّحِيح الْأَوَّل..." اهـ.
وقال ابن حجر فى الفتح(١١/ ٢٢٠): "وَإِنَّمَا مَقْصُود الْحَدِيث أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاء مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة ، فَالْمُرَاد الْإِخْبَار عَنْ دُخُول الْجَنَّة بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَار بِحَصْرِ الْأَسْمَاء ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله ﷺ فِي حَدِيث اِبْن مَسْعُود الَّذِي أَخْرَجَهُ أَحْمَد وَصَحَّحَهُ اِبْن حِبَّان " أَسْأَلك بِكُلِّ اِسْم هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسك ، أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقك أَوْ اِسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْم الْغَيْب عِنْدك " وَعِنْد مَالِك عَنْ كَعْب الْأَحْبَار فِي دُعَاء " وَأَسْأَلك بِأَسْمَائِك الْحُسْنَى مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَم " وَأَوْرَدَ الطَّبَرِيُّ عَنْ قَتَادَة نَحْوه ، وَمِنْ حَدِيث عَائِشَة أَنَّهَا دَعَتْ بِحَضْرَةِ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِ ذَلِكَ." اهـ.

الثاني: أنه إذا كانت الآخرة هي دار السلام فإن الله تعالى أعد لمن اتبع سبل السلام في الدنيا العواقب الحسنة في الآخرة، بداية من يوم موتهم، ثم يوم يبعثون أحياء ويلقون الله ﷻ ثم حين يؤذن بهم إلى الجنة، وأخيرا حال كونهم فيها .

الثالث: أن الله تبارك وتعالى يهدي لسبل السلام، وأن النبي ﷺ يهدي كذلك إلى سبل السلام، وأن القرآن يهدي إلى سبل السلام.

الرابع: أن الله تعالى بَيَّن الصفات والأخلاق التي إن اتبعها المرء في الدنيا تكون طريقاً للفوز بالسلام من الله تعالى في الدنيا والآخرة.

الخامس: أن رسل الله تعالى واتباعهم ومن اصطفى من عباده المؤمنين في محل السلام من الله جل وعلا. ونوضح إجمالاً هذه العناوين:

أولاً: الدار الآخرة هي دار السلام

وهو أول ما نلاحظه في هذا التلخيص وفيها يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، يعني إلى الجنة، ولماذا سماها دار السلام؟ قال أهل العلم: وفى تسميتها بدار السلام أربعة أقوال:

أحدها: نسبةً إلى الله تعالى السلام[1].

والثاني: أو نسبتها إلى السلام بمعني: التحية لأن تحيتهم فيها السلام.

---

(١) قال النسفي (١/ ٤٨٤) والزمخشري (٣/ ١٠) "أضافها إلى اسمه تعظيماً لها"، وقال البيضاوي (٣/ ١٤): "دار السلام: أي دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك".

والثالث: أو نسبتها إلى السلامة بمعني: الدار التي من دخلها سلم من الموت والأحزان والنَّصَب، وعلى هذا يؤول قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١].

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وبعد استقرارهم: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، ولا يسمعون فيها إلا السلام: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٦] وعند لقاء الله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ومعنى: ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] يعني: يدعو إلى الجنة التي من دخلها سَلِم، ويدعو إليها يعني: أنه يدعو الناس إلى أن يسلموا في الدنيا فيكون حظهم في الآخرة دار السلام، وذلك بأن تسلم قلوبهم من الشرك ومن المعصية ومن البدعة، لتسلم قلوبهم لأنفسهم. وفي قوله ﷻ أيضًا: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، أضاف الله تبارك وتعالى الدار إلى نفسه وإلى اسمه المشرف السلام تأكيداً لأهل الإيمان على هذا المعنى وهو أن الجنة إنما سميت بذلك لأنها دار السلامة، فمن دخلها يسعد فلا يشقى أبدًا، ويصح فلا يمرض أبدًا، ويشب فلا يهرم أبداً في جوار الله تبارك وتعالى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين حيث يقال له معهم يا أهل الجنة خلود فلا موت[1].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦١) ومسلم (٥٠٨٧) ولفظه (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}).

ثانيًا: العواقب الحسنة لأهل السلام في الآخرة

والسلام من الناس في الدنيا هم الذين يستحقون هذه المكارم وتلك العواقب من الله تبارك وتعالى في الآخرة، فيخرجون إلى المحشر بسلام فيلاقون ربهم فيحييهم بسلام، فيدخلون الجنة بسلام، فيكونون فيها آمنين بسلام، وتحيتهم السلام، وكل ذلك لمن تحقق بهذا السلام في الدنيا، وأخذ بحظه من معنى اسمه ﷻ السلام، وظهر آثار ذلك في أحواله، سواء مع الله تبارك وتعالى، أو مع النبي ﷺ، أو في دعوته، أو مع الناس أجمعين، حتى جهادهم فهو سلام لأن به يخرجون الناس إلى السلام.

وبداية هذه العواقب الحسنة تكون عند لقاء الله تعالى، إذ كل الناس سيلاقى الله تعالى كما ذكر ﷻ: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ولكنهم فريقان عند ملاقاة الله تعالى:

الأول: فريق يتلقاهم ربهم والملائكة بالتحية والسلام، والتحية تعني الكلام السار الجميل الذي يُقابِل الله تعالى به المؤمن حين يلقاه فيدخل به عليه السرور والكرامة، ويبين له المودة والمحبة، ويبين له الأمن والسلامة كما قال ﷻ: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ ﴾ فكأن المسلمين المؤمنين الموحدين لهم مقابلة وتحية خاصة عند الله تعالى، فيكون الناس في الضيق والنكد والهم والغم والكرب العظيم، وأهل الإيمان يكون لهم هذه البشارة العظيمة من الله تبارك وتعالى... تحيتهم عند لقاء الله تعالى سلام فيعلمهم أنهم سالمون من كل شر، ومن كل مصيبة تقع للناس يومئذ، فلن يصيبهم مكروه ولا فزع.

والثاني: حاله ما ورد في الآية: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، فالمجرمون يساقون، كأنهم قطيع يعنف ويزجر.. يساق إلى جهنم ليلقوا سوء مصيرهم.

ثم بعد هذا اللقاء لأهل الإيمان: تأخذهم الملائكة إلى الجنة بهذه الحال المفخمة في منازل الآخرة، التي يبينها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣١-٣٤]، فيخرجوا إذن من المحشر العظيم ويكلمهم ربهم ويقررهم بذنوبهم ثم يعفو عنهم ﷻ بفضله وكرمه ليدخلوا الجنة بسلام كما قال: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، والملائكة تسلم عليهم كما قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر الآية: ٧٣]، ويطرق النبي ﷺ باب الجنة ويقول: محمد، فيقول له الملك: «بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» (١) ويأتي المؤمنون ويتقدمهم فقراء المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ ويقول المولى ﷻ في وصف ذلك: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]...

ومثل ذلك قول المولى ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٥] فذكر ﷻ أمنين:

الأول: عند دخولهم الجنة، والثاني: عند أكلهم وشربهم.

فالأمن الأول غير الثاني، ففى الأمن الأول: المقام الذي يقيمون فيه مقام آمن، لا يخرجون منه ولا يموتون فيه، ولا يصيبهم فيه إلا الأمن، أما الأمن الثاني: فعند أكلهم وشربهم لا يصيبهم ما يصيب أهل الدنيا من كثرة الأكل ومن التخمة ومن التعب من الطعام والشراب، وإنما يأكلون ما يشاءون فيها مع الأمن الكامل من أن يتسبب لهم هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٢) ولفظه (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ).

الأكل في أي شيء ينغص عليهم أمنهم... وبهذا قد اجتمع لهم السلام والأمن كله.

ونَتَفَهَّمُ في تحية أهل الجنة التي في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]:

تُرى هل هذه التحية كما هو الحال في الدنيا ؟ فقد ذكرنا أن معنى السلام في تحية أهل الدنيا أن يلقى المرء أخاه فيسلم عليه، يقول له: أنت آمن مني، فلا يأتيك مني شر، ولا يأتيك مني مكروه، ولا يصيبك مني أذى من غيبة أو نميمة أو أكل مال أو بهتان... أما أهل الجنة فليس بينهم ضغن ولا حسد، وكلٌّ آمِن من بعضهم، فكيف تكون تحيتهم سلام كما يقول المولى تبارك وتعالى؟ الجواب كما ذكر أهل العلم أن سلامهم في الآخرة هو الإخبار عن الأمن الذي هم فيه، وشكر لله تبارك وتعالى على هذا الأمن، فكأنهم إذا قالوا: ﴿سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] عندما يلتقي بعضهم ببعض فإنما يلتقون بما يبين سلامهم، ويبين شكرهم على هذا السلام.

لهذا يقول المولى ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فالمولى يسلم عليهم، كما ورد في الأخبار أن الله ﷻ يسلم على أهل الجنة، وما رأوا شيئًا أفضل من أن يحل عليهم رضوانه بعد أن يسلم عليهم، وأن تتنزل عليهم بركاته ﷻ كلما سلم عليهم.

ولهم بعد ذلك ما ذكر المولى ﷻ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] يعني: يدعون الله تبارك وتعالى ويسبحونه في كل ما يتركون ويأتون فهم يتنفسون تسبيح الله تعالى وتنزيهه وتقديسه فإن تقابلوا فتحيتهم السلام، وإن جلسوا فيجلسون ويتسامرون ويتنعمون على أحسن حال كما كانوا يتنعمون في الدنيا مع فارق ضخم فيما يتنعمون به في جوار الله تعالى والنبيين والصديقين، ثم إن تفرقوا ليذهب كُلٌّ

إلى أهله فيكون آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.. شكراً لله تبارك وتعالى على ما هم فيه.

والسلام من المعاني الواردة في صلاة النبي ﷺ، سواء كان في داخلها كما في قوله ﷺ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**»(١)، وبعد أن ينتهي من صلاته يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تبارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(٢) دعاء وثناء وتوحيدًا لله تبارك وتعالى..

وهناك آية نعرج عليها سريعاً وهي قوله ﷻ في حال أهل الجنة: ﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ [مريم: ٦٢]، وهذه الآية تذكر شراب أهل الجنة، فهم لهم خمرهم، التي ليست كخمر أهل الدنيا وصفها الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿**وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا**﴾ [النبأ: ٣١-٣٦] وقوله: ﴿**إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا**﴾ [الواقعة: ٢٦] ﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا**﴾ [النبأ: ٣٥-٣٦]، وقوله: ﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا**﴾ [مريم: ٦٢].

وهذه الآيات من آيات إعجاز القرآن الكريم، ويبين ذلك قوله: ﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا**﴾ [مريم: ٦٢] يعني: حال شرب أهل الجنة لخمرهم لا يكونون على حال أهل الدنيا عندما ينتشون خمرها، فتكون سبباً لذهاب عقلهم وتلفظهم بالألفاظ السيئة والكلام المسيء وتحولهم للأخلاق الرديئة، ولكن في الآية هنا نفى الله تعالى هذه الحال عن أهل الجنة

(١) رواه البخاري (٧٨٨) ومسلم (٦٠٩) وأبو داود (٨٢٥) والترمذي (٢٦٦) والنسائي (١١٥٠) وابن ماجه (٨٨٩).

(٢) رواه مسلم (٩٣١) وأبو داود (١٢٩٢) والنسائي (١٣٢٠) والترمذي (٢٧٥) وابن ماجه (٩١٤).

وعن شربهم فيها، فقال: في كأسهم وفي شربهم وحال اجتماعهم على ذلك، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢] وقد تحتمل هذا المعنى الثاني وهو أي: لا يسمعون في الجنة لغوًا ﴿إِلَّا سَلَـٰمًا﴾.

وهذا هو المعنى الجليل الذي يتصوره المرء، كأنه جالس في المسجد مثلاً، فلا يسمع من أحد كلامًا مسيئًا ولا كلامًا خارجًا عن حدود الأدب والأخلاق ولا غيبة ولا نميمة ولا بهتان، ولا يسمع منهم ما يضايقه ويؤذيه؛ ولكن كل سماعهم في الجنة سلام سلام ، سواء كان بلفظ السلام، أو على معنى أنهم سالمون، كلٌ لا يحس في تنعمه إلا بكونه سالمًا من كل نقص.

أما قوله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ فالسلام هنا بمعنين، الأول: السلامة من كل ما يُكدر، وهو الأمن من كل ما يخافون منه ويحذرون، ويكون سببا لضيقهم ونكدهم وغمهم، كل ذلك انتهى في حقهم وانقلب إلى نعيم وسرور، والثاني: السلام بمعنى التحية والإكرام التي تتلقاهم بها الملائكة.

وقوله تعالى: "طبتم" معناه أنه لا يدخل الجنة إلا الطيبون، إذ الناس ثلاثة أقسام: الطيبون المحض، والخبيثون المحض، ومن جمع بين الطيب وبين الخبث، ولا يدخل الجنة من جمع بين الطيب والخبث، يعني من جاء بعمل صالح وآخر سيئ لا يدخل الجنة حتى ينقى ويهذب من هذا الخبث ليقال له: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ إذ كيف يدخل ولم يطيب بعد، ولم يتخلص من درنه وخبثه، الناتج من عصيانه وخروجه عن أمر الله تعالى وتقصيره وتفريطه؟!

لهذا فإن هذه الآية هي نهاية الخطر لأهل الإيمان، إذ فهموا منها أنهم لن يدخلوا

الجنة إلا بعد أن يكونوا طيبين، فمن أتى الله تعالى بغير القلب السليم لن يدخل الجنة حتى ينقى ويهذب، والناظر في أحوال نفسه لا شك يعلم أن أحواله تقصر به عن أن يقال له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ فوجب على أهل الإيمان المبادرة بالتحقق بالسلامة في جوارحهم وأعمالهم وأقوالهم وصفاتهم وقلوبهم؛ ليكونوا أهلاً لأن يقال لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ثالثًا: اتباع الله والرسول والقرآن سبيل الاهتداء إلى سبل السلام

وتلك السبل التي من سلكها أمن فيها، وسلم فيها من الآفات والمؤذيات كالشهوات والشبهات وقواطع الطريق من نفسه وشيطانه وهواه من المعاصي والمكروهات والرذائل، فإن المرء ما إن يسلك هذه السبل حتى يكون سببًا لتسليم الله له.

وأولى هذه الآيات التي تبين هذه السبل قوله ﷻ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] وأحد التفسيرين في الآية أن النور هو الرسول ﷺ، والتفسير الآخر أن النور هو القرآن الكريم، يعني: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ [المائدة: ١٥] وهو الكتاب المبين، والتفسيران كلاهما صحيح[١].

وفي قوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ قوله "بِهِ" علام يعود الضمير؟!

(١) ذكر القولين في تفسير الآية جمع من المفسرين كابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٨٤) والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١١٨)، وقال بعضهم بل النور هو النبي ﷺ والكتاب المبين هو القرآن وإليه ذهب الطبري (١٠/ ١٤٣) وغيره.

لعوده احتمالان:

أولاً: أن يعود إلى النبي، فيكون المعني: يهدي الله ﷻ بهذا النبي ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

ثانياً: أن يعود الضمير إلى القرآن الكريم في قوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيكون المعنى: يهدي الله ﷻ بالقرآن الكريم.

وذلك كله صحيح؛ لأن الله تبارك وتعالى قد ذكر أن النبي ﷺ يهدي إلى الله تعالى كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] وكذلك القرآن الكريم قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ فيكون عود الضمير في الآية إلى النبي صحيحًا، ويكون عوده إلى القرآن صحيحًا كذلك.

والمعنى المهم الذي نريد الوصول إليه هو السلام في قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يعني: طرق السلامة التي من سار فيها أمن ، والسؤال الذي ينبغي أن نتفكر فيه، لماذا لا يأمن المرء في طريقه؟ ولماذا يتعسر؟ ولماذا يضطرب؟ ولماذا يتأخر؟ ولماذا يتشكك؟ ولماذا يصيبه الملل وضعف العزيمة والهمة، فيسير قليلا ويرجع كثيرًا، ويتذبذب في سيره إلى الله؟ الجواب: لأنه لم يسلم في طريقه، فلو أخذ حظه من هذه السلامة من الله تعالى؛ فإن الله تبارك وتعالى يحفظه، ويذود عنه، ويذُب عنه ﷻ.

لذلك نُتْبِعُها بهذه الآية حتى يزداد هذا المعنى وضوحاً، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] وقد قيلت هذه الآية في معرض محاجة موسى عليه السلام لفرعون، يقول ابن كثير في تفسيره: المعني السلام عليك إن اتبعت الهدى.

وهذا ما نصبوا إليه وهو: متى يكون عليك السلام؟ ومتى يكون عليك الحفظ والكلأة من الله تبارك وتعالى؟ ومتى يثبتك فتستقيم في سيرك؟ الجواب: السلام عليك إن اتبعت الهدى وعلى قدر اتباعك للهدى في الظاهر والباطن يتنزل عليك هذا السلام، واتباع الهدى في اتباع القرآن كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وفي اتباع النبي ﷺ كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فعندما يُسأل هذا السؤال -مرة أخرى- لماذا التردد والتعب والرجوع والتقهقر؟ فالجواب أن ذلك دليل على أن المرء بعيد عن هذه الهدايات التي تكون سببًا لسَلامِه وحفظه من الآفات والمؤذيات من الشهوات والشبهات والمعاصي والصور، والغفلة والبعد عن الله تعالى، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا ونزواتها، ولهذا سببان:

الأول: أن اتباعهم للقرآن الكريم ليس على القدر المطلوب الذي يَصِلُون به إلى السلامة.

الثاني: أن التزامهم بهدي النبي ﷺ وبتعاليمه، ليس بالدرجة التي تبلغهم السلامة؛ فعلى المرء إذن تعلم هديه ﷺ في الظاهر والباطن، لأن المرء إذا لم يتعلم سلوكه وهديه في الظاهر والباطن وأخلاقه وصفاته وعباداته ومعاملاته كيف يهتدي به؟ وكيف يسير وراءه؟ وكيف يكون على الهدى الذي اهتدى ويهدي به ﷺ ؟

رابعًا: الصفات والأخلاق الموصلة للفوز بالسلام

بعد معرفة ما أعده الله لمن تحقق بمعاني السلام في الآخرة، كان لزاماً على المؤمنين أن يتحققوا بتلك المعاني، ولن يستقيم لهم هذا التحقق إلا بالمجاهدة على الصفات والأخلاق الموصلة لذلك.

وأولها: الصبر: سواء كان صبراً على الطاعة، أو صبراً عن المعصية، أو صبراً على البلاء والمحن في هذه الحياة الدنيا، فإن هم صبروا على ذلك جاءوا سالمين يوم القيامة؛ لذلك بينت الآية أنهم لا يقال لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣] فقط، وإنما طِيبَتُهُم جاءت نتيجة صبرهم؛ لذلك يُقال لهم عندما يدخلون الجنة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

فلزم أن يكون المؤمن متخلقاً بالصبر لأنه طريقه أنه طريقه إلى التحقق بمعاني السلام؛ فيصبح طيبًا يستحق أن يدخل الجنة، هذا الصبر -للأسف- لا يتصف به أهل الإيمان اليوم، فهم لا يجاهدون أنفسهم في تصبيرها على طاعة الله ﷻ ومجاهدتها عليها حتى تطهر قلوبهم وتنقي خبثهم، وتخرج أدرانهم وعصيانهم وخروجهم عن أمر الله تعالى، وفي نفس الوقت لا يصبرون عن المعاصي والسيئات، ولا يجاهدون أنفسهم على البعد عن المكروهات والمحرمات؛ فقد يكون هذا الخبث سبب عدم دخولهم الجنة. حتى ينقوا ويهذبوا في النار -إلا بمشيئة الله تعالى-.

لذلك يقال لهؤلاء الصابرين الذين صَبَّرُوا أنفسهم على الطاعة وصبروها عن المعصية، وجاهدوها وتحملوا المشقة في سبيل الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

وإذا كان الصبر من صفات هؤلاء المؤمنين ليكون لهم السلام في الآخرة، فهؤلاء المؤمنون لهم صفة أخرى وهي أنهم كانوا خائفين في الدنيا، فيقال لهم حينئذ: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر: ٤٥-٤٦]، والسلام هنا معناه الأمن ومع ذلك أكَّده بقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] وهذا التأكيد له توجيهان:

الأول: إما أن يكون تأكيدًا للمعنى، فيكون: ادخلوها بسلام، هذا السلام لا خوف فيه، ولا تردد فيه، وإنما الأمن الدائم.

الثاني: أن يكون بمعني: يأمنون بعد أن يدخلوها بسلام، فيأمنون فيها من كل شر في أكلهم وشربهم ومجالسهم وحياتهم، وصحتهم وولدهم ونعيمهم وسرورهم.

ثانيها: **السلام مع الوالدين -مع الأب بالذات-** وقد ذكره الله في قوله ﷻ: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] حكاية عن إبراهيم عليه السلام..

ثالثها: **التعامل بهذا السلام مع الناس سواء من كان منهم مؤمنًا أو عاصيًا أو كافرًا** كما جاء فى قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]..

وكذلك قوله ﷻ: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ﴾ [الزخرف: ٨٩] ..

وقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وتلك الآيات تحتاج لوقفة طويلة بعض الشيء، وإن كانت إجمالية لأهمية تلك الوقفة للمؤمنين المتقين، للصعوبة الشديدة على النفس للتخلق بهذا الخلق، لكونه من أهم مداخل الشيطان على المرء.

أولى هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، والجاهل فى الآية تعني السفيه وليس المقصود منها قليل العلم، قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى(١): وإذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرًا.اهـ. وكان ذلك حال رسول الله -صلى الله عليه وآله

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٥).

وسلم- لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا "[1]، وذلك على خلاف صفاتنا وأخلاقنا اليوم، فيقول القائلون: اتق غضب الحليم؛ وأَحْلَمُ مَنْ خَلَقَ الله تعالى نبينا ﷺ كان على عكس ذلك تماماً، إذ كان لا يزيده جهل الجاهل وسفه السفيه وتطاول المتطاول إلا حلمًا ﷺ، فلم يغضب لنفسه قط، ولكن يغضب عندما تنتهك حرمات الله تبارك وتعالى فلا يقوم لغضبه شيء -صلوات الله وسلامه عليه- ولم نسمع عنه ﷺ مع شدة الأذى إلا السداد والرد بالحسنى، وأن يقابل السيئة بالحسنة، وتلك هي صفته ﷺ في التوراة والإنجيل، وورد عنه في القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكان ذلك منه ﷺ امتثالا لقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] يعني: ادفع السيئة بالتي هي أحسن، وكان السياق المتوقع للآية: ادفع السيئة بالحسنة، ولكن الله تعالى قال: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦][2]؛ أي بأحسن الحسن.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٢٢٢) حديث (٥١٥٤)، وأورده ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١/ ٥٥٦) وقال: رجال الإسناد موثقون، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٢) وقال رواه الطبراني ورجاله ثقات، ولفظ موضع الشاهد منه (إن الله ﷻ لما أراد هدى زيد بن سعنة، قال زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين، لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات...).

(٢) قال الزمخشري (٥/ ٢١٦): "يعني : أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ الحسنة التي هي أحسن من أختها - إذا اعترضتك حسنتان - فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك . ومثال ذلك : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه." وقال ابن كثير (١٤/ ٤٤٠): " أَيْ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْك فَادْفَعْهُ عَنْك بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ عُمَر رَضِيَ اللهَّ عَنْهُ : مَا عَاقَبْت مَنْ عَصَى اللهَّ فِيك بِمِثْلِ أَنْ تُطِيع اللهَّ فِيهِ."

وقد ذكرنا من قصصه ﷺ في ذلك الكثير، ففي حديث أنس ﷺ قال: «**كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ**»[1].

وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣] إن الجاهلين في هذه الآية هم المشركون، وسمَّاهم الجاهلين لأنه أسوأ صفاتهم، ولكن العبرة في الآية بعموم اللفظ يعني: خاطبهم المسلم، خاطبهم الكافر، خاطبهم السفيه ﴿ **قَالُواْ سَلَـٰمًا** ﴾ على هذا المعنى الذي ذكر الله تعالى.

و﴿ **قَالُواْ سَلَـٰمًا** ﴾ لها معنيان:

الأول: يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرًا. اهـ.

الثاني: ترك الرد والمسالمة مع عدم العتاب أو السب، وهذا معنى السلام، فكأنهم يقولون: شكرًا، قولوا ما شئتم فلن أرد السيئة بالسيئة.

وهذه مسألة مطلوبة من المؤمنين المتقين؛ ليسلموا في الآخرة بأخلاق عباد الرحمن ﷻ، وإلا نقص حظهم في الآخرة من هذا السلام الذي قد ذكرنا عواقبه في بداية الآيات المتعلقة بالحشر والجنة والحساب عند الله تعالى.

لذلك قال ابن كثير رحمه الله تعالى في توضيح تلك الحال من أحوال الصحابة: روى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن النعمان بن مُقَرِّن قال: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلاً عِنْدَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:**

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٦) ومسلم (١٧٤٩).

أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنكَ، كُلَّمَا يَشْتُمُكَ هَذَا قَالَ لَهُ بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ عَلَيْكَ السَّلَامُ قَالَ لَا بَلْ لَكَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ»[1]، ومعنى ملكا بينكما يذب عنك: يدافع عنك، فكلما شتمك وقال لك يا كذا، فإن الملك يقول له: بل أنت، وأنت أحق بهذا الوصف، ومعنى قوله ﷺ: وإذا قلت له: عليك السلام قال الملك: لا بل عليك وأنت أحق به أى لا. ليس عليه السلام، بل عليك أنت، وأنت أحق بهذا السلام؛ **ويجب أن يُحْفَظَ هذا الحديث.**

وقد ورد أن رجلاً كان يسب أبا بكر ﷺ وهو لا يرد والنبي ﷺ بينهما؛ وفي نهاية القول قال أبو بكر للرجل: أنت؛ فانصرف النبي ﷺ فقال له أبو بكر: بأبي أنت وأمي... قال ﷺ: إن الله تعالى قيض لك ملكًا يدافع عنك؛ حتى إذا دافعت عن نفسك انصرف الملك؛ فانصرف النبي ﷺ.[2]

ثاني هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ**﴾ [الزخرف: ٨٩]، وهي للكفرة، وذكر الإمام ابن كثير هنا أن قوله: ﴿**فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ**﴾ يعني: فاعف عنهم وتألفهم وقل لهم قولاً طيباً يتألف قلوبهم؛ وقال بعض المفسرين: ﴿**فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ**﴾ أن الصفح هنا بمعنى

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٦٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٧٨) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٥١) وسكت عنه، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٨٤) مرسل، وحسنه الشيخ ناصر الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٨٩٦) ولفظه (عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ فَآذَاهُ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَةَ فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةَ فَانْتَصَرَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ انْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَجَدْتَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَرْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ وَقَعَ الشَّيْطَانُ).

الإعراض، أي :اتركهم وقل لهم: سلام، فلا تجبهم بمثل ما يخاطبونك به من كلام سيئ، ولكن قل: سلمنا من المجادلة وتركناكم.

وهذه مسألة مطلوبة من أهل الإيمان، وهي إذا جادلك أحد فقل له: سلام، سلام، يعني: سلمنا من مجادلتنا لكم، ومن شقاقنا إياكم، ومن شتمنا لكم ، بل العفو والصفح أقرب، تركناكم وأعرضنا عنكم وقلنا: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾.

وثالث هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] وهي آية في غاية الحكمة فكأنه يقول: نحن على العلم والأخلاق الحميدة التي أمر بها النبي ﷺ وأمر بها ربنا تبارك وتعالى، وليس بيننا وبينكم إلا السلام ، والسلام هنا يكون بمعنى المتاركة وترك المجادلة والمشاتمة، أو بمعنى أنه لا يصدر منا إلا العفو والصفح، فلا نتلفظ إلا بالكلام السديد الطيب، ولا يخرج منا إليكم شيء غير السلام.

النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، كان قولهم: ﴿ **سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ** ﴾ وتلك هي الأخلاق العالية التي ذكر الله تعالى، وصدرت عن النبي ﷺ فتخلق بها أصحابه ﷺ، فلما تخلقوا بها في الدنيا كانت عاقبتهم في الآخرة هذا السلام الذي ذكرنا في دخولهم قبورهم، وفي خروجهم من المحشر، وفي لقائهم لله تعالى، إلى آخر ما ذكر الله تعالى في عاقبة أهل السلام الذي أشارت إليه الآيات الكريمة.

خامسًا: سلام الله سبحانه وتعالى على رسله وعباده الصالحين

القارئ لكتاب الله تعالى يتجلى له كثرة ذكر السلام على الرسل وأتباعهم، ويرى أنهم كانوا هم وأتباعهم في محل السلام من الله جل وعلا، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **قِيلَ**

﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود: ٤٨]، وإبراهيم: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ [هود: ٦٩]، وأيضًا: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ويحيى ﷺ: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥] وعيسى ﷺ: ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣] وقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠] ثم جمعهم فقال: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨١]، وللسلام من الله عليهم سببان:

الأول: أن هؤلاء المرسلين قد وصفوا ربهم ﷻ بكل وصف سالم من النقائص.

الثاني: أنهم قد بذلوا ما يستحقون عليه السلام من الله تعالى، فكان السلام جزاء بذلهم وإحسانهم في هذه الحياة الدنيا، كما أشرنا في قوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ٨٠]، والدليل على ذلك أن كل هذه الآيات قد أتت في سياق القصص الذي بَيَّنَ بذلهم وتضحيتهم، وبَيَّنَ كذلك ثباتهم على دعوتهم وتحملهم، وصبرهم على الأذى؛ حتى جاءهم نصر الله تعالى.

وفي النهاية، فقد أمر الله تعالى بالسلام على عباده بقوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] وهم المرسلون وغيرهم من أهل الإيمان المصطفون؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣٢]، "فالذين اصطفى" يدخل فيها أهل الإيمان الذين اصطفاهم الله تبارك وتعالى، لأن هؤلاء قد سلموا من الآفات والعيوب والنقائص في أخلاقهم وجوارحهم وقلوبهم، وسلموا في دعوتهم لله تبارك وتعالى وفي ثباتهم عليها وتحملهم وبذلهم وتبليغهم هذه الدعوة سالمة كما هي لخلق الله تبارك وتعالى،

وسلموا كذلك في توحيدهم لربهم ﷻ، وذكروه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا فكان ذلك سببا لسلام الله عليهم.

ونشير إلى معاني بعض تلك الآيات:

ونبدأ بقوله ﷻ: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥]، لشمول الإسلام لكل الأحوال، قال المفسرون فيما ذكره سفيان بن عيينة: أَوْحَشُ ما يكون على المرء هذه المواضع الثلاثة.اهـ يعني: أن هذه الأوقات أكثر المواضع التي يستشعر المرء فيها الوحشة: يوم يخرج من مكانه في بطن أمه إلى دنيا لا يعرفها، ويوم يموت فيقابل ناساً لا يعرفهم، ويوم يخرج من قبره إلى المحشر العظيم، فهذه أصعب الأوقات وأوحشها على قلب المرء، فانظر كيف كانت عناية الله تعالى بيحيى بن زكريا وكذلك لعيسى عليهم السلام، وانظر إلى هذه الوحشة يوم يخرج الناس من قبورهم في هَمٍّ وكرب ومحن وآلام شديدة، إذ بالمؤمنين يومها في هذا السلام الذي ذكر الله تبارك وتعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾، فيكون ذلك جزاء المرء الذي أخذ بحظه من اسم الله تعالى السلام، سَلَّمَه الله تعالى في هذه المواضع التي يخاف فيها الناس، فلا يفزع حين يفزع الناس، ولا يصيبه خوفهم وحزنهم، ويكون أول شيء يلقاه يوم يخرج إلى الله تبارك وتعالى هو السلام كما قال ﷻ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

والقارئ للآيات يلاحظ الفارق بين قوله ﷻ في يحيى عليه السلام: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥] وقوله في عيسى عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣]، إذ في عيسى عليه السلام جاءت لفظة السلام بالتعريف وهذا

اسم جنس، أي المراد كل السلام، فيكون المعني: كل سلام يمكن أن يكون فهو عليَّ، وهذا من الله تعالى، ويبين هذا فضل عيسى على يحيى عليهما السلام، وهو -كما أشرنا- يحمل معنى التحية والإكرام والسلامة من الآفات والنقص، والسلامة في دينه ودنياه، والسلامة في قلبه وعمله، والسلامة في جوارحه وأخلاقه، و السلامة منه لغيره، والسلامة كذلك عليه من غيره.

ولماذا يوم ولد؟ الجواب: لأن اليهود قد رموا أمه -عليهما السلام- ببهتان عظيم، كما قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦] ولماذا يوم يموت؟ الجواب: لأنهم قالوا صُلِب. وما صُلِب، ويوم يبعث حيا: لأنهم قالوا قد كفر بالتوارة فسيحشر مع الكفرة والملاحدة فكأن الآيات رد من الله ﷻ لكلام اليهود لعنهم الله تعالى؛ فإن قالوا قد ولد بغير رشد، ومات مصلوباً ويحشر مع الكفرة قال الله تعالى: لا وإنما السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا.

ننتقل إلى هذه الآية في الرسل أيضًا، وهي قوله ﷻ في إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ [هود: ٦٩] وكان السياق المتوقع للآية "ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلامًا قال سلامًا" ولكن الآية خالفت بين سلام إبراهيم وسلام الملائكة، فسلام إبراهيم ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ ، وسلام الملائكة: ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ بالتنوين، فسلام الملائكة مفعول مطلق للفعل، فيكون تقدير كلام الملائكة: إذ دخلوا عليه فقالوا سَلَّمنا سلامًا ، أما سلام إبراهيم، وهوالمرفوع، فهو خبر لمبتدأ محذوف، فيكون تقدير كلام إبراهيم: أمري سلام لكم، فعبر عنه بالمصدر، والمصدر يتناسب فيه معنى الفعل، كأنه يقول: كلي لكم سلام؛ لذلك قال: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

ليس سلاما فقط، ولكن تحية وإكراماً وضيافة، فمختصر ذلك أن سلام إبراهيم أفضل من سلام الملائكة.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ [النساء: ٨٦] وإبراهيم عليه السلام قد تأدب بتأديب الله له، فلما سلموا عليه هذا السلام، سلَّم عليهم بأفضل منه، وجمعت اللغة العربية هذه اللفظة الكريمة الموجزة لتبين رد إبراهيم الذي رده عليهم بلغتهم، فاختصرتها العربية إلى قوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾.

الفصل الثالث

التفسير التفصيلي لبعض آيات « السلام »

في هذا الفصل نتوسع قليلاً في تفسير بعض الآيات الواردة في السلام ونشير إلى معاني الجزاء الحسن من الله تعالى لهؤلاء الأبرار الذين تحققوا بالسلام وتنزلت عليهم رحمة الله تعالى وبركاته، حتى يأخذ كل أحد بحظه من ذلك عسى أن ينال تلك العاقبة.

١. جزاء المبادرة بالإيمان والتصديق والصبر على الأذى

نبدأ بتفسير آية الأنعام ونشير فيها إلى ما يتعلق بمعنى السلام، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

نهى الله تبارك وتعالى النبي ﷺ أن يطرد المؤمنين الفقراء، كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]..

فقد كان الرسول ﷺ من خوفه على أمته ومن حرصه على إيمانهم، كان يدعو أشراف مكة إلى أن يؤمنوا بالله تعالى؛ فجاء أشراف مكة فرأوا حول النبي ﷺ عبيدهم وفقراءهم بلالاً وصهيبًا وخبابًا وغيرهم من فقراء المسلمين فقالوا: اطرد هؤلاء عنك لنجلس إليك[1].

وهذه المسألة من اجتهاد النبي في دعوة الناس ﷺ إلى الإسلام خاصة هؤلاء الذين إن أسلموا أسلم بإسلامهم ناس كثيرون، وشقت الدعوة طريقها إلى الله، ولكن الله

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٣) ولفظه (عَنْ سَعْدٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ {وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}).

تعالى لا يريد ذلك، لا تطرد الفقراء لأجل الأغنياء أن يجلسوا ويسمعوا ويؤمنوا حتى ولو كان في ذلك إيمانهم ولكن كما قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨-٢٩] ، هذا مراد الله تعالى وذلك مراد النبي ﷺ فنزل الوحي ليبين مراد الله تعالى، وإن كان مراد النبي ﷺ صحيحًا - وهو صحيح ولاشك - إنما ليس ذلك مراد الله تعالى.

ثم ذكر المولى جل وعلا هذا المعنى المهم، لتعلم قيمة هؤلاء المؤمنين الذين كان المولى سبحانه وتعالى يعتني بهم هذه العناية فى قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ﴾، الأصل أن يكون الداخل هو الذي يسلم، فلما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبدأهم هو بالسلام، بشارة لهم وتكرمة لهم، ورفعة لشأنهم ، قال بعض أهل العلم : إن الآية تحتمل التكرار في هذه البشارة، يعني: كلما دخلوا عليه ابتدأهم هو ﷺ بالسلام وقال البعض: في هذه المرة فقط لوقوع تلك الحادثة.

والتكرمة العظيمة لهم أن هذا السلام من ربهم سبحانه وتعالى فيكون إبلاغهم به بشارة عظيمة لهم بإعلامهم أن عليهم السلام والأمن من الله تعالى وأنه الله تعالى قد غفر لهم بإيمانهم واتباعهم النبي ﷺ، وإن عملوا سوءًا وتابوا غفر الله لهم:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] ..

وذلك لا يمنع -كما يقول المفسرون- أن تكون هذه الآية عامة لكل أحد: ﴿تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] ، ولكنها لَمَّا نزلت فيهم تكرمة لهم كانوا هم

ميموني النقيبة لمن بعدهم، وهم البادئين بهذا الخير لأهل الإيمان من بعدهم، فكأن تقديمهم لأخذ هذا الخير فاتحة البركة والخير على أهل الإيمان الذين من بعدهم.

وهناك معنى آخر في قوله ﷻ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ هو أنهم آمنون من أن يطردهم النبي ﷺ، أو أن يسيء إليهم، أو أن يكون قول المشركين فيهم صحيحًا، ويؤيد ذلك ما جاء في الخبر أن أبا سفيان بن حرب مَرَّ في أشراف من قريش على ضعفاء المسلمين، بلال وخباب ، فقالوا: إن سيوف الله لم تأخذ من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر ﷺ: أتقولون ذلك لشيخ قريش وسيدهم؟ ثم أتى النبي ﷺ فأخبره؛ فقال له النبي ﷺ : « لعلك أغضبتهم يا أبا بكر؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فرجع إليهم أبو بكر قال: إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا ، يغفر الله لك يا أخي»[1] .

نقول ذلك لنبين جزاء ذلك الإيمان والتصديق والصبر والتحمل في الله تعالى والبذل وترك الأهل والمال والولد الذي ينتظر به أن يكون هؤلاء المؤمنون على هذه الحال من انتظار سلام الله تعالى عليهم، وأن يبدأهم النبي ﷺ بالسلام، وأن يخشى أبو بكر نفسه -رضي الله عنه- أن يكون قد أغضبهم.

٢. جزاء التلطف والتعطف مع الوالدين

الآية التالية هي قول إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٠٤) ولفظه (عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ؟ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ. فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي).

بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧] وقد أشرنا في الفصل السابق أن المرء ينبغي أن يكون سلامًا مع الناس أجمعين، كافرهم ومؤمنهم وعاصيهم ومتقيهم، فكان من باب أولى أن يكون سلامًا مع أبيه كذلك، وإذا كانت الآية قد جاءت في السلام مع الأب فينبغي للمرء أيضا أن يتحقق بهذا السلام مع أمه وإخوته ومع أهل الإيمان.

وبداية الآيات قول إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٣-٤٧].

فبعد أن توعده أبوه وهدده بالرجم والإبعاد والطرد لم يكن من إبراهيم –على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام– إلا أن قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ ﴾ و"عليك" كما يقول أهل اللغة للتمكن المجازي، فكأن السلام متمكن منه فكأنه يقول: لك سلام مني متمكن يحيط بك من فوقك، وهذا السلام مني مع توعدك لي، فلا يصيبك مني أذى، ولا ينالك مني مكروه، ولا تنتظر مني ما يضايقك ويحزنك.

وهذا درس لأهل الإيمان يتعلمونه وهو أنه مهما فعل به أبوه وأمه وإن كانا على الكفر والشرك لا يخرج منه إليهم إلا السلام، فما بالك لو كانوا كحالنا اليوم على الإسلام والإيمان ويخافون على ولدهم، ويحبون له الخير؟ فالأولى بك إذن أن تكون سلامًا معهم أكثر من سلامك مع الكافر إن كان لك أبًا أو أمًّا، أو كان بعيدًا لا علاقة لك به، كما رأينا من إبراهيم عليه السلام فى مخاطبته أباه بهذه الآيات التي ملؤها العطف والتلطف والتحنن والتقرب إليه بأنواع القُرَبِ اللطيفة التي تأخذ بقلبه إلى الإيمان؛ ونلاحظ أن كل الآيات

بدأت بقوله: يا أبت، لتدل على هذا التعطف والتحنن، وفي نفس الوقت لتدل على المناقشة المؤدبة مع أبيه حتى في تقرير بطلان هذا الباطل.

قال إبراهيم ﷺ كما جاء في الآيات: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ ﴾ وأهل العلم يسمونها التقرير العقلي، يعني لا يدخل في العقل أن تعبد من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، ثم قال ﷺ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ ﴾ .. فلم يقل له: يا أبت إنك لا تعلم شيئاً فيجب عليك اتباعي؛ ولكن قال ﷺ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ .. ومدلول العلم عند العقلاء أن العالم إن كان صغيرًا أو كبيرًا ينبغي للجاهل أو للذي لا يعلم أن يتبعه، وألا يكون السن مانعًا من الاتباع؛ لذلك قال: ﴿ قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ حتى لا يتكبر عليه بإضافة العلم الذي قد حصله إليه وهو علم النبوة العالي.

ونشير هنا إلى مهمات جليلة:

الأولى: أنه ﷺ أحسن لأبيه القول، فلم يتكبر عليه، ولم يشر إليه بأنه لا يدري قيمة العلم والإيمان والنبوة؛ وقال متواضعًا: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ شيء من العلم ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ مع أنه قد حاز العلم المتعلق بالنبوة كله في حينه ﷺ فلم يكن في زمانه أحد أعلم منه، ومع ذلك يقول له هذا حتى يكون أقرب إلى الاستجابة وأقرب إلى فتح قلبه وصدره والتحنن إليه.

والثاني: أنه لما قال له أبوه: ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٦] .. يعني إن لم تنته عن موعظتك وإبلاغك لدين الله وعن رسالتك وعن إيصالك العلم النافع إلى الناس، لأرجمنك، واهجرني ملياً يعني: زمنا طويلاً، ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ ﴾ يعني: أتركك

بسلام، فلم يتركه بسوء الأدب، أو بالمضايقة والشدة عليه، سلام التوديع والمتاركة، أو السلام بمعنى ترك الأذى ويحتمل كذلك أن يكون السلام بمعني الدعاء له بالسلامة مما هو فيه من الكفر والشرك، بدليل أنه قال له بعد ذلك: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ فهو ما زال مصرًّا على هدايته بكل السبل والطرق، بأن يدعو الله تعالى أن يهديه، وأن يخرجه من الظلمات إلى النور، وأن يأخذ بيده إلى طريق الإيمان والتوحيد لله تعالى فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

فالسلام هنا يشتمل على ثلاثة معان:

الأول: سلام التوديع والمتاركة.

الثاني: بمعنى أنت سالم مني لا يصلك مني أذى، ولا يصلك مني ما يضايقك، ولا يبلغك مني ما تكره أبدًا.

الثالث: الدعاء له بالسلامة، وهذا طريق أهل الإيمان مع آبائهم وأمهاتهم على سبيل دعوتهم والتحنن إليهم والتلطف بهم لأخذهم إلى طريق الله تعالى، وشرح صدروهم للإيمان وقضايا الدين.

ترى بعد ذلك السلام من إبراهيم عليه السلام، ماذا كانت العاقبة؟ كانت له العقبى في الأولى والآخرة، في الأولى هي: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فلما كان سلامًا كان جزاؤه السلام في الأولى، وفي الآخرة : ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] .. وهو الوحيد الذي قيل ذلك فيه صراحة، وإن كان النبي ﷺ أعلى درجة منه فهو سيد الأنبياء، ولكن الله تبارك وتعالى ذكر ذلك عنه فقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لالتصاق ما هو فيه من أحداث به عليه السلام.

فهذه هي الأخلاق التي يرجو بها المرء السلامة في الآخرة، وعلى أهل الإيمان أن يتحققوا بمراد الله تعالى منهم، فيأخذوا بحظهم من أسمائه الحسنى ﷻ وصفاته العليا، ويتركوا التكاسل والتواني في تحقيق تلك المعاني التي تقربهم إلى ربهم ﷻ، والتي تحسن أخلاقهم وأعمالهم وجوارحهم وقلوبهم؛ فيصيروا خلقًا جديدًا مع الله تعالى، عندها ينتظرون ذلك الجزاء الذي آتاه الله إبراهيم عليه السلام في أُولاهم وأخراهم.

٣. جزاء القيام بالدعوة إلى الله وتحمل مشاقها

نختم بهذه الآيات التي تبين المعاني العظيمة في قصة نوح عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٧٩] وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ملخصها: تركنا له ثناء حسنًا في الآخرين؛ وقوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ فقد جاءت فقط مع نوح عليه السلام، فليس هناك آية فيها – مثلا- سلام على إبراهيم في العالمين، ولا سلام على موسى في العالمين، وذلك لأن كل العالمين من ذرية نوح، وأنه كان يذكر في العالمين كلهم ذكر صدق وذكر خير، وأن الله تعالى قد وضع له الثناء، فلم يذكره البشر من يهود ولا نصارى إلا بخير، ، حتى العرب في أشعارهم القديمة الجاهلية يقولون:

فألفيت الأمانة لم تخنها .. كذلك كان نوح لا يخون

ونعود لمعنى السلام في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ فالسلام هنا بمعنى التحية والإكرام، وكلمة "سلامٌ" في الآية منونة، وهذا التنوين يسمى في العربية تنوين التعظيم فيكون المعني: تحية وإكرام جميلان عظيمان لنوح عليه السلام.

والسؤال: هل المقصود في الآية الإخبار بالتحية والسلام لنوح؟ لا، المقصود ليس

ذلك فقط وإنما المقصود أيضا بيان ما يلزم تلك التحية وذلك الإكرام والثناء الحسن من الله تعالى، ويلزم من ذلك وينبني عليه: الرضا والتقريب من الله تعالى، وحسن صلة الله تعالى به، ويدل على ذلك ماجاء في بقية الآيات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ٧٨-٨١]، والمعني: كجزاء نوح نجزي المحسنين، إذ إن جزاء نوح قد وضع في القمة التي بمثلها يجزى غيره من المحسنين؛ زيادة في إكرامه، وزيادة في حسن الثناء عليه، وزيادة في رفع قدره ومنزلته ﷺ، فكأن المعنى: كل محسن إذا أردنا أن نجزيه الجزاء الحسن الجميل نجزيه جزاء نوح ﷺ، ولكن لماذا؟ لأن الجزاء هنا مترتب على الإحسان ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان من نوح ﷺ هو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ﷻ، فهو قد تحقق بالدرجة العليا من درجات عبادة الرب؛ لذلك يقول أهل العلم: كيف لا يكون محسنًا وقد قضى عمره ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ يدعو إلى الله تعالى، وتحمل فيها ما تحمل في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

وهي المسألة المهمة في هذا السياق، فإذا قلنا: لماذا ذكر الله ﷻ تنويهه وتشريفه لنوح إلى هذه الدرجة؟ فالجواب: لوصوله لتلك الدرجة العالية من الإحسان، بأن بذل وقته وجهده وتحمل في سبيل الله ﷻ : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ لا يتزحزح فيها عن دعوته، ولا يتأخر عنها، ولا يتساهل فيها، ولا يكسل عنها لدرجة أنه قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ ﴾ [نوح: ٥-٩].. والمعنى من قوله ليلاً ونهارًا وجهرًا وإسرارًا، أنه كلما وجد فرصة تسمح له بذلك لم يقصر أن يدعو فيها إلى الله

تعالى، فإذا توسم قبول الناس عند هدوء الليل وصفاء الفكر وبُعد الناس عن الرقباء دعاهم ليلاً، وإذا وجدهم في مجتمعاتهم متهيئين لسماع قبول دعوة الحق دعاهم نهارًا، وكذلك دعاهم فرادى ودعاهم جماعات، فكأن المعنى: شملت دعوته ﷺ الناس جميعا، أفرادًا وجماعات ظاهرًا وباطنًا سرًّا وعلانية، ليلاً ونهارًا، فكان جزاء الله تعالى له أن ذكره بالسلام، وأعلى شأنه في الأولى والآخرة لإحسانه وثباته على دعوته، ولأنه لم يتوان ولم يدخر جهدًا ولا وقتًا ولا ليلاً ولا نهارًا في سبيل ذلك؛ فكان جزاؤه هذا الجزاء.

نستكمل آيات الجزاء الحسن في قوله ﷻ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨] والهبوط يعني النزول، والمقصود هنا النزول من السفينة، وقوله "بسلام"، المراد بالسلام التحية ويخاطب به عند الوداع أيضا كما يخاطب به عند اللقاء، ومعناه في لغة العرب ومعاملاتهم: انصرف بسلام، فيكون المعني في قوله: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ اهبط مصحوبا بالسلام، فالباء هنا للمصاحبة، فكأنه كان في ضيافة الله وكفالتة وضمانه ﷻ، حتى إذا أوصله المولى سالمًا إلى مكانه قال: انصرف بسلام، وذلك دليل قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٣] فَحَمله على الألواح والدسر التي كانت تحت عين الله تعالى، تدل على أنه كان في رعاية الله وفي أمانه حتى أوصله آمنًا بعد أن أغرق الكفرة والمشركين وهبط ﷺ سالمًا بسفينته ومن معه من المؤمنين.

وبعد توديعه بسلام قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ يعني: خيرات متزايدة نامية، وهذه عاقبة أهل الإيمان في كل زمان، أن الله تبارك وتعالى يهلك الكفرة وينجى المؤمنين، فيكلئهم بعينه ويحملهم في ضيافته حتى ينجيهم، ثم بعد ذلك يسلمهم ليستكملوا رحلة الإيمان والدعوة إلى الله تعالى مصحوبين فيها بالخيرات المتزايدة منه جل وعلا.

وانظر إلى التركيب القرآني الجميل في الآية: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ وكان يمكن أن يكون السياق: قيل يا نوح اهبط بسلام وبركات، لكنه لما قال: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ كان فيه إضافة السلام لله ﷻ وذلك يدل على أن هذه زيادة إكرام من الله تعالى لنوح وزيادة صلة الله تبارك وتعالى له، وزيادة تشريف الله تعالى إياه ورفع درجته، فعلى قدر المُسَلِّم ﷻ، على قدر تعظيم هذا السلام، وعلى قدر قيمته.

ونحن نوضح قليلا في هذا القصص القرآني؛ لأن الله تعالى يسوقه تثبيتًا وتصبيرًا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما قال المولى ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]، وكذلك ليكون فيه العبرة لأهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].. فيأتي هذا القصص ليكون شاحنًا لقلوب المؤمنين، وحثاً لهم على الوفاء والبذل والاستمرار، وعلى عدم النكوص والتشكك والتردد والرجوع لأن المرء قد يخشى في الدنيا أن تحدث له المصائب والعلل، فيأتي هذا القصص القرآني، ليثبت قلبه، ويثبت قدمه على الطريق، ويدفعه إلى مزيد البذل والجهد وإلى مزيد التضحية والفداء، وهو يعلم أن الله تعالى سيثبته وسيعينه وسيقويه وسينصره، و سينجيه كما نجَّى المؤمنين من قبل، لأن المرء في أحوالنا اليوم إذا حدث له شيء يئس سريعا، ونسى أن الله تعالى يجعل سلامه على هؤلاء الذين اصطفاهم، كما قال: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩]، فعلى المؤمن إن أصابه شيء أن يحسن الظن بربه ولا ينتظر إلا أن يأتيه السلام من الله تعالى في نفسه وأهله وولده، وأن العاقبة ستكون له، مهما بدا من غيوم وضباب،

ومهما بدا من سواد حالك في هذه الحياة الدنيا إلا أن العاقبة كما ذكر الله تعالى في نهاية هذه القصة: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، فلن تكون دعوته إلى الله تعالى أبدا سبباً لهلاكه، بل على خلاف ذلك سوف تكون العاقبة له، وسلام الله تعالى يصحبه، وكذلك كفالته وضمانه وضيافته، وكل ذلك لَمَّا تحقق بمعانى السلام، ولما قام بالدعوة والإخلاص والثبات والبذل، فكان في سلام الله تعالى في الأولى والآخرة.

فهرس

	الصفحة
۞ تقديم	١
۞ القسم الأول: اسم الله «الرفيق»	٥
♦ مقدمة	٧
♦ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «الرفيق»	٩
♦ الفصل الثانى: الرفق	٢٣
۞ القسم الثانى: اسم الله «الودود»	٤١
♦ مقدمة	٤٣
♦ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «الودود»	٤٥
♦ الفصل الثانى: حظ العبد من اسم الله تعالى «الودود»	٥٧
۞ القسم الثالث: اسم الله «اللطيف»	٨١
♦ مقدمة	٨٣
♦ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «اللطيف»	٨٥
♦ الفصل الثانى: لطف الله تعالى	٩٣
♦ الفصل الثالث: الآيات الواردة فى معانى اسم الله تعالى «اللطيف»	١٠١

۞ القسم الرابع: اسم الله «القدوس» ١٢٣

◆ مقدمـــة ١٢٥

◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «القدوس» ١٢٧

◆ الفصل الثانى: حظ العبد من اسم الله تعالى «القدوس» ١٤١

۞ القسم الخامس: اسم الله «الوكيل» ١٥٩

◆ مقدمـــة ١٦١

◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «الوكيل» ١٦٣

◆ الفصل الثانى: الآيات الواردة فى معانى اسم الله تعالى «الوكيل» ١٨٩

۞ القسم السادس: أسماء الله «الملك والمالك والمليك» ٢٧٥

◆ مقدمـــة ٢٧٧

◆ الفصل الأول: معانى أسماء الله تعالى « الملك والمالك والمليك » ٢٧٩

◆ الفصل الثانى: ملك الله تعالى ٢٨٩

◆ الفصل الثالث: نظرة إجمالية فى الآيات الواردة فى معانى أسماء الله تعالى « الملك والمالك والمليك » ٣١٧

◆ الفصل الرابع: الشرح التفصيلى لبعض الآيات الواردة فى معانى أسماء الله تعالى « الملك والمالك والمليك » ٣٤١

۞ القسم السابع: اسم الله «السلام» ٣٦٣

◆ مقدمـــة ٣٦٥

◆ الفصل الأول: معانى اسم الله تعالى «السلام» ٣٦٧

◆ الفصل الثانى: التفسير الإجمالى للآيات الواردة فى معانى اسم الله «السلام» ٣٨٧

◆ الفصل الثالث: التفسير التفصيلى لبعض الآيات الواردة فى معانى اسم الله «السلام» ٤٠٩

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٤٩٠٩م